كلمة الوزارة

عصام خليل

وزير الثقافة

إنقاذ المستقبل

لا .. لم نتعلم من أخطائنا!!

مئة عامٍ مرّت على جريمة إعدام الثوار من قبل «العثمانيّ»، وما زال بعضنا يراهن على دور للعثماني في بناء الحياة!!

وثائق الحياة الحاسمة، تؤكد أنّ العثماني كان. عبر التاريخ. مدمّراً للحياة، وفي كل البلدان التي تواجد فيها، نشر الخراب والرعب، والتخلّف، والجرائم!!

سطا جنوده على لقمة البشر، وأحرقوا الشّجر، ودمّروا الحجر، ولم يتورّعوا عن ارتكاب الفظائع التي لم يسبقهم إليها وحش في التاريخ؛ وما زال بعضنا يعتقد «بصلاحيتهم» ليكونوا أعضاء صالحين في «نادي الإنسانية» المعاصر!!

ثمّــة أوهام تودي بصاحبهــا. لكنّ أوهاماً أكثر ســواداً في نتائجها، تودي بمجتمعات كاملة. عندما يسعى الواهمون إلى تحويل ضلالهم إلى برامج عمل، تجد صداها لدى المنتفعين أو المندفعين «بكامل غبائهم»، ومع سبق الإصرار والترصّد، إلى تنفيذها!!!!

لم ينخدع الشعب الأرميني بأنَّ العقل العثماني قد تغيّر!! وما يزال يضع أمام العالم الحقائق المروّعة لجرائم الإبادة الوحشية التي ارتكبها العثمانيّ ضدّه، وبــات الاحتفال السنوي بذكرى هذه الجرائم، تذكيراً سنوياً للضمير البشري، بفداحة هذه الجرائم، ليس سعياً إلى قصاص، ولا رغبةً في انتقام، وإنَّما زجراً ومنعاً، لأي مريض مهووس، تمكّنه سلطته من إعادة ارتكابها!

أما نحن ـ العرب ـ فما زلنا نحتفل بعيد الشهداء بوصفه طقساً واجباً، يتصل بتقديس الشهادة أكثر ممَّا يتصل بكشف الجرائم، أو بالإضاءة على كــون الشهــداء ضحايا عقلٍ عثماني مختــلٍّ، ارتكب مجازر إبــادة جماعية. لابل ذهبنا أبعد من ذلك، عندما جعلنا الأمر يبدو جريمةً فرديةً، ارتكبها جمال السّفاح ـ لاحظوا أننا ما زلنا (نُنعم) على هذا المجرم بلقب الباشا!!ـ وكأنــه كان يتصــرف خارج سياق سلطة العثمانيّ، الــذي نصّبه والياً يقتل، ويذبح باسم الباب العالي!!!

ربمــا كان الصــراع العربي الصهيــونيّ، واحداً من الأسبــاب التي أزاحت جرائــم العثمــانيّ عن لائحــة اهتماماتنــا الواجبة، ولكننا لم نسعَ ـ في أي وقــت ـ إلى الربط بين جرائم العثمــانيّ وجرائم الصهيونيّ، بوصفها تمثّل استمراراً لذهنية القتل والإبادة، التي عمل من خلالها كلا المجرمين، على تنفيذ جرائمهما بحق الضحية ذاتها!!

فعــل الإبــادة الــذي ارتكبــه العقــل العثمانيّ المريضــ، هو فعــل الإبادة ذاتــه الصــادر عن العقــل الصهيونيّ المريضــ؛ فلم تكن الجريمــة تصرّفاً

فردياً عابراً، بل كانت نهجاً مستمراً متواصلاً في كلا الحالين. وتُوضع بتصرّفه، ومن أجل تنفيذ ارتكاباته مقدرات حكومات، تساندها منظومات سياسية، وتزوّر وتلفق الوقائع . لتسويغها . آلة إعلامية ضخمة، تعمل بلا هوادة، على خلق الالتباس في ذهن الرأي العام، عبر خطاب مؤسس على دراسات لطبيعة الاستجابة النفسية للبشر، بما يمكّن هذه الآلة من تسويق خطابها، من خلال استجابة غرائزية، وكأن ما يقدّم لها من أباطيل، هو الحقيقة التي ينبغي أن يتشدّد متلقيها في تبنّيها، وفي الدفاع عنها!

وعلى الرغم من التاريخ المثقل برائحة الموت، فقد تجاوز السوريون مفهوم الانتقام، كردّ فعل غريزي ومباشر، على كل ما ارتكبه العثمانيّ بحقهم، من قتل، وإفقار، وتخريب، وتدمير؛ وميّزوا . بوضوح ووعي . بين الشعب التركي، والحكومات المسؤولة عن ارتكاب المجازر؛ واندفع الشعبان في سورية وتركيا، إلى علاقات وثيقة وحميمة، استجابة لنداء المشتركات الواسعة بين الشعبين، وتجاوزاً للماضي الذي لا يرغب أحد في تكراره؛ لكنّ فارقاً كبيراً بين التجاوز والنسيان!!

نتجاوز...نعم!! ولكن لا يجوز أن ننسى!

وقد أثبتت التجربة أنّ العقل المريض، لا ينتج إلا سلوكاً يعبّر عمّا يضمره من تشوّهات، وأحقاد ، ومكائد، ومؤامرات تخرّب علاقات الشعوب، بما تمارسه من أفعال، وسياسات ترسّخ الحقد، والقطيعة بين الشعوب، بدلاً من السعي الجادّ والمسؤول، إلى تعميق أواصر التعاون والمودّة، لتحقيق الاستقرار الذي تنمو، وتزدهر فيه المصالح المشتركة للشعوب!!

وبعد ذلك كلّه، كيف يمكن لعاقلٍ أن يصدّق أنّ وحشاً يلتهم أخاه، يمكن أن يكون حليفاً، وحامياً له!!؟

إنّ بعض المتورطين العملاء. ولا أقول الحلفاء. للعثمانيّ، يمهّدون لإعادة ارتكاب المجازر بحق إخوان، وشركاء لهم في الوطن، والدم، والانتماء. وليس بوسع أيّ مشروع سياسي أن يسوّغ ارتباطاً مشبوهاً مع حكومةٍ أثبتت أنّها تتحالف تحالفاً وثيقاً بالعقل التكفيري، العاجز عن قبول أي مختلف مع ظلاميّته، وخوائه، بصرف النظر عن انتماء هذا المختلف، وتوجهاته السياسية.

ليس الحقد العثماني موجّهاً ضد طائفةٍ لصالح الأخرى بل هو موجّه -بتركيبه وتكوينه- ضد كل ما هو إنساني. ولذلك لم يقطع علاقاته النوعية مع نظيره الصهيونيّ، على الرغم مما لحقه من إهانات من ساسةٍ صهاينة، وعلى الرغم مما ادّعاه من خلاف واختلاف معهم حول الحق الفلسطيني، لأنَّ الضباع تتفق على فرائسها، وإن تناوشت على تقاسمها!!

وعلى هذا الأساس، تكون المواجهة مع هذا العقل الظلاميّ انتصاراً للإنسانية كلّها، ومن أجل الإنسانية كلّها.

لن يكون بوسع العثماني أن يعيد ارتكاب جرائمه، عندما يصحو بعض السوريين، من وهم الاستناد إلى دعمه، ومؤازرته لهم للانتصار على سوريين آخرين، يرون في سياساته تكراراً لمأساةٍ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في وحشيتها، وعنفها.

ولا نسوق ما نقوله إيقاظاً لأحقاد، ولا دعوةً إلى ثأر، لأنَّ مثل هذه السياسات العثمانية البغيضة، تتناقض مع مصلحة الشعب التركي، قبل أن تكون معادية لغيره من الشعوب. لكننا ندعو إلى الذاكرة!! فالذاكرة قد لاتكون وجع الماضي، أكثر ممّا قد تكون إنذار الحاضر، إنقاذاً للمستقبل!!

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

عظمة حلب القديمة .. تُدمَّر؟!

أربع سنوات من الحرب الوحشية.. دمّرت مدينة حلب القديمة، المسجّلة على سجل التراث العالمي لدى منظمة «اليونسكو».. لقد دمّروا محيط قلعة حلب التاريخية، ودمّروا المساجد والكنائس والمدارس والحمامات والأسواق التاريخية الرائعة المسجّلة في موسوعة «غينيس» كأطول أسواق مسقوفة، متفرعة إلى مجموعة أسواق.. إنها الحرب على تاريخ أقدم مدينة مأهولة في العالم.

سحر مدينة حلب القديمة بكل ما فيها من روعة وعظمة وذكريات عطرة، كانت قبل هذه الهجمة البربرية، محط أنظار الباحثين وعلماء

الآثار وعشاق الفن والحضارة من شتى أرجاء العالم.. لقد سحرتهم البيوت الحلبيّة التقليدية المميزة بكسوة جدرانها الخشبية المزدانة بالرسوم والألوان الرائعة.. لقد سحرتهم تلك اللوحات الجدارية الرائعة الموجودة في «بيت غزالة» الواقع في حي الجديدة شمالي حلب القديمة، ومثيلاتها في «بيت أجقباش» الذي تحوّل إلى متحف للتقاليد الشعبيّة، و«بيت باصيل» و«بيت الدلال» و«بيت صادر» وغيرها من البيوت الحافلة بتلك اللوحات الفنيّة التي تكسو جدران الغرف الداخلية التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر الميلادي.

سحر هذه البيوت الحلبيّة التي تعرضت في كثير من جوانبها إلى الدمار والخراب.. قادت علماء كثر إلى وضع دراسات وأبحاث ممتعة وطريفة عن جمالياتها وروعتها، وكتبت بلغات أجنبية عدّة، أشارت بكثير من الدقة وروعة السرد إلى الدور الذي كان يلعبه البيت العربي في المجتمع الحلبي، وفي حياة الناس، فهو مرفأ الأمان، وواحة الاستقرار والاطمئنان، يخلق جو المحبة والألفة والرابطة الأسرية، إضافة إلى كونه يشكّل مركز حماية أمام عدوان العالم الخارجي، فالأسرة في الشرق مقدّسة، تعلو أهميتها فوق كل اعتبار، ومازالت هذه النظرة سائدة لدى العائلات الحلبية الكبيرة، التي تعيش تحت سقف واحد إلى اليوم، ويعدّ هذا النمط من العيش هو النموذج المثالي الذي يجب أن يحتذى..

يتكوّن البيت الحلبي، من نموذج بناء منفتح نحو الداخل، ومنغلق تجاه الخارج، ويمثّل صحن البيت روح هذه الفكرة وعمودها الفقري، بل حياة الأسرة بأكملها، وهذا النموذج من البناء هو النموذج الشائع في الشرق منذ أجيال عدّة، ويظهر أكثر شيوعاً وانتشاراً في

أحياء حلب القديمة، فصحن الدار المكشوف، الذي يسمح برؤية كل أرجاء السماء الواسعة، يمثّل نواة البيت الحلبي، حيث تصطف حوله الغرف في طابق واحد، أو طابقين، ولا يمكن للمرء الدخول إليه إلا من الصحن بغض النظر عن بعض الاستثناءات القليلة، وبهذا النظام يضمن الساكن خصوصيته التي لا يسمح لأحد أن يشاركه فيها، ولصحن الدار وظيفتان، الأولى توزيعية، حيث يتم الانتقال منه إلى الغرف المنشودة، والثانية تجميعيّة، يلتقي فيه مساء كل أفراد الأسرة يتجاذبون أطراف أحاديث السمر، وعندما يكون الجو صحواً يتناولون فيه وجبة العشاء..

ويعبق صحن الدار الحلبي، كما هو حال الدار الشامية، بشذى أزهار أشجار البرتقال والليمون والنارنج والياسمين.. وبهذا العبق ينسى المرء جو المدينة المشحون بالغبار، ويحط عن كاهله أعباء يوم عمل ثقيل، ويخلد إلى الراحة مستمتعاً بعبق الياسمين، وأصوات تموجات البحرة بمياهها العذبة..

❁ ❁ ❁

يوجد في البيوت الحلبية التقليدية، مصاطب صغيرة تغطيها عرائش العنب، أعدت خصيصاً للموسيقيين وأصحاب الطرب، الذين يمتعون المدعوين في المناسبات السعيدة، والحفلات العائلية.. وتبدو هذه البيوت متجهّمة الوجه تجاه الخارج، منفرجة الأسارير في الداخل، وجدرانها صمّاء بكماء، لا تتخللها نافذة أو كوة، حتى لا يستطيع المارة استراق النظر عبر باب البيت ليعرفوا من بداخله، فالدهليز المؤدي إلى صحن الدار، إمَّا متعرّج ليمنع رؤية مَنْ في الداخل.. أو مستقيم، فيحجب صاحب البيت، نظر الفضولي بوساطة ستارة عند المدخل..

وكان لكل حي من الأحياء القديمة بوابة تغلق بمزلاج ليلاً، كما أن جدران البيوت الصمّاء العالية تشكّل ملاذاً آمناً أمام المهاجمين..

في بحثها عن جماليات البيت الحلبي القديم، والذي دمرت الحرب الكثير من معالمه ورونقه، تقول الباحثة الألمانية «يوليا غونيلا»: «إنَّ معظم البيوت الحلبيّة التراثية، يعود تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر. وهي مشيّدة من الحجر، وتتميز عن مثيلاتها في دمشق، أن هذه الأخيرة مبنية من مواد هشّة، لا تقاوم عوامل الزمن، ويستحضر الحجر من مكان قريب من حلب، ونظراً لطبيعة لونه المائل إلى اللون الأشهب.. عرفت حلب بلقبها المشهور «الشهباء».. ويرتبط حجم البيت الحلبي واتساعه بالوضع المادي للسكّان، وبناء عليه نجد بيوتاً بسيطة تحوي صحونها غرفاً قليلة على طرف واحد أو طرفين، في حين أن البيوت الكبيرة، تحيط الغرف صحونها من ثلاث جهات، ومعظم هذه الغرف مشيّدة على طابقين، وقسم منها تحت الأرض على شكل أقبية، ولبعض البيوت صحن مستقل للتخديم، وتبلغ مساحة البيت الواحد الكبير منها نحو /٩٠٠/م٢، ولها ثلاثة صحون، أحدها للرجال، وهو معدّ لاستقبال الضيوف (المضافة)، والثاني لسكن العائلة (المسكن – السلاملك)، والثالث للتخديم، ولا يوجد في البيت الحلبي وظائف محددة لكل غرفة، كما هو الحال في أوروبا، باستثناء المطبخ والحمّام. فغرفة المعيشة يمكن أن تستخدم للنوم، ومن المعروف – في سورية – أن الغرف تستخدم حسب فصول السنة، فالقسم المستخدم في الصيف يطلق عليه اسم «مصيف»، والقسم المستخدم في الشتاء يطلق عليه اسم «مشتى» فالحياة في البيوت القديمة تخضع لاعتبارات الطقس ويتم اختيار الغرف المناسبة لحالة الجو..

وبما أنَّ الطبيعة تؤثر في طراز البناء الحلبي، نتوقف عند الوصف الجميل، الذي قدّمته الباحثة الألمانية «يوليا غونيلا» في كتابها «حلب في القرن السابع عشر»، عن أهم جزء من البيوت الحلبية الضخمة العائدة لطبقة الأعيان، ويدعى هذا الجزء من البناء التقليدي «إيوان»، وتلفظه العامة، في حلب، كما في دمشق «ليوان»، وهو عبارة عن قاعة مرتفعة السقف محاطة بثلاثة جدران، يتجاوز ارتفاع سقفها طابقين، وبذلك تتسامى فوق كل واجهات صحن البيت، وتلفت إليها أنظار كل من هم في الصحن..

«الإيوان» جزء من طراز البناء العربي في سورية منذ القرن الثاني عشر الميلادي، ولا يقتصر على بيوت السكن فقط، بل نجده أيضاً في الأبنية العامة مثل الجوامع و«البيمارستانات» والمدارس.. وفائدته العلميّة والعملية ظاهرة للعيان، ففي بلاد حارة نسبياً، مثل سورية، يقي «الإيوان» الإنسان حرارة الشمس اللاهبة، وفي الوقت نفسه، يكون مصدّاً للرياح، ولهذه الأسباب كانت تشيّد «الإيوانات» في حلب جنوب الصحن، وتزيّن أرضية «الإيوانات» عادة بضروب الرخام الملوّن على شكل «سجاجيد» جميلة، تمتد أحياناً إلى أرض الصحن، وتسير على سويته لتصل إلى البحرة التي تحتل مكانها اللائق والجميل في وسط البيت..

❁ ❁ ❁

للبيت العربي في سورية بشكل عام، وفي حلب بشكل خاص وظيفة مهمة لا تقل أهمية عن باقي الوظائف، وربما تفوقها من حيث الشكل، وتتجسد هذه الوظيفة في استقبال الضيوف، وما زالت هذه العادة النبيلة مستمرة حتى يومنا هذا، وتعدّ من أهم الواجبات وأرفعها شأناً في

سورية، حيث يتفاخر سكانها بأصولهم العربية، وبأنهم يحبون بعضهم بعضاً، وتخصص العائلات الحلبيّة عادة غرفاً في منازلهم لاستقبال الضيوف..

وأذكر أن هناك دراسات عدَّة قام بها علماء أجانب لبعض البيوت الحلبيّة، مثل «أندريه ريمون» و«سوفاجيه» و«جان كلود دافيد» و«يوليا غونيلا» التي أفردت قسماً كبيراً من دراستها للحديث عن «بيت وكيل» هذا البيت الحلبي الرائع الذي انتزعت منه خشبيّاته الجميلة، وعرضت في المتحف الإسلامي في برلين.. يتألف البيت من أربعة أقسام تحيط بالصحن المزود ببحرة وأحواض زهور، ويعتقد أن تاريخ هذا البيت يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي، وأهم ما فيه خشبيّاته المزخرفة بالألوان والرسوم الجميلة الفريدة من نوعها في سورية، فالخشبيات المزخرفة الأخرى في المدن السورية، بغضّ النظر عن بعض اللوحات المتفرِّدة، والتي هي من عصر أحدث، تحوي زخارف نباتيّة فقط تظهر فيها باقات زهور، وصحون فواكه وكتابات، ويوجد إضافة إلى ما تقدم بعض المناظر الطبيعية التي نشأت في أواخر الاحتلال العثماني، بتأثير فن «الروكوكو»، وعلى النقيض من ذلك، نرى في خشبيات «بيت وكيل» صوراً لأشخاص ولحيوانات متنوعة تعكس جوانب من الحياة الدينية والدنيوية المختلفة..

وإذا كان لرسوم الخشبيّات الآدميّة والحيوانية، في قاعة «بيت وكيل» سحرها المميز، فإن الزخارف النباتية لا تقلّ بهاء ورونقاً عنها.. تتألف اللوحات من خلفيّة حمراء توحي بالدفء، تغطيها باقات الزهور، وزهرات اللوتس، والقرنفل والزنبق.. تتوزع بينها ميداليات بيضوية الشكل، وزخارف ذات أشكال هندسيّة مضلّعة، تحوي في داخلها كتابات، ونجد

على اللوحات ذات الخلفية الخضراء، أو الحمراء رسوماً على شكل سلسلة أغصان مزهرة، وأخرى مورقة دون انقطاع، ومزهريات ملأى بالزهور.. وتشكّل الكتابات المدوّنة على الخشبيات أفضل مثال على جمالية الخط العربي وتطوره...

خصوصية حلب القديمة، تظهر في بيوتها وأسواقها وأنشطتها التي تدور حول الاقتصاد والدين والتعليم، وتتم قراءتها مع شبكة من الطرق العريضة والمستقيمة نسبياً، التي تقود مباشرة إلى أبوابها العظيمة.. الحِرف تتسلسل من المركز نحو الأطراف، بحسب تصنيف للفعاليات الذي يضع أكثرها غنى وتخصصاً في المركز، وأفقرها وأكثرها إزعاجاً أو إحداثاً للتلوث قرب أطراف المدينة.. إنها ظاهرة معروفة، وكانت واقعاً موجوداً في حلب القديمة..

حلب القديمة تطورت في العصر العربي الإسلامي، انطلاقاً من أرضية حضارية قديمة، حافظت على اللُحمة المركزية بعمق، من حيث ترسيم الطرقات على تأثير الخلفيّة اليونانية - الرومانية، وتمتد بطول نحو /٨٠٠/ متر على طريق الشارع الكبير الذي يصل الباب الغربي للمدينة (باب أنطاكية) بالقلعة، وعلى طول هذا المحور تنتشر شبكة الأسواق بطول (٢٥٠) متراً، وعرض /٤٠/ متراً بانتظام تام، وفي هذا القطاع يتركز أساس الفعاليات الاقتصادية للمدينة (١٨) خاناً من أصل (٤٥) خاناً.. ويقع الجامع الأموي الكبير الذي تعرض في بعض معالمه للتدمير، كالعادة في قلب هذه المدينة العظيمة.. لقد كانت البنية الداخلية لهذا القطاع المركزي قوية إلى درجة أنه حين تطور التوسع الحضري في القرن السادس عشر الميلادي، في جنوب الشارع الكبير، واتسعت مساحة المدينة القديمة.. اندرج هذا التوسع، بشكل طبيعي في إطار المخطط القديم..

عمليّات التطور الأولى في القرن السادس عشر، كانت في المنطقة الواقعة جنوب القلعة، أي الجنوب الشرقي لـ«المدينة المملوكية» وكان قلب العملية «جامع الخسروية» وأوقافه الكثيرة التي تضم الأسواق والخانات والحوانيت، وبعد أن كانت حلب مدينة حدوديّة أيام المماليك، أصبحت منطقة واسعة تمرّ بها الطرق الكبرى للمواصلات الدولية، ونقطة الانتقال للبضائع الفاخرة الآتية من الخليج العربي والهند، وأصبحت حلب السوق الرئيس للشرق كله، مع تيار تجاري مزدوج...استقبال وإعادة توزيع نحو الشرق، وكانت تجارة حلب مع مرسيليا، أكبر حجماً من التجارة بين مرسيليا ومصر..

في حلب، تمَّ في القرن السادس عشر، بناء المجمّعات التجارية الكبرى، في مركز المدينة، وهو القلب الاقتصادي الذي يسمّيه الحلبيون «المدينة».. لقد أعجب «سوفاجيه» بمميزات حلب في كثير من كتاباته، فحلب: «تسيطر على الطرق الإستراتيجية الداخلية التي تقود من مركز الإمبراطورية إلى الولايات العربية الشرقية، ولاسيما الطريق المؤدي إلى العراق». كما أن حلب كانت «مرحلة إجبارية» على طريق الحج، وكانت له تأثيرات اقتصادية وثقافية ودينية كبيرة...

لقد طال هذا الإرث الحضاري الإنساني العالمي الكبير، تخريبات وتدميرات، لا حدود لها من قبل المجموعات الإرهابية وعصابات القتل والسرقة ولصوص الآثار.. لقد التهم الدمار تراث المدينة القديمة وحوّلها إلى أنقاض.. لقد دمروا إرث البشرية على حضارات وفنون قديمة لا تقدر بقيمة..

❀ ❀ ❀

الالتفات الذاتي (قديماً وحديثاً)
(دراسة أُسلوبيّة بلاغيّة)

د.محمَّد رضوان الدّاية ❁

في المُصطلحات البلاغية نوع يدعى: «الالتفات»[1]؛ على أنّ له أسماء أُخرى مثل: «الصَّرف» و«الاعتراض» و«الاشتراك» و«الاستدراك»؛ وأدخله ابن قتيبة في: «مُخَالفة ظاهر اللفظ مَعْنَاه»؛ ومن أمثلته عليه قولُ النابغة الذبياني[2]:

يا دارَ ميَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ

أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

بدأ بأسلوب الخِطاب، ثم التفتَ إلى أُسلوب الغَيْبَة.

وبعد زمان من ظُهور مصطلح (الالتفات) والكلام فيه، جَعل ابنُ الأثير هذا النوع البلاغي (وهو عنده من الصّناعة المعنوية) ثلاثة أقسام[3].

الأوّل: الرّجوع من الغَيْبَةِ إلى الخِطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ويكون ذلك لفائدةٍ اقتَضَتْه. والمثال الأوّل: (**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ❁ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ❁ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**). (من سورة الفاتحة: الآيات من١- ٤) ثم قال تعالى: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**). (من سورة الفاتحة: الآية٥).

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

والمثال الثاني: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ× فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**). (من سورة فصلت: الآيتان ١١ – ١٢). فإنه قال: (وَزَيَّنَّا) بعد قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى)، وقوله: (فَقَضَاهُنَّ) و(أَوْحَى).

ومن الرُّجوع من خِطاب النَّفْسِ إلى خِطاب الواحد قوله تعالى: (**حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ۞ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين**). (من سورة الدخان: الآيات من١–٥).

– ومن الرُّجوع من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...**). (من سورة يونس: الآية٢٢)

والثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، ومن الأول: (...**إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ...**). (من سورة هود: الآية٥٤). ومن الثاني: (**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ**). (من سورة الأعراف: الآية٢٩).

والثالث: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي.

فالأول: مثل: (**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً...**). (من سورة فاطر: الآية٩).

والثاني: مثل: (**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ**). (من سورة النمل: الآية٨٧).

على أنَّ في الأساليب العربيّة ما لم يقف عنده اللغويون (في ملاحظات الأساليب ودراستها) ولا البلاغيون (عند استعراض علمَي البديع والمعاني):

مثل استعمال صيغة الجمع للمتكلّم المفرد، ليس على سبيل التعظيم، أو التوقير، أو ما شابه ذلك.

: ومثل كلام المتكلّم يُريد نفسَهُ ويلتفتُ ابتداءً إلى ضمير الغائب وأخصّ الشعراء بمزيّة.

: ومثل الالتفات عن الذّات (الاسم الظاهر والضّمير المناسب) إلى شخص آخر يتحدّث عنه وهو يريدُ نفسه.

ونقول في هذه الظّواهر مثل ما قيل في أنواع الالتفات التي ذكرها أهْلُ التفسير والبَلاغة واللّغة: إنَّ هناك أغراضًا رَمى إليها الشّاعر (وغيره) ومقاصد: جليّةً كانت، أو هي، تحتاجُ إلى إيضاحٍ واسْتِخْراج.

۞ ۞ ۞

وفي الأساليب العربيّة، أن يتحدّث أحدهم عن نفسه وبعض شؤون حياته مستعملاً

أسلوب الغائب، أو ضمير الغائب. ومنه قولُ القتّال الكلابي[٤]، مُصَوِّرًا نفسه، مفصّلاً:

إذا هَمّ هَمًّا لم يَرَ اللّيلَ غُمَّةً
عليه، ولم يصعُبْ عليه المراكبُ...[٥]
...جَلِيدٌ، كريمٌ خِيْمُهُ، وطباعُهُ
على خَيرِ ما تُبْنى عليه الضَّرائبُ[٦]
إذا جاءَ لم يفرَحْ بأكلةِ ساعةٍ
ولم يَبْتَئِسْ من فقدِها وهو ساغِبُ[٧]
يَرى أنَّ بعد العُسْرِ يُسْرًا ولا يَرى
إذا كانَ يُسْرٌ أنَّهُ - الدَّهْرَ - لازِبُ[٨]

ومنه قول أميّة بن أبي عائذ الهُذَليّ[٩] يتشوّق إلى أهله بمكّة، وكان نزيلَ مصر عند واليها عبد العزيز بن مروان. وكان عبدُ العزيز قد رَغِبَ إليه في البقاءِ بمصر:

مَتى راكبٌ من أَهْلِ مِصْرَ، وأَهْلُه
بمكَّةَ، من مصر العشيّةَ راجِعُ[١٠]
بلى! إنَّها قد تَقْطَعُ الخَرْقَ ضُمَّرٌ
تباري السُّرى، والمُسعفون الزعازعُ[١١]

فالشاعر يتحدّث عن نَفْسِه هنا بصيغة الغائب. وقال: «راكبٌ من أهل مصر» يعني نفسه، زائر لمصر قد طال مُكْثُه فيها حتى أصبح كأنه من أهلها. وأهلُه (من زوج وولد وقريب...) يسكنون مكَّة. وفي شرح د.عمر فروخ على البيت: «العَشِيّة: آخر النَّهار (في آخر عُمره، قد أصبح كبيرًا جدًّا في السنِّ، فيريدُ أن يرى أهله قبل أن يموت).

❀ ❀ ❀

وفي: لمسات بيانية[١٢] قال د.السّامرائي: إنه سبحانه وتعالى، «في كل موطن في القرآن الكريم وبلا استثناء إذا استعمل ضمير التعظيم لا بدّ من أن يأتي بعده بما يدل على الإفراد حتى يُزيل أيَّ شك من شائبة الشرك؛ لأنَّ مَنْ نزل عليهم القرآن كانوا عريقين في الشرك..(**إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً**...). (من سورة الفتح: الآيات من ١-٣).

... وللكلام في هذا الملمح تبيانٌ وتفصيلٌ في مظانّه.

وورد الأسلوبان في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

١- وفي الحديث: «بَلِّغوا عني ولو آية».[١٣]

٢- وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما أُعطيكم ولا أمنعكم، إنّما أنا قاسمٌ: أضَعُ حيثُ أُمِرْتُ».[١٤]

٣- وفيه أيضًا «نَضّر الله امرأً سَمِعَ مِنّا حديثًا فحفظه حَتّى يُبلّغه غيره، فإنَّه رُبّ حاملِ فقه ليس بفقيه، وربّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه»[١٥] وروي «وربّ حامل فقهٍ ليس بفقيه».

٤- وفيه أيضًا: «...اتّقوا الله فإنّ أخونكم عندنا من طلَب العَمل» وفي فيض

القدير (شرح الجامع الصغير) للمناوي عند كلمة (عندنا) قال: أي: «معشر المسلمين، أو النون للتعظيم». انتهى.[١٦]

وللكلام على هذا الملمح في الحديث النبوي مقام مستقلّ مستوفى إن شاء الله تعالى.

❁ ❁ ❁

وفي الالتفاتِ نوعٌ جَرى على ألسنةِ الشّعراء من أيّام العصر الجاهليّ، واستمرّ مع شعراء كُثُرٍ وأدباء في العُصور التالية، وصولاً إلى العصر الحديث: وهو التفاتٌ ينتقلُ فيه الشّاعرُ (وغيره) من أسلوب المتكلّم بصيغة المُفرد إلى المتكلم بصيغة الجمع: يقصدُ نفسَهُ في الحالين، من دون أن يكون المراد باستعمال أسلوب المتكلّم بصيغة الجمع: الفخر أو التّعاظم أو التفخيم. يورد الشاعر الصّيغتين، وهو يريد نفسه.

ويقال مثلُ هذا في استخدام ضميرِ المخاطَب بصيغة الجمع وهو يريد المُفرد، من دون قصد التّعظيم.

وورودُ هذا الأُسلوب في الشّعر القديم يُؤصّله، ويتيحُ للشعراء المُحْدَثين أن يجروا على ذلك النّسَق، ويفيدوا منه في كلامهم شعرًا ونثرًا.

وفي شعر حاتم الطّائي المشهور قصيدةٌ حاورَ فيها زوجته ماويّة وعرَض عليها، وعلى النّاسِ مذهَبَهُ في الجُود، ورأيه في قضيّة الفقر والغنى، وأَصَرَّ على ما اختار من سُلوكٍ انتقل من العادة إلى ما يُشبه الطّبع[١٧]:

أَماوِيَّ إني لا أقولُ لسائلٍ
إذا جاء يوماً: حَلّ في مالنا نَزْرُ
أَماوِيَّ إن يُصبحْ صَدايَ بقفرةٍ
من الأرضِ لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
تَرَيْ أنّ ما أنفقْتُ لم يكُ ضَرَّني
وأنَّ يدي ممّا بخلْتُ بِهِ صِفْرُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتمًا
أرادَ ثراءَ المالِ كانَ له وَفْرُ
غَنِيْنا زمانًا بالتّصعلك والغنى
كما الدَّهْرُ في أيامه العُسْرُ واليُسْرُ[١٨]
فما زادنا بَغْيًا على ذي قَرابَةٍ
غِنانا، ولا أزْرى بأحسابنا الفَقْرُ
وما ضَرَّ جارًا يا ابْنَةَ القوم فاعلمي
يُجاوِرُنا ألّا يكونَ لهُ سِتْرُ
بعينيَ عن جاراتِ قَوْميَ غَفلةٌ
وفي السَّمْعِ منّي عن حَديثِهِمُ وَقْرُ

تحدّث حاتم عن نفسه بضمير المتكلّم المفرد: «لا أقولُ» و«صداي» و«لديَّ» و«أنفقتُ» و«ضرّني» و«بخلتُ» واستوفى مراده من خطاب ماويّة، وتقرير مذهبه في الجود، والإنفاق، (اقْتَنعتْ بما قال أو لم تقتنع).

ثم التفت الشاعر، وتحدّث عن نفسه بصيغة الغائب: «لو أن حاتمًا أراد ثراء المال» واكتفى من هذا الأسلوب ببيت واحد.

ثم التفت مرّة أُخــرى فرجع إلى ضمير المتكلّم؛ ولكنه ضمير المتكلم بصيغة الجمع، واستغــرق ذلك منه ثلاثة أبيات: وضّح فيها مذهبه من الصَّعلكة؛ وذكر أحوال حياته التي تراوحت بين الفقر الشديد (بالتصعلك كما قال) وبين الغنى. وهذا موقفٌ لا يقتضي أن يكــون ضمير الجمع فيه للتفاخر والتعاظم، ولكنــه: التعبيــرُ بصيغة الجمــع نيابةً عن صيغة الإفــراد على نوع من الالتفات، ولعلّ من المناسب أن ندعوه الالتفات الذاتيّ[١٩]، ونلاحظ قوله في الثلاثــة الأبيات: «غنينا زمانًــا» و«فما زادنا» و«غِنانــا» و«أحسابنا» و«يجاورنا».

فلمــا استَفْــرَغَ حاتمٌ مــا أرادَ أن يقوله بصيغة الجمع التفت مــن نفسِه إلى نفسِه، وقال:

بِعَيْنِيَ عن جاراتِ قوميَ غفلةٌ
وفي السَّمْعِ منّي عن حديثِهِمُ وَقْرُ

وكأنّ الشاعر أراد توكيد سُلوكه الأخلاقي الــذي اختاره فــي العِفّة وصيانــة الجوار، وتكريم المرأة بنبلٍ منه وأريحيّةٍ؛ فرجَع إلى ضميــر المتكلّم بصيغة الإفراد؛ وهذا يشبه مَنْ يُقْسِمُ على أمر، أو يتعهّدُ بشيء، أو يُصِرُّ على مَسْلَــكٍ نبيل، فهو يُخَلِصُ كلامَهُ لذلك الأُسلوب، ويكتفي بأسلوب الإفراد لأنه أَليَقُ بالمقاصدِ التي يريد.

❁ ❁ ❁

قطعة لمحمود الورّاق[٢٠] في الغزل (وهو من شعراء صدر الدولة العباسيّة):

سَــقْــيًــا لأيــــام خَــلَــتْ
وكــأنّ أوْجُــهَــهــا ريــاضُ
أيّــــامَ يُـحـيـيـنـا الـهـوى
وتُـمـيـتـنـا الـحَـدَقُ الـمِـرَاضُ!

فالكلام منظــومٌ عن ذكريــاتٍ للشّاعر يتذكّرهــا، فعبّر عن نفسِــه بصيغة المتكلم الموضوع للجماعة: «يُحيينا، وتميتنا».

❁ ❁ ❁

وفي قصيدة: «واحَرّ قلباهُ» يرتَفِعُ صوتُ المتنبي بين الــذاتِ، بوقائع يذكرها، وبين العِتاب الصَّدّاح الذي يضعُ الرَّجُلَيْن: الشاعر المــادح والأمير الممدوح علــى صعيد من المخاطبة والاستمــاع، في ظُهورٍ لشخصيّةِ أَبي الطيّب مُصَاحَبٍ برنيــنٍ[٢١]؛ ونبدأ من البيت السابع عشر:

وجاهلٍ مَدَّهُ في جَهْلِه ضَحكي
حتّى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ وفَمُ...
..ومُهْجةٍ مُهجتي من همِّ صاحبها
أدركتُها بجوادٍ ظهرُه حَرَمُ...
..ومُرْهفٍ سرتُ بين الجحفلين به
حتّى ضربْتُ وموجُ الموتِ يلتطِمُ
فالخيلُ والليل والبيداء تعرفني
والضربُ والطعنُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبتُ في الفَلَواتِ الوحشَ منفردًا
حتّى تعجّب مِنّي الغورُ والأكَمُ

يا من يعزُّ علينا أن نفارقَهُمْ
وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عَدَمُ
ما كان أَخْلَقَنا منكم بتكرمةٍ
لو أنَّ أَمْرَكُمُ من أمرِنا أَمَمُ
إن كان سرَّكُمُ ما قال حاسِدُنا
فما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ
وبيننا لو رعيتم ذاكَ معرفةٌ
إن المعارفَ في أهلِ النُّهى نِعَمُ
كم تطلبون لنا عيبًا فيُعجزكم
ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرمُ

والتفت المتنبي عند البيت الخامس والعشرين، وعَبّر عن نفسه بضمير الجمع، كما عَبّر عن شخص سيف الدولة بضمير الجمع أيضًا. وكان المقام يقتضي، على ما جَرى عليه الشعراء غالبًا في شعر المديح، أن يُبقي على ضمير المتكلم المُفرد وهو يعبّر عن نفسِه، ولكنّهُ التفتَ، وعَدَل، وخرج إلى ضمير المتكلم الموضوع - عادةً - للجمع.

ورجع أبو الطيب في البيت التاسع والعشرين إلى ضمير المتكلم المفرد على الأصل المعروف في مجرى الأداء اللغوي «الاعتياديّ». قال:

ما أبعدَ العَيْبَ والنُّقصانَ عن شرفي
أنا الثريّا وذانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ
ليت الغَمام الذي عندي صَواعِقُهُ
يُزيلهنّ إلى مَنْ عنده الدِّيَمُ

والْمَحَ في البيت الحادي والثلاثين إلى عَزْمِهِ على المَسِيْرِ عن حلب، وذكر أنَّ طريقه يمرّ على ضُمَير، قبل دمشق بمراحل قليلة فقال في البيتين ٣١، و٣٢:

أرى النّوى تقتضيني كلَّ مرحَلةٍ
لا تستقلُّ بها الوَخّادَةُ الرُّسُمُ
لئن تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عن مَيامننا
لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهم نَدَمُ!

والتفت ثانيةً، في بيتٍ يجري في مجرى القصيدة، ويتوجَّهُ الكلام فيه على وجهين:

أحدهما: الظاهر من الخطاب العام، كأنّه حكمةٌ أو ما يشبه الحكمة:

إذا تَرحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا
ألّا تفارِقَهُمْ فالرّاحِلُونَ هُمُ

والثاني: المعنى الملموح، المُستفاد من السياق. ويكونُ الكلام من الشاعر إلى نفسه، وتسميعًا لغيره. فهو الذي سيفارِق، مُضطرًا؛ ومَنْ غادرَ مضطرًا فالرَّاحِل المُغادر على الحقيقة المعنوية (والاجتماعية والإنسانية) هو الطرف الآخر المتسبّب: ويكون المعنى مستفادًا من الأثر المشهور: «قتله الذي أَخْرَجَه»[٢٢]!

وعَقّب المُتنبي في البيت التالي:

شَرُّ البلاد مكانٌ لا صديقَ بهِ
وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

فلما تمَّ له ما أراد من الالتفات، والإدلاءِ بمُرادِهِ من المعاني والإشارات، رَجع إلى الكلام بصيغة المفرد:

شَرُّ البلاد مكانٌ لا صديقَ بهِ
وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ
وشَرُّ ما قَضَتْهُ راحتي قَنَصٌ
شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيه والرَّخَمُ[٢٣]

❁ ❁ ❁

وتبدو هذه الظاهـرة التي نتابعها جلية في شعر ابن زيدون في بعض قصائده التي أنشدها في «ولّادة»، وأقف هنا عند قصيدته الذائعة: (أضحى التنائي) وقـد استخدم ضمير المتكلم بصيغـة الجمع؛ تعبيرًا عن نفسه، فـي أبيات القصيـدة جميعًا، وذكر ولادة بالنوعين الإفراد والجمع.

وقـد أفاد هذا الأسلوبُ القصيدةَ في إضافة ملمـحٍ موسيقيٍّ وبَلاغيٍّ، وفيها، من أوَّلها:

١-أضْحى التّنائي بديلًا من تدانينا
ونـابَ عن طيبِ لُقيانا تجافينا

فالـكلام هنا يشمـلُ ولادة وابن زيدون معًا، وقد قال بعده:

٢-ألّا، وقد حان صبحَ البَيْنِ صَبّحنا
حَـيْنٌ فقـامَ بنـا للحَيْنِ ناعينا

والـكلام هنا يخصّ ابـن زيدون وحده، فالموتُ كانَ أخفَّ عليه من فراق الأحبة أو جفائهم، ثم قال بعد:

٣- مَنْ مبلغ المُلبسينا بانتزاحهمُ
حُزنًا مع الدّهر لا يَبْلى ويُبلينا
٤-أنّ الزمان الذي ما زال يُضحكنا
أنسًا بقربهمُ قد عاد يبكينا

فـ«الملبسينـا» و«بانتزاحهـم» عن ولادة وحدها، و«يُبلينا» خاص بابن زيدون.

والبيـت الرابع من شـأن الشاعر، وذكر ولادة بصيغة الجمع «بقربهم» فهي مجموعة، ويخاطَبُ بها المذكر عادةً.

وتستمر القصيدة على هذه الشاكلة، ولم يذكر ابـن زيدون نفسه، ولم يشر إليها، ولو مرّة واحدة، بصيغة الإفراد، وهو هنا حَتْمًا لايريد من صيغة الجمع التفاخر ولاالتعاظم، وأظـنّ ظـن الاعتقاد أنه علـى العكس من ذلـك، وانظر قوله في هـذه القصيدة (في البيت الثلاثين):

ما ضَرَّ أنْ لم نكنْ أكفاءَهُ شَرفًا
وفي المودَّةِ كافٍ من تَكافينا

ومعلـومٌ أنَّ ولادة قرشية أموية مَرْوانيّة، وأن ابـن زيـدون قرشي مخزومـي، ولكنه يتطَامَـنُ للحُـبّ، وذلّةُ المحـب للمحبوب لاتدخـل -عندهم- في ما يسـوءُ الشاعر المُتيّم.

❁ ❁ ❁

ونختـار قصيـدة لشاعر مـن العصر المملوكي هـو: أبو العَبّاس أحمد بن أبي القاسم اللَّخمـيّ الفُطْرُسِيّ، الشهير بلقب: النَّفيس (توفي سنة ٦٠٣هـ) وقد نقل ابن خلّكان من ديوانه، وأثنى على شعره، وترجم له في الوفيـات[٢٤]. وممّا اختاره من شعره

قصيدة حَسنة غريبةُ القافية، مختارة الوزن، وقد مدح في هذه القصيدة أحد كبار رجال عصره، وكان واليًا وإداريًا، وكان أيضًا عارفًا بالشعر مقرِّبًا للشعراء. وكان الممدوح: أبو المظفر عتيق يلقّب بـ(جَلْدَك) فاجتهد الشاعر (النفيس) في إيراد هذا اللقب في قافية آخر أبيات القصيدة وبنى سائر القصيدة على ما يلائم ذلك، قال:

قل للحبيبِ أطَلْتَ صَدَّكْ
وجَعَلْتَ قلبي فيه وَكْدَكْ
إن شئتَ أن أسلو فَرُدّ
عليَّ قلبي فهو عندكْ!
أخْلَفْتَ حتّى في زيا
رتنا، بطيفٍ منك، وَعْدَكْ
وأنا عليك كما عَهِدْ
تَ، وإن نَقَضْتَ عليَّ عَهْدَكْ!
أحْرَقْتَ يا ثَغْرَ الحبيـ
ـبِ حَشَايَ لمّا ذُقْتُ بَرْدَكْ
وشَهِدتُ أني ظالمٌ
لمّا طَلَبْتُ إليكَ شَهْدَكْ
أتَظُنُّ غُصْنَ البانِ يُعْـ
ـجِبُني وقد عايَنْتُ قَدَّكْ؟
أم يخدعُ التفّاحُ ألحا
ظي، وقد شاهَدْتُ خَدَّكْ؟
لا والذي جعلَ الهوى
مولايَ حتّى صِرْتُ عَبْدَكْ!
يا قَلْبَ مَنْ لانت مَعَا
طِفُهُ علينا ما أشَدَّكْ
أتظنّني جَلْدَ الهوى؟
أو أنَّ لي عزماتِ «جَلْدَكْ»؟!

ولا يخفى ظَرْفُ الشاعر في الأبيات، وحُسن استفادته من عنصر «الاستطراد» المعروف في البلاغة.

ونلاحظ التفاتَ الشاعر (التفاتًا ذاتيًّا) في الأبيات مَرَّتين: في البيت الثالث، وفي البيت العاشر: فقد قال وهو يخاطب الحبيب: «أَخْلَفْتَ وعدك في زيارتنا بطيف منك...» وقال: «يا قلبَ مَنْ لانَتْ عَلَيْنا معاطفه...» وهو يتحدث عن نفسه مفردًا، شاكيًا ممّا أصابه من عَنَتِ المحبوب شخصًا، وطيفًا... ولا مَدْخل للتكبُّر أو التعاظم في الكلام صراحةً أو إشارةً.

❁ ❁ ❁

ولأحمد شوقي قصيدة نظمها في الأندلس حين كان منفيًا عن بلده مصر، أولها[٢٥]:

يا نائحَ الطَّلْحِ أشباهٌ عَوادينا
تأسى لواديك أم نأسى لوادينا؟!

وقد اجتمع للشاعر أسى بُعْدِه عن وطنه (الصّغير): مصر، وأسى ضياع الفردوس المفقود: الأندلس: كنّى عن مصر بـ(وادي النّيل) - وهي كناية مشهورة -، وكنّى عن الأندلس بوادي الطلح وهو وادٍ بظاهر إشبيلية «كان المعتمد بن عَبّاد أمير إشبيلية (من ملوك الطوائف) شديد الولع به».

ونائــح الطلح: طائر رَجَّــع صوتَهُ، فنبّه الشاعرَ، وجرى الشعْــرُ على لسانِه، وحَرّكَ أسَــاهُ علــى الوطنّيــنِ: بلده مصــر، وديار الأندلســ التــي كانــت من أوطــانِ العرب والمسلمين زمانًا طويــلا. وقد أكْثرَ الأدباء والشعراء والمؤرخون من وصفها بـ(الفردوس المفقود).

واختار شوقي في هذه القصيدة للحديث عــن نفسه وأحوالــه وشــكاواه، وهواجسه وأشواقه وذكرياته ضمير المتكلم الدالّ على الجمع، ولم يخرج عن هذا الأسلوب.

وفــي آخر القصيــدة، التفــتَ الشاعر إلى مصــر، وذكرياته فيها، وصارت ضَمائر الجمــع عامّة: يُدخِــلُ نَفْسَهُ فيهــا وتشملُ الآخرين، وذلك ابتداء من قوله:

سقيًا لعهد كأكناف الرُّبَا رِفَةً
أنّى ذهبْنا وأعطافِ الصِّبا لِيْنا

وبعد مطلع القصيدة قولُه يخاطب ذلك الطائر (الصّديق):

مَـاذا تقصُّ علينـا، غيـرَ أنّ يـدًا
قصَّتْ جناحَكَ جالت في حَواشينا
رَمَـى بنـا البينُ أيكًا غير سامرنا
أخـا الغـريب وظـلا غـيْـرَ نادينـا
كلٌ رَمَتهُ النَّوى، رِيْشَ الفراقُ لنا
سَهْمًا، وسَلَّ عليك البَيْنُ سكّينا

والقصيدة طويلة. وممّا قاله في انتقاله عن الموطن إلــى «المنفى» أبيــاتٌ أحسنَ فيها التَّناول، ومزج بين الخُلْدَين: خُلد بلده الحاضــر (الــذي انتقل عنه قســرًا) وخُلدِ تاريخه القديم - الجديد (الأندلس): وأتْقَنَ الدخول، والتعبير، والاستفاضة، وأحاط ذلك كله بنفحات عاطفيّة متعدّدة الجوانب:

لمّا نَبا الخُلْدُ نابت عنه نُسْخَتُهُ
تَمـاثُلَ الـوَرْدِ: خِيْـريًّا ونِسرينا
نسقي ثـراهُمْ ثنـاءً، كلّما نُثِـرَتْ
دمـوعُـنـا نُظِـمت منهـا مراثـيـنـا
كـادت عـيـونُ قـوافيـنـا تحـرِّكـهُ
وكِدْنَ يوْقَظْنَ في التُّربِ السَّلاطينا
لكنْ مِصْرَ وإن أغْضَتْ على مِقَةٍ
عينٌ من الخُلْدِ بالكافور تَسْقينا

وقد أثنــى شوقي في هــذه القصيدة، وفي سائر أندلسياته على بُناة الحضارة في الأندلس، وخَصَّ بنــي أُميّة بكثير من ثنائه ورثائه وإشادتــه وتكريمــه. واستطرد إلى شيءٍ مــن هذا في بعضــ شاميَّاتهِ، كالذي صنعه في «قم ناجِ جِلّق»...

والتفــتَ بنفسه، وكُلِّ مــا عنده من حُبٍّ وودٍّ وشوقٍ ولهفةٍ إلى مصر(٢٦).

يا ساريَ البرقِ يرمي عن جوانحنا
بعد الهُدوءِ ويَهْمي عن مآقينا
لمّا تَـرَقْـرَقَ في دمع السَّماءِ دمًا
هَاجَ البكا فخضَبْنا الأرض باكينا
اللّيـلُ يشهد لم تهتَكْ دياجِيَـهُ
علـى نيـامٍ ولـم تهتفْ بسالينا

والنجمُ لم يَرنا إلَّا على قَدمٍ
قيامَ ليل الهوى للعَهْدِ راعينا
كَزفرةٍ في سماءِ اللّيل حائرةٍ
ممّا تردّد فيهِ حين يُضْوينا

واستمر شوقي في اختيار ضمير المتكلم الموضوع للجماعة، وهو يريد نَفْسَهُ، وَحْدَها، في «انسجام» واسترسال وتدفّق.

ثم استطرد الشاعر إلى صفة روضٍ مونق مُعْجبٍ حتى قال: إنّه دَخَل ذلك الرَّوض مع مَنْ يُحبّ:

غشيناهُ والأيّامُ تَنْدى شبيبةً
ويقطر منها العيشُ وهو رغيدُ
رأتْ شفقًا ينعى النَّهار مضرّجًا
فقلتُ لها: حتى النَّهارُ شهيدُ
فقالت: وما بالطير؟ قلت سكينةٌ
فما هي ممّا نبتغي ونَصيدُ
أُحِلَّ لنا الصَّيْدان يوم الهوى مَهًا
ويوم تُسَلُّ المُرْهَفاتُ أسودُ
يحطِّمُ رمحٌ دوننا ومُهَنَّدٌ
ويقتلنا لحظٌ ويأسِرُ جِيدُ
ونَحْكُم حتى يقبل الدهرُ حُكْمَنا
ونحن لسلطان الغَرام عبيدُ
أقول لأيام الصِّبا كلّما نأت
أمالكَ يا عَهْدَ الشباب مُعيدُ؟!
وكيفَ نأتْ والأمسُ آخرُ عهدها
لأمسِ كباقي الغابراتِ عَهِيدُ
جزعتُ فراعَتْني من الشَّيبِ بَسْمةٌ
كأني على درب المشيب لَبِيْدُ
ومن عَبثِ الدُّنيا وما عَبَثتْ سُدًى
شَبَبْنا وشِبْنا، والزّمانُ وليدُ!

❁ ❁ ❁

وأسلوب الالتفات الذاتي، الذي نديرُ الحديث عنه شائع في كلام النّاس مكتوبًا ومنطوقًا، وهو جارٍ على ما بيّنّا من التراث العربي القديم الموصول بالحديث.

- يكتبُ أحدهم لصديقه بطاقةً، ويتركها عند الباب أو في مكتبه، وما شابه، ويقول: «حضرنا ولم نجدكم» وهو يريد نفسه.

- ويسأل أحدهم زميله: هل صلّيتَ؟ يريد إقامةَ صلاةِ جماعةٍ، فيردّ صاحبه: «دعونا لكم» أي صليت وذكرتك في الدعاء الذي أعقب الصلاة.

- وتقول السيدة، وهي تغادر منزل صديقتها «أودعناكم»(٢٧) فتردّ صاحبة الدار: مع السّلامة، وهي عبارة يقولها الفرد للفرد والجماعة للجماعة.

- ويقول أحدهم لصديقٍ غاب مدّةً: سألنا عنكم، انشغل بالنا...

- ويقول أحدهم لربّ العمل: جئنا لنعيّدكم...

ومثل هذا كثيرٌ فاشٍ، يؤكد وصول هذا الأسلوب إلى كلام الناس؛ وإيراده من دون أن يخشى المتكلم وقوع لبسٍ في ما يقول.

❁ ❁ ❁

لقد نَبّه هذا البحث، كما تَبيَّنَ مما سبق، على هــذا النوع من الالتفات الذي اقترحنا لــه: الالتفــات الذّاتــي، ويصــحُّ أن يقال فيــه: الالتفات الدّاخلي أيضًــا. والالتفات الوجداني، وفيــه ينتقل المتكلم المفرد من صيغة الإفراد وهــي المناسبة لدرج الكلام - من دون قصد التّبجيل للذات أو التعظيم، أو التفخيم - إلــى صِيغة الجمع، ونبّه على اطّــراد هذا الملمح مــن العصر الجاهلي، استمرارًا فــي العُصور المتوالية، ولجأ إليه بعض الأدباء (الشعــراء خاصّة)، وكان في ذلك تلوينٌ للأسلوب، وزيادةٌ يريدها المتكلّم قد تبدو واضحةً أو هــي تُستَنتَجُ من سِيَاقِ الكلام.

❁ ❁ ❁

والعــدول عــن صيغة المفــرد للمتكلم إلــى صيغة الجمع، أو تداخل الأسلوبين في النصّ الواحد يكــونُ تلوينًــا أُسلوبيًّا، أراد الأديب (والشاعر خاصّــة) أن يُضْفِيَ جدّةً أو حيويّــة على الكلام، أو يُفيد من اختلاف الإيقاع والإيحاء.

- وقد يكون الالتفات إلى صيغة الجمع عُدولًا عن صيغة المفرد كي لا توحي صيغةُ المفردِ بإبراز «الــذّات»، وليتجنّب المتكلم أي ملمــحٍ قد يلاحَظُ؛ يكــونُ فيه تَعالٍ من المتكلم على المخاطب أو اقتحامٌ لمكانته.

هنــا يكون اللجــوء إلى صيغــة الجمع إدخالًا من المتكلم لذاته في «آخَرِين» خشية أن تبرز الـ«أنا» صريحةً قويّةً.

وتكــونُ صيغــةُ الجمع في هــذه الحال مخفِّفَــة لإيحــاء صيغــة الإفــراد في درج الكلام...

- ومنــه قــول ابــن مُقانــا الأُشبونــي البَطَلْيَوْسِــيّ[٢٨] الأندلسي في ختام قصيدةٍ مــدحَ بها إدريس بن حمــود الحَسني (حكم مالقة مدَّةً في زمن دول الطوائف):

يا بني أحمدَ يا خيرَ الورى
لأبيكمْ كان وفدُ المُسلمينْ
نزلَ الوحيُ عليه فاحْتبى
في الدُّجا فوقَهُمُ الرُّوحُ الأمينْ
خُلِقُوا من ماءِ عَدْلٍ وتُقى
وجميعُ الناسِ من ماءٍ وطينْ
انظُرُونا نقتبس من نوركم
إنّــهُ من نورِ ربِّ العالمينْ

والشطر الأول من البيت الأخير اقتباسٌ من آيةٍ كريمةٍ مــن سورة الحديد (١٣/٥٧) استفــاد الشّاعر مــن ذلك، وعَبّــر به عن شخصه وحاله.

- وقــد يكــون ذلك من بــاب الاستغراق الشّخصــي فــي القضيــة أو الموقف؛ وهو استغراقٌ يُتيح الانتقال من المفرد إلى الجمع، فــإذا تحقّق له ذلك رجَــع إلى صيغة المفرد لتوكيد الذات. ولنقرأ بعضَ ما قاله حاتم:

أَمـاوِيَّ إن يُصبحْ صَدايَ بقفرةٍ
من الأرضِ لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
تَـرَيْ أنّ ما أنفقْتُ لم يكُ ضَرَّني
وأنّ يـدي ممّا بخلْتُ بـهِ صِفْرُ
وقـد عَلِمَ الأقـوامُ لو أنّ حاتمًا
أرادَ ثـراءَ المـالِ كـانَ لـه وَفْـرُ
غَنِيْنا زمانًا بالتَّصعلك والغِنى
كما الدَّهْرُ في أيامهِ العُسْرُ واليُسْرُ(٢٩)

فهذه ثلاثـة أساليب متواليـة: المتكلم المفـرد: (مـا أنفقـتُ، بخلـتُ) والغائب: (أراد... كان لـه) والمتكلّم بصيغة الجمع: (غَنينا).

وقـد استمـرّ حاتم على هـذه الصيغة حتى انتهى من الفكرة كاملةً. لقد استغرقت الأبيـاتُ شَخْصَهُ موصـولًا بقضيّته: الكرم والجود، ومكارم الأخـلاق... فلما استوفى هذا الجانـب بالصّوت الصـدّاح عاد إلى توكيد الذات مع سَكينةِ الاطمئنانِ إلى تبليغِ الموقفِ إلى ماوية وسائرِ النّاس (وقد مرّت الإشارة إلى جانبٍ من هذا الملمح).

- وقد يرتفع الصوتُ الصَّدّاحُ للشاعر، وهـو ينتقل مـن المُفرد إلـى الجمع وهو في معرض الدفاع عـن الـذّات، وإثباتِ الشَّخصيّـة، ورفعُ الغُبْـنِ، والإيحاءِ بصوتٍ جَماعي مفيـدٍ لمثلِ هـذهِ المَواقف، ومنه قول أبي الطيّب:

ما كـان أَخْلَقَنـا منكم بتكرمةٍ
لو أنّ أَمْرَكُـم من أمرنـا أَمَـمُ...
وبيننـا لـو رَعَيْتُـم ذاك معرفةٌ
إنَّ المعارفَ في أهل النهى ذِمَمُ

- وقد يبدو للقارئ أنّ الشاعر خرج إلى صيغة الجمع لإثبات القضيّة، وليسَ لتوكيد الذات، فإنَّ ابنَ زيـدون - مثلًا - استرسل في صيغة المفرد في قصيدة:

إني ذكرتك بالزهراء....

واستمرّ على هـذا الأسلوب إلى أواخر القصيدة حتى قال في آخر بيتين:

كان التّجازي بِمَحْضِ الوُدِّ مذ زَمنٍ
ميدان أُنس جَرَيْنا فيه أطلاقا

فـ(نا)جرينا لابن زيدون ومخاطَبتهِ معًا، ثم قال:

فـالآنَ أَحْـمَـدَ ما كنّا لعهدكمُ
سلوتهمُ، وبقينا نحنُ عُشاقا!

فهو يعلنُ استمرارَ الـوُدّ قويًّا من جهته (أَحْمَـد مـا كان للعهـد، واستمـرار حال العِشق). وهذه يناسبها أو يزيدُ في مناسبتها ضميرُ الجمع لإثبات الاستمرار والاستغراق والدَّيمومة...

ثم أقـول: وكأنَّ المـرادَ من قول ابن زيدون: «وبقينا نحـن عُشاقا» هو: «بقي عشقي الكبيـر العظيم الـذي لا يُذْهِبُ جِدَّتَـهُ ولا يَفُـلُّ حِدَّتَـهُ مـرورُ اللّيالي والأيّام!...».

- ونلاحظ ملمحًا آخر في انتقال المتكلم المفرد إلى صيغة الجمع في شعر أحمد شوقي، وهو الإشباع النّفسي للحال التي يكون عليها الشاعر؛ أوْ يَسْتَحْضِرُها؛ فبعدَ أنْ ذكرَ الشاعر أحبّته استطرد إلى صفةِ روضٍ (وشوقي يُتقن مثل ذلك الوصف) وأطال - كما سبق في قصيدته (والزمان وليد) - حتى ختم الفقرة وجمع فيها (في آخر بيتين) بين صيغة الإفراد وصيغة الجمع:

جزعتُ فراعَتْني من الشيبِ بَسْمَةٌ
كأنّي على دَرْبِ المشيبِ لَبيدُ
ومن عبَثِ الدُّنيا وما عبثَتْ سُدًى
شَبَبْنا وشِبْنا والزَّمانُ وليدُ

فقد أعان الشّاعرَ على مقصده من ذكرياتِ أيّام الشّبابِ هذا الانتقالُ إلى صيغةِ الجمع أكثر من مرَّةٍ، فقد روَى ما أمْتَع قلبه ونفسه في ما مضى، واستعادَ تلكَ الذكريات مُستمتعًا بتلك الإعادة مستعيناً بالأُسلوبِ الذي نَتحدّث عنه.

الهوامش

١- جمع ما يخصّ هذا النّوع وفَصّل فيه د.أحمد مطلوب في «معجم مصطلحات البلاغة»، الجزء الأول منه: ٢٩٤-٣٠٣.
٢- ديوان النابغة الذّبياني (المعلقة).
٣- معجم مصطلحات البلاغة: ٢٩٨-٣٠٢.
٤- عبادة (أو عبيد) بن مجيب من بني كلاب بن عامر، شاعر لصٌّ فاتك بدوي كان يألفُ القفر (توفي نحو سنة ٧٠ كما قدّره د.عمر فروخ في تاريخ الأدب العربي ١: ٤٣٣-٤٣٥).
- وللقتال ديوان مجموع من مصادر التراث اعتنى به الدكتور إحسان عباس.
٥- همّ بالأمر همًّا: عزم على القيام به. والغُمّة، كالغمّ: الكرب.
٦- جليد من جَلُدَ: صبور على المكروه. والخِيَم: السجيّة والطبيعة. والضرائب جمع ضريبة والضريبة: الطبيعة والسجيّة.
٧- ساغب: جائع.
٨- لازب: لازم.
٩- أُمية بن أبي عائذ العَمْري، من هُذَيل، من أهل بادية الحجاز. من شعراء العصر الأُموي. وله ترجمة في كتاب الأغاني. وقدّر الزركلي في الأعلام وفاة أمية سنة ٧٥هـ.
١٠-في أخبار أمية أنّ عبد العزيز أذِن له بالعودة إلى الحجاز. وكان قد نال عنده، وعند بني أميّة عامةً مكانةً، وحُظوة.
١١- الخَرْقُ: الفلاةُ المقفرة الواسعة. الضُّمَّرُ (جمع ضامر وضامرة) الناقة المضمَّرة، السريعة القادرة على قطع المسافات الطوال. والسّرى: السير، السفر، ليلًا. الزعازع: الرياح الشديدة.
١٢- فاضل السّامرائي: لمسات بيانية: ٢٥٠.

١٣- رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء (ما ذُكر عن بني إسرائيل) برقم ٣٤٦١.
١٤- رواه البخاري في كتاب: فرض الخُمس باب قوله تعالى: (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ)، برقم ٢٩٤٩.
١٥- أخرجه أحمد في مُسنده (برقم: ٢١٥٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه بإسنادٍ صحيح، ولفظه: نضَّر الله امرأً سمع عَنّا فحفظه مني يبلغه غيره فإنه ربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه. وفي سنن ابن ماجه: ٢٣٠، وهو في سنن أبي داود: ٣٦٦٠، والترمذي ٢٦٥٨.
١٦- شرح الجامع الصغير: فيض القدير ١: ١٣٠. وفي رواية لأحمد في المسند ١٩٥٠٨ «عندي» بدل: عندنا.
١٧- ينظر نص القصيدة كلها في الأغاني (دار الكتب) ١٧: ٣٨٤-٣٨٧.
١٨- في حواشي (الأغاني) ط دار الكتب أنَّ هناك رواية بالعين المهملة «عُنينا» وقد اختارها د.عمر فرّوخ (دون الإشارة إلى غَنينا) وأعتقد أنها رواية ضعيفة أو تصحيف حاتم.
١٩- وسيمر - بعد - أنه يمكن أن يدعى: الالتفات الوجداني، والالتفات الداخليّ.
٢٠- شاعر توفي نحو سنة ٢٣٠هـ.
٢١- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح التبريزي (الموضح ٤: ٥٢٤ وما بعدها).
٢٢- انظر ترجمة عمار بن ياسر (رضي الله عنه) في الإصابة مثلًا.
٢٣- الموضح ٤: ٥٢٥.
قال في الشرح: يقول: شرّ البلاد مكان يُعوزكَ فيه الصديق. وشرّ ما يقتضيه الإنسان قَنَصٌ تشترك فيه البزاةُ الشهب والرخمُ؛ لأنّ البزاة تصيدُ، والرَّخَمُ إنّما تقعُ على الجِيَف. فكأنه جعل ما يصيبه في هذه البلاد من الرزق شيء لا خير فيه، لأن الرخم يقع عليه فيصيبُ منها كما تصيب البزاة.
٢٤- وفيات الأعيان ١: ١٦٤-١٦٨.
٢٥- ديوان أحمد شوقي (بعناية د.أحمد الحوفي).
٢٦- ديوان شوقي ١: ١٤٩.
٢٧- والعبارة جارية على المنهج الفصيح؛ أي تركتكِ في حفظ الله ورعايته.
٢٨- ابن بسّام الشنتريني- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣: ٧٨٦-٧٩٦.
٢٩- في حواشي (الأغاني) ط دار الكتب أنَّ هناك رواية بالعين المهملة «عُنينا» وقد اختارها د.عمر فرّوخ (دون الإشارة إلى غَنينا) وأعتقد أنها رواية ضعيفة أو تصحيف.

المصادر والمراجع

١- الأصفهاني (أبو الفرج) - الأغاني - دار الكتب المصرية - القاهرة.
٢- ابن بُرد (بشار) - ديوان بشار (تحقيق محمد الطاهر بن عاشور - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ٣ أجزاء، والجزء الرابع المتمّم).
٣- ابن بسام الشنتريني - علي بن بسام، أبو الحسن - الذخيرة ومحاسن أهل الجزيرة - ت.إحسان عباس. (الدار العربية للكتاب - ليبيا- ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

٤- التبريــزي (يحيــى بن علي) - المُوضح في شعر أبي الطيب - دراســة وتحقيق د.خلف رشيد نعمان - دار الشؤون الثقافية - بغداد - الطبعة الأولى - بغداد - ٢٠٠٤م.
٥- الحموي (ياقوت) معجم البلدان - دار صادر - بيروت.
٦- ابن خلّكان (أحمد بن محمد، شمس الدين) وفيات الأعيان - تحقيق د.إحسان عباس - دار صادر.
٧- الذبيانــي (النابغــة) - ديوان النابغــة الذبياني - تحقيق محمــد أبو الفضل إبراهيــم - دار المعارف - القاهرة.
٨- الذهبي (أحمد بن محمد بن عثمان بن قايماز) سير أعلام النبلاء - (مؤسسة الرسالة دمشق).
٩- الزركلي (خير الدين) - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت.
١٠- ابن زيدون - ديوان ابن زيدون - تحقيق علي عبد العظيم.
١١- السامرائي (فاضل) لمسات بيانية (نسخة إلكترونية).
١٢- فَرّوخ (عمر) تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين - بيروت.
١٣- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد) - الشعر والشعراء - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.
١٤- ابن قميئة (عمرو بن قميئة) - ديوان عمرو بن قميئة - معهد المخطوطات - القاهرة.
١٥- مطلوب (أحمد) - معجم مصطلحات البلاغة (بغداد).

تجليات الجمال عند العرب

❀
هيثم دقاق



الجنس هو العلمُ الأصعبُ بين العلوم، فهو ليس موضوعاً بيولوجياً فحسب بل هو علاقةٌ اجتماعيةٌ ونفسيةٌ مع الآخر؛ فالإنسان يمكن أن يأكل ويشربَ بنفسهِ؛ لكنّ في عملية الجنس لابدَّ من وجود الآخر الذي يرتبط معه بعلاقة حميمة، وتنعكس هذه العلاقة على الشريكين في حالتيهما النفسية والاجتماعية؛ وتتحدد هذه العلاقة بالأعراف والتقاليد الناظمة للحياة الاجتماعية في مرحلة معينة.

❀ كاتب وباحث.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وقد اهتم القدماء، منذ بداية التاريخ بمسألة الجنس وقدموا النصائح العملية في هذا العلم؛ كما احتوت أساطيرهم وقصصهم وفلسفاتهم على شروح توضح الفروق الطبيعية بين الجنسين (الذكر والأنثى)، وصدرت عنهم كتب كثيرة تشخص أسباب اقترابهما من بعضهما أو تنافرهما أحياناً؛ وتستخلص العبر على مختلف المستويات بين الطرفين في المعادلة الجنسية والعاطفية.

ولم يجد هؤلاء الكتاب حرجاً في تسمية الأشياء بأسمائها الصريحة وليس تلميحاً، واستخدام الألفاظ الدالة عليها، أو ما يسميه البعض (عورات الجسد)، وشرحهم للعملية الجنسية ووصفها وصفاً واضحاً بأسلوب علمي بعيد عن القحَّة والفجور. لأنهم لم يكونوا معقدين من مسألة الجنس، حيث وصلتنا كتاباتهم حول هذا الموضوع دراسةً وشعراً ونثراً وقصصاً؛ لا تخلو من النوادر والحكايات والتوجيهات الطبية الشعبية.

يُعرَّف الجنس بأنه: غريزة في الإنسان مثل غيرها من الغرائز التي تتحكَّم به والتي منها غريزة الأكل والشرب والنوم.. وكلُّ هذه الغرائز تهدف إلى غاية واحدة هي بقاء الإنسان واستمراره على الأرض.

والجنس ينقسم من حيث المعنى إلى قسمين، سواء أكان ذلك في معناه العام أم في معناه الخاص. فالمعنى العام للجنس هو: الذكورة والأنوثة، أي معناه البيولوجي. أمَّا معناه الخاص فهو: الممارسة الجنسية، وما يحيط بها من بدء وانتهاء وأحاسيس ومشاعر انجذاب، وما يتداخل معها من أفعال، أي المعنى الاجتماعي.

وكان كتاب (الكاماسوترا) الهندي في القرن الثالث أوّل ما كُتب فنياً في الحب واللذة وتأثيرهما على الحياة؛ فهو يدعو للمعرفة، ويقدم النصائح العملية في علم الجنس. وقد تُرجم لأكثر لغات العالم لإتاحة المجال للاطلاع على رأي أمة شرقية كبيرة في الحب والجنس والجماع. حيث إنَّ الجنس عند الهندوس لا يُعتبر فضيلة ولا رذيلة؛ ولكنه يمكن أن يكون سبيلاً إلى السمو الروحي.

كما حفلت المكتبة العربية الإسلامية بمؤلفات كثيرة درست العلاقة بين المرأة والرجل من حب وهوى وهيام ممزوجة بصورة من اللذة والشهوة، أخذت طابعاً ذكورياً في كثير من الأحيان بعيداً عن مفاهيم الخطيئة والإثم، وجعلت المرأة مجرد موضوع لمتعة الرجل وماكينة للإنجاب، «ومعظم الكتب الجنسية التي ألفت منذ القرن الثالث موجودة في مكتبات

العالم مخطوطة لم تطبع. والذي بين أيدي الناس هو ما ألف في القرون الأخيرة»[١]. «سواء الموضوعة منها أو المترجمة عن الفارسية أو الرومية أو الهندية. ويرجع سبب ظهورها إلى عوامل شتى منها طبيعة العرب الشهوانية، وما وفرته لهم الحضارة والترف من الحرية وأسباب الملذات، ومعاشرة الجواري والقيان والغلمان، ووجود الأماكن التي توفر المتعة.. يتشارك في ذلك كله العامة والخلفاء، كلٌ على قدر نصيبه من الحياة وتوفر الأسباب لديه»[٢].

ويمكن تصنيفها إلى:

- كتب في الحب الجنسي واللذة على اختلاف أنواعها.
- كتب طبية تتعلق بالأمور الجنسية.
- كتب جمعت بين الحب والطب والجنس.
- كتب ذات موضوعات مختلفة تتعلق بالجنس.

المؤلفات الجنسية:

• على الرغم من أنَّ جلال الدين السيوطي عالم ديني، على المذهب الشافعي؛ قد عمل قاضياً ومفتياً فإنَّ له كتباً كثيرةً في هذا الموضوع؛ ولم يُحرّم على فكره وقلمه الخوض في هذا المضمار، وألَّف فيه كتباً كثيرةً، في أنواع النكاح وضروب النساء، ذكر فيها الأمور الجنسية على حقيقتها، مما لا يجرؤ أحدٌ على كتابته اليوم، وما كان السيوطي من الخلعاء ولا الفساق بل كان من كبار علماء القرن العاشر، كما بلغ مرتبة الاجتهاد، من كتبه: كتاب (رشف الزلال من السحر الحلال)، وكتاب (ضوء الصباح في لغات النكاح)، وكتاب (الإفصاح في أسماء النكاح)، وكتاب (اليواقيت الثمينة في صفات السمينة)، وكتاب (مباسم الملاح ومباسم الصباح في مواسم النكاح)، وكتاب (الإيضاح في أسرار النكاح)، وكتاب (شقائق الأترنج في رقائق الغنج)، وكتاب (نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر)، وكتاب (نزهة المتأمل ومرد المتأهل)، وكتاب (الوشاح في فوائد النكاح) وغيرها من الكتب.

• كتاب (العلوم والإيضاح في أسرار النكاح) للشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيرازي.

• كتاب (الفتح المنصوب إلى صيد المحبوب)، و(كتاب تحفة العروس وجلاء النفوس) للتيجاني.

• كتاب (الروض العاطر في نزهة الخاطر) للنفزاوي.

• كتاب (العرس والعرائس)، وكتاب (المفاخرة بين الجواري والغلمان) وكتاب (جامع اللذات) للجاحظ. وقد قال الجاحظ:

إن الجنس أمرٌ شائعٌ بين المخلوقات، إلا أن الشرع قد قنّن هذه العلاقة

• كتـــاب (الباهية والتراكيب السلطانية) لنصر الدين الطوسي.

• كتاب (رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه) لأحمـــد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا.

• كتاب (الباه)، وكتاب (برجان وحبايب)، وكتاب (خطـــاب المكاري لجاريــة البقال) للنملي الذي عاصر المتوكل.

• كتاب (الإيضاح في علم النكاح)، وكتاب (القيان) لابن حاجب النعمان.

• كتاب (جوامع اللذة) لابن السمناني.

• كتاب (المناكحة والمفاتحة في أخبار الجماع وآلاته) لعز الدين المسبّحي.

• كتاب (نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب) لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي.

• كتـــاب (نزهة الأصحـــاب في معاشرة الأحبـــاب) للسمـــوءل بن يحيى بـــن عباس المغربي الإسرائيلي الحاسب.

• كتب الألفية نقلها عن الهندية الحكيم الأزرقي.

وقد درس الغرب من هذه الكتب، وكتبوا عنها واستفـــادوا منها، بسبب اهتمامهم بها ووصولهـــم إلى مخطوطاتهـــا قبل أن تصل إلـــى يد المحققين العرب ودور النشر فيها، في حيـــن اعتبرت عامة النـــاس هذا العلم من الأمور المحرمة ينشر الرذيلة والفساد، واتهم البعضـــ منهم الغـــرب بنشر الرذيلة والفســـاد، إلا أن الحقبـــة الإسلامية كانت ممتلئـــة بكل أنـــواع الحيـــاة الجنسية التي بهرت الغرب ووصلت إلى درجات عالية من الازدهـــار، والدلائل تشير إلى أن الغرب قد اقتبس هذه الحياة مما يتجلى في كتاباته.

وقـــد ميّز الإسلام بيـــن الغزل والفحش من القول، فالتغـــزّل بجمال المرأة ووصف محاسن جسدها يختلـــف كثيراً عن الرّفث في القول، الذي هو الفُحش في ذكر النساء بحضورهـــنّ، أي خلـــط الجنســـ بالبذاءة، والرّفـــث غيـــر مقبول اجتماعيـــاً حتى في أعراف الدول الغربيـــة التي تعتبره بعضها بمثابة تحرّش جنسيّ غيـــر مباشر وتعاقب عليه.

كانـــت أول قصيدة غزليـــة في الإسلام قصيـــدة كعب بـــن زهير بـــن أبـــي سلمى المشهورة والتي استمع إليها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلـــم) وهو في المسجد، ولأنّ النبـــيّ (صلى الله عليـــه وسلم) أعطاه بُردتـــه الشخصيّـــة استحسانـــاً فيها، فقد عُرفـــت عند البعضـــ بقصيـــدة «البُردة»، أكثـــر مما عرفت باسم شاعرها أو مطلعها، كما كان متعارفـــاً عليه ثقافيّاً آنذاك. وكان الشاعر ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأقام يشبب بنساء المسلمين، فأهدر النبي

(صلى الله عليه وسلم) دمه، فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعه(٢):

بانَت سعاد فَقَلبي اليومَ مَتبُول
مُتيّمٌ إثرَها لم يُفد مكبولُ
ومَا سُعادُ غَداةَ البينِ إذ رحلوا
إلا أغَنٌّ غَضيضُ الطَرفِ مكحول
هيفاءُ مُقبِلةً عجزاءُ مدبرةً
لا يُشتكى قِصَرٌ منها وَلا طولُ

ثم يعتذر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويطلب العفو منه فيقول:

أُنْبِئتُ أنَّ رسول الله أوعَدَني
والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الَّذي أعطاك نافلةَ ال
قُرآنِ فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخُذنّي بأقوال الوشاة وَلَم
أُذنب ولو كثُرت عنّي الأقاويلُ
إنَّ الرسول لَنورٌ يستضاءُ به
مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول

تيسر لي منذ مدّة قراءة ثلاثة كتب للدكتور صلاح الدين المنجّد -رحمه الله- من منشورات دار الكتاب الجديد تتحدث عن الجنس عند العرب وهي:

١ - جمال المرأة عند العرب.

٢ - أمثال المرأة عند العرب ما قالته المرأة العربية وما قيل فيها.

٣ - الحياة الجنسية عند العرب من الجاهلية إلى القرن الرابع الهجري.

ولد صلاح الدين المنجد صاحب هذه الأسفار في دمشق (١٣٣٤ هـ/١٩٢٠م) لأسرة دمشقية من حي القيمرية، وتخرج في دار المعلمين عام ١٩٣٩م، ثم نال إجازة الحقوق من الجامعة السورية عام ١٩٤٣م، وعين بعدها رئيساً لديوان مديرية الآثار العامة ١٩٤٤م، ثم رئيساً لدائرة الآثار العامة عام ١٩٤٧م، حصل على الدكتوراه في القانون والتاريخ من فرنسا. عَهَد إليه مجمع اللغة العربية في دمشق تحقيق تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر. وخلال الخمسينيات من القرن الماضي عمل مديراً لمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية مدة ثماني سنوات، ثم استقر في بيروت مؤسساً (دار الكتاب الجديد) للنشر، التي احترقت أثناء الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥م.

حاضر وزار العديد من جامعات العالم وانتخب عضواً في المجامع العلمية في دمشق والقاهرة وبغداد، وعضواً في المعهد الألماني للآثار في برلين، وله أكثر من مئة وخمسين كتاباً ما بين تأليف وتحقيق، ومن أشهر كتبه: معجم المخطوطات المطبوعة، ومعجم ما ألف عن النبي (صلى الله عليه وسلم).

يذكر الباحث عبد الكريم اليافي أنَّ أعمال الدكتور صلاح الدين المنجِّد في

مجالــي التراث والثقافــة واسعة جداً تكاد تنيــف على مئة وخمسيــن عملاً من أهمها تحقيقــه للقسم الأول من تاريخ ابن عساكر الموســوم «تاريخ دمشق وذكر فضلها»، وهو مخطوطة تبلــغ نسخه ثمانين مجلدة، وكان ذلك بإيعاز من رئيس المجمع العلمي العربي ومؤسسه الأستاذ المحقق محمد كرد علي.

كما اهتم «المنجــد» بتقصي الحوادث الكبرى في عصر بني أمية، وأعلام التاريخ والجغرافيــا عنــد العرب كمــا اهتم بعلم الخط العربي منذ نشأتــه إلى آخر العصر الأموي. أما في مجال المخطوطات العربية، فيذكــر له الباحثــون كتابه الهــام «قواعد تحقيــق المخطوطــات العربيــة»، وفهرس المخطوطات في مكتبة الأمبروزيانا، وفهرس المخطوطات العربية في مكتبة الكونغرس، وقواعــد فهرســة المخطوطــات العربية، وقواعــد ضبط النصوص عنــد الأقدمين، والمخطوطات العربية في فلسطين.

بموت العالــم والباحث والمحقق صلاح الدين المنجِّد تُطــوى صفحة من صفحات ذلــك الجيل من أبنــاء العروبــة والإسلام الذين نذروا أنفسهم لخدمة التراث العربي والإسلامي تأليفــاً وتحقيقاً، وأهم ما يميّز ذلــك الجيــل؛ تلــك الثقافــة الموسوعية الشاملة والتي طبعــت شخصياتهم العلمية طلبــاً للدرس، وبحثاً عن مظــان المعرفة، وأصالــة فــي الكتابة والتأليــف، ويصحب ذلــك كله تواضع جــم، وأدب بالــغ، وتعالٍ عن سفاســف الأمور، وهــذه السمات هي التي جعلــت الأجيال اللاحقة تنجذب لتلك الصفوة التي تساقط الكثير منها في ميدان العلم والمعرفة، وهو الجهاد الحقيقي الذي حثّت عليه تعاليم ديننا الحنيف.

وحول هــذه الكتــب الثلاثــة، موضوع بحثنا، أقتبــس ما كتبه شاعر الشام (شفيق جبــري) (١٨٩٨ - ١٩٨٠م) فــي وصــف الكتاب الأخير وتنطبق على كتبه آنفة الذكر «إنه رصف أخبــاره رصفاً سلسلت فيه لغته وسهلت تراكيبــه بحيث خلا من كل غمغمة أو جمجمــة. وإنا نعيش في عصر أصبحت فيه مواجهة الحياة الواقعة أمراً لا مندوحة عنه وأظن أن الهرب من هذه الحياة الواقعة إنما هــو من خطأ الأمور. فلماذا نهرب من أمر نجعله أحاديثنــا في مجالسنا وخلواتنا ولاسيمــا إذا خلت هــذه المجالس من كل كلفــة أو تصنُّع لماذا نهرب مــن أمر عليه مدار الحياة كلها»[٤].

وهــذا القــول يذكرنا بقــول آخر: «في العالــم العربي الكبير المولــع بكرة القدم، نجد أن النــاس يتعاملون مع الجنس عكس تعاملهــم مع هذه الرياضة تمامــاً؛ إذ الكل يتحدث عن الكــرة ولا أحد يمارسها، ولكن في المقابل الكل يمارســ الجنس ولا أحد يتحدث عنه»[٥].

إذا حاولنا أن نتصفح هذه الكتب نجد أن:

فـي الكتاب الأول: يتحـدث عن جمال المـرأة عند العرب، فـي مؤلف من (١٥٩) صفحـة، يعرض فيه ما قيـل عن اختلاف النظرة إلى الجمال فـي العصور المختلفة من الجاهليـة إلى صدر الإسلام ثم العصر الأموي فالعباسي ثم ينتقـل إلى الأندلس. ويتحـدث عن جمال الجسـم وجمال الروح ويشير أخيراً إلى أنه لابد أن نعترف بأنَّ ما ورد في وصف جسم المرأة يفوق ما ورد في وصف مظاهر جمالها الروحي. لذلك أفرد فصلاً سمـاه (المرأة تحت المجهر) عرض فيـه ما قيل فـي كل عضو مـن أعضائها. ويختـم كتابـه بقسـم أطلق عليـه (ديوان الجمـال) أورد فيه أجمل ما قيل من الشعر والنثر في أوصاف المرأة.

ويقـرر أنَّ «الجميل على الجملة، هو ما بعث في نفسك عاطفـة الرضا والإعجاب معـاً، فكل ما استهوى قلبـك، وأثار حسك، وحرك دهشتك، مع رضاك وإعجابك، فهو جميـل». «واختلـف الناس فـي النظر إلى الجميل لاختلاف الذوق وتباينه؛ فمنهم من يراه جمال الجسم المكتنز لحماً، وآخر يراه فـي الدقيقة كالعود، ومنهم من راح بينهما، ومنهـم من رآه في اللحم دون مراعاة الروح أو فـي الـروح دون مراعاة اللحـم أو في كليهما».

قالـت العرب: الجمالُ هـو الحسن في الخَلْقِ والخُلُق. وقال القرطبي: قال علماؤنا: الجمـال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة. وهو أمر يدركه البصـر ويلقيه إلى القلب، فتعلـقُ به النفس من غير معرفةٍ بوجه ذلك ولا نسبتهِ لأحدٍ من البشر».

وفـي الشعر عن عليّ بن الجهم قال في وصف فتاة جميلة:

طَلَعَتْ فقال الناظرون إلى
تصويرها ما أعظَمَ اللهَ
ودَنَت فلما سَلَّمَتْ خَجِلتْ
والتفَّ بالتفاح خدّاها
وكأنَّ دِعصَ الرمل أسفلُها
وكأن غُصنَ البانِ أعلاها
حتى إذا ثَمِلَتْ بنشوتها
قرأتْ كِتاب الباهِ عيناها

كذلك يقول أحمد شوقي:

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا
الباسماتِ عن اليتيم نضيدَا
حَوَتِ الجَمالَ فلو ذهبتَ تَزيدُها
في الوهم حسناً ما استطعتَ مزيدا
لو مرَّ بالولدان طَيْفُ جَمالها
في الخلد خرّوا رُكّعاً وسُجودا
أشهى من العود المرنَّم منْطقاً
وألـذُّ من أوتاره تغريدا

وعن بشـار بن برد (الأعمى): بعد أن دخل المهدي حجرة بعض جواريه على حين غفلـة منها، فرآها تغتسل، فلما رأته سترت

متاعها بكفيّهـا، وكان أعظم من أنْ يشتملا عليه، فانثنت حتـى توارى في عَكَن بطنها، فخرج وهو يقول:

نَـظـرت عـيـنـي لـحـيْـنـي
مـنـظـراً وافـق شَـيْـنـي

فوجد بشار بن برد في الدار فطلب منه أن ينشـده في ذلـك دون أن يعرف قصته، فقال بشار على البديهة:

نَـظـرت عـيـنـي لـحـيْـنـي
مـنـظـراً وافـق شـيـنـي
سـتـرتـه إذ رأتـنـي
تـحـت بـطْـنِ الـراحـتـيـن
فـبـدت مـنـه فُـضُـول
لـن تـوارى بـالـيـديـن
فـانـثـنـت حـتـى تـوارى
بـيـن طـيِّ الـعَـكْـنـتـيـن

فقـال لـه المهـدي: والله ما أنـت إلاّ ساحـر، ولولا أنك أعمـى لضربت عنقك، ولقـد حكيت الأمر علـى وجهه حتى كأنك رأيته، ولكني أعلم أن ذلك من فرط ذكائك، وجودة فطنتك.

الكتـاب الثانـي: يتحـدث عـن «أمثال المرأة عند العرب مـا قالته المرأة العربية ومـا قيل فيها» مؤلف مـن (١٥٦) صفحة، أشـار فيه إلى اعتناء العـرب في الجاهلية بالأمثـال واستمـرار اهتمامهـم بهـا في الإسـلام، واتخذها القـرآن الكريم وسيلة للتذكير والاعتبار، ويرى الكاتب أن للأمثال فوائد تتجلى في كونها:

١ - مصدر من مصادر اللغة العربية.

٢ - تمثل مرآة العصر الذي قيلت فيه، تلقي الضوء على حياتها وعقليتها وأهوائها وضعفها وقوتها وسلوكهـا ونظرة المجتمع إليها.

٣ - تعتبر وسيلة للإرشاد والتوجيه، لأنها نتجت عن تجارب وحوادث كان مرجعها النفس الإنسانية العربية؛ التي تتشابه في نوازعها وأطوارها؛ ليعتبر بها القارئ والسامع ولئلا يقعَ بما وقع فيه غيره.

واختـار من الأمثـال الجاهليـة ما له علاقة بحياة المـرأة الجنسية وما اعتمده الإسلام؛ وعيّـن المصادر التي استقى منها هذه الأمثال للعودة إليها مُبيِّناً أصل كل مثلٍ وقصة روايته ومن قاله. ومنها:

• المرأةُ ريحانةٌ وليست بقهرمانة[٦].

• المـرأة الصالحة خيـر من ألف رجل غير صالح[٧].

• كالفاخرةِ بحِدْجِ رَبَّتها[٨].

• تشتهي وتشتكي[٩].

الكتـاب الثالـث: مؤلـف مـن (١٨٣) صفحة. يتحدث عـن الحياة الجنسية عند العرب مـن الجاهليـة إلى أواخـر القرن الرابع الهجري. مـروراً بالعصر الإسلامي فالأمـوي ثم العباسـي، ويعرض ما ورد في

القصص الشعبي؛ ثم أشار إلى المؤلفات الجنسية عند العرب. قال في مقدمته: إن الناس اعتادوا أن يتحدثوا عن المرأة والجنس همساً، وأن يحيطوا أخبارهما بالكتمان، بل ويتهمون من يتحدث عنهما بضعف الخلق والاستهتار. ثم يتهافتون سراً في الظلام وفي الخفاء على قراءة كتب جنسية رخيصة تثير الغرائز وتهيج الجنس ويحيطون ذلك بالكتمان؛ مما يؤدي إلى الكبت وما يتبعه من عقد نفسية يصعب حلها على الرغم من أن الجنس شيء يخلقه الله فينا ساعة نخلق وهو أساس حياتنا.

وقال في ذلك شاعر الشام شفيق جبري: «.. ولا ينبغي أن نتظاهر بالعفة في أمر من أمورنا ونحن نحلم بهذا الأمر في اليقظة والمنام» وهو يعتقد «أن أدباءنا القدامى إذا كثرت مؤلفاتهم الأدبية هذه الكثرة مما لا نكاد نجد له شبيهاً في العالم، فالسبب في وفرة إنتاجهم أو من أسباب هذه الوفرة نشاط غرائزهم، ولو كانوا يعانون ما نسميه كبت الغريزة لعميت قلوبهم وصدئت خواطرهم ولما نعم ميراثنا الأدبي اليوم بما ينعم به من مؤلفات منقطعة النظير»[١٠].

وكانت أعضاء المرأة الخفية محط الأنظار، حتى إن النساء كن يطفن عرايا في البيت الحرام، «ويذكر الإخباريون أن الطائفين بالبيت (قبل الإسلام) كانوا على صنفين: صنف يطوف عرياناً، وصنف يطوف بثيابه. وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم لذنوبهم معاً. ويذكرون أنهم كانوا يقولون: «لا نعبد الله في ثياب أذنبنا بها»، وتخضع النساء لهذه القاعدة أيضاً، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، بل كانت تضع إحدى يديها على قلبها واليد الأخرى على دبرها وتطوف حول البيت على هذا النحو»[١١] وكانت منهن ضباعة بنت عامر بن صعصعة، مطلّقة عبد الله ابن جدعان، حيث شرط عليها أن تطوف في البيت الحرام عريانة إذا تزوجت غيره. فلما تزوجت فعلت ذلك وهي تنشد:

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أُحلُّهُ
كم ناظر فيه فما يمله
أجْثم مثل القعْبِ بادٍ ظلُّهُ

ومن الشعراء من أراد إغراء النساء بمنح القبلات لمحبيهن وأعطاها صبغة دينية فقال:

إذا قبَّل الإنسانُ آخرَ يشتهي
ثناياه، لم يأثم وكان لهُ أجرا
فإن زاد، زاد الله في حسناته
مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

أخيراً إننا ننظر اليوم إلى الأمور الجنسية بمقاييس ثنائية، واحد منها هو المقياس المعلن، والآخر هو الخفي الذي

يتوافق مع ما يشعر به الفرد ويتوق إليه في أعماق نفسه، أو يمارسه في السر بعيداً عن معرفة أو أنظار الآخرين. لذلك لا نجد أحداً لديه الاستعداد لقول الحقيقة عن الجنس.

هذا الموقف المزدوج يرجع للقواعد الاجتماعية والمعتقدات الدينية وصراعها مع النوازع الجنسية الداخلية، إلا أنَّ الإمعان والتشدد في التستر عليها وتباين المفارقة والازدواجية بين المكتوم والمعلن؛ قد يؤديان إلى صراعات نفسية تصل إلى حدودها المرضية. ومع ذلك نشير إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار و الانتباه إلى الإبقاء على خصوصية الحياة الجنسية الأسرية إلى أقصى حدودها.

كما لابد أن نشير إلى أن الله تعالى ميز الإنسان عن الحيوان بالعقل؛ لذلك فإنَّ قوانين الأخلاق الاجتماعية والدينية تنظم علاقته مع الآخرين، على حين أنَّ الحيوان تشده غرائزه من دون ضابط أو رادع. لذلك فإنه عندما يفقد الإنسان عقله أو يكون عقله نائماً أو مُنوّماً، فإن رغبته الجنسية تتحرك من دون ضوابط حتى يستيقظ عقله مجدداً.

علماً أنَّ عملية الجذب الجنسي تختلف بين الإنسان والحيوان؛ فهي تعتمد على حاسة الشم للروائح التي تفرزها إناث الحيوانات لجذب الذكور وهو العامل الأهم، في حين أن حاسة البصر والمشاهدة هما الأهم عند الإنسان.

أخيراً إن الجنس كان منتشراً ومسموحاً به في الحضارات القديمة وفق قواعد ونظم معينة؛ وتعتبره فعلاً بيولوجياً يقصد به المتعة والإنجاب لحفظ البشرية بعيداً عن كونه فعلاً حيوانياً؛ لذلك كانت كتاباتهم تتراوح بين أن تكون طبية أو فلسفية أو روائية قصصية.

قال بعض العقلاء: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان؛ إن تركته ضرك وإن أكثرت منه قتلك، ومن عشق لطُف وظرُف ودق ورق. وقيل لبعضهم متى يكون الفتى بليغاً؟ قال: إذا عشق أو وصف هوىً أو حبيباً. وكما قال الشاعر:

وما ذاق طعم العيش من لم يكن له
حبيب إليه يطمئن ويسكن

لكن الأفضل ما قاله العَطَوِيّ:

إنْ أكن عاشقاً فإنّي عفيفُ اللّحظ
واللّفظ عن رُكوب الْحرامِ

وما قاله إبراهيم بن محمد بن عرفة لنفسه:

كَمْ قد ظفرتُ مَنْ أهوى فيمنعني
منهُ الحياءُ وخوفُ الله والحذرُ
وكَمْ خلوتُ بمن أهوى فيُقنعُني
منه الفكاهةُ والتَّحديث والنَّظر
كذلك الْحُبُّ لا إتْيان معْصية
لا خير في لذّةٍ منْ بعدها سَقَرُ

الهوامش:

١- د. صلاح الدين المنجد- الحياة الجنسية عند العرب (من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري) الطبعة الثانية- دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٥م- ص١٥٣.

٢- د. صلاح الدين المنجد- الحياة الجنسية عند العرب (من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري) الطبعة الثانية- دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٥م- ص١٤٩.

٣- أبو الفداء الحافظ (ابن كثير الدمشقي)- البداية والنهاية- دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٥م- ج٤، ص٣٦٧- ٣٧٤.

٤- من افتتاحية الكتاب أخذت عما كتبه الشاعر شفيق جبري عن الطبعة الأولى منه في مجلة المجمع العلمي في دمشق المجلد ٣٤، عام ١٩٥٩م، ص٣٤٥.

٥- عن الدكتورة شيرين الفقي كندية- بريطانية من أصل مصري، في صحيفة النهار العدد ١٤٣٤٩٨ في ٢٠ حزيران ٢٠١٤م، عن كتابها «ثورة اللذة تحقيق حول الجنسانية في العالم العربي».

٦- قهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه ٢- قهرمانة: امرأة دساسة متآمرة. يستفاد بأن المرأة ريحانة والريحانة اسم للرياحين الطيبة وليست هي قهرمانة.

٧- عن عبد الله بن عوف أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: (المرأة الصالحة خير من ألف رجل غير صالح وأيما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق عنها سبعة أبواب من النار وفتحت لها ثمانية أبواب من الجنة تدخل من أيها شاءت بغير حساب).

٨- الحِدّج: مركب للنساء وأصله أن أمَة كان لمولاتها حِدّج فهي تفتخر به، يُضرب لمن يفتخر بما ليس له.

٩- أي تحب أن تأخذ، وتكره أن تعطي.

١٠- من افتتاحية الكتاب أخذت عما كتبه شاعر الشام شفيق جبري عن الطبعة الأولى منه في مجلة المجمع العلمي في دمشق المجلد ٣٤ عام ١٩٥٩م، ص٣٤٥.

١١- د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ١٩٧٠م،ج٦، ص٣٥٨.

المصادر والمراجع

١ - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ١٩٧٠م.

٢- صحيفة النهار العدد (١٤٣٤٩٨) في ٢٠ حزيران ٢٠١٤م.

٣- أبو فداء الحافظ (ابن كثير الدمشقي)- البداية والنهاية- دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى ١٩٨٥- ج٤.

٤- د. صلاح الدين المنجد- جمال المرأة عند العرب- الطبعة الثانية- دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٠م.

٥- د. صلاح المنجد- أمثال المرأة عند العرب ما قالته المرأة العربية وما قيل فيها- الطبعة الثانية - دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٥.

٦- د. صلاح الدين المنجد- الحياة الجنسية عند العرب (من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع الهجري)- الطبعة الثانية- دار الكتاب الجديد- بيروت- ١٩٧٥م.

عبد الوهاب الصابوني وعلاقته بالكتاب

محمود محمد أسد ❁



قالوا: إن اختيار المرءِ قطعة من عقله وكذلك مقتنيات الإنسان تعكس ثقافته ووعيه وشخصيته، فعلاقة الإنسان مع الأشياءِ التي يحبّها ويهيمُ بها تختلف عن تعلُّقهِ بالقضايا العَرَضية التي لا تحضُر في ذاكرته وذهنه، والشغف بالأشياء يشكّلُ علاقةً وثيقةً من الحبِّ وهذه العلاقة ترسم ملامح صاحبها النفسية، فتبرز منه ما يخفيه عن الآخرين.

وهي علاقة وثيقة تستبدُّ بصاحبها، وتسيطر عليه، وربَّما تقوده إلى المجازفةِ والمشاكل والخللِ في العلاقات الأسرية

❁ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

والاجتماعية، فينفر منه المقرّبون، ويتحاشون الخوض معه. هذا كلامٌ عامٌ، ويشكلُ حالةً تستحقُّ الدراسة بعمق.

إنَّ المربّي الأستاذ عبد الوهاب الصابوني عاشَ حياتَهُ كما تحلو له وكما يتمنَّاها فشغل نَفْسَه عن كل شيءٍ إلاّ عن الكتاب. عاشَ حياتَهُ بحثاً عن الكتاب وفي الكتاب. فهو الولد والصديق يعايشه عن قرب، ويلامسه برقّةٍ وشفافيّة، يحضنه برعايته وعينيه. يعطيه شيئاً من نبضه فيسكب عليه دفق مشاعره وهذه العلاقة ليست عارضةً بل تبدو متجذِّرة ومتأصلَّة في مسار حياته، فمكتبته الثريَّةُ بعددها ومضامينها وتنوّعها وخزائنها تثبت ذلك ووصيَّته التي سطَّرها ووثَّقها وهو يتبرَّع بها كاملة لكلية الآداب تثبت مدى هذا الحبِّ والهيام، فكان حريصاً على عدم إضاعتها ونثرها في البيوت وعلى الأرصفة كغيرها من الكتب التي بيعت بثمن زهيد، لا يتناسب مع قيمتها. وبذلك يكون قد سنَّ سنَّةً حسنةً جديرة بالتقدير، وقد قدّرت ذلك كلية الآداب، فأعدّت لها قاعة ومقرّاً خاصاً حمل اسمَه، وعيّنَتْ عليها الأستاذ حسن بيضه لأكثر من عقدين وكان حريصاً عليها وهي تنقل من المبنى القديم إلى المبنى الجديد. إنَّ استعراض نصِّ الوصيَّةِ يوصِلنا إلى حقائق جوهرية كامنة في أعماق هذا الإنسان.. جاء في وصيَّتهُ

«وفاءً مني لتراث العرب العظيم الذي حقَّقَتْه أمَّتي والتي أحببْتُها طوال عمري، وهِمْتُ بمآثرها الخالدات على مرِّ العصور، ومنها مكتبتي التي تعبْتُ كثيراً في جمعها وتبويبها ودرسِ كلِّ كتاب فيها ثمَّ تسجيلِ كلِّ أولئك في فهرس عام هذا قد شدَّ عزمي على:

١- أن أُهدي مكتبتي هذه إلى كلية الآداب بجامعة حلب.

٢- أن أهدي جميع خزائن الكتب.

٣- أن تكون بعد موتي، فأنا لم أفرغ منها بعد.. ولا أزال شَغِفاً بها مفتوناً».

هذه الوصية المحكمةُ الموجزةُ تكشف بجلاء علاقة الصابوني بالكتاب. فحبُّه للكتاب دافعُهُ حبُّ أمَّتهِ، وتمجيدهُ لتراثها الخالد. هذا الحبُّ والتمجيد للتراث كان دافعاً للهيام والعشق لمآثرها الخالدات.. هذه الوصيَّةُ تنبي عمَّا في أعماقِهِ.

رحلة الصابوني مع اقتناء الكتاب بدأت باكراً، وهو في وطنه سورية في مرحلة الدراسة ما قبل الجامعية وانتقلت معه إلى مصر أثناء دراسته الجامعية وكان المناخُ في مصر مُتاحاً لشراء الكتب فهي متوافِّرة ورخيصةٌ.

فـي مكتبـة الصابونـي يتجلّـى عشقُ الصابوني وشغفُه بالكتـاب، يعامله بصدق ودفء وكأنـه قطعة من لحـم ودم، يقتنيه برغبة، يصنّفه ويجلّده ويلخص أفكاره على هوامشـه ويعلِّقُ عليه، ويضيـفُ الكثير من المعلومـات. وتفسيرُ هذا يبـدو في كتابيه «شعـراء ودواوين» و«عيـون المؤلفات» في الكتابيين تصنيف وتبويب وإلمام بالدواوين الشعرية والكتب التي اقتناها كان الصابوني يسعى إلـى المهمِّ والمفيد وربمـا التمايز فـي الاقتناء وهذا يذكّرنـا بمكتبة الأستاذ الكبيـر عبَّاس محمود العقـاد وربما يكون متأثـراً به أثناء دراسته في مصرَ. وقد عاد ليمارس مهنة التدريس الماتعة بالنسبة إليه. ويروى عنه أنّه كان يحبّبُ الطلابَ بالكتاب والمطالعة

إنّ حرصـ الصابوني علـى كتبه جليٌّ، واهتمامـه بارز، فاقتنـاء الخزائن الجميلة والنفيسة، وتبويبُ المكتبة وفهرستُها، تدعونا للإقرار بهذا، وهذه الكتب تعكس الكثيرَ من طباعِهِ فهو يميل إلى النظامِ والرتابةِ والدقة والحفـاظ على المقتنيـات. وهذا معروف عنـه وما اختياره لتلـك المختارات الأدبية المصطفاة مـن أمَّهات الكتب إلاَّ دليل على ذلك.

إنَّ خـوفَ الصابونـي علـى كتبه التي أحبَّهـا وعشقها وتعـب فـي سبيلها دفعه للتبـرّع بها كي تبقى في أيـدٍ أمينة وبذلك يكـون قد تجاوز مأزق الكثيرين من الأدباء والمفكرين الذين انتشرت كتبهم ومكتباتهم على الأرصفة ومداخل الأبنية وبعضها أكلها العفن في الأقبية. ترك الصابوني المدرس لمـادة اللغة العربية روايـة «عصام» وترك مجموعة مـن القصائد وثلاثـة كتب تبرز اهتمامه: ١- كتاب شعراء ودواوين، ٢-عيون المؤلفات، ٣- اللباب في النحو، ولكلّ كتاب قصّة جديرة بالاهتمام. والجدير بالاهتمام أن الأستاذ حسـن بيضة بقي حريصا على إحياء ذكرى وفاته لأكثـر من سنة. وشارك فيها العديد من المفكرين والأدباء في حلب. وهـذا ما يدعونا للوقوف عند كل كتاب من كتبه ومدى أهميّته.

كتاب شعراء ودواوين مرآة الصابوني

ألقي الضَّوءَ على كتابِ «شعراء ودواوين» الـذي نشرتـه دار الشرق في بيـروتَ سنة ألف وتسعمئة وثمان وسبعين. فالرحلة معه ممتعة وغنية لمـا فيه من غزير علم ودليل معرفة وسعة اطلاع وسعة صدر لدى مؤلفه النحيف. فالكتاب يعكـس بجلاء شخصية مؤلفه وطبيعته.

كان عبدُ الوهَّاب الصابوني - رحمه الله - مولَعاً في باقتناءِ الكتبِ لدرجةِ الهِيام والعشق. يتصيَّدُ نفائِسَها وغريبَها من كلّ مكتبةٍ يصادِفها وقد جلبَ الكثيرَ منّها من القاهرة في فترة دراسته التي أتاحتْ له فرصةَ ارتيادِ المكتباتِ ومجالسةِ الأدباء والعلماء. فقد أغنى مكتبته بكثير من المصنفات المنوعة كغيره من الباحثين، ولكنه تميز عن غيره من الباحثين المحبين للبحث في دراسته لكل كتاب وتسطير الملاحظات على الهوامش وتصنيفها ثم تقديمها في كتاب منشور مفيد. كتاب «شعراء ودواوين» ما إن تقلب هذا الكتاب حتى ترى نفسك أمام جهد مبدع قد نشر أمامك أوراقه وكتبه ومضامينها مرتبة تدعوك للاستفادة منها وهذا إيثار لايجارى.

فالمؤلف يقدم ثمار عمره ولباب معرفته وجمعه إهداء لكلية الآداب بخزائنها. إذا عرفنا مدى حبه للكتب. وهو المعروف بالدقة المتناهية في ترتيب بيته ومكتبته وتصنيفها، وينعكس هذا على أناقته ودقة مواعيده. وما أكثر القصص التي مازالت تروى مشافهة من تلاميذه ومريديه حول دقة مواعيده. في حياته الخاصة إذا عرفنا أنه كان يهتم بالميكانيك والتصوير والموسيقى والشعر.. وهذه الفنون تحتاج للدقة والذوق والمتابعة، ويبدو هذا جلياً في الكتاب المذكور آنفاً.

فالكتاب مرآة تعكس مدى اهتمام مؤلفه ومدى جلده وحرصه. فهو عمل رائد في مجال التأليف لاعتبارات كثيرة لا تخفى على من تابع الكتاب وتأمله دراسة وتفهما. فهو ثمرة دواوين شعرية كانت موجودة في مكتبته. أوردها المؤلف حسب سنة الوفاة وهذا مؤشر لأهمية الوقت عنده ومساعدة للباحث والمتابع لمسار الحركة الشعرية العربية وما أصابها من تطور أو من ظروف.. واللافت أن المؤلف حوى في مكتبته أكثر من ديوان للشاعر الواحد أو للجامع الواحد.

وهذا يكشف مدى تلهفه للمقارنة والدقة للتمييز بين الأعمال ومقارنتها مع بعضها لتكتمل رؤاه عن المبدع.. وهناك دواوين لشعراء مغمورين لم يأخذوا حظّهم من الدراسة والاهتمام لدى النقاد.كانوا في مكتبته جنباً إلى جنب مع المتنبّي والبحتري والشريف الرضي والمعري وابن المعتز وابن الرومي. فقد حوت المكتبة دواوين لمغمورين أمثال «ديوان الصادح والباغم» و«ديوان عرقلة الكلبي» وديوان علي بن جبله الملقب بالعكُّول «ومعناه الغليظ - السمين».

الكتاب يغنينا معرفة وعلماً عن هؤلاء بإيجاز وتركيز فقد ورد في الكتاب على سبيل المثال لا الحصر. المختار من ديوان «أيدُمر المحيوي»: علم الدين فخر الترك توفي بعد سنة ستمئة وست وأربعين للهجرة. وقد ذكر في عرضه له: شاعر تركي الأصل من الموالي. أعتقه بمصر محيي الدين محمد بن محمد ونسب إليه. اشتهر في العصر الأيوبي. الديوان جزء واحد. وقد طبع في مصر عام ألف وتسعمئة وواحد وثلاثين. أخرجه القسمُ الأدبي في دار الكتب المصرية وهو غير مرتب على الحرف (ص٢٥٢).

وعن ديوان «عرقلة الكلبي» «حسان بن نمير» المتوفى سنة خمسمئة وسبع وستين للهجرة. يذكر ما يلي: «شاعر من الندماءِ. من سكانِ دمشقَ - أعورُ، اتصلَ بصلاحِ الدين الأيوبي فمدحَهُ ونادمه. الديوان مرتب على الحروف.. وجاء في مقدمة المحقق» وقد أدركنا -للوهلة الأولى- أن هناك نقصاً كبيراً في شعر الشاعر، فهناك قصائد برمتها قد ذهبت، ولا نعرف أين هي، كما أن هناك أبياتاً قد سقطت من بعض القصائد الأمر الذي حدانا إلى البحث والتنقيب في الكتب القديمة المطبوعة والمخطوطة لنجمع ما يمكن جمعه من شعر هذا الشاعر الظريف. وقد أمكننا زيادة عدد الأبيات حتى بلغت نيفاً وتسعمئة وستين بيتاً وفي صدر الديوان مقدمة في تسع صفحات وفي آخره ثلاثة فهارس.

والديوان جزء واحد صغير وطبع في دمشق سنة ألف وتسعمئة وسبعين. بتحقيق «أحمد الجندي» وهو من مطبوعات مجمع اللغة العربية ثم يذكر المراجع عن الشاعر وقد بلغت سبعة مراجع محددة بالصفحة والجزء..

من هنا تبدأ أهمية الكتاب. لأنه يعطينا الدليل الذي يعمق نظرتنا ويرشدنا إلى الدراسة ويمهد لنا الدرب ويقدمه مرصوفاً بعيداً عن كل معاناة تعترض سبيل بحثنا.. فالكتاب يبدو بحراً عميقاً مليئاً بالكنوز الثمينة لأنه عمل موسوعيٌّ هام. يظهر هذا في كثرة المراجع وأهمية ذكرها بأرقام صفحاتها وأجزائها. وهذا التصنيف بالتأكيد يبرز لنا مدى الجهد المبذول والمتابعة والبحث في المكتبات حتى وجدناه جاهزاً بين أيدينا. هذا الجهد لا يملكه إلا ذوو الإرادة والعزيمة والغيرية. ولم يكتف المؤلف بذكر المراجع وما أكثرها بل نراه يتتبع الخبر والأثر محاكمة للوصول إلى اليقين. فكان حريصاً على إيصال مضمون الدواوين وقد أغناها بالمعلومات المختصرة

والمركزة من معاني أسماء الشعراء وألقابهم وما عرفوا به من صفات وطباع.. وكان يورد أكثر من سنة للوفاة ثم يبدي وجهة نظره في ذلك عند الاختلاف، فنراه يرجح عاماً على عام فأورد خلافاً في سنة وفاة أبي النواس فيذكر أن الخطيب البغدادي يذكر بين مئة وخمس وتسعين للهجرة أو مئة وتسع وتسعين. والزركلي صاحب الأعلام يذكر في عام مئة وثمانية وتسعين وفي معجم المؤلفين عام مئة وستة وتسعين وقيل عام مئة وثمانية وتسعين ويرجح الأستاذُ «بهجة الأثري» في تحقيقه لكتاب «تفسير أرجوزة أبي نواس» سنة مئةٍ وتسعٍ وتسعين وعنه أخذنا.. (ص١٤٨)

وفي أماكن أخرى يضيف على ما ورد. وهذا يدل على سعة اطلاعه واستقلال شخصيته التي يتحلى بها العلماء. فعند الحديث عن مسلم بن الوليد صريع الغواني يورد بعد حديثه عن الشاعر وعن الديوان: «يضم الديوان ستاً وسبعين قطعة غير مرتبة على الحروف» جاء بذيلها هذا الديوان «جيد التحقيق جداً رواه وشرحه أبو العباس وليد بن عيسى الطبيخي الأندلسي المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة. وحقق الديوان الدكتور سامي الدهان. ورتبه على الحروف، وزاد عليه، فارتفع بذلك عدد قطع الديوان إلى مئتين وخمس قطع ثم يقول على لسانه. هذا وقد زدت أنا في قطع الديوان ستة أبياتٍ بيتين عثرت فيهما في كتاب (القول في البغال للجاحظ) (ص ٧٨) وأربعة أبيات رأيتها في (رسائل الجاحظ)-١/٣٦٦/ فأثبتُّها في نسختي وفي آخر الذيل- فأصبحت بذلك قطع الديوان مئتين وثماني بين أبيات ومقطعات نسبت إلى الشاعر في الكتب ولم ترد في المخطوطة التي نشر عنها الديوان.. ص١٥٣. وقد زدت أنا في مراجع المحقق مراجع فاتَتْهُ وجعلت تحتها خطوطاً تمييزاً لها عن مراجع المحقق. ص١٥٤..».

وفي بعض المواقف كان يراجع المعلومات ويحاكمها، في معرض حديثه عن ديوان «المزرد بن ضرار الغطفاني» وهو يزيد بن ضرار وقد توفي عام ثلاثين للهجرة. يقول: قال محقق الديوان وهو «خليل إبراهيم العطية..رغم أن الأستاذ خير الدين الزركلي افترض أن وفاته سنة عشر للهجرة. إلا أن ورود ذكر لعثمان بن عفان غير مرة في شعره يشير إلى معاصرته. وإذ ذاك يكون الافتراض المذكور مشكوكاً فيه. أما أنا فأفترض أنها كانت في أواخر خلافة عثمان وربما كانت في حدود ثلاثين للهجرة أو ما بعدها (ص ٧٥). ولكن لم يذكر سبب هذا الافتراض»..

ومن الجوانب الإيجابية المفيدة في هذا الكتاب! أنه كان يصحح بعض الألفاظ والعبارات وغير ذلك كما ورد في ذكره لديوان «بشر بن أبي حازم الأسدي» يقول: أحد فرسان الجاهلية وفحول شعرائها. قُتِلَ في معركة /الرِّدَّة/ وقد رثى نفسه قبل موته.. وعلى الهامش يعلّق قائلاً رُوِيتْ الراء /الرّدّة/ والمختارُ الفتْحُ لأن العربَ لم يكنْ ارتدادُها إلا مرَّة فالفتحة أجود.. (ص ٦).

ولا يكتفي بذكر الديوان المحقق وتاريخ الوفاة والتأكّد منها بل كان يذكر المعلومات المفيدة والتي صاغها بإيجاز مفيد فيذكر لنا الآراء والأحكام ويأخذ ببعضها أو يفند قسماً منها. في ذكره «لديوان أبي الطيب المتنبي أحمد بن الحسين المتوفى عام ثلاثمئة وأربعة وخمسين سماه الشارح» «التّبيّان في شرح الديوان» كان كثيرَ الإعجاب بنفسه وبشعره، لا يحفل بالناس، له الأمثال السائرة والحكم البالغة مات مقتولاً.. جاء في كتب الأدب: أن والد المتنبي كان اسمه «عبدان السَّقَّاء» وهذا خطأ صوابه «عِيدانُ السّقَاء» لقد جاء في المحيط «وعيدان السقاء» بالكسر لقب والد أحمد بن الحسين المتنبي في الجزء الأول. وكان المتنبي أشهر شعراء زمانه، ومن أشهر شعراء العرب، إلا أن ابن خلدون يقول: كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء. لأنهما لم يجريا على أساليب العرب ص ١٩٦ مقدمة ابن خلدون ١٢٩٦/٤.

وما دمنا مع المتنبّي فإنا نرى المؤلف قد حوى في مكتبته أكثر من ديوان للشاعر الواحد وهذا ينطبق على المتنبي. فهناك أكثر من شرح لديوانه. وكل ديوانٍ يضيف شيئاً إلى الآخر من ترجمة وأمثال ودراسة وينطبق هذا على ابن الفارض وغيره من المختارات.. وكان المؤلف يلجأ لشرح ألقاب الشعراء واشتقاقات أسمائهم وقبائلهم إغناءً للقارئ أو الباحث. مما جاء في ديوان الهُذَليين «الهُذَليون قبيلةٌ انتسبتْ إلى هُذَيِلِ بنِ مُدْركةَ» سكنوا بجوارِ مكة والطائف. يذكر في الهامش: جاء اشتقاق أسماء رجال «هُذَيِلِ بنِ مُدْركة» من كتاب الاشتقاق. (ص٥٢) وعندما يستعرض ديوان الأخطل يقول: الأخطل من الخطل- وهو استرخاء في الأذن (في أدب الكتاب) ومنه قيل لكلاب الصيد خطل وانظر في معناها شرح الجواليقي، والاقتضاب والاشتقاق وأمالي القالي.. مع ذكر الصفحات والأجزاء.. وقد أبدى رأيه في الديوان فقال: فهو متقن الطبع، جيد

التحقيــق، ولكن يفوح مــن خلال تحقيقاته رائحــة العصبيــة المسيحيــة الكاثوليكية شأن كل ما أنتج الأدباء اليسوعيون «تحقيق وتعليــق الحواشي للأب أنطــون صالحاني اليسوعي» (صــ ١٠١) ويبدو شيء من هذا في ذكره لديوان «شعر الأحوص الأنصاري. عبد الله بن محمد فيقول: إنه شاعر هجاء، كان دميمــاً قصيراً عاصر جريراً والفرزدق تغــزل ببعض نساء الأشــراف فجلد.. وفي الهامش «الحَوَصُ ضيــقٌ في مؤخر العين» (ص ١٠٥).

وعــن الفرزدق فــي ذكر ديوانــه يقول في الهامش: جاء فــي الاشتقاق إنما سمي الفرزدق لجهامة وجهــه وغلظه. والفرزدق الخبزة الغليظة. تتخذ منها النساء «الفتوت» وجاء فــي لسان العرب قــال الأموي: يقال للعجين الذي يقطع ويعمل بالزيت /مشتق/ قال الفرَّاء: واســمَ كل قطعة منه (فرزدقة) وجمعها (فــرزدق). (صــ١١٠) وعنه قال: «كان الفــرزدق لا ينشد بين يــدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً وكان رقيق الدّين طائشاً نزقاً زيرَ غوان ولكنه عفيف»...

وكان المؤلــف يغنينا ببعض المعلومات التاريخيــة والنقديــة والأدبيــة إضافــة للمراجــع المذكورة في نهاية كل ديوان وفي الهوامش. وفي بعضــ الأماكن كان يبدي عجبه واستغرابه فعند ترجمته لديوان «قيس ابن الخطيــم» يذكر: الديوان جيد التحقيق جداً.. وهو عن ابن السّكّيت وغيره..

مــن حسناتــه أنه أتى بعــد كل قصيدة -وأحيانــاً بعــد كل قصيدتيــن- بتخريج القصائــد والأبيات مع شرح كثير من الأيام التي وردت في شعر الشاعر. وهو من تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد الذي أورد فضل المحقق الدكتور «كوفالسكي» وهو مستشرق بولوني. ويذكر المحقق الدكتور ناصر الدين الأسد اعتماده كثيراً على الطبعة الأوروبية. فيشيــر المرحوم الصابوني فــي الهامش: «لعمــري بمثل هذا الخلــق الكريم يستحق الباحثون لقب العلماء. لا فيما حقق بعضهم مــن الكتب أو دواويــن كان قد سبقهم إليها المستشرقــون ثم جــاؤوا بعدهم إليها على خزي وحقد يمــارون وينتقصون ألا فليعلم هؤلاء العمــي الجاهلون أن العصبية والعلم لا يجتمعــان في صدري أبــداً، مهما سعوا واستنجدوا (ص٤٢) وأنا أجد نفسي معجباً بهذه اللفتة والإشارة التي عبر عنها المؤلف بصــدق مصحــوب بنزق عرف بــه عندما يتضايــق ويتحسس من أمر ما.. والملاحظ إن الكتــاب أغفل دراسة دواوين شعراء هذا القــرن وعصــر النهضــة ولا أعــرف سرّاً وهو سؤال مطروح يحتــاج لدراسة وتفسير

أتركهما لغيري لأنـي لم أطّلع على مؤلفات مكتبته ودواوينـه التي فيها. أهناك دواوين لأحمد شوقـي ولحافظ إبراهيم والبارودي وإسماعيل صبـري وناجي وغيرهم وتغافل عنها أم أنها بالأساس غير موجودة..؟!

اكتمـل الجهد بتلك الفهارسـ المرتبة والموزعة لتكون بيـن أيدي المتابعين فإني أشبّهُ الكتـابَ بالحاسب الآلي الذي يختزن الكثيـر من المعلومات والذي يؤدي وظيفته بهدوء حسب حاجتنا. فبعد كل ديوان هناك مراجع كثيرة مشـار إليها بالرقم والجزء.. ولـم يكتـف بذلك بل لجـأ إلـى الفهارس وعددها خمسة. فهرسـ لدواوين الشعراء وعددهـم مئتـان وخمسة وسبعـون رتبهم أبجدياً.. وهنـاك فهرس لآراء ونظرات في أدب العرب وهو مجموعـة مختارات أدبية ونقدية اختارها المؤلف وألحقها في كتابه. وقـد حـوت آراء ذات قيمـة لمستشرقين وعرب، تناولوا بالنقد والدراسة أدبنا العربي وأكثر فيها من الاستشهاد للمستشرقين من «بروكلمان وبلاشير ودوزي وغيرهم».. ومنها مختارات مـن كتب التراث كزهـر الآداب للحصري والعمدة لابن رشيق والصناعتين والخصائصـ والأغاني.. وهذه الاختيارات ذات أحـكام تحتاج لدراسـة وتمعن وتبرز اهتمـام المؤلف بقضايا تشغـل المثقفين قديماً وحديثـاً وتبعث الجـدل والحوار.. والفهرسـ الثالـث بأسماء الكتـب الواردة فالدواويـن وفـي الآراء.. وفهرس للأعلام المؤلفين وأخيراً فهرس المراجع.. علينا أن نتصور صعوبة تأميـن الكتاب وشرائه وفي ظـروف قاسيـة وكذلك نقدر هـذا الجهد مـن القـراءة والتدوين. فالمؤلـف كان ذا حس مرهف خاص به وطبيعة تتميز بالدقة والذوق والأناة وحب الشعر واقتناء دواوينه ومختاراتـه وهو الذي ذكـر «أحببت الشعر مـن الصغر، وكنـت أقرأ دواويـن الشعراء وأحفـظ منها مـا كان يروقني حتى اجتمع لي من ذلك الكثير. وكان آثرُ الشعراء عندي ثلاثة «البحتري وابـن الرومي وأبو الطيب المتنبي» وكان لكل منهـم منزلة في نفسي تقوم على شهرته..».

كتاب عيون المؤلفات

إنَّ الكتابـة والحديث عـن كتاب عيون المؤلفات للأستـاذ عبد الوهاب الصابوني يتطلب منـا إلماماً ودراية بأحـوال مؤلفه ومعرفة الطريق الـذي سلكه المؤلف حتى وصـل إلينا الكتاب بهـذه الصورة الجميلة المقنعة. الكتاب مر بطورين حتى خرج إلى النور. الطور الأول انتهى عام ألف وتسعمئة وسبعيـن وكان مخطوطاً قبـل رحيل مؤلفه

الــذي صنفــه، وشرح عليه وأعــدّه دون أن يضع اسمــاً للمؤلف. والطــور الثاني طور خروجه إلى النور وتقديمه إلى القراء.. وما كان ليرى النــور لولا جهود جهات وأطراف متعددة، بعكس كتاب «شعراء ودواوين» الذي سعى المرحــوم الصابوني بكل ما أوتي من عزيمة ومتابعة حتى ولد قوياً، وكذلك كتاب اللُّباب في النحو وقصة عصام وهي الكتب التي ألفها الصابوني ونشرها بمتابعته ودقته المعهــودة وحرصه علــى سلامة الجزئيات البسيطة منها.

هذا الكتاب صدر عام ألف وتسعمئة واثنين وتسعيــن بمساع من جامعة حلــب، فصدر عن منشورات معهد التــراث العلمي العربي. وكان وراء تقديمــه جهد وسعي وخبرة مــن الأستاذ المحقق محمــود فاخوري الــذي حقّقه بدقة متناهية ورعاية تليــق بالمؤلَّف والمؤلِّف وتليق بمكانته، لم يكن عمل المحقق سهلاً كما يتصور بعضنــا. والتحقيق يحتاج نفســاً طويلاً ودربةً وتمكناً مــن المعلومات واللغــة. والكتاب خرج إلينــا بثلاثة أجزاء بناء علــى ما كان عليه قبل رحيــل مؤلفه. ولكن المحقــق أكمله، فزاد في حواشيه، وأشرف على طباعته وقدم له مقدمة عــرف بها بالمؤلــف كشخصــ وأديب وباحث وإنسان، ذكــر طباعه وكتبه وأشــار إلى ميوله ونشاطه وخصوصيتــه بالحياة التي عاشها كما يريد هــو لا كما يريد الآخــرون. ثم عرج على التعريف بالكتاب والأسلوب الذي نهجه المؤلف فــي التأليف وأشار إلى النهــج الذي اتبّعه في التحقيــق ومــا أضافــه وصحّحــه وفهرســه. فالمحقــق أكمل جهده بوضع فهارس عدة تفيد المتابع والمطلع على الكتاب.. ولا تكتمل فائدة الكتاب إلا بالفهارس، ولذلك ألحق المحقق بالكتاب فهرساً بأسمــاء الكتب التي وزعها حســب أبجديتهــا من الحــرف الأول وإلى جانبها عــدد أجزائها وصفحاتها، ولم تخل بعض الأجزاء من الصور التذكارية الجميلة للمرحوم الصابوني مع زملائه والأدباء، وقد ساهم الأستــاذ حسن بيضة بوضع الفهارس مع المحقــق وأشار إلى ذلــك المحقق في الكتــاب. إلى أنــه اضطــرّ لتصويب بعض الثغرات والهنات التي لم ينتبه إليها المؤلف وهــو الذي عرف بدقته المتناهية. فلم تغب شخصية المحقق الذي تصرّف وعدّل ببعض منهــج المؤلف الذي اقتصــر على مراجعة كتبه المتوافرة لديه، وهذا لا يكفي ولا يفي بالغرضــ. فأضاف المحقق بعض المصادر الجديدة المفيدة. وعلّقَ على بعض الطبعات والأجــزاء ذاكراً آراء بعض الكتاب فيها. كل هذا العمل ثبّته المحقق في الحواشي وليس في متن الكتاب حفاظاً على الأمانة العلمية. ووضع المحقــق ذيلاً من المصادر الجديدة لبعض الأبواب مميّزاً بين إضافاته وحواشيه بذكــر اسمــه. وقد نثر المؤلــف في الجزء

الثاني والثالث لعشرة أعلام مع مصادر ترجمتها. جمعها المحقق وألحقها في الكتاب. إضافة لذلك اختار المحقق عنوان الكتاب. ذكرتُ بالتفصيلِ جهدَ المحقق لأن على يديه رأى الكتاب النور وعلى يديه عرفنا هذا الكتاب..

إنَّ منهج الكتاب المذكور قريب من منهج شعراء ودواوين الذي عرض فيه المؤلف تلخيصاً للدواوين والمجموعات الشعرية والمختارات مع ذكر مراجع أصحابها وهي النقطة الغنية في شعراء ودواوين ولكنها فقيرة لحد بعيد في عيون المؤلفات. فنحن أمام استعراض لهذا الكتاب ولكنه استعراض سريعٌ يحدّده المكان والزمان والموقف. هذا الكتاب يكشف بجلاء جانباً هاماً من جوانب شخصية مؤلفه، يعكس مدى حبه للكتب التي طالما تغنى بها، ولامسها بلطف وحساسية خاصة تليق بها. فالكتاب مرجع هام وضروري لأولي الاختصاص. وهو صيدلية شاملة ودليلٌ مشعٌّ وشفاف للباحث الذي يكد ويشقى بحثاً وراء الكتاب. فالكتاب كشّاف للمصادر والمراجع ولمختلف الفنون والمعارف. وإن كان يقلّ عن شعراء ودواوين بذكر المراجع كما ذكرت سابقاً.

قسّم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء توزعتها أبواب متعددة من ترجمة وفلسفة وطب ودين وكتب مقدسة...

يكشف الكتاب قدرة المؤلف على الكدّ وحب التنظيم والرعاية. وهو معروف بميوله الفنية والميكانيكية، وهو حريص على تقديم كل ما هو متكامل وجيد، وذكر ذلك في تأليفه لكتاب شعراء ودواوين الذي استنفد طاقته.

كان الصابوني يعايش الكتاب المقتنى لمكتبته كأخ وصديق، يتناوله تصنيفاً ودراسة وتلخيصاً وتهميشاً ثم يضعه في مكتبته. تجد على هوامش الكتب وجوانبها بعض ملاحظاته فالمؤلف لديه حرص راسخ على توسيع ثقافته وإغناء مكتبته التي كان يحرص عليها، وحرصه عليها دفعه لإهدائها وتقديمها لكلية الآداب وبذلك عمّم الفائدة ووصل إلى ما يريد. هذه الكتب شغلته عن كل شيء إلا عنها. فاقترب منها بحنان ورعاية اقتراب الأم من وليدها، فخصَّ كل كتاب من كتب مكتبته بملخص عنه يذكر اسم مؤلفه وسنة بدء تأليفه إن وجدت وسنة النهاية أو معاصرة المؤلف لمؤلف آخر. ويضيف إن كان للكتاب مقدمة مع ذكر عدد مجلداته وأجزائه وأماكن طبعها. مع اسم المحقق والمؤلف والمراجع.. وفي كثير من الأحيان يذكر شيئاً عن نهج الكاتب وعن مكانة الكتاب على ألسنة بعض الباحثين والمختصين. فهناك شبه بين عيون المؤلفات وكتاب شعراء ودواوين رغم مواكبته لحركة

الشعر ونظمه للشعر وكذلك نراه تغافل في عيون المؤلفات عن ذكر الروايات والقصص والمسرحيات والتي كانت تملأ المكتبات دراسةً ونشراً وقد مارس تأليفها في قصة /عصام/ فنحن أمام تساؤل أو تساؤلات... فهل كان لا يعترف بأحقيّتها في مكتبته أو أنه ترك دراستها لوقت آخر ولم يسعفه الوقت والعمر، وربما كان يقتنيها ثم يتخلص منها لاعتقاده بوجود كتب أهم منها...

بين هذه الكتب القديمة والجديدة التي صنّفها في كتابه لم يلحقها بمراجع عن مؤلفيها أو شخصياتها باستثناء بعض الشخصيات التي ذكر ترجمتها وأعاد ترتيبها الأستاذ محمود فاخوري وقد وضعها في مكان خاص بها كالفارابي وغيره..

وحسب اعتقادي أنه لم يكن ينوي التغافل عن المراجع ربما كان قد أجَّلها لمرحلة قادمة ثم توقف لأمور صحية أو نفسية وخاصة أن الكتاب لم يكن جاهزاً للطباعة بدرجة عالية الوتيرة والدليل على ذلك جهد المحقق وتصنيفه والمؤلف بطبعه حريص على تقديم كل ما يفيد وينفع. وهذا دأبه مع كتبه وأعماله، فعذره أنه لم يكمل كتابه على حياة عينه، وفي كل المقاييس والمعايير يبقى الكتاب رصداً ودعماً للباحثين. فهو أرشيف أو شريط من أشرطة الحاسب، يعطيك كل شيء لخدمتك، ولكن هذا العمل الجاد والنافع يدعونا لبعض الوقفات المتأنية التي تعطي الكتاب حقه.

فهو وثيقة عملية ومكتبية ترشد المتابع، وكان المؤلف يحرص على إغناء الكتاب بالمعلومات المفيدة، فيدعمها بآرائه وعلمه كما ورد في كتابه عن كتاب «الفهرست» لابن النديم (ص١٧)، فيذكر الاسم والكنية فيقول: هو محمد بن إسحق. وهو أول من دَوَّن في تاريخ آداب اللغة العربية افتتح كتابه بوصف لغات الأمم من العرب والعجم، وهو بهذا ذخيرة أدب وعلم نفيسة، لأنه ذكرَ من أحوال آداب اللغة العربية في القرون الأولى ما لم يتعرض له غيره... وأسلوبه في كتابه أسلوب موجز، فهو يكره اللغو والمقدمات حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لأن معناها مكرر أو عبارتها مترادفة...

وهناك أكثر من كتاب في أكثر من طبعة. فهناك لكتاب «الفهرست» لابن النديم طبعة محققة والثانية غير محققه. وهناك بعض الكتب لم يتوسع بها وبعضها قد توسع به ككتاب «الكامل» للمبرد و«الفهرست» لابن النديم وهذا أمر طبيعي وعائد لحجم الكتاب وأهميته ولميل المؤلف للكتاب أو عزوفه عنه. وقد يكون للإرهاق والعمر دور في هذا.

وقد حوى الكتاب حديثاً عن كتب نادرة الوجود، يصعب على المرء معرفتها أو الاطلاع

عليهـا منها - العثمانية - فيقول فيه: وهم أنصار عثمان بن عفان والمحتجون لفضله والمناضلون عنه وهم فرع من أصحاب عمر بن الخطاب. والكتاب متاح لدارس المسائل الدينية والقضايا التاريخية والسياسية وهو معرض كبير للجدال والحجاج الفكري في عصر من أزهى العصور الإسلامية... وهو للجاحـظ (ص٢٤٥) وقد طبع بتحقيق عبد السلام محمد هارون مع كتاب آخر اسمه مناقضات أبي جعفر الإسكافي...

هذا الكم من الكتب التي تناولها المؤلف على مستويـات مختلفة، منهـا استعراضه بإيجاز لكتـاب «لبـاب الآداب» لأسامة بن منقذ (صـ١٧٧) وكتاب «المطـر» لسعيد بن أوس الأنصاري وهو كتاب طريف جمع فيـه كل ما ورد في كتب اللغـة عن المطر وما يلحق به مـن الأنواء والغيوم والسحاب وما شاكلها والرعد والبرق والصقيع والثلج وسواهـا... وفـي آخره فهرسٌ للمفردات الـواردة في الكتـاب (صـ٢٥) دون إشارة للتعريف بالمؤلف أو النشر والتحقيق...

وهناك كتب توسّع في استعراضها تعريفاً وشرحاً ككتاب «الكامل» للمبرد و«الفهرست» لابـن النديـم و«الأغانـي» للأصفهاني... وهنـاك كتب ورد ذكرها في أكثر من مكان، حسب التصنيف الـذي استخدمه المؤلف. وهذا التصنيف لم يخضع لجوانب علمية بل لأمور خاصة مزاجية دون مراعاة للتصنيف والترتيب وفق المناهـج الحديثة لتصنيف الكتاب، فوضع الكتاب في الباب الذي يراه ألصق بـه من وجهة نظـره. حسب طبيعة الموضـوع لتخدم الباحـث ولذلك وجدناه يكرر كتاب الأغاني في أكثر من مكان، أورده في التراجم والشعراء وباب الأدب...

هذا الكتاب الضخـم حوى جزؤه الأول ستـة عشر باباً والثاني حوى أحد عشر باباً والثالث خمسـة أبواب... وقـد سهر عليه مؤلفه تسويداً وتبييضاً أكثر من مرة. ولكن أرى نفسي أمام تساؤلات يستدعيها الكتاب والمؤلف... هذا التصنيف والتلخيص لكم هائل مـن الكتب المختلفـة المشارب. هل قرأهـا الأستاذ عبـد الوهـاب الصابوني كاملة؟ وهل توقـف عندها بدقة وعناية أم أنه اكتفى بقـراءة بعضها وتلخيص بعضها معتمداً علـى الفهارس والمقدمات وأعتقد أنه لم يقرأها كلها لأن قراءتها تحتاج لوقت مديد ولعافية حسنة يعجز عنها المرء...

فهناك كتـب حواها المؤلـف من باب إكمال المعرفة وتوسيعها، فالمؤلف يسيطر عليـه هاجس اقتناء الكتـاب وتنويعه. فهو يبحـث عمّا يفيد المكتبـة ويفيد به، وهذا أمرٌ حسنٌ، ولكن ليس من الضروري أن يقرأ الكتب كاملة.

واللافت للأمر أن كتاباً واحداً من هذه الكتب لو قصد الكاتب تحليله ودراسته فإنه يأخذ منه صفحات وربما يأخذ كراساً. وأعتقد أن المؤلف لا يريد التحليل بقدر ما يريد الإحاطة والملامسة عن بعد لتكون إشاراته دليلا. بعكس عمله في شعراء ودواوين الذي وضع فيه الكثير من الآراء وصحح بعض الأخطاء والمقولات وفسر الألقاب وأكثر من ذكر المراجع فكان أكثر أريحية في البحث والتعمق، ويراودني أمر آخر بل تساؤل يخصّ المؤلف... هذا الكم من الكتب النفيسة والطريفة كانت كافية لإجراء دراسات أدبية أو فكرية شاملة وفي أبحاث مستجدة وحامية في عصره وخاصة فترة الستينيات والسبعينيات، وهي مرحلة نهوض في التأليف على يد كبار الأدباء والمفكرين. لماذا لم يقدم على مثل هذه الكتب؟ وهذه الأبحاث؟ وفي حدود قناعتي المتواضعة أن المؤلف كان يميل إلى الأبحاث التي تهتم بالجمع السريع، فالكتاب الذي بين أيدينا يبرز هذا الجانب، فهو مكتوب دون رابط بين كتبه سوى التصنيف. لأن الكتاب النقدي أو الفكري يحتاج لربط وقدرة ونهج يسير عليه المؤلف ليحقق وجهة نظره وغايته، فأرى أن طبيعة الصابوني ومزاجه العصبي لا تساعد على مثل هذه الأعمال الجامعة. بل تتعب صاحبها الذي يحتاج لتريث وتأمل والتحام مطلق مع المضامين وتحتاج لنفس طويل يمتلكه من كان هادئاً. ونتاج الصابوني المنشور والمخطوط يكشف هذه السمة. فكتاب اللباب في النحو. يضم طائفة من حروف المعاني مع شيء من النحو وبعض الطرائف النحوية. وكذلك كتابه شعراء ودواوين وبين مخطوطاته ذكر «مختارات شعرية» اختارها لعدد من الشعراء. ومختارات من مطالعته. هذا إن دل على شيء فإنه يدل على ميله إلى الجمع والاختيار. وهذا لا يقلل من شأنه وشأن مؤلفاته القيمة. ولكن التاريخ سيذكر بتقدير مأثرة هذا الأديب الذي قدم أغلى ما يملكه وما جمعه من كد عرقه في الوطن وخارجه. أثناء الدراسة والسفر. فكل ما جمعه من كتب عبر رحلة عمره المديدة قدمه هدية ضمن وصية رائعة التهذيب والبيان وبذلك يكون قد وطد عادة حسنة شاركه فيها المرحوم خير الدين الأسدي وسامي الدهان وقد فازوا بذلك وتركوا لنا ثروة مصانة وإلا كان مصيرها على الأرصفة وبين الحوانيت والمحلات. تعبث بها الأيدي وتمزقها ليلعب بها الأطفال ويتلاعب بها الهواء...

اللباب في النحو للصابوني

إن تأليف كتاب في النحو يحتاج لجرأة، ويتطلب استعداداً لمغامرة قد تبعث وتثير الكثير من المعارك والنقد ووجهات النظر

بين مؤيد ومعارض. وهذا ما كان في بدايات عصر التدوين والتأليف في العصر العباسي وما تلاه. ولكن المغامرة تكون اكثر جرأة في العصر الحديث. فأيّ مؤلف في النحو عليه أن يتجاوز الكثير ممن سبقوه وأن يتجاوز أخطاء السابقين ويضيف ما يضفي على النحو من تيسير وتبسيط يساعدان الجيل على تجاوز الإشكالات والمعضلات النحوية لا أن يزيدها عقدا.. وعلى المؤلف المجتهد أن يقدم رؤيته واجتهاده في علم مفتوح للتأويل والاختلاف والاجتهاد وهو عرضة للأخذ والرد بين الباحثين المهتمين..

بناء على ما تقدم أعتبر كتاب الصابوني «اللباب في النحو» لبنة حاول نحاتها أن يرصفها على جدار كتب النحو الكثيرة والتي تنام على رفوف المكتبات العربية والعالمية. والكثير منها بحاجة لمن يرفع عنها الغبار، ويقترب منها بتؤدة وثبات وحب. وهي دعوة ملحة في أيامنا الراهنة التي يحتاج فيها طلابنا للتبسيط والمنهجية. وهذا ما حاوله المرحوم عبد الوهاب الصابوني والغلاييني في جامع الدروس العربية ومحمد الأنطاكي في المحيط وغيرهم..

إن «اللباب في النحو» أحد مؤلفات الصابوني الذي مارس مختلف فنون الإبداع قصة وشعراً واقترب من التأليف والتدوين في شعراء ودواوين وعيون المؤلفات.

لكنه في كتاب «اللباب في النحو» يرمي إلى إرضاء محبته للبحث والبروز لذلك تجرّأ بتقديم هذا الكتاب الذي يثبت علو كعبه في النحو وقوة جلده على الجمع والتدوين..

الكتاب مؤلف من جزء واحد. ومن إصدار دار مكتبة الشرق في بيروت. ويحوي الكتاب مقدمة تبرز منهج المؤلف ومضمون الكتاب. والكتاب يتناول طائفة من حروف المعاني والتي تشكل عائقاً في الفهم والوصول والإعراب لدى الكثير من المهتمين بالنحو والأدب ومال فيها إلى الاصطفاء والاختيار. وهذا عائد لوجهة نظر منطقية وتعليمية، وهو الذي مارس مهنة التعليم بشغف ورغبة.

وأضاف إلى حروف المعاني طرائف نحوية وبعض القواعد والفوائد معتمداً على ما هو ضروري ومفيد، وهذا ما ذكره في المقدمة. وانصرف عن بعض القضايا التي لا جديد فيها..

هذا الاختيار منه يثبت مرة أخرى حبه الاختيار والجمع، وقد برز في كتابيه عيون المؤلفات وشعراء ودواوين. واختياره يعكس ذوقه ورؤيته ودربته وجمعه من بحر عميق لا ساحل له. وتناوله دون إسراف ولا إغراب. ومع ذلك مال إلى الطريف الذي قد لا يوجد في كتاب. فأورد مئة طرفة من النحو والصرف في آخر الكتاب.

إنَّ الكتـــاب فـــي الظاهـــر يميـــل إلـــى التسهيـــل والتيسير. وهذا ما أراده المؤلف، ولذلك اعتمد على ضرب الأمثال والشواهد والآيات مع الشـــرح والتفسير والإشارة إلى مراجعهـــا والتوثيق ليبعد الريبة. ولم يتمثل بالشعـــر العباسي بل استأنـــس به. وكعادته خرَّج المؤلـــف الشواهد والآيات والأحاديث وتفسيـــر ما أمكن منها وضمَّن الكتاب ثلاثة فهارس(١) -للأبحـــاث. (٢)-للشعر. (٣)-للمراجع. وقد أغفـــل مرجع الآيات الواردة في الكتـــاب. وتغافل في أبحاثه عن قضايا كثيرة وهي مصـــدر إلحاح وحاجة للطلاب كإعراب الجمل والقواعد الإملائية.

القارئ للكتاب يخرج بانطباع عن مؤلفه وصاحبـــه الـــذي يميل إلى الجمـــع والدقة والثقـــة بالنفس وحب البروز والتميز، وهذا وارد وظاهر في معركته النقدية مع الدكتور «محمد خير حلوانـــي».. والكتاب خرج إلى المكتبات فـــي مرحلة فقيـــرة بكتب النحو وغنية بكتب المختارات والمناهج المبسطة للطلاب، وكأنه يريد أن يدعو زملاءه للغوص في الأعماق، فقـــدم كتاباً ممنهجاً وشاملاً لكل قضية يتطرق لهـــا بالبحث والدراسة، ولكنـــه بالمقابل يتجاوز نفسيـــة الصابوني المعجبة بأسلوب الغرب والثائرة على بعض الطبـــاع والعادات. فهذه الـــروح الثورية لم نجدها في كتابه الذي مال إلى التوثيق.

والنحو يحتاج لثورة مدروسة ومنطقية، ويحتـــاج لرفـــع الغبار عن بعضـــ تعقيداته التي لا يتجرأ أحدٌ على ذكرها والبوح بها.. فكنت أتصور أنه سيتنـــاول قضية الإملاء، ويدعو لتبسيطها وتوحيد أساليب قواعدها بين المدارس النحويـــة العربية. إن الكتاب لا يشـــكل إضافة بل محاولـــة جادة وحسنة لاستنبـــاط واصطياد الهوامـــل من حروف المعاني المساعـــدة للطلبـــة والدارسين.. ورغم هـــذا خلق الكتاب حالـــة من حالات المعـــارك الحاميـــة في الوســـط الثقافي. ولكنها معركة خسر فيهـــا الأدب، وخسرت الثقافـــة الكثيـــر مـــن مقوماتهـــا وبريقها ونقائهـــا. إن الكتاب أثار بعضـــ الدارسين والباحثين وأغراهم بالحديث. فقدَّم الأديب خليـــل هنداوي- فـــي صحيفـــة الجماهير ١٩٧٦/١/٢٦- كلمـــة أشـــاد فيهـــا بثبـــات الصابونـــي ونشاطه الدؤوب، وأشاد بخبرته وتميزه بالبحث والاستقصاء فيقول الكاتب: «خاضـــ التأليف في النحـــو. بروح جديدة معتمـــداً على شواهـــد حيـــة، وتناولها من أكثـــر دواوين الشعراء وآيـــات القرآن وكلام العـــرب. يشرحها ويبين مواقـــع الاستشهاد بهـــا بأسلوب خلا من الجفـــاف وامتنع عن الحرفنة الضيقة والمنهجيـــة العنيفة». ثمَّ يقـــول: وفي أن الأقدمين قـــد كتبوا الشيء الكثير في النحو. واكتفى المحدثون بما رآه

الأقدمون. ولكن كتاب «اللباب» يعد عندي مفخرة ما أنتجته المكتبة العربية القديمة والحديثة في النحو.. ولا عجب أن يثور جدل كثيرٌ حول كلِّ كتب النحو».

وكأن الأستاذ الهنداوي يشير إلى تلك المعركة التي دارت رحاها بين الدكتور محمد خير حلواني والمؤلف الأستاذ عبد الوهاب الصابوني، وكانت تجمع بينهما صداقة وزمالة. ولكن المعركة قصمت ظهرها عندما تجاوزا حدود النقد والحوار فالمعارك الثقافية إن لم تكن واعية ومبنية على ثوابت، وتصبّ في واحات العلم والأدب فهي وبال وعبء. وهذه دعوة لأدبائنا بعد أن استفحل أمر هجومهم وشن حروبهم العشواء على بعضهم متناسين روح الخلاف والإبداع وجمال وجهات النظر والحوار البناء.. فإني أنتظر معارك نقدية تدور في صلب الأعمال الإبداعية بعيداً عن الغرور والحسد والترصد وحب الظهور والكيد وتصفية الحسابات.. وممن لامس وتابع هذه المشادات الأستاذ مصطفى سلمان، وذلك على صفحات مجلة الضاد في العدد الأول من عام ألف وتسعمئة وستة وسبعين. في مقالة أخذت عنوان «القرطبي بين الدكتور الحلواني والأستاذ الصابوني» ويذكر فيها أهمية الخلاف والمعارك إذا لم تتجاوز الجانب الشخصي.

فيقول: «فليت المعركة بينهما تخلو من كل ما لا يمت إلى العلم بصلة» وهذه الدعوة دعوة غيور حريص على قيم العلم الخاصة..

وماذا بقي بعد هذه المعركة؟ وماذا قدمت للأوساط الأدبية ويبقى السؤال ملحاً في أعماقنا.. إلى أي مدى يمكن أن نبحث عن معارك مجدية ومنعشة للذهن والفكر في زمن أضحى الحوار شتائم ومهاترات.. وأضحى الوسط مليئاً بالقضايا الفكرية والأدبية التي تبحث عن نقاش ومصارحات فهلا نفعل هذا؟!.

يبقى الصابوني أنموذجاً له خصوصيته وتفرُّده، وله فَضْلُهُ فيما قدَّمه لطلاب كلية الآداب الذين استفادوا من مكتبته، وحبُّه للكتاب يقرِّبه إلى فريق من الأدباء الذين تمكنت علاقتهم مع الكتاب كالجاحظ وأبي حيّان التوحيدي وابن رشد والعقاد والدكتور محمد حموية ولكلٍّ منهم قصة طريفةٌ...

يقيني أنه مات جسداً وعاش كريماً مبدعاً في ذاكرتنا. وآمل أن أكون وفقت في الاستعراض لأفيَهُ شيئاً من حقه في زمن قل فيه الوفاء واستفحل فيه العقوق لمن يستحق، والرياء لمن لا يقدم شيئاً ذا نفع وأثر يذكر..

لمحات من فن الملحمة لدى الشعوب

❁
عبد الكريم إبراهيم قميرة

الملحمــة هــي، حكاية شعبيــة قومية تروي صــراع أمتين في مرحلــة معينة من الزمن، وهي تستمد موضوعاتها من التاريخ القديم، وتعتمــد على المبالغة والخيال في وصف الحــوادث والحديث عــن الخوارق وهي تفسح المجال لتدخل الآلهة المتعددة فتجعل منهم أشخاصاً ذوي ميول وانفعالات يساعدون هذا الفريق ضد ذاك، ويغضبون فيجر غضبهــم الويلات، ويرضــون فيأتي رضاهم بالانتصــارات، وقد يتصارع الآلهة فيما بينهم لينصروا فريقاً على آخر..

وقد سميــت الملحمة بهــذا الاسم لأن القتال يلتحــم فيها دائماً بيــن المتقاتلين وتظهر الخرافــات خلالها بشكل ملموس.. وذلك لأنها تصور طفولة الشعوب وسذاجتها ومحبتهــا للبطــولات وشغفهــا بالفروسية وعشقهــا للانتصــارات الخارقــة التــي لايصدقها العقل في الوقت الحاضر.

والملحمة قديمة جــداً، ويعود ظهورها إلى بدء ظهور الإنسان وقد أشار الفيلسوف الألمانــي هيغــل (١٧٧٠-١٨٣١) في كتابه «القيم الجمالية» إلى أن أول أثر أدبي يحتوي

❁ أديب وباحث.

على نواة ملحمية هو تلك النقوش والآثار التي تركتها لنا الأمم البدائية الأولى، وفيها يصف الإنسان القديم الموجودات الطبيعية التي ترتبط بحياته بعض الارتباط والتي قصر إدراكه عن سبر غورها ومعرفة سرها.. ثم تلا ذلك بعض الأناشيد والتراتيل الدينية حيث نلمس فيها نفساً غنائياً يتجلى فيه الخوف من الآلهة.. لذلك بادر الإنسان إلى تشخيص الأعمال الإلهية بمظاهر خارقة مخيفة تثير الرعب في القلوب والهلع في النفوس، وبالتالي تزيد في نسبة الإيمان بها.

وتتألف الملحمة عادة من أناشيد يغنيها الشعراء على الآلات الموسيقية.. وبفضل انقضاء الزمن ومرور العصور يكتسب أشخاص الملحمة صفات خيالية فيأتي شاعر ليجعل منهم أناساً يختلفون عن الرجال العاديين.. والغاية من ذلك هي الرغبة في جعلهم يقدسون الماضي ورجالاته وفي اتخاذهم قدوة يقتدي بهم الجميع، وفي جعل تصرفاتهم مثلاً أعلى.. ولهذا فإننا نجد أبطال الملاحم عمالقة في كل شيء، عمالقة في انتصاراتهم وعمالقة في هزائمهم.

والملحمة ليست من صنع شاعر واحد.. بل يتدخل في نظمها شعراء عدة وخلال عصور عدة..

ففي كل عصر يتغنى بالأعمال البطولية شاعر عبقري يضيف إلى الأناشيد التي يحفظها الناس ما يستحسنه الوجدان العام للجماهير، فيصور أهواءهم ويساير رغباتهم ويدغدغ مشاعرهم، إلى أن يأتي شاعر مبدع خلاق فيجمع هذه الأناشيد في وحدة موضوعية متماسكة ليجعل منها كلاً لا يتجزأ وبذلك تتخذ معه شكلاً نهائياً يشيع بين الناس ويتردد على ألسنتهم..

ويعود الفضل في هذا إلى الشاعر الأخير الذي أعطى الملحمة الخلود خلال الأيام والعصور..

ويرى «بوالو» (١٦٣٦-١٧١١) عميد أدباء فرنسا ونقادها في القرن السابع عشر، أن:

(١)

الملحمة ليست إلا قصة طويلة تدور حول حوادث مختلفة في جو من الخرافات، قام بها رجل واحد لغرض معين هو تهذيب الأخلاق عن طريق الإلهاء الذي يؤدي إلى نسيان بعض العادات السيئة.. وقد ألح أدباء فرنسا في ذلك العصر أن تكون كل ملحمة جديدة تنهج السبيل الذي اختطته الإلياذة لهوميروس والإنياذة لفرجيل.

ولعلَّ أول من استطاع معرفة حقيقة الملحمة وكشف مزاياها هو الناقد

الإيطالي فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤)، عندما لمس أنها تصور عادات الشعوب وأخلاقها دون أن تقصد تهذيب النفوس وإصلاحها لأنها حسب رأيه لم تؤلف لغاية منشودة ظاهرة وإنما تم ذلك عفواً دون تكلف أو رغبة سابقة أو هدف معين.

ومن هنا انطلق الأدباء وميزوا بين نوعين من الملاحم: نوع نشأ من فيض قرائح الشعوب فنضج خلال تتابع العصور، لذلك فهو من صنع أمة بأجمعها لا من صنع فرد، ونوع آخر هو حصيلة العقل البشري الخلاق في وقت من الأوقات وقد سمي النوع الأول الملحمة الطبيعية والثاني سمي الملحمة الصناعية. وسنتحدث عن كل من النوعين..

إن في متناهى أحلام كل شعب من الشعوب وبداية منطلق كل أمة من الأمم يلعب الماضي بشخصياته دوراً بارزاً في تعبئة الهمم بالزخم الحماسي الذي يدفع بالناس إلى تقديس هذا الفرد أو ذاك لما قام به من بطولات وتضحيات في محنة معينة وفترة من الزمن محددة.

ويظهر تعلق الشعوب بالأبطال السابقين في مراحل انحطاط الدولة وضعفها. ومن هنا تلتف الأفئدة بما فيها من فيض عاطفي حول حادثة قديمة، برز فيها بطل همام، نصر الأمة نصراً مبيناً بما قام به من خارق الأعمال وجريء الفعال فتلهج الألسنة بحمده وشكره وتخفق القلوب محبة لذكر اسمه، فيصبح أباً للفضائل وموضعاً للمزايا وموئلاً للمفاخر، فينطلق الناس ويتغنون ببطولاته ملصقين به من المآثر ما يعجز الأنس والجن عن تحقيقه، وتتناقل الأجيال أخباره ينشدها في كل عصر شاعر شعبي على إحدى الآلات الموسيقية فيحذف منها ما يشاء ويضيف ما يشاء مراعياً مشاعر العامة ومكامن نقصهم إلى أن تقيّض الأيام شاعراً عبقرياً خلاقاً يجمع هذه الأناشيد في ملحمة واحدة يسكبها في قالب شائق جذاب يدغدغ أوتار القلوب ويهيمن على مناحي النفوس.. وقد ينسى الناس مع مرور الأيام أحياناً اسم الشاعر، أو يحفظ اسم آخر من تغنى بأناشيد بطولات الأجداد.

والغالب في هذه الملحمة أن الدور الجماعي يفوق الدور الفردي ولذلك قلما يظهر اسم المؤلف الأصلي، فوجوده وعدمه سيان لأن الفضل الأول للشعوب التي أحبت بطلاً وأعجبت به فرددت ألسنتها عبارات المحبة له، وللمحب دائماً الفوضى في التفكير..

والغالب دائماً المبالغة كي تذكي حماس الناس لتقليد أعمال السلف وتقليد صفاتهم وتقمص شخصياتهم.

(٢)

وأشهــر الملاحم الطبيعية من دون شك الإلياذة والأوديسة وينسب نظمها إلى شاعر واحــد هو هوميروســ.. وتتعلــق حوادث الأولــى بالحــرب التي اندلعــت بين سكان مدينة طروادة الواقعة على الجنوب الغربي من تركيا والغزاة الإغريق مع ذكر المخاطر التــي تعرض لها هؤلاء فــي سبيل استعادة الأميــرة هيلانــة التــي هربت مــع الأمير الطروادي باريس بن فريام..

لقــد أثار هربها حنــق اليونانيين فهبوا بقيــادة الملك أغاممنــون وزحفوا في ألف سفينة تحمل المقاتلين. لاسترجاع الأميرة العاشقــة وخلال المعارك برز من الطرفين رجال شجعان هم:

البطــل أخيــل والداهيــة أوليســ من الإغريق وهكتور من الطرواد.

والحادث المهم في الأناشيد هو غضب آخيل وانسحابه من القتال بسبب امرأة سبية هي ابنة كاهــن معبد الإله أبولــو وأرادها لنفسه فأخذها من الملك أغاممنون.. وقد أفســح انسحابه من القتــال المجال للبطل الطروادي هكتور الصنديد أن يذيق الإغريق الويلات فشتت شملهــم وأعمل السيف في رقابهم إلى أن رضي آخيل وعاد إلى القتال بعد أن فتك هكتور بصديقه فطروقل..

عندئــذ غضب وعاد إلــى القتال وقتل هكتور وربط جثته إلى عربته الحربية وأخذ يجرهــا على الأرض حول أســوار المدينة، وقتــل هو فيما بعــد بسهم أطلقــه باريس أصابه بقدمه..

لكن المدينة لم تسقط إلا بحيلة ابتكرها الداهيــة أوليســ يعرفهــا كل الناس باسم حصان طروادة..

وهو عبارة عن حصان خشبي ضخم جداً اختبأ بداخله فرسان إغريق، أدخله الطرواد بعــد انسحاب أعدائهم.. وخلال الليل خرج منه الفرسان وفتحوا أبواب المدينة فدخل الإغريق واستولــوا عليها واستعادوا هيلانة الهاربــة واستولــوا على ثــروات الطرواد وكنوزهم.

وفي ملحمة الإلياذة نرى تدخلات الآلهة بشكل واضح، فزحل ومنيرفا بجانب الإغريق، وأبولون والمريخ والزهرة مع الطرواديين.. فهم يساعدون الأبطال ويثيرون في نفوسهم الحميــة والحماس، بل قــد يتقاتلون فيما بينهم لنصر فئة على أخرى.

أمــا موضــوع ملحمــة الأوديســة فهو المخاطر التــي صادفها أوليس أثناء عودته من قتال طروادة إلى مملكته «أتيكا».

لقد عاقبته الآلهة المعادية وجعلته يتيه عشــر سنوات في البحــر، وتحطمت سفنه

وغــرق رجاله ووقــع أسيراً عنــد الحورية «غاليبسو» التي ألحــت عليه أن يبقى معها فتضمــن لــه الخلــود والحياة فــي سعادة دائمة ويصبح أفضل من رفاقه الذين لاقوا حتفهم في الحرب مــع الطرواد، لكن حبه لزوجتــه بينيلوب ولوطنه جعله يرفض، إلى أن استطــاع الخلاص وعاد إلى بلاده ليقتل الأمراء الطغاة الذيــن تجرؤوا أن يضغطوا على زوجته كي تختار منهم بعلاً لها بعد أن طال غياب زوجها.

لكن إن كان نبتون إله البحر قد أضل ملك «أتيــكا» وأغرق سفنــه ورجاله، فإن منيرفا إلهة الحكمة قد وقفت بجانبه وساعدته على التغلب على هؤلاء الأمراء المتآمرين الذين لم يحترموا ملكتهــم وحاولوا إكراهها على الزواج بأحدهم.. وقد حلت هذه الآلهة في شخص أحد أصدقاء أوليس وحققت لأتيكا السلام والرفاه الدائم.

ومــن اطلع علــى هــذه الملحمة يجد اختلافــاً واضحاً في الأسلوب الذي صيغت فيــه، وهذا ما دفع الناقدين فيكو الإيطالي وولف الألماني(١٧٥٩-١٨٢٤) إلى الاعتقاد بأن الإلياذة والأوديسة ليستا من صنع رجل واحد كما هو معروف.

وقد راق هذا النوع مــن الأدب، الأدباء فــي كل عصر لذلك لا عجــب إن حاولوا أن ينظموا ملاحم صناعية مقلدين الملاحم الطبيعية.

وقــد وضــع المحدثون قواعــد خاصة للملاحم الصناعية، منها ما يتعلق بشخص المؤلــف والموضــوع، ومنهــا مــا يتعلــق بالأشخاص.

فالمؤلــف ناظم الملحمة يجب أن يكون لسانــاً ناطقاً يعبر عن رغبات أمته وأمانيها ولــذا عليه أن يختفــي وراء الأبطال الذين يتحدث عنهــم، وعليه أن ينتقل بروحه كلها إلى العصر الــذي عاش فيه رجال ملحمته بعاداتــه وتقاليده، وإلا فإنــه يفسد الروعة الفنيــة والصــدق المحلــي فــي التصوير والوصف.

أمــا موضوع الملحمة فيجــب أن يكون مأخــوذاً من الحــوادث التي تهــم الشعب بأسره والوطن كلــه ولا مجال للموضوعات المتعلقة بالأفراد.. ولذا يجب أن تكون ذات أثر بالــغ في حياة الأمة كــرد اعتداء عدو علــى أراضيها أو تحريــر الوطن ويجب أن تكــون الحادثة قديمة جــداً لما للقديم من سحر في النفوس وتأثير في القلوب.

والحروب الأهليــة لا مكان لها في هذا المجال.. وفيما يتعلق بالأشخاص فإن البطل هو حجر الرحى، وهــو القطب الذي تلتف حوله الحوادث كلها، ولــذا لابد أن يتصف

بالشجاعة والذكاء وعلو الهمة ومضاء العزيمة وكمال الأخلاق.. وبجانب البطل ثمة أشخاص ثانويون يتعلق وجودهم بالبطل فيساعد على إظهار نبوغه وإبداعه.

أما في ما يتعلق بالشكل، فلا شك أن الشعر هو الأسلوب الضروري لصياغة الملحمة لما يرافقه من موسيقا ناتجة عن وجود القافية واستعمال البحور، لأنه يغنى على الربابة أو القيثارة.

لذلك كثرت الملاحم الشعرية وقلت بل ندرت النثرية لكن عندما شرع أرسطو للشعر منذ ثلاثة وعشرين قرناً ونيف، قال: «يجوز أن تكون الملحمة شعراً كما يجوز أن تكون نثراً».

وإذا كانت الخوارق من أركان الملحمة القديمة لإثارة الإعجاب فلا يمكن قبولها في الملحمة الصناعية، وسيكون نصيبها الاستنكار.

ومن أشهر الملاحم الصناعية الإنياذة لفيرجل الروماني في القرن الأول الميلادي، وهي تروي قصة مجيء الطرواديين المهزومين إلى إيطاليا وإقامتهم فيها بقيادة البطل إينيه..

إضافة إلى ملحمة «تليماك» للأديب الفرنسي فينيلون في القرن السابع عشر وتتحدث عن المخاطر التي صادفها تليماك في البحث عن أبيه البطل أوليس.. ثم ملحمة «الشهداء» لشاتوبريان في القرن الثامن عشر.. وكذلك «الشاهنامة» للفردوسي الفارسي، وهي ملحمة نظمت في وقت قويت فيه الحركة الشعوبية، مما دفع هذا الشاعر إلى تمجيد انتصارات كسرى ضد أعدائه الطورانيين.

وهناك أيضاً الملحمة الهندية «المهابهاراتا» التي ألفها أحد كهان الهنود باللغة السنسكريتية قبل الميلاد بعدة قرون ثم «الفردوس المفقود» للشاعر الإنكليزي «جون ملتون» (١٦٠٨-١٦٧٤) في القرن السابع عشر وموضوعها خطيئة آدم وحواء الأولى بسبب إغواء إبليس لهما، وطردهما من الجنة لعصيانهما أوامر الله..

ونصل إلى الشعر العربي، ونقف حائرين، فالملحمة بمعناها المعروف الذي تحدثنا عنه سابقاً كانت مجهولة تماماً. وسنفاجأ بالدهشة لهذا النقص في موضوعات الشعر العربي.

لاسيما أن حياة العرب في الجاهلية والإسلام كانت ملأى بالحروب والأحداث الجسام التي يمكن أن تكون موضوعاً قيماً لشعر ملحمي راق لا يقل روعة عن شعر هوميروس في الإلياذة والأوديسة خاصة أن الشعر ديوان العرب كما يقول شاعر الشباب

أبو فراس الحمداني وأن فضيلة الشعر مقصورة على العرب. كما قال أكثر من مرة شيخ الأدباء أبو عثمان الجاحظ..

إذن، ما هي الأسباب التي أدت إلى افتقار الذخيرة الشعرية العربية إلى هذا النوع البطولي الذي يتغنى بأمجاد الأمة وانتصاراتها علماً بأن حياة العرب ما كانت في أية مرحلة من مراحل تاريخهم السابقة إلا جياشة بكل ما يرفع الرأس شمماً ويرنح الأعطاف طرباً برائع الانتصارات وسامق البطولات؟

ولعلَّ أوَّل الأسباب وأهمها في العصر الجاهلي هو البيئة القاسية التي يعيش فيها العربي، فالقحط كان سائداً في الجزيرة العربية ولذلك فإن البدوي العربي لم يكن يستقر في مكان واحد ينعم فيه بالماء حتى يفاجئه الجفاف فتجوع نوقه وخرافه، ويضطر للانتقال إلى مكان آخر بحثاً عن الظل الوريف والماء البليل.. هذا الانتقال المتواصل في سبيل العيش ضيق على العربي آفاق تفكيره وجعل همه لا يتعدى تأمين قوته وقوت عياله، والتأليف القصصي يحتاج إلى الاستقرار في مكان واحد كي يتاح للعبقرية أن تنضج، فتنتج وتعطي فائق العطاء.

ويقول الفلاسفة اليونان على الإنسان أن يشبع قبل أن يكتب ويتفلسف كما أن طبيعة الصحراء العربية واستمرار الجو الحار فيها، جعل العربي يعيش في جو نفسي محدود، ففي النهار شمس مشرقة محرقة تنصب عمودياً فيقتعد الشيء ظله، وحرارة لاهبة تحط من فورة النشاط، وفي الليل قمر ساطع وضاء وهدوء ساحر يذكي العاطفة ويملأ القلب بمشاعر الشوق والحنان فينطلق الشاعر إلى ذكر سابية روحه ومعبودة فؤاده مشبهاً إياها بالمشاهد التي تراها عيناه فابتسامتها كإشراقة الشمس، ووجهها كالقمر ومشيتها كمشي البقر، وهكذا تتابع به الأيام والليالي على وتيرة واحدة ونسق واحد إن لم تفاجئه غارة داهمة أو ينطلق هو بغزوة هاجمة..

أما الإغريقي فيعيش في جبال مرتفعة، وشتاؤه قاس تتخلله العواصف والرياح والرعود فيحسبها آلهة تتقاتل، فيتضرع إلى «زوس» رب الأرباب كي يحفظ منزله وأسرته من الدمار بعد أن وجد منزل جاره قد حطمته الصواعق..

وهذا لا يعني أن العربي البدوي كانت حياته خالية من العبادات فقد كانت لديه أصنام من التمر يقدم لها الفرائض فإذا جاع كان يأكلها. وبعض الأصنام من الصخر فيجد الثُعلُبان يبول عليها فيحطمها.. ولذلك كان إيمانه بها قليل العمق..

إضافة إلى ذلــك، كان التعصب القبلي فــي أوجه. فالعربي يقاتل مــن أجل قبيلته فقط.. والقبائــل لم تكن تشعــر بالرابطة القومية لتتحد وتحارب لحماية بعضها.

لقد عرف العرب حروباً كبيرة أثارت في نفوسهم الهمم فاتحــدوا لمواجهة الأعداء المهاجمين ففي معركة ذي قار اتحد العرب وحاربــوا الفرس وانتصروا عليهم.. وكذلك معركــة الأحباش في عام الفيل.. وقد تغنى الشعــراء العــرب بانتصــارات قبائلهم في قصائد فردية تصف بطولات أبنائهم.

إنَّ عوامل التحدي التي يعانيها البدوي العربي، ضخمت نفســه فلا يقول شعراً إلا لتمجيد ذاته المتورمــة التي يلذ لها تكرار انتصاراته بينما الشعــر الملحمي هو سرد قصصي يتطلب إخفــاء شخصية الشاعر، وهــذا لم يكن ممكنا، فليس من المعقول أن يصف البدوي بطولات جاره وينسى نفسه.

كما أن الصراع بين القبائل وبين الملوك والأمراء كان على أشده وكان كل منهم يحتاج لشاعر يدافع عنه ويهاجم أعداءه، فالنابغة الذبياني إمام الشعراء في العصر الجاهلي كان يمدح الملك النعمان، (أبا قابوس) طمعاً بنوقه العصافيرية وذهبه الرنان.

وهكــذا فــإن السياسة أفســدت صفاء الشعر وصرفته عن الالتفاف إلى موضوعات أخرى.

والشعر الملحمي يتطلب سرداً قصصياً قد يستهلــك ألوفاً من الأبيــات المنظومة تصور الحوادث وتحللها.. والعرب لم يعرفوا هــذا النوع مــن الشعر.. فهــم أهل بداهة وارتجــال يشيــرون إلى المعنــى بلمحات خاطفــة.. ولذلك عابوا علــى الشاعر ابن الرومي قصائده الطويلــة وتقليبه المعاني ظهراً لبطن وقالوا عنه إنه شاعر غرد خارج سربه...

لقــد كانــت عبقريــة الشاعــر تقاس بالاعتماد على قصيدة صغيرة وأحياناً على بيت واحد مــن الشعر، ويذكر كتاب العمدة «لابن رشيق القيروانــي» كثيراً من الأحكام التي تقضي فتقول فــلان أشعر الناس بيتاً أو قصيدة..

وهذا يدلنا على أن النفس الملحمي لم يكــن موجوداً لدى العــرب وذلك عائد إلى طبيعة العــرب العرقيــة إذا أردنا تصديق علمــاء الاجتمــاع والأنتربولوجيــا الذيــن يفرقــون بين العــروق البشريــة المعروفة بتحديــد خصائص وصفــات كل منها وقد درســ الدكتور زكي المحاسني هذه الناحية مفصلاً فــي كتابه شعر الحرب عند العرب في الصفحة (١٤٦ /١٥٣).

فاليونان مــن العرق الآري يميل الواحد منهم إلــى الاستقصاء والبحــث الطويل..

وهذا ما يظهــر في شعر ابن الرومي الآري الأصل.

أمَّا الإنســان السامي فيهتـم بالمعاني الفخمة والصيغ الموجزة البراقة، والعبارات الطنانــة والرغبة بإثارة الانتبــاه بغوامض الكلام ومستغلق المعنى.. ويظهر هذا جلياً في أشعار الفحول مثــل أبي تمام والمتنبي والشريف الرضي..

ويقول الشاعر الفرنســي فيكتور هيغو (١٨٠٢-١٨٨٥) بــأن أدوار الشعــر كأدوار الإنسان وهي الغناء في الطفولة والقصص في الشباب. والتمثيــل في الكهولة.. الدور الأول يتغنى الشاعر بما يتخيَّله، وفي الثاني يقص ما يعلمــه ويعمله..وفي الثالث يصور ما يتمثله..

والعــرب في الجاهلية كانــوا في الدور الأول أي كانوا في مرحلة الغناء..

فلمــا ظهر الإســلام انصــرف العرب إلــى الجهاد في سبيــل الله ولذا لم يصلوا إلــى المرحلــة القصصيــة ثــم أن تحريم القــرآن للشعر في قوله **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَـمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِـي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُـمْ يَقُولُونَ مَـا لَا يَفْعَلُونَ﴾** (الشعراء /٢٢٤/٢٢٦) أقول إن هــذا التحريم ضيق علــى الشعــر نطــاق موضوعاتــه فتوقف الشعــراء فترة من الزمن ثم عــادوا سيرته الأولى في التعبير عن وجدانية الشاعر دون أن ينزع إلى التجديد..

وشعراء العصر الأموي جرير والفرزدق والأخطل وغيرهــم انصرفــوا جميعاً إلى النــزاع الحزبــي السياســي. بيــن أمويين وطالبين وخوارج وزبيريين في قوالب شعرية غنائية تستحث الهمم.

وعندمــا هبت رياح التجديد في العصر العباسي بقيادة بشــار بن برد وأبي نواس.. كان ذلك التجديد في الأشعار والانقطاع عن البكاء على الأطلال، وظل الشعر غنائياً.

ولعل السبــب في عدم كتابــة الشعراء العرب فــي العصر العباســي للملحمة في وقــت هدأت فيه فــورة الحماســ الديني، وقلت حــروب الجهاد في سبيــل الله. هو اعتقادهم أن أجدادهــم قد وصلوا بالشعر إلــى درجــة الكمال ولم يعــد هناك حاجة إلى تجديــد موضوعاته، وقولــة الجاحظ ((فضيلــة الشعر مقصورة علــى العرب)) تعبر بصراحة ووضــوح عن اعتزاز العرب وكبريائهم واعتقادهم أن شعرهم متفوق وأن أجدادهم طرقوا كل الموضوعات الشعرية.

ولئن كان الشعــراء العرب في الجاهلية والعصــر الأموي قــد بكوا علــى الأطلال ووصفــوا النــوق والغــزلان فــإن الشعراء المجدديــن انحصر تجديدهــم في وصف

الخمرة والخمارات والقينة والساقي والكؤوس الموشاة بالذهب والنقوش ورسوم كسرى..

وهذا يعني أن الشعر الملحمي لم يكن في طبع العرب ولو أنسوا إلى هذا الفن القومي البطولي الحماسي لنظموا فيه الكثير من الملاحم، لاسيما في الفترة التي قويت فيها الشعوبية وبات التغني بالماضي العربي ضرباً من استثارة الهمم.

وفي هذه الفترة نظم الفردوسي ملحمته الشهيرة (الشاهنامة) (١٤١٨-١٥١٢) وفيها يصور بطولات الأكاسرة الفرس في حروبهم ضد أعدائهم الطورانيين الأتراك..

وعندما دخل العرب المسلمون بلاد الأندلس واستقروا فيها ونشروا دينهم وحضارتهم ولغتهم برز بينهم رجالات أبطال دوت أسماؤهم عالياً في عالم الفتوحات مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد كان مجال نظم الملحمة واسعاً خاصة أن الصراع يدور بين أمتين مختلفتين في الدين واللغة والقومية وكان الإحساس الجهادي قوياً جداً.. لكن لم يظهر هذا النوع من الشعر البطولي.

والحروب كانت حامية الوطيس، والعربي كان بين أمرين إما الموت أو الحياة الحرة الكريمة في أحضان الجنائن الغناء والخرائد[٣] الفاتنات، كما جاء في الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد والتي قالها في هذه الحروب، وانتصر فيها العرب على الوندال..

هذه الحروب كانت موضوعاً للملحمة الأوروبية الشهيرة المسماة «أغنية رولان» حيث يذكر فيها الشاعر الفرنسي بطولة رولان[٤] في انكساره في وادي رونسوفو ويتحدث فيها كيف حافظ على رجولته وفروسيته وإبائه وشرفه.

أما لماذا لم ينظم العرب في الأندلس الملاحم فلأنهم نظروا إلى شعر أجدادهم الشرقيين نظرة مثالية وسعوا إلى تقليدهم في كل موضوعاتهم الأدبية خلال وجودهم في تلك البلاد.

كما أن تأثرهم بالشعر الفرنسي كان ضعيفاً ولعل ذلك عائداً إلى احتقارهم لكل ما يتعلق بالإفرنج.

وهكذا خلا الشعر العربي التقليدي من الملاحم باستثناء بعض المظاهر الملحمية في قصائد المتنبي أثناء مديحه ووصفه لمعارك الأمير سيف الدولة الحمداني، وهي من أجود الشعر العربي خاصة في وصف معركة الحدث الحمراء..

وكذلك في قصيدة أبي تمام التي تصف نخوة المعتصم الذي لبى نداء امرأة عربية مسلمة في الشمال الغربي (بيزنطة) في

مدينــة تدعى زبطرة وقال لها لبيك واندفع بجحافلـه وفرسانه وانتصــر على جيوش بيزنطة. وقد خلدهــا الشاعر أبو تمام في قصيدته الشهيرة «والسيف أصدق إنباء من الكتب».

وكذلك الشاعر البحتــري في قصائده التي يتحــدث فيها عن بطولات أسد الثغور وحاميهــا أبي سعيد محمد الثغري في زمن المعتصــم ثم في أشعــاره التي تتحدث عن فروسية ولده يوسف أبي محمد الثغري في زمن المتوكل (٥).

وإذا عدنــا إلى كلمة «أرسطو» في بداية هــذا البحث يتبين لنا أن الملحمة يمكن أن تكون شعراً ويجوز أن تكون نثراً وأنها حكاية قومية تروي صراع أمتين وتعتمد على جذور التاريخ القديم ويكــون القتال فيها ملتحماً وتصــور عادات الشعوب كمــا يقول الناقد الإيطالــي «فيكو» (٦) وتسود فيها الخرافات والأساطير في قصة طويلة كما يقول الناقد الفرنســي «بوالو»..ولا تتحدث عن الحروب الأهلية باتفاق جميع الناقدين..

أقول إذا أخذنا هذه المقاييس والمعايير وطبقناها على القصص الشعبية النثرية في اللغــة العربية نراها موجودة في بعض هذه القصص المنتشرة فــي العالم العربي منذ بداية الدولة الإسلامية..

وقد سبقنــا العلامة الباحــث سليمان البستانــي في مقدمة ترجمتــه للإلياذة - فوجد أن سيرة عنترة يمكن اعتبارها إلياذة العرب نظــراً لتشابه عدة أبيــات من شعر عنترة مع أشعار لهكتور بطل طروادة وحامي حماها ومع أشعار أخيل بطل الإغريق..

وأنــا أرى بكل تواضع، بعــد أن اطلعت عليهــا جيداً أنها لا يمكــن أن تكون ملحمة للأسباب المتعددة التالية :

إن سيرة عنترة تروي حروباً متصلة بين قبائــل عربية متجاورة قــد ترتبط ببعضها بوشائج النسب والمصاهرة والدم فهي إذن حروب أهلية لا تقبلها التعاريف السابقة إذ يجب أن يكــون القتال بين أمتين مختلفتين في المصالح والأهداف...

وتعتمد قصــة عنترة على أصل تاريخي وهو سياق داحس والغبــراء وهما الفَرَسان الأصيلتــان اللتــان تسببتا بحــروب دامت أربعين عاماً بين بني عبس والقبائل العربية الأخرى المتحالفة معها أو المعادية لها.

وسيرة عنترة فيها بعض مظاهر الملحمة لكنهــا ضعيفة وهزيلــة وإن صورت عادات العرب وتقاليدهم ورغبتهــم الدائمة بالثأر وعدم اعترافهم بأبناء الجواري والرقيق...

وننتقل إلى «مجراويــة» الزير سالم أي الأميــر عدي بــن ربيعة في نهايــة القرن

الخامس وبداية القرن السادس الميلادي وتروي كتب التاريخ أن الأمير وائل بن ربيعة المشهور بلقب «كليب» كان سيد العرب وزعيم القبائل المسيحية في الجزيرة العربية. وقد أقدم على قتل التبعي ملك اليمن اليهودي في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي.... لأنه كان ظالماً واضطهد المسيحيين وأحرقهم في حفر في الأرض سميت الأخدود.

وقد أشار إلى هذه الحادثة القرآن الكريم في سورة البروج في الآيات التالية **﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ۝النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾** (البروج /٤-٥-٦/)

وكان كليب يعتبر حامي المسيحية، فهجم بجيشه على التبعي وقتله، فلجأ اليهود إلى الحيلة وكلفوا امرأة تدعى البسوس فأحدثت شجاراً في قبيلتي تغلب وبكر ودفعت بالأمير عمرو بن مرة الملقب بجساس إلى قتل صهره الأمير وائل كليب غدراً طعناً بالرمح في ظهره. مما أدى إلى اندلاع الحرب بين هاتين القبيلتين وأحلافهما وكان بطلها الأمير عدي الملقب بالزير أبي ليلى المهلهل.. وقد جاء في الأمثال العربية «أشأم من البسوس» وتبين أن اليهود لا ينسون ولا يتعلمون(٧). والقبيلتان المتحاربتان هما من أبناء وائل ومن أسياد العرب ولذا لا يصح أن تكون هذه القصة ملحمة رغم احتوائها على معارك متعددة وأساطير كثيرة.. فالمجراوية أو قصة الزير أبي ليلى المهلهل..... وهو يرويها لابن أخيه «الجرو» بن كليب أو الهجرس ولعله جرجس.. في شعر عربي دارج يحاذي الفصحى ويقترب من العامية..

والمجراوية تتشابه مع الأوديسة الملحمة اليونانية القديمة في ناحيتين من أحداثها:

أولاً: عودة الأمير عدي الزير سالم كما يذكر في المجراوية بعد غياب سبع سنوات أمضاها مأسوراً في بيروت لدى ملكها حكمون اليهودي بعد أن التقط على شاطئ البحر في تابوت مغلق... وكان حكمون قد سمح له بالعودة إلى أهله ودياره وأرسله في مركب خاص في البحر لأنه كان قد ساعده في حربه ضد برحيس الصليبي.. وكان قد شاخ وتغير منظره.. فدخل إلى منازل وقصور أهله، فلم يعرفه إلا كلبه وقد شاخ أيضاً وعبد أخيه الأمير كليب المدعو أبو شهوان.. كما حصل مع أوليس الإغريقي في الأدويسة في عودته بعد عشرين سنة من الضياع في البحر وبعد تدميره لمدينة طروادة الكنعانية إذ لم يعرفه إلا كلبه والراعي العامل لديه.

والناحية الثانية أن ابنة أخيه كليب الأميرة اليمامة مع شقيقاتها، كن يعشن في حالة ضنك وذل بغياب عمهم الزير

سالم الفارس المغوار.. وكذلك زوجة أوليس الملكة بينيلـوب، كانت تعيش في حالة قهر بسبـب غياب زوجها مـدة طويلة، وسيطرة الأمراء على قصرها محاولين إرغامها على الزواج بأحدهم.

وعودة كل مـن الزيـر[٨] وأوليس تجلب الفرح لعائلة كل منهما مع الفرح.

هــذه هي بعضـ المظاهــر الملحمية في هذه القصــة الجميلة جداً لكنها ليست ملحمة لمخالفتها التعريف الداعي أن تكون الحــرب بيــن أمتين مختلفتيــن وليس بين الأهل والأقارب..

وننتقـل الآن إلى رحاب سيرة بني هلال في القرن الخامس الهجري، تقول السير إن هذه القبائل من بــلاد السرو وهي موجودة في الحجاز وتسمى جبال السراة...

لقد عم القحط والجفاف في بلاد تلك القبائل خاصة في نجد فقرر أمراء بني هلال إرسال الأمير أبي زيد وثلاثة شبان من أبناء الأمــراء، ومنهم ابن أخته مرعي ابن الأمير حسن في السيــرة (السلطان حسن) لريادة البلــدان الغزيــرة المياه الكثيــرة الأشجار الوارقة الأغصان الغنية بالمراعي فوصلوا إلى تونس، حيث تم أسرهم جميعهم من قبل جنود الزناتي خليفة حاكم المدينة...

وعشقــت ابنتــه سعدى الأميــر مرعي لجماله الرائع، ثم أطلق سراح أبي زيد الذي قال عنه الأمراء الثلاثة، بأنه عبدهم ويجب أن لا ننسى أنه شديد السمرة – لجلب الفدية من أهالي الأمــراء المأسورين جاءت قبائل بني هلال وتغلبــوا على أبي سعدى الزناتي وسيطروا علــى بلاده، وعلى أرجاء المغرب العربي كافة وبقوا هناك حيث اندمجوا في السكان وذابوا في شعوب أفريقيا الشمالية

وكما عاقب الله ملوك الإغريق بالعذاب إثــر تدميرهــم بطروادة كذلــك حصل مع الأمراء الهلاليين اذ قتل بعضهم بعضاً حتى اندثروا[٩].

في الإلياذه نجد سيدة أولى لها دور كبير في الأحــداث الملحمية هــي هيلانة التي هربت مع باريســ وسببت الحروب والدمار لقومهــا ولقوم حبيبها، وفــي الأوديسة ثمة سيــدة أولى هي بينيلوب لكنها كانت فاضلة حافظت على وفائها لزوجهــا أوليس حتى مجيئه بعد غيابه أكثر من عشرين عاماً.

كذلك في سيرة بني هلال لكن في هذه السيرة نجــد سيدتين مختلفتين في الطباع والشمائــل فالسيــدة نوربــارق الجازية أم محمد شقيقة الأميــر حسن الهلالي تركت بيتهــا وأولادها في بلاد الحجــاز اذ كانت زوجة للأميــر شكر بن شريف مكة ورافقت أهلها بني هلال في تغريبتهم إلى تونس كما

تــروى كتب التاريخ ثم سعــدى ابنة الزناتي خليفــة التــي خانــت أباها ودلــت أعداءه الهلاليين على نقطــة ضعفه إذ لا يقتله إلا فارســ يدعى باسم من أسمــاء الضواري.. ولايموت إلا إذا ضرب في عينه.

فجلب الهلاليون له الأمير دياب بن غانم واسمه من أسماء الضواري وكان مبعداً عن القتــال كي لا يكون لــه فضل في الانتصار فيختال عليهــم، فكلف بحمايــة المواشي «البوشــ» كما كان أخيل مبتعــداً أيضاً عن القتال والمعارك لسبب آخر.

وكلا البطليــن دياب وآخيــل دارا عدة مرات حول سور المدينــة إلى أن تمكن كل منهمــا أن يقتل خصمه ويحقــق الانتصار لقومه...

وكذلك نجــد تشابهاً آخر بيــن الأمير ديــاب وشمشون كما ورد فــي التوراة... اذ جمع الأول ثلاثمئة ثعلب وربطها ببعضها كل اثنين معاً وأشعــل النار فيها ثم أطلقها بين الأراضي المزروعة في تونس نكاية بالأمراء الهلالييــن الذين استردوا المدينة منه وهي حصته إثر احتلالهم للمنطقة وتقسيمها بين أمرائهم، ويبدو أن مؤلف التغريبة قد اقتبس هــذه الحادثة عن شمشون الذي فعل الفعل نفسه [١٠].

وأحرق مزروعات الفلستين انتقاماً منهم على محاربتهم له مــع قومه (سفر القضاة ١٥/٤-٦).

هنا تتوافر في هذه السيرة الهلالية كل شــروط الملحمة التي جــاءت في تعاريف النقاد والأدباء والفلاسفة السابق ذكرهم.. ففــي السيــرة ثمة صراع بيــن أمتين هما: العــرب المسلمــون الفاطميــون والبربــر المسلمــون العباسيون وفيهــا أيضاً تصوير لعادات وخرافات كل من الطرفين.

لقد جاء بنو هــلال بحجة إنقاذ الأمير مرعي لكنهــم سيطروا علــى تونس وبقية أرجــاء المغــرب بخيراته وأموالــه وكنوزه كما حدث مــع الإغريق الذين جاؤوا بحجة استعادة الملكة هيلانة الجميلة الهاربة من زوجهــا مع الأميــر باريس بــن فريام ملك طــروادة الكنعاني الفينيقــي، فاستعادوها لكنهــم خربوا المدينة إلــى الأبد واستولوا علــى خيراتهــا وكنوزهــا وكلا الملحمتين تعتمدان على جذور تاريخية..

ولقد أثبتت الدراسات والتنقيبات وجود مدينة طروادة في الأناضول، تركيا الحالية جنــوب غربي أزمير على بعد كلمترات عدة عن البحر وفي حضائرها تم اكتشاف عدد كبيــر من الحلي والقطــع الذهبية النفيسة وهذا يدل على غناها الأسطوري لذلك طمع

الإغريق الغزاة بكنوزها فاحتلوها واتخذوا موضوع خطف هيلانه سبباً لذلك.

وفي السيرة الهلالية.. يقول التاريخ الأكاديمي أن المعز بن باديس والي الفاطميين على القيروان لم تكن مدينة تونس قد تأسست تنكر لسيده الخليفة الفاطمي المستنصر وأعلن الولاء للعباسيين في بغداد ثم أبطل الأذان وألغى البنود وحارب الدعاة الفاطميين.

وباعتبار أن المسافة كبيرة جداً بين القاهرة والقيروان والطريق طويل وصحراوي، قرر الخليفة الفاطمي بناء على نصيحة وزيره محمد الحسن بن علي اليازوري، تكليف قبائل بني هلال باستعادة أفريقيا ويطلق هذا الاسم على القسم الشمالي من المغرب العربي المبتدئ من تونس.. وذلك لسببين هامين.. الأول: أن هذه القبائل كانت تهاجم المدن وقوافل التجار في أنحاء العالم العربي ابتداء من عدن وانتهاء بإنطاكية والأمر الثاني أن الدولة تتخلص من تعدياتهم، فإن انتصروا ترتاح الخلافة الفاطمية من عصيان المعز بن باديس ويظلون هناك وإن انتصر عليهم فلكل حادث حديث..

ولذلك كتب الخليفة المستنصر ولاية أفريقيا لهم وزودهم بالمال والسلاح والذهب والخيل والنوق والجمال وكتب الوزير اليازوري للمعز بن باديس ما يلي:

«أما بعد، فقد أنفذنا إليك خيولاً فحولاً وحملنا عليها رجالاً كهولاً ﴿**لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً**﴾ الأنفال ٤٢».

فانطلق الهلاليون إلى القيروان وتونس عام (٤٤٠هـ - ١٠٤٣هـ) وكان عددهم آنئذ أربعمئة ألف ونيف برجالهم ونسائهم وأطفالهم متجهين نحو المغرب العربي الخصب الغني بأنهاره وينابيعه وحقوله وأشجاره وبساتينه وزروعه بعد أن انضم إليهم أبناء عمومتهم الهلاليون المقيمون في الصعيد الشرقي منذ عام ٣٧٠هـ - ٩٧٣) فسيطروا بسرعة على كل الأقاليم مع ما يحدثونه من تخريب وتعديات ووصلوا إلى مشارف القيروان عام (٤٤٣هـ -١٠٤٦)[١١] وقد تصدى لهم المعز بن باديس في معارك عدَّة وثبت لهم بجيوشه من الزناته وصنهاجة ومدرار وبقية قبائل البربر وكلهم مشهورون بالشجاعة والصمود وشدة البأس، لكن بني هلال انتصروا عليه في كل المعارك واحتلوا القيروان بعد حصارهم لها لمدة طويلة ثم تابعوا زحفهم نحو المغرب العربي فتصدى لهم والي مدينة تلمسان في غربي الجزائر وواجههم بجيوشه بقيادة وزيره أبي سعدى الزناتي الذي صمد للهلاليين ولجحافلهم الزاحفة ووقعت بين الطرفين معارك طاحنة انتهت بانتصارهم واستطاعوا السيطرة على بقية أرجاء المغرب العربي.

وبما أن هذه القبائل لم تأخذ بأساليب الحكم والمدنيّة سرعان ما تنازعوا من أجل توزيع الغنائم وعلى الرئاسة وبدس من ملوك صنهاجه وزناته المهزوميين والذين كانوا يؤلبون الأمراء الهلاليين بعضهم ضد بعض.

وقد بقيت المعارك متصلة بينهم إلى أن زالت دولتهم وضاعت سطوتهم في بطون الأيام كما هي سنة الله في خلقه وفق مايقول العلامة ابن خلدون معلقاً على زوالهم في مقدمته الشهيرة.

ومن نتائج هجرة بني هلال إلى المغرب العربي أن سيطر العنصر العربي على البربر وزادت نسبتهم في البلاد فاندمجوا بالسكان وبذلك سادت لغة القرآن وبقيت بيارق العروبة خفاقة في شمالي أفريقيا كما يعلق ابن خلدون أيضاً على تغريبتهم.

طبعاً كان أهالي مصر يتلقون أخبار انتصاراتهم فيذيعونها مضخمة بين الناس وبتشجيع من الخلافة الفاطمية حفاظاً على هيبتها كي لا يتجرأ أي وال آخر على الثورة ضدها والانتقاص من سيادتها.

هذه السيرة الهلالية ملحمة كاملة بكل عناصرها تطبيقاً لرأي الفيلسوف أرسطو القائل بإمكان أن تكون الملحمة نثراً وشعراً.. واعتماداً على رأي ابن خلدون القائل بأن البلاغة ليست مقصورة على لغة أهل مضر..

الهوامش:

١-لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب سورة يوسف ١١١ إن دراسة الخرافات والأساطير تمثل التفافاً نحو بواكير الفكر الإنساني عندما طرح الإنسان أسئلة حول ماهية الكون وأصوله وعلاقاته المترابطة وقد يستخلص المفكرون منها مواعظ وعبراً، خاصة من اليونان إذ ماتزال معتقداتهم تمثل هيكلاً أساسياً في بناء عدد من الديانات المعاصرة.. وأساطيرهم مرتبطة بثقافتنا العربية بسبب قربهم الجغرافي من بلادنا فتداخلت أفكارنا وآراؤنا ببعضها.

٢-إن الإلياذة ترنم بها اليونان خلال الأجيال كما ترنم اليهود بمزامير داوود وقدسوها كما قدس اليهود التوراة فلقنوها لصغارهم وحفظها كبارهم عن ظهر قلب.. ويصف أفلاطون أثرها في المآدب والمحافل فيقول: «كان المنشدون حين يتغنون بها يرتجفون نشوة وتجيش نفوسهم طرباً».

نظمها الشاعر الضرير هوميروس، الذي ينسب إلى إحدى جزر بحر إيجه ما بين عام ١٢٠٠ق.م وعام ٨٥٠ ق.م وقد ادعت سبع مدن يونانية بشرف انتساب هوميروس لها.

تبقى الإلياذة صرحاً ضخماً من صروح الإنسانية وكان الإسكندر المقدوني عام ٣٣٠ ق.م يصحبها معه أينما ذهب وكان يحسد البطل أخيل لأنها تذكره ويعتبر ذلك شرفاً كبيراً جداً.

٣- الخرائد جمع خريدة وهي اللؤلؤة التي لم تثقب، الفتاة البكر التي لم تمس.

٤-رولان: ابن شقيق الإمبراطور شارلمان، والمعركة حدثت في ٦ آب ٧٧٨م.

٥- وكذلــك في قصيدة أبي فراس الحمداني على الراء والتي بلغت مئتين وخمسة عشر بيتاً يتحدث فيها عن بطولــة سيف الدولة صاحب حلب وناصر الدولة صاحــب الموصل ويستفيض في ذكر مغازيها المنتصرة على الأعداء ويختمها فيقول:

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي فما أنــا مــداح ولا أنــا شــاعر.

٦- جيام باتيستا فيكو (١٦٨٨-١٧٤٤) يرى أن كل شعب لديه ثلاثة عصور: المقدس، البطولي والإنساني.

٧- إن اليهــود بسبب سوء سلوكهــم وأعمالهم أينما وجدوا تعرضوا للسبي الآشــوري حوالى عام ٦١٢ ق.م ثم للسبــي البابلي مرتين عام ٥٩٧ و ٥٨٦ ق.م ثم لاجتياح الملــك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق.م ثم سحقهم القائــد الروماني تيطــس ودمر مدينة القدس عام ٧٠ ميلادية ثم الإمبراطور الروماني هادريان عام ١٣٢ ميلادية..

وفــي القــرن العشرين اضطهدهم هتلر ما بين الأعوام ١٩٣٢-١٩٤٥ ومع ذلك لــم يتعلموا كما أنهم لا ينسون أعداءهــم.. فهم حاقدون على البشر كلهم.. ورغم ما لحق بهــم لم يتعلموا أن يتصرفوا مع الناس بمحبة واحتــرام.. وكانوا قبل ذلك قد صلبوا السيد المسيح.. ثــم قتلوا مسيحيي اليمن وأحرقوهم في الأخدود كما رأينا في سورة «البروج» ثم أخيراً أتت جرائمهم في فلسطين....

لكنهم سيلقون جزاءهم ذات يوم إلا أنهم لا يتعلمون.

٨- إن الزيــر يتشابــه مع البطل اليوناني الأسطوري هرقل الذي قتل أســد مدينة نيميا الذي أخاف المدينة. أمــا الزير فقد جلب الأسد وهو راكب على ظهره... وكذلك هرقل قتل خنزيراً متوحشاً وحمله إلى مدينة (ميكينــا) على ظهره كما أنه اصطاد أسد كريت وبعده جلب الكلب الجهنمي، وله ثلاثة رؤوس وهو حارس العالم السفلي وكانت الأفاعي تتلوى حول رقبته ثم أمسك الثور الذي كان يخرب جزيرة كريت وركبه وسبح به حتى بلغ مدينة ميكينا..

وكذلك في سيرة الملك الظاهر بيبرس فالبطل جمال الدين شيحا لم يستطع البطل نصير النمر أن يقتله في منطقــة «الشيــخ جمال» بطرطوس غربي بلدة الشيخ سعد، بعد أن حمله على كتفه من مدينة بانياس عند بــرج الصبــي إذ كان يخاف أن تلمس رجل المقدم شيحا الأرضــ فيستعيد كامل قوته، ولذلك حمله على كتفه، ثم عض النمر إذن شيحا وهي مكمن قوته فصرخ عندئذ.. فأعمل أسنانه في جسده إلى أن مات.. حيــث دفن وكان موته قبل بلدة الشيخ سعــد... وهي مأخوذة من الأسطورة اليونانية التي تروي أن البطل أنتيوس Antious يظل قوياً ما دام على اتصال بالأرض فرفعه هرقل عنها ففقد قواه، لأن الأرض أصل كل شيء وتمده بالقوة.

٩- إن الإليــاذة تقــدم لنا مفتاحاً لفهم بعض عناصر أدبنا الشعبي في بعض السير.. فهناك تشابه بين أوليس وأبي زيد الهلالي وبين الملك اليوناني أغاممنون والسلطان حسن الهلالي وبين الأمير دياب وآخيل، وبين الزناتي وهكتور وأبيه فريام ملك طروادة.

١٠- في عام ١٢٠٠ قبل الميلاد جاء الفلستيون من كريت وغزوا بلاد كنعان.ثم جاء الغزاة العبرانيون وحدثت بينهمــا معارك طاحنة عدّة ومنهــا مبارزة النبي داود والبطل الفلستيني جالــوت.... ويخلط اليهود بين الفلستييــن والفلسطينيين العرب المعاصرين.. نقلاً عن كتاب «اختلاق إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ

الفلسطيني» تأليف كيت وايتلام ترجمة الدكتورة سحر الهنيدي (نشر عالم المعرفة في الكويت).

١١- كانــت قبائل بني هلال حلفاء للقرامطة بزعامــة الحسن القرمطي، الملقب بالأعصم وحاربوا معاً الجيش الفاطمي لمدة من الزمان قرب دمشق.

وأخيــراً تغلب عليهــم الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي وحضور الخليفة العزيز بالله عام ٣٦٨ هـ الذي أسكن قسمــاً منهــم في العدوة الشرقية مــن النيل كي يخلص الشــام من شرورهم فانتشروا فــي الصعيد كله بتعدياتهم الدائمة على السكان المحليين..

ولهذا السبب أرسلهم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله لينقذ الصعيد المصري من تعدياتهم وشرورهم «نقلاً عــن كتاب تاريخ الدولة الفاطمية» للدكتور حسن إبراهيم حســن – طباعة القاهرة ١٩٥٨ الطبعة الثانية –الكويت ونال به شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٩٢٨.

المراجع

١- الإلياذة ومقدميها ترجمة العلامة سليمان البستاني.

٢- الأوديسة بالفرنسية هوميروس.

٣- تاريخ الدولة الفاطمية د. حسن إبراهيم حسن.

٤-تاريخ الأدب الفرنسية /بالفرنسية/كاستيكس أي سورير.

٥-كتاب منتخبات من شعر بوالو باللغة الفرنسية.

٦-مقدمة كروموبل بالفرنسية فيكتور هيغو.

٧- تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري.

٨-في أصول الأدب أحمد حسن الزيات.

٩- مجراوية الزير شعراً ونثراً– طبعة شعبية.

١٠- المهلهل د فؤاد أفرام البستاني.

١١- بنو هلال– سيرة ريادة تغريبة طبعات شعبية.

١٢- قصة عنترة طبعة شعبية.

١٣- الرؤوس (في الأدب) مارون عبود

١٤- في الأدب الجاهلي د. طه حسين.

١٥-الفن ومذاهبه في الشعر العربي د. شوقي ضيف.

١٦-أبو زيد الهلالي /اقرأ /٤٧/ محمد فهمي عبد اللطيف.

١٧- عنترة بن شداد اقرأ رقم /٤٣/ محمد فريد أبو حديد.

١٨ - اختلاق إسرائيل القديمة كيث وايتلام / ت د. سحر الهنيدي إسكات التاريخ الفلسطيني.

١٩- شعر الحرب في أدب العرب الدكتور زكي المحاسني.

٢٠- القرآن الكريم.

٢١- التوراة مع العهد القديم.

الملاحم العربية التي نظمت في العالم العربي منذ بداية القرن العشرين

١- الإلياذة الإسلامية للشاعر أحمد محرم نظمها في أوائل عام ١٩٤٩ وأنهاها في أواخر عام ١٩٤٩، وتتألف من ٥٠٠٠ بيت شعر في ١٤٦ قصيدة يتحدث فيها عن ظهور الإسلام وعن مراحل التاريخ الإسلامي وذكر أبطـال الإسلام وأمجادهـم خاصة الخلفاء الراشدين، وسماهم الشموسـ الأربعة وهم: أبو بكر الصديق – وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً.

٢- بساط الريح: ظهرت عام ١٩٣٠م للشاعر المهجري فوزي معلوف في ١٤ نشيداً وحسب رأيه فإن الملحمة هـي البطولة الشعرية التـي تصف لنا أعمالاً بطوليـة خارقة أو نادرة وكما يقـول الباحث الكبير أنيس المقدسي فهي رحلة خيالية بوساطة الطائرة.

٣- ونظـم حافظ إبراهيـم (١٨٧٠-١٩٣٢) «ملحمة العمرية» عن الفاروق عمر بـن الخطاب رضي الله عنه أنشدها عام ١٩١٨ على مدرج الجامعة المصرية القديمة.

٤- ملحمـة عبقر للشاعـر شفيق معلوف (شقيق فوزي) بلغت ١٨١صفحة في اثنـي عشر نشيداً تحدث فيها عن عبقر وادي الجن في الجزيرة العربية ويتكلم عن الشيطان الذي واكبه في هذه الملحمة وقد وصفها الأديب اللبناني الناقد مارون عبود في كتابه «على المحك» بأنها قصيدة عادية مبنى ومعنى وتصوراً.

٥- بعـد سنة ونصف من قصيدة حافظ إبراهيم أنشد الشاعر عبد الحليم المصري (١٨٧٧-١٩٢٢) ملحمته «البكريـة» عـن الصديق أبي بكر رضي الله عنه وعن صفحات من حياته وأعماله من فوق مدرج الجامعة المصرية القديمة.

٦- ثـم ألقى الشاعر نفسه (المصري) ملحمته «العلوية» عام ١٩١٩متحدثاً عن الخليفة الرابع علي بن طالب (كـرم الله وجهه) في /٧/تشرين الثاني ١٩١٩ وهـو راكب على ظهر جمل كما كان يفعل أسلافه الشعراء القدماء في سوق عكاظ وقامت بعدها ثورة ١٩١٩م في القاهرة.

٧- ثـم ظهرت ملحمة شاطئ «الأعراف» للشاعر محمد عبد المعطي الهمشري عام ١٩٣٣م يتحدث فيها عن رحلته بعد أن تخيل أنه مات فروى ما رأى من عجائب الموت وقد حملته آلهة الشعر على زورقها السحري في (بحر الوقت) وألقت به على شاطئ الأعراف وقد صاغها وهو في ميعة العمر وطراوة اليفاعة وورنق الصبا.

٨- وكتب الشاعر المصري نفسه ملحمة جنة الشعراء في قصيدته «ميلاد شاعر» يتحدث فيها عن الجنة التي وعد بها الشعراء المبدعون.

٩- وكتـب الشاعر الجزائري (مفدى زكريـا) «ملحمة الجزائر» في ألف بيت شعـري يتحدث فيها عن كفاح الشعب الجزائري.

١٠-وأخيـراً نظم عباس محمود العقاد ملحمة «ترجمة الشيطان» استحق بموجبها إمارة الشعر العربي ١٩٣٤ ونوه بها الدكتور طه حسين وقد علق عليها الناقد اللبناني مارون عبود بأن شعرها ضعيف وهو أقرب إلى النثر وهي مؤلفة من ١١٠ مقاطع وفيها فضل الشاعر آدم على الشيطان والملائكة.

«العقل والجنون في مسرح شكسبير»

إبراهيم محمود الصغير ❁



إنَّ شكسبير، في كل مسرحياته، يختار شخصياته بدقة ومهارة، بعد دراستها واستيعابها ضمن المنطق والمعقول، ثم يحملها أفكاره وآراءه واتجاهاته الفلسفية، بشكل غير مباشر، بحيث يجعل الشخصيات تتصرف على طبيعتها، وبشكل عفوي، لا يوحي بتدخل المؤلف في تصرفاتها وسيطرته عليها، إلا في مشاهد قليلة نرى بعضها في مسرحية (هاملت) و(يوليوس قيصر) وبعض المسرحيات الأخرى.

وهو ينوِّع في اختيار شخصياته بحيث لا تنطبق شخصية على شخصية أخرى

❁ أديب وباحث وناقد.

تماماً، وإنما يجعل لها سمة خاصة بها، واستقلالاً فردياً لها، بالشكل الذي يجعل لكل شخصية شهرتها المميزة المنفصلة عن غيرها مثل عطيل وهاملت وماكبث والملك لير وقيصر وتشايلوك وفالستاف وروميو وجوليت وأنطونيو وكليوباترا وغيرها من الشخصيات التي اكتسبت شهرتها الخاصة في كل أنحاء العالم.

ونلاحظ أن معظم شخصياته هم من الملوك أو الأمراء أو القادة والنبلاء، وهذا يعود إلى أنه كان يعيش في عصر يحكمه ملوك وقياصرة وأمراء ونبلاء. والناس كانت تستمتع عادة، ومازالت إلى اليوم، بقصص وحكايا الملوك والحكام، وحياتهم الخاصة وما يدور في بلاطاتهم وقصورهم من دسائس ومؤامرات وفضائح، وما يدور أيضاً من حروب ومعارك بين الممالك أو الدول بعضها مع بعض، إلا أن شكسبير يجعل هذه الشخصيات الملكية والنبيلة شخوصاً مسرحية تتوتر وتنفعل وتحب وتكره وتأتي بأنبل الأفعال وأعظمها، وبالوقت نفسه تأتي بأرذل الأفعال وأحقرها، وهي الأفعال التي تحمل دلالات شديدة الأهمية، وتكشف عن أسرار الشخصية. وهذه الشخصيات كلما غصنا فيها أكثر، كلما لمسنا فيها طبيعتها البشرية والإنسانية أكثر.

وكان شكسبير يحمل نظرة خاصة إلى النفس الإنسانية وصلتها بالزمان الذي تعيش فيه، والبيئة التي من حولها، والأحداث المتعلقة بها، ولكنه يفرض عليها صفات من إبداعه تحمل تأويلاته للدوافع الفاعلة في حياة الأفراد العامة والخاصة. ومعظم شخصياته في كل مسرحياته تمتاز بالذكاء والفطنة والحكمة، وقد منح كل شخص أوجده في مسرحياته تصرفات وأعمالاً خاصة به، تميزه عن غيره، حتى ولو كان من الرعاع والناس العاديين. فنجد الحكمة مثلاً تتدفق من فم السكارى والمهرجين والمجرمين حتى من المجانين من أمثال فالستاف ومضحك الملك لير وأياغو وكاسكا وغيرهم. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على سعة علوم شكسبير الفلسفية، ومعرفته بالمذاهب التي سبقته، وبمدارس اليونان وحكمائها، وفي كل مسرحية يذكر بعضهم ويشير إلى مذهبه، فينتقد هذا، ويؤيد ذاك، ويضم أشخاصه إلى مدارس ويرينا ميزاتها. فكل امرئ حسب شكسبير يتمذهب ويفكر ويتفلسف ويحكم بحكمته .

وقد أنطق شخصياته بالكثير من المعلومات في مسرحياته عن الماضي، وعن الفترة التي كان يعيش فيها، لذا تعتبر مرجعاً هاماً في دراسة وفهم المجتمع وعقائده وفكره في تلك الأزمنة التي عاش

فيهـا، أو تحدث عنها فـي مسرحياته. كما تواجهنا دوماً في مسرحياته عروض مباشرة للأقوال المأثورة والحكم والأمثال، وعروض لأفـكار في مواقع مناسبة لها. وهذا الزخم فـي العرض لا يعبر عـن لسـان الممثل المتحرك على المنصة، ولا عن الشخصية المبتدعـة، بل عـن فكر شكسبيـر نفسه، وهذه الأقوال والحكم والمفاهيم الإنسانية هـي قوانيـن. وبعرضـه لهـذه القوانيـن لايخبرنا عن مصدرها، مما يجعلنا نضطر لوضعـه في قائمة المفكريـن والمصلحين والإصلاحييـن. ونجـده يحرص، إضافة لكونه رجل مسرح، لأن يكون من أولئك. وأن يوصل أفكاره وقيمه من خلال النص. وهذا بحد ذاته إنجاز شكسبيري عظيم. وقد نجح بتحقيـق ما أراده، بـل وأصبح شكسبير في نظر من عرفه منذ ظهـوره صاحب حكمة وقيم ومبادئ وصاحـب فكر سياسي وتنقل عنه تلـك الأقوال بفخر. وفـي أيامنا هذه تطالعنا في النصوص وفي الإعلام عبارة «قال شكسبير».

الإرادة الحـرة عند شكسبير: يعتقد كثير من الناس، ومعهم بعض النقاد، أن شكسبير فـي مسرحياتـه، وخاصة المآسـي، يضع المأسـاة في ظروف وحـالات، ويجهز لها أسبابـاً تجعل حدوثها أمـراً حتمياً لايمكن إيقاف الخطى المسرعـة باتجاه الفاجعة، تماماً كما في المسرح اليوناني، ومثال على ذلك مسرحية «أوديب الملك» لسوفوكليس، حيـث نجـد أن مساعي كثيـرة تحاول شد المراكب إلى شاطـئ الأمان، ومنع المأساة مـن الظهـور لكـن الأقـدار توجـب على الأشخاص الفاعلين المسيـر إلى الفاجعة وإظهارها وتحقيقها والتألم منها، ويضربون علـى ذلك مثالاً مشابهاً عنـد شكسبير هو مسرحية (ماكبث). ففي هـذه المسرحية، كان ماكبـث، قبل التقائه بالشياطين، الذين رمـز إليهم شكسبير بساحـرات إناث، كان محبـاً للملك ومخلصاً لـه، ومقاتلاً لأجله ولأجل بلـده. فبدأت المأسـاة حين تنبأت الساحـرات لماكبث بتسلمـه عرش البلاد. فصار هو يدور مع أحداث شيطانية ووساوس سوداء خبيثة ملأت عقله وقلبه. فقد نفثت فيـه الساحـرات الإناث خبثهـن ومكرهن وسمهن القاتل، كمـا نفثت فيه زوجته التي لا تقـل عن الساحرات خبثـاً ومكراً، نفثت فيـه من خبثها ومكرها وطمعها في الملك، فأصبح ماكبث في وسط دوامة من الخطط والأفكار الشيطانية القاتلة.

والذي ساعد على المأساة، كما يقررها شكسبيـر هـو أن الملك، والـذي سيكون الضحيـة، هو الذي يسعـى بنفسه لحدوث الفاجعـة، وهو الذي يمنـح ماكبث منصب سيد غلاميـس وسيدكـودر، وبذلك تحقق

الشطـــر الأول من النبوءة، الأمر الذي يدفع ماكبـــث للسعي وراء تحقيـــق الشطر الثاني منهـــا. كما أن الملك يأتـــي بقدمه إلى بيت ماكبث فجـــأة، ممتلئاً ســـروراً وغبطة وهو يقول: «أردت أن أفاجئكم بدخولي السريع. لم أشأ تكليفكـــم مشقة الخروج لاستقبالي، فقد خطوت مسرعـــاً وتناسيت شيخوختي لأجلكم. وأسرعت للقاء ليدي ماكبث العزيزة وزوجها النبيل الـــذي شرفنا». وكأن الملك بذلك يأتي لحتفه راضيـــاً مسروراً، وييسر لماكبـــث وزوجتـــه القيام بالقتـــل وتحقيق الفاجعة.

لقد نفـــذ ماكبث مخطـــط الشياطين، ليصبح بدوره شيطانـــاً يتنفس كالبشر، كما عبر هو بلسانه عن نفسه في اللحظة الأخيرة، حين اكتشف زيف الخدعة الشيطانية، ولكن لـــم يكن أمامه احتمال التراجع، فكان لا بد مـــن موته. فمأساة ماكبث ليست من صنعه، وإنما هـــو ضحية لها، وكانـــت حتمية على الجميع، أو هي كما فـــي المسرح اليوناني، مـــن عمل الأقدار ومـــن إرادة الآلهة أيضاً. وهنـــا نتوقف قليـــلاً. فشكسبيـــر لم يبتدع أحداث المسرحية من عنده، وإنما استقاها من كتاب لمؤلف يدعى (جيرالدي تشينتو)، ثـــم طورهـــا وأوجد لها روحـــاً جديدة غير الروح التي في القصـــة الأصلية، وإن ظلت الأحـــداث الأساسيـــة كما هي فـــي القصة الحقيقية.

وإنه من الصحيح أن مأساة أوديب كانت مـــن صنع الأقدار وتدخل الآلهة، لأنَّ أوديب لم تكن له الإرادة الحرة في اختيار مصيره المفجع. فهو لم يكن يعرف أباه عندما قتله، ولـــم يكن يعرف أمه عندمـــا تزوجها، وإنما هي الأقدار والآلهة التي رتبت كل الأحداث التي رأيناها والتي أدت إلى فاجعته الأليمة، بينمـــا ماكبـــث كان يتمتع بـــالإرادة الحرة، ويعرف ما هو مقدم عليه ولديه كامل الخيار في المضي قدماً أو التراجع. والدليل على ذلـــك هو حديثه مع نفســـه قبل قيامه بقتل الملك، ونكتشـــف عواطفه الصادقة تجاهه في هـــذا الحديث الذي يقول فيه: «ليت أن الأمر يتم بلا عواقب. لو لم يكن لهذا الأمر عواقب لـــكان الإسراع فيه ضـــرورة. لو لم يكـــن للقتل عقاب في الآخـــرة لكان السعي في كسب الحياة الأولى خيراً وفلاحاً. ولكن القـــدر يعاقب القاتل في حياتـــه الدنيوية. فالقاتل بالسيف سيقتله آخر بسيفه. والقاتل بالسم سيجرع السم نفسه ويموت فيه. وهذا الملـــك دنكان بالذات يخصني بأمور كثيرة، فهو ضيفي ونزيـــلُ بيتي، وهذا يوجب علي حسن الضيافة والحمايـــة. وهو قريبي من أهلي وعائلتي. وهو ملكـــي وقائدي وزعيم بلدي. وهـــو أيضـــاً محب للنـــاس، لطيف مع أتباعـــه وحرسه. معتدل فـــي سياسته، ومستقيـــم فـــي مسيرتـــه. فلو أنـــي طعنته

بخنجري هذا لقفزت في وجهي فضائله الكثيرة، وهاجمتني الأرواح المظلومة، وأحالت حياتي بؤساً وسعيراً، وألَّبَتْ ضدي كل المفجوعين به، وأطلقت في وجهي الريح العاتية. فهل أستجيب لطمعي؟ وهل تقودني رغباتي الهوجاء ومطامعي؟» فماكبث هنا، في حديثه مع نفسه، واعٍ ومدرك تماماً لما سيقوم به، ويملك كامل الإرادة الحرة في أن ينفذ ما ينوي عليه، أو يتراجع عنه. ومع أن المغريات كانت حوله كثيرة، كالساحرات الخبيثات وزوجته الجشعة، وطموحه الأعمى فإنه كان بإمكانه أن يرفض كل هذه الأشياء، ويتلافى مصيره المفجع، ولكن طموحه الأعمى فاق كل التصورات، فكان السبب المباشر الذي أودى به. فشكسبير يريد أن يقول إنَّ المأساة ناتجة عن نقطة ضعف كائنة في الإنسان هي التي تؤدي به إلى المأساة إن لم يستطع كبحها والسيطرة عليها. وإن الإرادة الحرة موجودة لديه، إمَّا أن يتغلب على نقطة ضعفه أو يخضع لها، فدماره، إذن، بيده وليس بيد الأقدار أو الآلهة كما في المأساة اليونانية.

وهكذا نجد أن أبطاله المأساويين، كانوا ضحايا لنقاط ضعفهم فكما دمر الطموح ماكبث، كذلك دمر التردد هاملت، والغيرة دمرت عطيل، والغضب السريع، دمر الملك لير، والاعتداد بالنفس المبالغ به دمر قيصر، وهكذا مع بقية أبطاله المأساويين.

وهنا يتبادر سؤال، لماذا يعاقب شكسبير الملوك والأمراء في مسرحياته، مع أن بعضهم من الأخيار مثل الملك دنكان الذي قتله ماكبث؟ والجواب عند شكسبير يكمن في أن الأطماع هي من صفات البشر الأزلية، وأن هذه الأطماع هي الدافع لقتل هذا الملك أو ذاك. بل إنَّ الشعب نفسه والرجال المحيطين به لن يتوانوا عن قتل الملك متى سنحت لهم الفرصة بقتله، وأن هذه الأطماع موجودة عند البشر في كل الأزمنة والأماكن. لذلك يلعب شكسبير على هذا الوتر في معظم مسرحياته، لأنَّ ذلك يستهوي المشاهدين ويرون فيه حلاً عادلاً لمعاقبة الملوك الطغاة وإتاحة الفرصة لظهور ملوك أفضل منهم يحكمون بالعدل والإنصاف.

الجنون في مسرح شكسبير: أراد شكسبير في بعض مسرحياته أن يوصلنا إلى خلاصة مفادها أن الجنون موجود في النفس البشرية لطالما وجدت العافية العقلية، وكلا الصفتين متلازمتان. فالعاقل قد يصبح مجنوناً فجأة إن تعرض لسبب طارئ يوجب الجنون، كالغضب الشديد والخوف والسكر والعواطف الجارفة، والانفعالات الشديدة، وغيرها من الأسباب. وبالمقابل قد نرى المجنون يتصرف أحياناً

كالعاقلين، بل يفكر وينطق أحياناً بالحكمة المعبرة، وكما يقول المثل: «خذوا الحكمة من أفواه المجانين». ومن أشهر مسرحيات شكسبير التي نجد فيها الجنون هي مسرحية (هاملت)، التي حيرت النقاد في كل مكان، هل كان هاملت يعاني من جنون حقيقي أم كان يمثل الجنون؟ فهو بعد ما تأكد من أن قاتل والده هو عمه، وأن القتل كان برضى أمه، أراد شكسبير أن يمنحنا نحن المشاهدين، ويمنح هاملت أيضاً مهلة قبل الانتقام.

علماً أنه، وقبل أن يعرف الحقيقة، كان يبدو عليه الوجوم والكآبة والشرود وأحياناً التفكير العميق، ويرتدي دثاراً أسود علامة الحزن لموت والده. وقد رأينا، في البداية، أمه وعمه يلومانه على حزنه الشديد وعبوسه الدائم وانعزاله عن الناس وتركه الحفلات والمسرات.

وفي الحقيقة، كما تبينا لاحقاً، لم يكن موت والده ما يحزنه ويؤلمه، بل زواج أمه السريع من عمه وارتماؤها في أحضانه ولم يمض على موت والده إلا شهر واحد. ثم يزيد حزنه وألمه أكثر عندما يعرف من الطيف أن والده قد قتل غدراً من قبل عمه وبرضى أمه. وهذا ولَّد في داخله إحباطاً وانهياراً نفسياً وعزوفاً عن الناس، بل ربما أدى به الأمر لأن يعاني من مرض نفسي، جعله أشبه ما يكون بالمجنون. فهو من البداية يحمل الهم الكبير والألم العظيم، ونجده يخاطب نفسه بتعاسة شديدة قائلاً: «أواه، ليت هذا الجثمان، وما أصلبه على الرزايا والكوارث ليته يذوب ويسيل ويتحول إلى ندى. بل ليت بارئ الإنسان لم يحرم عليه قتل نفسه، أي إلهي... أي إلهي... ما أثقل جميع مصطلحات هذا العالم، وما أسفلها، وما أقدمها، وما أقلها جدوى. قبحاً لهذه الدنيا وتباً لها».

وهذا الكلام يقوله هاملت قبل أن يعرف أن عمه قتل والده، فكيف حاله يا ترى بعد معرفة الحقيقة؟ ولكي يتأكد هاملت تماماً من الحقيقة، وتبان له أطراف القضية كلها، نجده يصبح مجنوناً أو يدعي الجنون خوفاً من الإقدام على القتل. بل ونراه يعترف لنا بجنونه مرات عدة، ثم يعترف فجأة بما هو أكثر حيرة لنا ويقول: ((كنت قد جننت)) وهذا يعني لنا أنه الآن أصبح عاقلاً.

إلا أننا إذا قمنا بتحليل أفعاله أثناء جنونه ومقارنتها مع تلك التي فعلها أثناء الفترة الزمنية التي صحا فيها من جنونه، لاكتشفنا أن القتل والشناعة، والفعل المشابه للانتحار أحدثها هاملت في زمن الصحوة العقلية. وسندرك في النهاية أنه لم يكن مجنوناً، ولم يمسه جنون في أي يوم. وأنه لم يرتكب أخطاء كبيرة زمن جنونه، بل

إنه تصرف بعقل واع أحياناً. فصنع المشهد المسرحـــي، وقابل الطيف، وقابــل أوفيليا التي يحــب، والتي كان قد كتب إليها يقول: «ارتابي في أن النجوم من نار. ارتابي في أن الشمس تدور. ارتابي في أن الحقيقة تلابس أحياناً الكذب، ولكــن لا ترتابي أبد الدهر في حبي». فهل هذا الكلام يقوله مجنون؟

يبــدو أن شكسبير أراد أن يقطع الخيط الفاصــل بين الجنــون والعافيــة العقلية، وأراد أن يمنــح كل شخصيــة سليمــة قدراً مــن الجنــون، وأراد في الوقــت نفسه أن يبــرئ المتهــم بالجنــون من تلــك التهمة التي يلصقها به الآخــرون. وبالتحقيق في شخصيــات مسرحياته فلن نكتشــف أبداً وجود شخصيــة تنطبق عليها صفة الجنون تمامــاً. وفــي مسرحية (يوليوســ قيصر) يختصــر شكسبيــر الجنون فــي شخصية كاسكا، وينتزع منه مواقف كوميدية انتقاديه لاذعــة تنتقــد القيصر وتسخــر منه، وفي الوقت نفسه تضحك المشاهدين وتمتعهم. ولا ينسى شكسبير أن يعلمنا بأنَّ كاسكا كان تلميذاً ذكياً وصديقــاً لأبناء النبلاء. وبفعل الظروف العامة والظلم الذي أحدثه قيصر، والمحيط به، أصبح مجنوناً وأشبه بالمهرج، ويعلمنا بذلك على لسان بروتوس في قوله: «يا لحماقــة كاسكا وجنونه. هكذا فعلت به الأيام بعد أن كان في صغره تلميذاً ذكياً».

وشكسبيــر يفهــم أيضاً أغــوار نفسية المجنون، ويحلل الشخص المجنون، فيخرج من لسانه أقــوالاً ومن تصرفاته أعمالاً تنم عــن فهم نفسي لهذه الشخصية، وتدل على قــدرة المجنون على المعرفــة والملاحظة والتحليل. حتــى الملك ليــر، الذي يصبح في النهاية أشبه ما يكون بالمجنون، يجعله شكسبير كالدرويش الذي يهيم في الفلوات، والــذي تأخذه حالات هيام وذهول تامين لا يفيــق منهما إلا في فتــرات محددة، ينطق خلالهــا بأقــوال غايــة بالحكمــة والعقل والتي تجعلنا نحتــار، أفي جنون هو أم في صحــة عقلية؟ وكذلك الحال مع أوفيليا في مسرحية (هاملت). فقــد أصيبت بصدمة هائلة من جراء مــوت والدها قتلاً وبسيف هاملت، فالمقتول أبوهــا، والقاتل حبيبها. وقــد جعلتها الصدمة، وربمــا أشياء أخرى لا نعرفها، تهــذي وتتصرف بلا وعي تماماً كالمجنونــة. إلا أننا نجدها مدركة لجنونها وتتصــرف وفق قواعد الجنون، وفي الوقت نفسه تتصرف وفــق قواعد العقل الواعي. وهــي تتماشى مع الحالتيــن، وتتعامل وفق قواعدهما، إلى أن نجدها وقد ماتت فجأة غريقة في الماء.

الشخصية الوحيدة التي جنت إلى آخر مساحــة في عقلهــا، كما يصــف شكسبير تصرفاتها، هي الليدي ماكبث في مسرحية

(ماكبث)، والتي باتت تتكلم وهي تسير في نومها بأخطر الكلمات على الملأ، وهي لا تعي خطر ما تفعله، فهي تقول، وفي الوقت نفسه تقوم بحركات كمن يغسل يديه: «أيتها اللطخة الحمراء المرعبة، إلى متى ستظهرين أمام عيني؟ زولي من أمامي! واحد... اثنان... هيا...! من كان يتوقع أن ينزف من العجوز كل تلك الدماء الغزيرة؟ عار عليك يا زوجي أن تتصف بالجبن والخبل، كن مقداماً أكثر وأكثر فلا يهمنا رأي الناس إن علموا أم لم يعلموا» فهي هنا تعبر عن حالتها البائسة. وربما هو تأنيب الضمير الشديد على الجريمة البشعة التي ارتكبتها مع زوجها بحق الملك دنكان الطيب، حتى ماكبث نفسه، بعد أن أصبح ملكاً، أخذت الوساوس والهلوسات والتهيؤات تتنابه بين الحين والآخر، وهي علامات أولية على جنونه، مثل تخيله الخنجر في الهواء، والذي أخذ يخاطبه قائلاً: «هل هذا خنجر يلوح لي، ومقبضه متجه نحو يدي؟ أنلني منك ما تنضم عليه الأنامل. تفر، ولكن ما أنفك أراك. ألا يقع عليك اللمس، كما يقع عليك البصر؟ أم لست غير نصل مخيل من وضع فكر ذاهل مخبل؟ تمشي أمامي لتهديني سبيلي، وتتمثل بين يدي أشبه بالخنجر الذي كنت عازماً على الطعن به». وتعود إليه التهيؤات والهلوسات نفسها مرة ثانية، عندما يتخيل شبح بانكو القتيل جالساً على الكرسي في الوليمة التي أقامها. وها هو يخاطب شبح بانكو أمام المدعوين قائلاً: «ليس لك أن تزعم أنني أنا الذي فعل هذه الفعلة. كل ما تجرؤ عليه أجرؤ عليه ادن مني وكن دباً هائلاً، أو تمساحاً غائلاً.. بل انبعث حياً وادعني إلى القتال في قفر... وراءً أيها الشبح الرائع! وراءً أيها الطيف المخيل». ولكن ماكبث يتحول في آخر أيامه إلى مجنون وشيطان، ويأتي بكل أفعال المجانين، فقد دب فيه مرض الوهم ومرض الشيطنة، فأخذ يتصرف كشيطان، ويفكر كشيطان، إلى أن مات أخيراً كشيطان.

فشكسبير، إذن، يريد أن يقول لنا إن الجنون ليس هو فقدان العقل تماماً وإلى النهاية، بل إن العاقل يمكن أن يصبح مجنوناً فجأة، ولو للحظات. فليس بين العقل والجنون إلا خيط واه. وإن لحظات الجنون هذه يمكن أن تؤدي بصاحبها إلى الدمار والهلاك. فماكبث، كما رأينا، طغى طموحه على عقله وأعمى بصيرته، فقام بلحظة مشؤومة بقتل الملك دنكان. ولو أنه كبح طموحه وتريث قليلاً لما حدثت الفاجعة التي كانت سبباً لدماره ودمار من حوله. والملك لير لو أنه سيطر على غضبه السريع وانفعاله الشديد وتريث قليلاً لما

حدثت الفاجعة فحرم ابنته الصغرى من كل شيء وقسم مملكته بين ابنتيه العاقتين، وأصبح هو منبوذاً مطروداً يهيم في الفلوات كالوحوش. وكأنه بذلك يحقق قول الشاعر العربي:

مالي غضبت فطار الأمر من يدي
والأمر يخرج من يد الغضبان

بل إنَّ المضحك الذي يرافقه، يسخر منه ومن حماقته ويسأله: «أتدري لماذا يحمل الحلزون بيته فوق ظهره؟» وعندما يجيبه الملك لير بالنفي يقول له المضحك: «لكي يخبئ رأسه ولا يسلمه لبناته تاركاً قرنيه من دون حماية».

وهذا عطيل، القائد القوي، والرجل المجرب، وصاحب المغامرات العجيبة، في لحظة غيرة شديدة يخنق زوجته، من دون أن يتأكد من خيانتها، وإنما يقوم بذلك بناءً على أكاذيب وافتراءات ودسائس أياغو اللعين، ولو أنه تريث وصبر ليتأكد من الحقيقة لما حدث ما حدث وعجل بنهايته ونهاية زوجته البريئة. لقد كان ندمه شديداً ومؤلماً للغاية عندما عرف الحقيقة، ولكن بعد أن سبق السيف العذل، وها هو يصرخ قائلاً عند معرفته الحقيقة: «أليس في السماء حجارة غير التي تستخدم في الصواعق؟ يا للمجرم الذي يفوق دهاؤه كل تصور!».

وكذلك بروتوس، في مسرحية (يوليوس قيصر)، وبكلمات قليلة قالها من دون تبصر في نتائجها، قلبت حياته رأساً على عقب، وسببت الدمار له ولكثيرين من الساسة والقادة حوله بل ولروما بالذات، مع أنه سياسي داهية وقائد عسكري قوي، وذلك حين سمح لمارك أنطونيو بأن يؤبن يوليوس قيصر، فاستغل مارك أنطونيو هذه اللحظة، فكان تأبينه سبباً لانقلاب الشعب السريع على بروتوس، بعد أن نادى به الشعب قيصراً جديداً على روما، بدلاً من يوليوس قيصر المقتول.

أمَّا هاملت فقد كان تردده وعدم حسمه للأمر سريعاً، فور تأكده من قتل أبيه، سبباً في ضياع فرصته للانتقام من قاتل أبيه، وعندما قام بالفعل أخيراً كان الثمن باهظاً أدى إلى موته وموت أمه وليرتس، وعمه، الذي كان يجب أن يموت في وقت أبكر، كما أدى سابقاً، نتيجة لذلك، إلى موت أوفيليا ووالدها. وقد قال بعض النقاد: «لقد تأخر هاملت كثيراً في الانتقام».

والإفراط في العواطف والمشاعر الإنسانية، والمبالغة بها، عند شكسبير، إن هو إلا جنون محض، ولا يؤدي إلا إلى الدمار. فهذا يوليوس قيصر، في مبالغته بالاعتداد بنفسه إلى حد الهوس، سبب لنفسه الموت قتلاً بخناجر أعدائه في مجلس

الشيوخ. وقد تنبأت زوجته بذلك وحذرته قائلة: «آه منك يامولاي القيصر! اعتدادك بنفسك يتغلب على حكمة عقلك».

وكذلك مشاعر الحب المبالغ بها، والبعيدة عن مراقبة العقل والمنطق، عند شكسبير، إن هي إلا الجنون بعينه. فروميو وجولييت لم يودِ بهما إلا حبهما الأعمى والمجنون، وكذلك فعل الحب بأنطوينو وكليوباترا. ولو أن المحبين تروَّوا وخففوا من غلواء حبهم، لربما كانت النتيجة أفضل بكثير من النهايات المفجعة التي انتهوا إليها. وربما كانت بورشيا، زوجة بروتوس في مسرحية (يوليوس قيصر)، هي الأشد جنوناً في حبها، فقد رأيناها تنتحر بابتلاع جمرات متقدة بسبب حزنها على غياب زوجها، وعلى ما حل به من مصائب، ويحدث انتحارها هذا في حدث مأساوي ومؤلم للغاية.

الحكمة والعقل عند شكسبير: تحدثنا سابقاً عن سعة علوم شكسبير ومعرفته بمذاهب ومدارس وحكماء اليونان ثم الرومان من بعدهم. وأنه اعتبر مرجعاً هاماً في دراسة وفهم المجتمع وعقائده وفكره في تلك الأزمنة التي عاش فيها، وأنه قرأ بلوتارك وجيرالدي تشينتو واستقى منهما بعض مسرحياته، كما قرأ لكثير من كتاب عصره. كما أنه لا بد وقد اطلع على الثقافة الإسلامية، التي كانت قد انتشرت آنذاك في أوروبا عن طريق إسبانيا وصقلية وترجمات الكتب العربية الكثيرة التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية الموجودة آنذاك. حيث نجد الكثير من التأثير الإسلامي في مسرحياته، وإن لم يكن بشكل مباشر، وذلك خوفاً من إغضاب الحكام في تلك الفترة ورجال الكنيسة، خاصة وأن الجو كان مليئاً بالعداء للإسلام، بسبب الأخطار التي كان الأتراك العثمانيون يشكلونها على أوروبا آنذاك.

وقد أصبح شكسبير يوضع في قائمة المفكرين والمصلحين، إضافة إلى كونه رجل مسرح. وكذلك أصبح في نظر من عرفه صاحب حكمة وقيم ومبادئ، وصاحب فكر سياسي، بل أصبح يستشهد بأقواله وكلماته في كل مناسبة ثقافية وأدبية وفي النصوص والإعلام. ولا يخلو نص مسرحي من مسرحياته من شيء من فلسفته وحكمه وأقواله المأثورة، والتي أصبحت على كل لسان، وخاصة في مآسيه، ففي مسرحيته (يوليوس قيصر) نجد الكثير من فكره السياسي، الذي ينطق به أشخاص المسرحية في أوقات معينة ولغايات معينة. فهذا بروتوس يقول لقيصر: «لكن.. لم أعهد فيك تحكيم العقل ولا ترجيحه على العاطفة. من الثوابت في طباع البشر أن

المــرء الطموح يرتقي السلــم درجة درجة، ويتحلى بالحكمة والتواضع واللطافة. وحين يصل إلى أعلى السلم يدفعه بقدمه غير آبه به، ومتكبراً وناسيــاً الدرجات التي رفعته، وهذا ما ستفعلــه أنت بنا أيهــا القيصر». كما يقول في مكان آخــر عبارة هي حكمة وفلسفــة، وهي تحليل لحركــة الفكر داخل الإنسان، ووصف دقيق للغليان الذي يحدث داخل العقل في حالة القلق من أمر خطير، والرغبــة فــي دخول مشروع هــو في غاية الخطورة:

«مــا بيــن التفكيــر بالأمــر والقيام به ليســ سوى حلم مرعب تنشــأ خلاله داخل النفســ نزاعات بين الــروح والعاطفة، بين الخالد فينــا والفاني، وتقوم فــي أعماقنا حركة هوجاء تشبه الحرب الأهلية، ويحدث الغليان بين جهتيــن هما العقل والحواس». وهــذا كاسكا، المفروض أنه مجنون، يقول: «وأنــا أستطيع أن أقوم بفعــل شيء وأصنع حريتــي بيــدي». فهذه المقولــة هي عبرة وفكــرة فلسفيــة وسياسية يقولهــا كاسكا، ونأخذها نحن العاقلين من مجنون، وعندها بقوة فكرته ندرك بأنه لم يكن مجنوناً.

ولننظر إلى حديــث كاشيوس لصديقه بروتوس: «ما معنــى الحياة بلا قيمة وعزة وكرامــة مشرفة؟ فأنا من جهتي يا صديقي أفضل أن أموت عزيزاً شريفاً على أن أكون ذليلاً مهانــاً ومستعبداً. وقــد ولدت حراً، كما ولد قيصر حراً، وأنت مثلي ولدت حراً عزيزاً مكرماً. ونحن نأكل ونجوع ونبرد مثله تمامــاً». أليس في هذا الــكلام تمرد ثوري علــى الحاكــم المستبد الظالــم؟ كما نرى أنــه مشابه أيضاً لمقولــة الخليفة عمر بن الخطــاب المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهــم أمهاتهم أحــراراً؟». وهناك، أيضاً، حديث لأنطونيو في مسرحية (يوليوس قيصر) يصف فيه كيف يمكن استغلال بعض النــاســ وجعلهم ينساقون بشــكل أعمى لما يخطط له الآخــرون، ليحققوا من خلالهم مآربهم وغاياتهم، وذلك بحديثه عن ليبيدوس قائــلاً: «ولسوف نعتبــره كالحمار المحمل بالذهــب والكنوز يتعــب بحمولته وأسفاره، وتقوده كنوزه إلى الاتجاه الذي نريده نحن. وفي نهاية الطريق نزيل عن ظهره الأحمال ونريحه، فيقوم بتحريــك أذنيه ويرعى في البــراري مرتاحــاً». وهذا الــكلام، أيضاً، يذكرنا بالآية (**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**) (من سورة الجمعة الآية-٥).

وفــي مسرحياته الأخرى، نرى شكسبير يــوزع حكمــه وأقواله وتعبيراتــه الفلسفية والإنسانيــة ما بين مسرحيــة وأخرى، وما بيــن شخصية وأخرى، إما بشكل مباشر، أو بشكل مبطن ففي مسرحية (هاملت)، مثلاً، يقحــم شكسبير في شخصيــة هاملت تلك

الحوارات التي يريد هو إبرازها، والتي تعبر عن عبقريته، فيكرهه على التصرف وفق ما يريده المؤلف نفسه، لا وفق ما نتوقعه نحن من أحداث، خاصة تلك المناجاة الفلسفية التي تعبر عن القلق والاضطراب والحيرة عند هاملت، والتي يختصرها شكسبير ببراعة في جملة واحدة صغيرة، ضمن تلك المناجاة على لسان هاملت والتي تعني الكثير لدى تحليلها وتدقيقها وهي: «أكون أو لا أكون تلك هي المشكلة». وهناك جملة صغيرة أخرى تشبهها، ولكن في مسرحية (الملك لير) وهي التي يقولها المضحك للملك لير، وهي كذلك تختصر الشيء الكثير من مأساة الملك لير، والجملة هي: «عليك أن لا تشيخ قبل أن يكتمل عقلك!» ولا ننسى كذلك الجملة التي قالها قيصر لبروتوس وهو يطعنه بخنجره مع من طعنه من أعضاء مجلس الشيوخ: «حتى أنت يا بروتوس؟!». إن من يسمع هذه الجملة ممن يعرفون شكسبير، يعرف دلالتها ومعناها بل وتذكره بالقصة والعبرة منها.

والشيء المدهش في مسرحية (عطيل) أن نرى الحكمة تتدفق من فم أياغو، تلك الشخصية المجرمة التي كانت سبباً في دمار عطيل، بل ونراه يكاد يكون الحكيم الوحيد في المسرحية، الذي لا يتصرف ولايتكلم إلا عن تعقل وحكمة، ودراية.

وكأن شكسبير يريد أن يقول لنا إنَّ الحكمة ليست فقط للملائكة والصالحين من الناس، وإنما يمكن أن تكون للشياطين والأشرار من الناس. المهم أن نعرف معنى الحكمة ومن قالها ولمن قيلت، وما المناسبة التي قيلت فيها والهدف منها، وهل أريد منها الحق أم أريد بها الباطل. فأياغو هنا يعرف كيف يقود عطيل إلى حتفه، لأنه يعرف نقطة ضعفه، لذلك نجده يلخص مأساة عطيل بالجملة التالية، التي يقولها عن مكر ودهاء: «أثير فيه من نار الغيرة ما لا يقوى عليه العقل». وتلخص إميليا، زوجة أياغو، لديدمونة، زوجة عطيل، معنى الغيرة، وذلك في مشهد يجمع بينهما، قائلة: «إنَّ النفوس الغيورة لا تهتم بالبراءة ولا تجيئها في الغالب نوباتها عن سبب، بل تغار لأنها تغار، وما الغيرة إلا بهيمة شاذة تُلَقِّح من نفسها وتتولَّد من نفسها». ومع أن أياغو شرير وخبيث وغاية في المكر والخداع إلا أنه يجبرنا على الإعجاب به لتعابيره الجميلة ذات المعنى العميق وهي كثيرة ومنها: «الليالي يحملن كثيراً من الحوادث وسيلدنها» وقوله ممجداً الإرادة وأنها هي التي يجب أن توجه الإنسان وليس العواطف: «أجسامنا حدائقنا ومشيئاتنا بستانيوها». وقوله عن قوة الحب وما تفعله بالإنسان: «إنَّ سفلة الناس متى عشقوا

اكتسبوا من شرف النفس ما يفوق فطرتهم». وقوله في استغلال الأغبياء مادياً كرودريغو: «بهـذه الحيلة وبأمثالها جعلت هذا الأحمق موضع جيبـي». وقوله عن وجـود الجمال والذكاء معاً عند المـرأة: «إذا كانت المرأة جميلـة وذكيـة فجمالها لخدمـة الآخرين وذكاؤها لاستخـدام الجمال» حتى لو كانت المرأة الجميلة حمقاء فهو يقول: «لا حماقة مع الجمـال، لأن الجمال يعينها على إيجاد وارث لهـا». ونكتفـي هنا بمـا أوردناه من تعابير جميلة لأياغو مع أنها كثيرة ولا يمكن ذكرها كلها هنا.

ونعـود الآن إلـى مـا كبث، الـذي كان إنساناً صالحاً في البداية، ثم أصبح شريراً ومجرماً فـي النهايـة، إلا أن بصيصاً من الحكمة ظل يومض فيـه، وشيئاً من الخير ظل مترسبـاً في أعماقه. وها هو يقول في حسرة وندم في أواخر أيامه: «ليست العبرة فـي أن تكون ملكاً، بل فـي أن تكون آمناً». كما يقول يائساً في من تحدى الأقدار: «أيها القدر العاتي... إنـك تهددني والرياح تهب على عكس ما تشتهي السفن». بل إنه يدخل في مناجاة فلسفيـة عدمية تدل على يأسه وانهياره الكامل في وجه القدر، واستسلامه لمصيره، ولنستمع إليـه وهو يقول: «هكذا تنصرم الأيام من حيث لا نشعر بها، متوالية إلى آخـر هجاء من أهجيـة الكتاب، الذي يحـرر فيه الدهر أحداثـه وسيره. كل ليله تنقضي تمهد لبعض الناس الضعاف طريق القبر. انطفئ أيها النـور المستعار هنيهة. مـا الحياة؟ إن هي إلا ظل عابر. إن هي إلا الساعة التـي يقضيها الممثل على مسرحه متخبطاً تعباً، ثم يتـوارى ولن يرى. إن هي إلا أقصوصة يقصهـا أبله بصيحة عظيمة وكلمات ضخمة، على حيـن أنها خالية من كل معنى»

وشكسبير، كحكيـم ومصلح اجتماعي، يدعو إلى الرحمـة والمحبة والتسامح بين الناس دائمـاً. وهاهو يقول فـي مسرحية (تاجر البندقية) على لسـان بورشيا، وهي توجه كلامهـا إلى تشايلـوك: «إنَّ الرحمة خيـار لا إلزام، فهـي كالمطـر النازل من السماء. والرحمة تكون عند المقدرة. فلكم نبجل الملـك الرحيم! فالرحمة من صفات الله. فـإن كنت تطلب العدل، فاعلم أن الله لو عاملنا بلا رحمة، فلن يبقى أحد منا على وجه الأرض. ونحن إذ نطلب العفو من الله يتوجـب علينا أن نعفو عـن الناس». وهذه الصفـات والتعاليـم التي قالتهـا بورشيا، نجدهـا بوضوح في القـرآن الكريم كقوله تعالى: (**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) (من سورة آل عمران: الآية ١٣٤).

وفي النهاية، لا يسعنا إلا أن نقول إنه من الصعب جداً أن نذكر فلسفة شكسبير وحكمه وأقواله المأثورة، في كل مسرحياته، في هذه المقالة. وإنما هي تحتاج إلى كاتب متخصص في أدب شكسبير ليضعها في مجلد كبير مع دراسة وافية لها. وقد ذكرنا هنا ما يكفي كنماذج وشواهد على موضوعنا من بعض المسرحيات وليست كلها. ونرجو أن نكون قد وفقنا في اختيارنا وفي موضوعنا بشكل عام.

المصادر والمراجع:

١- مسرحيات وليم شكسبير الكاملة - المآسي - وليم شكسبير - ترجمة: عبود- مشاطي- مطران- دار نظير عبود- بيروت- ١٩٩١م. ط١.

٢- مسرحيات وليم شكسبير الكاملة - الملاهي - وليم شكسبير ترجمة: عبود- مشاطي- مطران- دار نظير عبود - بيروت - ١٩٩١م. ط١.

٣- عطيل: مأساة شكسبير العظيمة - وليم شكسبير - ترجمة محمد نمر المدني - دار أسامة - دمشق - ٢٠٠٨م.

٤- تاريخ الأدب الإنكليزي - جون بيرغس ويلسون- لونغمان - لندن- ١٩٧٠م.

٥- ما كبث والإرادة الماورائية اللاأخلاقية- غالب سمعان- الناشر: المؤلف- دمشق - ٢٠٠٨م.

نقد الفكر العربي.. «أركون نموذجاً»

❁
عيد الدرويش

الفكر هو المنظومة التي تعكس حياة المجتمع، وبه تتحدد درجة وعيه وهو الذي يميز حياته بمجموعة من السمات والخصائص، وبالفكر تتمايز المجتمعات والأمم وتتباين، كما تحكمه تجاذبات عدّة، فيقترض من بعضها ويُقرض، والفكر الإنساني بمجمله يشكل زاداً معرفياً لكل الشعوب والمجتمعات على مرِّ العصور.

من هنا يدفعنا البحث في مسألة الفكر العربي الذي يعكس مسيرة ذلك الشعب وتحديات الواقع الذي عاشه العرب ومازالوا يعيشونه، وإن أي بحث في هذا المجال هو استغراق واضح من تشابكات في المشهد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي على مرِّ العصور، جعلت من ذلك الفكر نمطاً خاصاً به، وانعكس ذلك على تقدمه في فترات زمنية تالية، وبه تتحدد قوة ذلك الفكر الذي أغنى ثقافة شاملة، استمدت من مادتها حضارات متاخمة لها في صناعة حضارتها، وأغنت حضارات أخرى في مراحل تاريخية لاحقة، والمتتبع لنمو حركة الفكر العربي، يرى أن الجوانب التي

❁ كاتب وباحث سوري.

ساهمت في نموه هي مجموعة من السمات والخصائص التي تفرد بها عمن سواه من خلال الواقع الاجتماعي والسياسي والموقع الجغرافي (ولعل أوضح سطور تاريخ الفكر العربي قبل الإسلام وبعده، هي هذه الأحداث التي انبثقت من صميم حياة العرب أنفسهم، فمنذ العصر الجاهلي، وظهور الإسلام، إلى عهد الفتوحات، إلى التنظيم الإداري والسياسي والعمراني في عهد بني أمية، إلى النهضة العقلية التي أخذت سَمْتها العلمي الخالص في عهد العباسيين - في جميع هذه الفترات تميّز الفكر العربي بالخلق والمغامرة، فكان قوي الإشعاع، قوي الأثر، ما نزل بقعة من بقاع الأرض، إلا ورسم عليها ظلاله وتلاوينه، وما هي إلا سنون حتى تنقلب هذه البقعة التي نزلها عربية المنزع، عربية الفكر، عربية اليد واللسان، وفي هذا من القدوة والحيوية ما يقف تاريخ الفكر إزاءه حائراً حيرة إعجاب وإجلال)[١].

ولم تقتصر الفتوحات العربية على بلاد المشرق، وبالتالي لم تحد من جماح حيويته الفكرية، فتوجّه شطر الغرب (توّجه عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب وتأسيسه إمارة أموية لون من الحيوية العجيبة، ومن المغامرات التي فسحت في التاريخ الإنساني صفحات مجيدة للعرب، حيث صبّوا الكثير من عبقريتهم وآدابهم وفنونهم، فأسست الجامعات وازدهرت المدن ورسموا أبدع ما أنتجه الذهن البشري من آيات الفن كما كان محصولهم الثقافي ذا تأثير مباشر في تغيير العقلية الفرنجية في أوروبا، ويذهب كثير من المستشرقين إلى أن آثارها لا تزال واضحة المعالم حتى الآن)[٢].

وقد رافقت الفتوحات هذه ثورة علمية وفكرية، صنعت عبقرية متميزة بما جاد به العقل العربي، وعقول من أشرق فكرهم من روح الفلسفة الإسلامية، قولاً وفعلاً، إلى أن تنازعتها الإمارات الفردية والمنافع الضيّقة التي حدّت من الفكر العربي وإشراقاته في جميع الميادين، والتي كانت مقدمة لاجتياحات المغول والتتار لتنقض على مسيرة الفكر العربي وحضارته، وتبدأ مسيرة التدهور والانحطاط والانكسارات إلى يومنا هذا، ويقول «لوثر ستودارد» في كتاب (حاضرة العالم الإسلامي) «ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك، وإنما كانت أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا، توّاقة إلى ارتشاف العلوم، مُحسّنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد، كان اختلاط

بعضهم ببعض سريعاً، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية - وهي جماع متجدد للتهذيب اليوناني والروماني والفارسي، وبهذا المجموع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدة أنضر وأزهر، ألقوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامي، فاتحد وتماسك بعضه ببعض، فأشرق وعلا علواً كبيراً، وقد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها(٦٥٠- ١٠٠٠م) أحسن سير، وكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً، وتقدماً وعمراناً، مرصعة الأقطار، بجوهر المدن الزاهرة، والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموعة حكمة القدماء، ومختزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً»[٣].

ومن منظور خارجي مغاير، فقد نظر الآخرون إلى المنطقة العربية على أنها الشرق «الأوسط» كما كانت منذ القديم تؤثر وتتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، بينها وبين الغرب الأوروبي، فكانت المتوسطية، من المشروعات التي شغلت بعض أبرز المفكرين العرب من «طه حسين إلى رينه حبشي»، بينما الأوسطية اليوم من المفهوم الشرق الأوسطي - تمثل ملامح حقبة جديدة وخطيرة، إذا كان العرب لم يقبلوا هذه الصيغ المتوسطية والأوسطية، أو لم تستثر كوامنهم العروبية والإسلامية، فإنها «مؤشرات» لنظرات معينة تجاه «أوسطية» المنطقة العربية «ومتوسطيتها» يمكن أن نتأملها نقدياً وأن نغربل ما فيها من مدلولاتها دون أن نتأثر بما تخفيه من مقاصد، ويبقى أنها تسميات اختصت بهذه المنطقة - سلباً أو إيجاباً- دون غيرها، ولابد أن نتبصرها.. وإن يكن من أجل تجاوزها أو دحضها.

ويشير أغلب الباحثين في الفكر العربي إلى أن «الظاهرة التوفيقية والوسطية» في المنطقة العربية ظاهرة قوية الجذور في تاريخها وطبيعتها، ولا يمكن المرور بانعكاساتها بشكل عابر، فالجذور التاريخية للتشكل الفكري الحديث يمكن تحديدها في ثلاثة أنماط، **الأول:**

هو نمط يقتصر على استخدام المصطلح الإسلامي، ويتخذ من قيم الإسلام ومبادئه معياره الوحيد في النظر والحكم، دون أن يستوحي عناصر فكرية مستقلة من خارج الأصولية الإسلامية.

النمط الثاني: يشارك السلفية إيمانها بأن القيم الإسلامية هي القيم النهائية الصالحة، دون النظر إلى حركة الفكر التي لم يعطلها الإسلام، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على قصور في حركة الفكر.

النمط الثالث: يغلب عليه الانجذاب إلى مؤثرات خارجية ذات طابع باطني «عرفاني»

ســـري أو طابع عقلاني وهمـــي، إلحادي أو مستمد من ديانات وثنيـــة أو غيرها، وهذه المؤثرات إجمالاً تقـــوم بينها وبين الإسلام الأصولـــي علاقة تصـــادم ونقض ورفض، هـــذا من حيـــث الوازع الدينـــي، كذلك من حيث الوازع الحضاري والفكري، نجد حالة الانجـــذاب هذه متمثلة في حالة الاستغراق الكليـــة والاستلاب الفكـــري للعقل العربي عند بعضـــ المفكرين الذين استمالهم وهج الحضـــارات الأخرى بنســـب مختلفة فيما بينهـــم، كان ذلك كله علـــى حساب حصيلة إنتاج الفكر العربي.

إن كل مـــا يمكن سياقه في مقدمة كهذه محوره الأساس هو الفكر، عندئذ لا بد من الإشارة إلى كل ما تـــم إنجازه ومستلزماته، وكل ما تـــمّ الإخفاق فيـــه ودواعيه، وعلينا تلمس تلك الجوانب التـــي كانت ذات تأثير بالـــغ في ذلك التطـــور والتقدم، فضلاً عن أن هـــذا الفكر الـــذي هبط مـــن عليائه، وخـــارت قواه، وعاشـــ المجتمع في ضلال مبيـــن، فلابد من استجلاء أسباب ذلك، من أجـــل إيضاح مكامن القوة ومواطن الضعف والوهن الذي حاق به.

من هنا تبدو المسألة في غاية الصعوبة في التحليـــل والتدقيق فـــي الجوانب التي ذكرناهـــا آنفاً، على الرغم من أن الكثير من الدراسات والبحوث قد تناولت هذا الجانب، وكانت كلها تشير إلى الجانب الروحي الذي يطغى على جوانـــب الفكر العربي الأخرى، ولكننـــا لا نأخـــذ هـــذا مثلباً عليـــه، وإنما إشكالية فهمه واستثماره بالشكل الإيجابي، ومـــن يعتبـــر أن الجانـــب الدينـــي يشـــكل قصـــوراً فكرياً في حيـــاة الأمة، هو قصور فـــي فهمه، في تطبيقه علـــى أرض الواقع، والقصـــور أيضاً يتجلى في عـــدم معرفتنا لتطبيقـــه واستنباط معاييـــر جديدة تكون مواكبة للعصر الذي نعيش فيه، وبقيت تلك الدراسات تشكل جـــدلاً واسعاً بين صفوف المثقفيـــن والمفكرين بشكل خاص، وعموم المهتميـــن منهم بشـــكل عـــام، ويمكننا أن نذكـــر من بين الذين تناولـــوا الفكر العربي في الدراسة والبحث فـــي الساحة العربية: «محمـــد عابـــد الجابـــري، ومحمـــد جابر الأنصـــاري، والبرفيســـور «محمـــد أركون» وهذا الأخيـــر هو الكاتب العربي الجزائري صاحب مؤلف (الفكر العربي) الذي يتناول فيه مجموعة من القضايـــا التي يراها من إشكاليـــات النهوض بالفكـــر العربي، والتي وصـــل إليها عبـــر قراءة متأنيـــة في تحليل الواقع العربي.

محمد أركون مفكـــر جزائري عاش في فرنسا، وله فكر حداثي كان جلّ اهتماماته ودراسته في نقد الفكر العربي الإسلامي؛ ولد في بلدة «توريرة ميمون» في منطقة القبائل

(١٩٢٨- ٢٠١٠م) ودرس المرحلة الابتدائية والثانوية في وهران، أمّا الدراسة الجامعية ففي كلية الفلسفة في مدينة الجزائر، ثم السوربون ليحصل على الدكتوراه عام ١٩٦٨م وقد عمل من ١٩٦١-١٩٩١م أستاذاً جامعياً في السوربون، وأستاذاً زائراً في جامعات عدة في العالم، ومنذ عام ٢٠٠٠م عمل مستشاراً علمياً للدراسات الإسلامية في مكتبة «الكونغرس» في واشنطن.

لقد كان جلّ اهتمامه ينصب في مشروع نقد الفكر العربي الإسلامي، ويبحث في الأنثربولوجيا في كل مراحل التاريخ للعقل الإسلامي مشيراً إلى الحوادث الإسلامية والوقائع، ويحاول التركيز على ما هو منهجي بعيداً عن الميول والأهواء، ويشير إلى المفاهيم كالدولة والدين والمجتمع والحقوق، كما استخدم المنهج النقدي والتاريخي للفكر العربي.

للكاتب البرفيسور أركون أكثر من عشرين كتاباً، وكلها صدرت باللغة الفرنسية، وقد ترجمت للعربية منها «الفكر العربي- الإسلام بين الأمس والغد- تاريخية الفكر العربي الإسلامي- الفكر الإسلامي قراءة علمية - الإسلام «الأخلاق والسياسة» - الإسلام نقد واجتهاد - من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي- من فيصل التفرقة إلى فيصل المقال- الإسلام وأوروبا - نزعة الأنسنة في الفكر العربي- العلمنة والدين- نافذة على الإسلام- الفكر الاصولي واستحالة التأهيل- معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية- من منهاتن إلى بغداد- نحو نقد العقل الإسلامي- الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر - الأنسنة والإسلام- نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية - تحرير الوعي الإسلامي» - وغيرها من الدراسات والأبحاث والمحاضرات والحوارات في هذا السياق.

أركون معظم كتاباته باللغة الفرنسية، ومن الكتاب والقراء من ألحَّ عليه لترجمة كتاباته للعربية لتكون في متناول أيدي العامة من الناس للاستفادة منها، وخاصة ذوي الاهتمام بتلك الدراسات، في كتابه «الفكر العربي»، ترجمة عادل العوا، الطبعة الثالثة في بيروت لعام ١٩٨٥م. يقول في مقدمته: «ألح الكثير من الكتاب والقراء على ترجمة كتابه (الفكر العربي) إلى العربية للاستفادة منه، ولكي يبدي عذره في مقدمة هذا الكتاب للاستجابة لهذا الطلب»، ويجيب «إنَّ المشكلة أعوص مما يتصوره معظم الناس، بل المختصون بمهمة التعريب، إن الباحث العربي في ميدان العلوم الإنسانية بعد الخمسينيات يقف لا محالة حائراً بين اثنين، إمَّا أن يعتني بإحياء التراث مفتشاً عن المخطوطات

القديمة، جامعاً لها، محققاً لبعضها على الطريقة الفيولوجية السليمة، معلقاً عليها على الطريقة التاريخية المستوعبة للأسماء والأخبار والأماكن والأفكار، وإمَّا أن يميل إلى تأليف الكتب التاريخية النقدية مستخرجاً من الوثائق القديمة ما تحتويه من معلومات وسير وتأويلات ونظريات، وإذا اختار عمله التأليف والاستنباط الانتقادي، فلابد أن يجتهد اجتهادين مختلفين، يجب عليه أن يتتبع الإنتاج العلمي الضخم في جميع اللغات وسائر الميادين من ألسنية (أواللسانيات) وأنتربولوجية وأتنولوجية وسوسيولوجية وعلم النفس، وعلم تحليل النفس والنقد الأدبي والتاريخ طبعاً – يكاد علم التاريخ كما يمارسه المتخصصون اليوم يبرز بين العلوم الإنسانية كلها – ثم يجب على الباحث العربي أن يُلمّ في الوقت نفسه بكل ما أبدع القدماء من نظريات واصطلاحات ومناهج، وما جمعوا من أخبار ومعلومات، لا لينقلوا ذلك إلى لغتنا العصرية مع شيء من التعديل والترتيب وتسهيل للمواد، بل ليبرزوا روح كل عصر من العصور وأسرار كل علم من العلوم، ووظائف كل مذهب وكل تيار أيديولوجي وانحيازات كل شخصية من الشخصيات التاريخية)(٤).

يرى الكاتب أركون أنه ما على الباحث اليوم إلا أن ينقل من الراوي للتاريخ والمؤكد للأيديولوجية الصريحة أو الضمنية، التي لا يخلو منها أي إنتاج بشري، إلى التاريخ المثير لمشاكل التفهم والانتقاد ولجميع ما وصل إلينا مما نسميه بالتراث.

فهل هذا هو المعوق – كما يرى أركون – في الإشكالية من وراء الترجمة لفهم واقع العقل العربي عبر ذلك التراث؟ فكيف لكاتب مثل أركون أن يدلي بذلك ويعزو تلك المعوقات ويصبها في مسألة الترجمة؟ وهل سيتعذر عليه أن يفكر بالعربية وينتقد الفكر العربي، ويدوّن آراءه باللغة الفرنسية؟ صحيح أن توصيفه بأن هناك أمرين لا ثالث لهما إما أن نوغل كثيراً في التراث على حساب المساهمة الفعالة في حاضرنا، وتأتي دراستنا بوسيلة التوصيف أو أن ننسى ذلك التراث – وإن لم يكن ذلك ممكناً – وهذه من الإشكاليات، وما دمنا في حالة النقد للفكر العربي، فعلينا أن نأخذ بمفرداته وواقعه، وهل ستكون الحالة أعوص من ذلك على حد قول أركون؟ مستعرضاً أنه يلاقي صعوبتين إن أراد استعمال اللغة العربية لتقديم بحوث تحليلية اقتصادية للتراث، من جانب اللغة، والآخر بالطريقة الاجتماعية للمعرفة، كما ينفي بأن اللغة غير قادرة على أداء المعاني والأفكار المستخدمة، ليؤكد في هذا الجانب (بأن اللغة آلة يشحذها الناطقون بها ويزيدونها

نفوذاً وثروة، إذا ازدهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وتبقى بالعكس صدئة غير ملائمة، إذا انعكف الناطقون بها على أخلاق وسير ومعاملات أشد ارتباطاً بالماضي المقدس، منها بالمستقبل المحرر، وهذا ما حدث للمجتمعات العربية من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر من الهجرة، وكما أن الفلاح بقي يستعمل المحراث العتيق دون أي تحسين آلي، فكذلك بقيت اللغة العربية محافظة على تعابير دينية ونتف من الفقه والنحو والأدب، منفصلة عن المعاجم العلمية الثرية التي أحدثها المفكرون والأدباء والعلماء في عصر الازدهار، ولم تزل منفصلة عن المعجم العقلاني العلمي الذي أحدثه الفلاسفة، لأن الفلسفة كما هو معلوم سرعان ما أصبحت ملعونة مطرودة محكوماً عليها بالكفر، لأنها من العلوم الدخيلة على العرب والمسلمين، لا يليق «للراسخين في العلم الديني» الاعتناء بها، وابتعاد الطرق الاجتماعية عن المعاجم والتعابير العلمية؛ لكنها اكتفت بترديد قواعد فارغة جامدة في علم النحو، وهو من أخصب علوم العربية - ودفنت مؤلفات من الأهمية بمكان، راجعة لا إلى عهد سيبويه فحسب، بل إلى النحاة المتأخرين)(٥).

ومتسائلاً - أي أركون - هل تحسّن الوضع الذي نصفه بعد الخمسينيات؟ أي بعد ما استرجعت البلدان العربية المستعمرة سيادتها السياسية، فبدأت تسعى لإحياء التراث وإنعاش اللغة العربية، وتجديدها وبث الثقافة في الطبقات الشعبية المحرومة من قبل؟

ويجيب على ذلك (لاشك أن المجتمعات استأنفت مرحلة هامة من «التيار القومي» وإنشاء الأمة على غرار ما حدث في الأمم الأوروبية في القرن التاسع عشر، وهي مرحلة تتسم بالنشاط التصنيعي والاقتلاع من النظام الزراعي العتيق، وتفضيل الإنتاج والاستهلاك والمعاملة التجارية والتضخم النقدي والتمركز الدولي، وتستتبع هذه الاتجاهات لا محالة إبداعاً متواصلاً في اللغة وانفصالاً عن المعاني المألوفة والاعتقادات الراسخة في الذهنيات والنظم السياسية كالعلاقات النسبية ومكانة المرأة وحقوق الإنسان)(٦).

وحول الظروف السياسية التي حلت بالأمة العربية والحراك الديني يقول «أركون» (بعد وفاة جمال عبد الناصر واضمحلال أيديولوجية القومية العربية أو الثورة العربية، وارتفاع صوت الثورة الإسلامية، وهو لا يشير إلى الثورة الإسلامية في إيران، ولكنه يريد أن يشير إلى الظاهرة الإسلامية

ودورها التاريخي في المجتمعات المعاصرة، أريد من وراء ذلك إدراك الصعوبة الثانية – الظاهرة الاجتماعية للمعرفة)(٧).

ولا شك أن «أركون» يبدي ملاحظاته على الفكر العربي من خلال ما استطلعه من أفكار الآخرين في توصيفهم للإسلام كظاهرة في نظرة الغرب، وفي الوقت ذاته يشير إلى ذلك التقسيم التاريخي في الكتب المدرسية والجامعية ليضع العصر الذهبي وعصر الانحطاط، وهذا ليس بمثلبة عليه، وما يوّصفه «أركون» من خلال ذلك النقد ما هو إلا في ذلك السياق.

كما يبدي انتقاده لأولئك المراقبين الغربيين للظاهرة الإسلامية، الذين يصفون فترات منها بأنها «يقظة الإسلام» (كأن الإسلام كان نائماً فتنبه، أو ميتاً فاسترجع الحياة، وهذا التعبير المجازي يذكر بتسمية أخرى جرت عند العرب في القرن التاسع عشر وهي النهضة، وكلاهما مستمد من التقسيم التاريخي المتردد في الكتب المدرسية والجامعية، ذلك التقسيم الملمح إلى العصر الذهبي، وعصر الانحطاط في تاريخ العرب، فلابد بعد الانحطاط أن تؤوَّل كل حركة في المجتمع، كأنها يقظة ورجوع إلى عصر القيم والإبداع والازدهار)(٨).

و«أركون» يعود مرة أخرى ليقف في المناظرة والمقابلة في ملاحظته بأن الغرب الليبرالي يستغل بدوره ظاهرة يقظة الإسلام، إما لينافس القوة الإسلامية كعادته، بتدعيم اليقظة المسيحية التي لا تقل أهمية وشمولاً، وإما ليجند قيم «الأديان السماوية» ضد الماركسية، ولذا نجد نوعاً من الإجماع بين عدد متزايد من الغربيين وبين المسلمين لاستغلال التاريخ على الطريقة الأيديولوجية المألوفة في المجتمعات التي خضعت لتعاليم الكتب المنزلة، أو كما يقول القرآن عند «أهل الكتاب».

ويتناول «أركون» أزمة العقلنة في العالم العربي، مع المقارنة بينه وبين العالم الغربي في الوظيفة العقلية (فالعقلنة أي اجتهاد الإنسان بقواه البشرية في سبيل إدراك الأشياء على ما هي عليه، فالكلام عن الأديان والإله والقيم الروحية إذ أتى بعد بحوث ومناظرات ومجادلات وخبرات تاريخية وإنجازات، بل ثورات حقوقية أدت إلى تغيير جذري في العلاقات بين الدين والدنيا، حقوق الله وحقوق الإنسان، النظر الاعتقادي، والنظر العقلاني، النظم الدينية والنظم العلمانية، الحقائق المنزلة وتاريخية الحق، أقول إن الخطاب الديني والدعوة الروحية بعد هذه الأحداث العقلية فائقة الأهمية، لهما وظيفة اجتماعية ودور تاريخي غير الوظيفة والدور اللذين

نشاهدهما في المجتمعات الإسلامية، فالغرب لاجئ إلى أيديولوجية خاصة بأزمة العقلنة، بينما نجد المجتمعات الإسلامية - العربية منها- لم تزل في حاجة ماسة إلى ايديولوجية التحرر والكفاح ضد القوى المستغلة، الخارجية والداخلية)(٩).

هذا ما أوضحه «أركون» كأحد أوجه النقد للعقل العربي عبر فترات طويلة من الزمن كانت على حساب الوظيفة العقلية له، والتي كانت تدور على الإنشاء، واختصرت في محاور للقيم، وإن كانت من الأهمية بمكان، ولكنها والحال كذلك لا تلغي ولا تفي بحاجات الواقع المرير الذي وصل إليه حال العربي في يومنا هذا، وكانت إحدى إشكاليات الفكر العربي.

ويبدي الكثير من الأسئلة في قضايا احتلت جانباً مهماً في الحياة العربية، وأشاعت سجالاً غير قليل لدى الفقهاء والعلماء، وتناولها العامة من المجتمع، وقد شغلت الكثير من الباحثين في هذا المجال، منها لماذا تغلب الخطاب الإسلامي التقليدي على سائر أنواع الخطاب الاجتماعي؟ ولماذا أصبح من الجرأة الفائقة أو الشجاعة العربية- إن لم يكن من المحال- طرح مشاكل بسيطة جداً كالتكوين التاريخي للشريعة الإسلامية؟ أو الجانب الميثي، ومكانة الاستعارة في الخطاب القرآني، أو خلق القرآن، أو تاريخ جمع المصحف، أو العناصر الميثولوجية والأيديولوجية في السيرة النبوية، أو عوامل التدليس والتزييف أو التحريف والرفض والنسيان في جميع الكتب العارضة لـ(مقالات الإسلاميين) لماذا لم يكتف المدافعون عن دين الحق بقمع الاجتهاد المجدد المحرر من التصورات الباطلة أو النظريات الفاسدة والتفاسير الخيالية؟ بل يصرّون على تكفير المفكرين القدماء والمحدثين كابن الراوندي وابن رشد وابن عربي وطه حسين.

ولكن الكاتب يبعد الحيف عن الإسلام بهذه الأسئلة، وما شابها من الخلط واللغط، وربما لم يتوصل البعض منهم لفهمه فهماً صحيحاً، فيقول(لا يرجع ذلك كله إلى الإسلام كما يدعي كثير من الذين يجهلون الخطاب الاجتماعي، فالمجتمع هو المتكلم المعبر عن قضايا أعضائه على حسب مرتبة كل منهم في مراتب السلطان والكسب والعرفان، إذا قال قائل إن الإسلام عبارة عن تعاليم إلهية منزّلة على جميع العباد، نقول نعم، قد أجمع المسلمون على هذه العقيدة، كما أجمع اليهود والمسيحيون على الإيمان نفسه مع اختلاف أسماء الأديان والكتب، إلا أن التعاليم الإلهية لا يعرفها الإنسان، ولايتقيد بها إلا عن طريق التفسير والتأويل والرواية والاستنباط، وهي كلها عمليات

بشرية يقوم بها العلماء الذين هم أعضاء في المجتمع، ويشاركون في تاريخ المجتمع كسائر الناس، فلابد إذاً من عكس المسيرة من تحت إلى فوق)[١٠].

وهل هناك، في مجتمعاتنا المعاصرة، من يخاطب الجماهير الناشئة المتزايدة بهذا الخطاب العلمي حتى تنضج النفوس، وتقتدر العقول على تفهم ما يجري للإنسان، أو عليه في المغامرات التاريخية؟ من يلقن بعمله وقوله، بسيرته وتعليمه ضرورة الاجتهاد في سبيل الاستقلال العقلي الذي لا يستحق الإنسان اسم الإنسان إلا به؟ من يدافع عن الدين لمستوى التنازه، لا يتطلع إليه إلا من تأمل وتفقه، وجرب وذاق، ويقول «أركون» أدرك عبد القادر الجيلاني: «نازعت الحق بالحق وللحق» أن النزاع الطبقي، والمناورات السياسية، والمنافسات الاقتصادية، بل الانجازات القومية والانطلاقات البطولية والمبارزات الدولية من منازعة الحق للحق وللحق، أي إذا لم يكن الحق المطلق للحق المطلق هو الهدف الأقصى والمعيار الأسمى؟.

ويقول «أركون»: استشهدت بعبد القادر الجيلاني، لأنه كان من معلمي الجماهير لامن أصحاب النظر القائلين «إلجام العوام عن علم الكلام» كان الصالحون والأولياء يتدبرون الأمور الدنيوية للعوام دون إخضاع الدين للسياسة والدنيا على الدرجة و الكيفية نفسيهما اللتين نشاهدهما اليوم مع استعمال الوسائل الإعلامية الحديثة، نعم... لقد اندفعت الطرائق في أعمال سياسية باطلة مخططة، ولقد ساعدت على مزج العقيدة الإسلامية بالعادات والاعتقادات «الشعبية» ولكن الذين اعترفت بهم الشعوب «كأولياء الله الصالحين» قد أذاعوا وأضلّوا في الوعي الجماعي، وما يتسم به الإسلام من خبرة ميتافيزيقية متعالية مخترقة للظروف التاريخية العرضية، ألا وهي الشهادة بالحق وللحق.

وفي الخطاب الإسلامي الذي يأخذ جدلاً منه، ولكنه يضعه « أركون» في تسع نقاط حاول إثارتها والتعليق عليها موضحاً بها النظرة الثابتة لهذا الخطاب (نقتفي هذه التوجهات التسعة: استعمال مناهج عدّة وهضم علوم متنوعة ومتكاملة، والتزام فكر حي منتقد، يتداخل في جميع ما يعرض له من مذاهب وتيارات ومواقف وعقائد وتصورات فردية وجماعية).

نذكر هذه النقاط ورؤية أركون فيها:

١- إن الفكر العرفاني المكتوب صاحب انتصار الدولة المركزية مع الخلافة، ثم مع الملوك والسلاطين والأمراء، هو الفكر الذي لم نزل نعتني به ونفتخر به في التعليم المدرسي والجامعي، وجميع الاحتفالات

الرسميــة مــع تشويــه وتزييــف وإبعاد ما يسميه الأنتربولوجيــون المحدثون (الفكر المتوحش)، وما سماه القرآن بالجاهلية، إنما الجاهلية في النظر التاريخي الأنتربولوجي حضارة وثقافة كاملتان، ومجتمع قائم بنفسه مع نظمه وعاداته ورمــوزه وفنونه وعلومه، إنما النــزاع بين الحضــارة المعتمدة على الكتــاب والأيديولوجية الممركزة الموحدة، والحضارة المعتمــدة على الرواية الشفهية والمجموعــات المستقلــة نزاع فــي سبيل السلطان والتغلب عليه، ولهذا أصبح المؤرخ المعاصــر يجتهــد لاستدراج مــا فاته منذ قرون ليتعرّف على «الفكر الوحشي» وفيما يخص المجتمعات العربيــة، لم يزل الفكر الوحشي أكثر انتشاراً وأشــد تمكناً ونفوذاً في الأذهــان من الفكر العرفاني، لذا يجب الاعتناء بــه لإنقاذ ما حافظ عليه من قيم، وطرق ممتازة في الإبداع الفني)[11].

٢- أمــا التمييز بين «القــرآن الكريم» والظاهرة القرآنية يقول «أركون» أقصد به الفرق بيــن تغذية الــروح الإسلامية بكلام الله تعالى، ودراسة النصوص القرآنية، كما ندرس الظاهــرة البيولوجية أو الاجتماعية أو الأدبية، ومن المعلــوم أن القائلين بخلق القــرآن مــن المعتزلــة، قد قصــدوا هذا التمييز لكيلا تفرض المقدمات الاعتقادية على البحث العلمي.

إلا أن الجانــب الاعتقــادي قــد تغلّب مستعينــاً بالسلطــان، فأصبحــت كثير من الأسئلــة والمشاكل فيما يخص القرآن، مما لا يمكن التفكير فيه، ومما لا يفكر فيه فعلاً إلى يومنا هذا.

٣- فرضــ الشافعــي ومــن تبعه فكرة تأصيــل الأحــكام الشرعية فــي نصوص القــرآن والحديث مع البحــث العلمي عن «العلة» فعمت في الفكر الإسلامي ما يصفه المؤرخ كعملية التنزيه للأحكام والممارسات الأيديولوجية البشرية، ونشاهد الحكومات «الإسلامية» المعاصرة تجدد عملية التنزيه وتؤكدها بإحيــاء الشريعة، وتنفيذ أحكامها دون أي تنبيــه إلــى الحقيقــة التاريخيــة والتأويلية والاستنباطية التي صاحبت فرض هذه الأحكام وتقييدها، ويتبين لنا من هذا المثال أن دراســة الفكر العربي الإسلامي، لا يكفي معها أن تتقيد بالقواعد الأكاديمية المعتــرف بهــا فــي البيئــات العلمية، بل أن تكــون دراســة مطبّقة تراعــي الأوضاع الراهنة للمجتمعات لتساعد على حل علمي لمشاكلها)[12].

٤- تلقينــا عــن السنــة المدرسيــة التاريخانية، مفهوماً خطياً للزمن التاريخي الــذي يمتد مــن أصل إلى غايــة، فالأصل أي البدايــة عند الغربيين ميــلاد المسيح والحضــارة اليونانيــة، وعنــد المسلميــن

الهجرة النبوية، والغاية هي يوم النشور في نظر المؤمنين، أو تقدم الأمة في نظر العلمانيين، وبين الأصل والغاية تمتد مسيرة البشر نحو النجاة والكمال اعتماداً على التعاليم السامية التي أجمعت عليها الأمة.

وفي موضع آخر من الكتاب يستعرض «أركون» الرؤية الإسلامية التقليدية (يتضح أكثر ما يتضح، كيف يحذف تمجيد الجيل الصحابي الذي شاهد الوحي، يحذف من المنظور التاريخي من الناحية العلمية، فكل الحقيقة التي تراد معرفتها، وكل التعاليم «السنية» في الإسلام وكل نماذج السلوك الديني المحتذاة، ونماذج العمل الإنساني والتنظيم السياسي- الاجتماعي، تتركز وتتحدد غاية التحديد في عصر التأسيس، في النصوص - الينابيع - النماذج «القرآن والأحاديث» وقد حظيا بتفسير الصحابة البارع، ثم إنهما جمعا بأمانة دقيقة من قبل التابعين وأجيال الفقهاء الورعين اللاحقين[١٣].

إن كل الفرق الدينية كالفرق الأيديولوجية تعتبر أنها وحدها تستأثر بـ«السنة» ولكنها كلها تقيم الصلة ذاتها بعصر التأسيس، وذلك بوضع المصادرات التالية موضع التنفيذ:

١- إن الوحي القرآني يشتمل على كل ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه حول مصيره الخاص وحول الآخرة والتاريخ والعالم والله.

٢- لقد أبان «محمد» (ص) بقوله وعمله المعنى الدقيق للوحي، وإن حياته تؤلف على هذا النحو الأنموذج الكامل الذي يترتب على كل مؤمن أن يسعى لمحاكاته[١٤].

٣- إن حياة النبي «محمد» وتعاليمه يمكن أن يُعرفا عن طريق الرواية التي لا ينالها الشك مما قام به الصحابة والتابعون والفقهاء «في نظر السنة» مما يلاحظ أن الخلاف يتناول دروب الرواية والوضع الأخلاقي- الديني للرواة، ولكنه لا يمس نماذج الرواية ولا تقنيتها (سلسلة الإسناد)، وإن الفرق كافة تستعمل إذاً النشاط الذي يضفي الأسطورية على الماضي، وتمارس عمل الإسقاط ذاته لمفاهيم شتى وأوضاع تاريخية متغيرة، على لائحة الدلالات المثالية التي أقيمت في ذلك الوقت.

- إن مراقبة الوحي للتاريخ يتحقق على الصعيد العملي بعلم الشريعة المسمى «فقهاً» (والفقه إدراك رهيف لمعنى النصوص الإلهية بغية تفسيرها في شكل «أحكام» دينية تطلق على الأفعال الإنسانية، وتستمر بلا انقطاع، ولكن نجوعها يتضاءل كلما زاد البعد عن عصر التأسيس، وهذا هو معنى كفاح الفقهاء ضد «المجددين» أي ضد تاريخية المجتمعات)[١٥].

- إن بلـوغ المعنـى الدقيـق للنصوص المقدسـة يتبع جهـد البحـث الشخصي «الاجتهـاد» ولكنه يجري في الإطار الدقيق للمعلومـات المنقولـة عـن الصحابة «في نظـر أهل السنـة» وعن الأئمـة «في نظر الشيعة».

- لنقـرأ الآن كيف ينظر الإمام الغزالي «ت ١١١١م» مثـلاً إلى التوتـر بين البحث المستقل وبيـن الرضوخ لسلطة القدامى أو التقليـد «اتبعوا أحسن ما أنـزل إليكم من ربكـم، ولا تتبعـوا من دونه أوليـاء»، وهذا بظاهره يوجب الرجـوع إلى الكتاب فقط، ولكن دلّ الكتاب علـى اتباع السنة، والسنة على الإجماع، والإجماع على القياس، وصار جمـع ذلك منزلاً فهـو المتبـع دون أقوال العباد.

- من خلال استعراضنـا لآراء «أركون» يتبيـن لنا مجموعة من الجوانب التي كانت ذات صلـة في تقدم الأمة أو تخلفها، وذلك ناشئ عن فهمنا المغلوط لتلك الحوادث.

- إن تلـك الأفـكار التـي يستخلصها الكاتب «أركون» من خلال رؤيته لواقع الفكر العربي، مركزاً على الأحـداث التاريخانية التـي ساهمـت إلى حـد كبير فـي تقييد حركة الفكـر العربي، وبقيـت أكثر سجالاً كلما تعاقبت الأيام والسنون، واتخذها أبناء المجتمـع نقطـة خلاف فيمـا بينهم، وكل مـن دنا منها، فهو أحق بهـا، حتى استغرق الفكر العربي نفسه فيها وتصلدت الأفكار، ولم يُترك له حرية الاختيار في الإبداع في مجالات متنوعة عدة، لأنه بقي حبيس تلك السجالات التي يعالج ويجـادل فيها أفكار الماضي متحزياً لهذا أو لذاك، وقطار التقدم يسير بسرعة، وبقي الفكر العربي على هامش التاريخ، وربما يعود بعض الفضل في تطور الفكر العربي لأولئك الذين استطاعوا معرفة استثمـار تلك العقول، ولم يكن لهم الهّم في الغوص في الماضـي وأحسنوا استخدامه، واستثمار حاضرهـم واستشرفوا مستقبلهم في مجالات عدة.

- بقي الفكر العربـي يعيش جانباً على ضفاف الحضـارة، وموائد التقدم متطفلاً علـى إنجـازات عقـول الآخريـن، بعد أن منـح عقله كل ذلك الخمـول، وبقي هيماناً بالانفعـال ولـم يَجّسُـرّ علـى الفصل بين الانفعال والفعل، وبقيت بينهما مسافة تطول كلما زاد عدد السنين ومن دون حساب.

- لم يكـن الكاتب «أركـون» هو الوحيد الذي تناول مثل تلـك الدراسات، ولكنها في المجمـل تشير إلى قضيـة واحدة، هي ذلك الجمـود في الفكر العربي عبر العصور، بعد أن بلغت الأمة العربية شأواً كبيراً في الحضارة

وغناها، والكاتب يشير إلى المفاصل الدقيقة في المعالجة والتنبه لها من أجل أن يكون الفكر العربي متيقظاً ومتحفزاً وواعياً ومدركاً لتلك الجوانب، كما غيره لدى الشعوب التي تقدمت وسبقته في الحضارة والتقدم، كل ذلك يصب في صالح الفكر الإنساني أولاً، ويعطي للعرب مكانة يستحقونها في بناء الإنسان وإسعاد البشرية.

الهوامش:

١ - الفكر العربي بين ماضيه وحاضره- ص:٦.
٢ - الفكر العربي بين ماضيه وحاضره- ص: ٧.
٣ - الفكر العربي بين ماضيه وحاضره-ص: ١٣.
٤ - - نقد الفكر العربي - ص:٦.
٥ - الفكر العربي- ص:٧-٨.
٦ - - الفكر العربي -ص:٩.
٧ - الفكر العربي-ص:١٠.
٨ - الفكر العربي- ص:١٠
٩ - الفكر العربي-ص:١١-١٢.
١٠ - الفكر العربي- ص: ١٣-١٤.
١١ - الفكر العربي- ص:١٨.
١٢ - الفكر العربي- ص:١٩.
١٣ - الفكر العربي- ص:٤٨.
١٤ - الفكر العربي- ص: ٤٨.
١٥ - الفكر العربي- ص: ٥٠.

المصادر

- الفكر العربي - محمد أركون - ت: د. عادل العوا - منشورات دار عويدات - بيروت - باريس - الطبعة الثالثة :١٩٨٥م.
- الفكر العربي بين ماضيه وحاضره - سامي الكيالي - مطبعة المعارف ومكتبتها في مصر - ١٩٤٣م.
- الفكر العربي وصراع الأضداد - د. محمد جابر الأنصاري - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت- ساقية الجنزير - الطبعة الثانية- ١٩٩٩م.
- تحولات الفكر والسياسة- د. محمد جابر الأنصاري - عالم المعرفة - الكويت - العدد ٣٥ نوفمبر ١٩٨٠م.

الجريمة والعقاب

✽
منيب هائل اليوسفي



تعتبر رواية «الجريمــة والعقاب»، ليس مــن روائع دوستويفسكــي فحسب، بل ومن روائع الأدب العالمي بمضمونها الاجتماعي الفني وقوتها الفنية وعمق التحليل النفسي والتتبــع الدقيــق البارع لعواقــب الجريمة النفسيــة والمعنويــة والفكريــة على بطل الرواية.

«الجريمــة والعقــاب» تختلــف عــن الروايــات البوليسيــة التــي تــدور حــول الجريمة ونتائجها، إنها تتميز بأبعاد فلسفية واجتماعية وأخلاقية ترتكز عليها الرواية،

✽ محامٍ وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

فالجريمة التي يقدم عليها البطل تخلق في نفسه صراعات فكرية وعاطفية ذات مدلول إنساني كبير.

بدأ دوستويفسكي في كتابة «الجريمة والعقاب» في الفترة التي اشتدت فيها التناقضات الطبقية بعد إلغاء نظام الرق عام ١٨٦١م، وقد اجتاحت الصراعات مختلف الطبقات على إثر انهيار النظام البطريركي القائم وبدء حلول النظام الرأسمالي مكانه.

إن تفكك النظام الاجتماعي الذي اعتاده الناس وتدهور قيمه ومثله وفلسفته وقوانينه، وعدم ولادة نظام جديد متكامل ذي أسس فكرية واضحة وقيم أخلاقية متبلورة، أحدث هزة كبيرة في الحياة الاجتماعية وفي تفكير الناس، وعلى الرغم من أفول النظام العبودي فإن العلاقات العبودية والإقطاعية لم تمح تماماً وظلت بقاياها واضحة المعالم، فالطبقة البورجوازية الناشئة زادت أساليب الاستثمار الجديد كما زادت في إفقار الفقراء وإغناء الأغنياء، وهكذا أصبح الفرد ينوء تحت نوعين من الاستغلال الإقطاعي والرأسمالي.

وقد كان لهذا الوضع تأثيره الكبير على الطبقة المتوسطة بشكل خاص لأن حالها الاجتماعي كان معرضاً للهزات أكثر من غيرها، وقد كان أبناء الطبقة المتوسطة يفقدون غالباً كل ما يملكونه وينحدرون إلى مهاوي البؤس ويعملون لدى أرباب المصانع عمالاً، وكان الحظ يبتسم لهم في بعض الأحوال النادرة فيغتنون ويتحولون إلى مستثمرين ومستغلين لجهود غيرهم وأتعابهم.

لقد صاحب هذا الوضع انتشار الجريمة والقتل والسرقة والبغاء وتزعزع أركان العائلة وتفكك علاقاتها، وقد اهتم الكتاب بتصوير حياة فقراء المدينة وحالتهم المعيشية المفجعة وإظهار صعوبة تحقيق الإنسان الفقير لذاته ومطامحه وكيانه في المجتمع ولجوئه أحياناً إلى القوة والعنف لتحقيق أهدافه.

ينتمي غالبية أبطال رواية «الجريمة والعقاب» إلى هذه الطبقة المتوسطة المهزوزة الكيان الواقعة بين براثن الفقر والعوز.

إنَّ أزقة بطرسبورغ وأحياءها القذرة وبيوتها الضيقة وحاناتها هي مسرح الأحداث الهامة التي تنطوي عليها تلك الرواية، ومنها نطلع على صور مرعبة للتعاسة والشقاء والبؤس التي يعيشها فقراء العاصمة، فالبيوت التي يعيش فيها أبطال القصة مثل راسكولينكوف ومارميلادوف وصونيا ضيقة معتمة تقع في أحياء مكتظة بالسكان، بيد أن احتشاد الناس في البيوت

وتجاورهم وانعدام الفواصل فيما بينهم لا يخلق عندهم روح التقارب والتعاون، بل نلمس التباعد والتنافر والبغضاء تهيمن على علاقاتهم، فالفرد يشعر بالغربة والوحدة بين الآخرين إذ يحاط الإنسان عادة في روايات دوستويفسكي بجو بارد يجمد أوصاله ويشوه حياته، فلا نلمس ذلك الدفء الإنساني والعواطف الحارة الفياضة اللذين يتميز بهما عالم أبطال تولستوي فالإنسان غريب عن غيره وعما يحيطه.

إن راسكولينكوف بطل الرواية ذكي نبيل وطيب القلب ويحب مساعدة الناس في الأوقات العصيبة التي تمر بهم كما حدث بالنسبة لعائلة مارميلادوف، وينتمي راسكولينكوف إلى عائلة فقيرة تناضل من أجل سد حاجاتها المادية مع المحافظة على كرامتها وتواجه عناء كبيراً في الذود عن شرفها على الرغم من أنهم يعيشون في عوز شديد، وتقع أخته وأمه تحت تهديد رجال محتالين مثل سفيدريجالوف ولوجين، وحيثما التفت راسكولينكوف يرى صوراً من ضروب الإهانة والتحقير التي يتعرض لها الإنسان الصغير والتي تترك آثاراً أليمة في نفسه.

يزداد ضغط الأحداث على راسكولينكوف ويزداد ضيقه بالوضع الراهن، إذ يعرف في هذا الوقت أن شخصاً غنياً يريد أن يتزوج أخته ويذلها ويهينها، ثم يسمع بصبية خائفة يطاردها أحد الرجال في شارع كونوجفارديا للاعتداء على شرفها، ويروي له مارميلادوف قصة حياته المفجعة وحال عائلته المرير، فتترك هذه الأحداث ظلالاً من الحزن والنقمة والتمرد في نفسه وتلعب دوراً في إقدامه على قتل العجوز المرابية.

فالدوافع التي تكمن وراء إراقة دماء المرابية ليست مجرد دوافع ذاتية محضة، بل تنبع أيضاً من الوضع الاجتماعي المرير، ومن آلام الآخرين وتعاستهم، وتنطوي على مشاعر إنسانية.

بيد أن تعليل دوافع الجريمة بالعامل الاجتماعي وحده يبعدنا عن مضمون الرسالة وروحها، لأن هذا العامل أحد الحوافز المشجعة على قتل المرابية، وهناك عوامل ذاتية وشخصية دفعت البطل إلى هذا العمل.

إن راسكولينكوف بطبيعته إنسان مرهف المشاعر شديد التأثر ذو حساسية كبيرة، وهو إضافة إلى ذلك ينزع إلى الانطوائية والعزلة الاجتماعية ولا يحب الاختلاط بالناس والتحدث معهم عمّا يعتلج في داخله من أفكار ومشاعر، ولم يكن لديه أصدقاء عندما كان في الجامعة، ويزداد شعور الغربة والوحدة عنده لدرجة يتخذ فيها طابع الاشمئزاز من الآخرين وحتى من

أقرب الناس إليه، فنسمعه يقول عن عائلته «آه كم أحببت أمي وأختي! فلماذا أكرههما الآن؟ أجل إنني أكرههما كرهاً جسيماً ولا أطيق وجودهما قربي».

وكان راسكولينكوف يعيش في غرفة ضيقة لا يملك نقوداً تمكنه من دفع أجرتها الشهرية ولذلك كان يخشى رؤية صاحبة البيت أو الدائنين لدرجة أنه عندما خرج إلى الشارع ليذهب إلى بيت المرابية ويقتلها «تعجب من الخوف الذي تملكه خشية الالتقاء بالدائنين عند الخروج إلى الشارع».

يرفض راسكولينكوف أن يكون إنساناً بائساً مغموراً يتحمل المآسي والهموم بصمت وصبر كالآخرين، ويسعى لإثبات ذاته وكيانه وتحقيق تفوقه على الآخرين انطلاقاً من عقيدة معينة ووجهة نظر فلسفية تبيحان القتل للفرد العظيم الذي يعلو بتفكيره وقوة إرادته وقدرته على الآخرين، يطرح دوستويفسكي فكرة أن الأفراد العظماء هم الذين يصنعون التاريخ، وهؤلاء العظماء لا يلتزمون بالقيم الأخلاقية والأعراف الاجتماعية التي تتمسك بها الجماهير، بل يخرقونها في سبيل تحقيق أغراضهم ومآربهم.

يريد بطل القصة أن يمتحن صحة فكرة الناس العظماء أمثال نابليون وهل ينتمي إليهم أم إنه إنسان عادي مسحوق، فهو يقول: «أقملة أنا مثل الآخرين، أم مخلوق وضيع، أم ملك حقاً»..؟

إن إيمان راسكولينكوف برسالة الفرد العظيم ليست من بنات أفكاره بل هي تعبير عن رسالة الفرد في المجتمعات البورجوازية الناشئة التي حقق البعض فيها شيئاً من الانتصارات كما حدث بالنسبة لنابليون في فرنسا، وقد دارت مناقشات متشعبة في الستينيات حول هذا الموضوع، فالجريمة وأسبابها ومكانها في المجتمع تصور روح العصر.

الفرد العظيم عليه أن يتحدى قوانين المجتمع وأن لا يخضع لها، ويقول راسكولينكوف في حديث مع المحقق عن مقالة كتبها «حول الجريمة» إن أكثر العظماء في التاريخ كانوا «مصاصي دماء رهيبين... وعليهم أن يكونوا بطبيعتهم مجرمين لدرجة معينة وإلا يصعب عليهم الخروج من الحياة العادية، وهم يرفضون بطبيعتهم أيضاً هذه الحياة، عليهم على ما أعتقد أن يرفضوها».

يصبو راسكولينكوف لإثبات مقدرته وقوته وتفوقه على الناس العاديين وسموه عليهم ثم يمتحن صمود أفكاره في المجال العلمي، يقول في حديث له مع صونيا «إن الحرية والسلطة بصورة رئيسية» هدفه الأول

ومنطلـق تحقيق مراميـه وأغراضه ، ومن أجل الوصول للسلطة والسمو على الآخرين لابد من الدوس علـى الأعراف الأخلاقية والقوانين، فالعظماء في رأي راسكولينكوف سفاحون ومصاصو دماء. ويذكر البطل رأيه في معرض حديثه مع أخته عندما تسأله عن إراقـة دم المرابية فيقول: «لقد أرقت الدم الـذي يريقه الجميع والـذي أريق وسيراق في العالم كله كشـلال، إن الذين يسمونهم مصلحـي البشريـة يريقونه كمـا يريقون الشمبانيا عند تتويج الملوك في الكابيتول» .يبـرر راسكولينكوف سفك الدماء باعتباره الطريق الوحيد لتحقيق مآرب الفرد وله في التاريـخ الطويل الذي عاشته البشرية أمثلة كثيرة على ذلك.

إن مبـدأ إراقـة دم الآخريـن لا يمكن تبريـره مهما كانت الأفـكار والعقائد التي تكمن وراءه وهو خروج عن القيم الإنسانية، ويقـود صاحبه إلـى الانحـدار والتدهور والاضمحلال، ولذلك نلاحظ بعض التقارب بيـن راسكولينكـوف، وسفيدريجالـوف، الشخصيـة المنحلة الفاسقـة، على الرغم من التباين الكبير فـي مثلهما وأفكارهما، فكلاهما مصدر شر وخراب للغير، وكلاهما بحاجة إلـى القيم الأخلاقية السامية، وقد لاحظ سفيدريجالوف هذا التماثل في بعض الخصـال بينـه وبيـن راسكولينكوف، فهو يقـول موجهاً حديثه للأخيـر «يبدو لي أنه يوجد بيني وبينك شيء من الشبه».

يعاني راسكولينكوف بعد قتل المرابية من تأنيب الضمير ومن التمزق الداخلي والحيرة والقلـق، ومما يزيد تعقيـد الحالة النفسية أنه لم يقتل المرابية وحدها بل اضطر إلى قتل ابنتهـا التي لم يكن ينتظر وجودها في البيت، وذلك لإخفاء آثار الجريمة ، وهكذا فقـدت الجريمة أحـد أركانهـا، فقد أراد راسكولينكـوف قتل المرابيـة بالذات لأنها تستغل الآخرين وتستنـزف قواهم غير أنه قتل إنساناً بريئاً أيضاً.

إن راسكولينكـوف شأنـه شـأن أبطال دوستويفسكـي لا يحتجـون فقـط علـى سلطـة المال بل ينجذبـون نحوها ويسعون لاستخدامها والإفـادة منها، ويندفع البطل في مجرى دفاعه عـن نفسه ضد الآخرين إلى الدوس عليهم والصعود على حطامهم.

إن دفاع الفرد عن ذاته وانسانيته ينقلب غالباً ضد إنسانيـة الآخرين وحريتهم، ولم تصعد نظرية الفرد العظيم للتجربة، واخذ راسكولينكـوف يعي تدريجيـاً عدم جدوى أفـكاره وعبثيتها، وبرهن علـى أنه «قملة» لا إنسان عظيـم، لأن الوساوس والكوابيس المرعبة التي سيطرت عليه ونوبات الحمى والهذيـان التـي كانـت تتتابـه والأزمات النفسيـة التي هزت كيانه قادته في النهاية

إلى الاعتراف بجريمتـه، بعد أن تزعزعت علاقاتـه بكل من يحيطون بـه، وزادت من وحدتـه وعزلتـه الروحيـة والاجتماعية، ويتخذ الصراع بيـن نظرية وفلسفة البطل الحيـة من جهة، وبين طبيعته الإنسانية من جهة أخـرى، طابعاً دراميـاً حـاداً، غير أن التوتر الشديد الـذي يتملك راسكولينكوف بعد الجريمة ينبعث مـن أفكاره التي يريد امتحانها في الواقع الحي والتي تظل محور الرواية إلى النهاية.

يُتهم دوستويفسكي بإظهار «ديالكتيكية» أفـكار البطـل وصراعهـا المستمـر، أما مشاعره فتعتريهـا تغيرات سريعة وتبدلات مفاجئة وانقلابـات مستمرة تطحن البطل وتهزه هـزاً. ولذلك نـرى شخصية البطل غير ثابتة أمامنا بل تصطبغ بألوان عاطفية وفكرية مختلفة. ونسمـع رازوميخين يعلق على تغيـر راسكولينكـوف المستمر قائلاً «عرفت راديـون راسكولينكـوف منذ سنة ونصف متجهم الوجه متكبراً وفخوراً، وفي الفترة الأخيرة -وربما قبل ذلك- رأيته يعيش تحت وطأة الأوهام المرضية السوداوية، إنه كبيـر النفس وخيِّر.. غيـر منقبض المزاج أحياناً، وإن كان بارداً متبلّد الإحساس لدرجة القسـوة، تماما كما لو كان يضم شخصيتين متناقضتين تتعاقبان على الظهور».

إن التغير الذي يطرأ على البطل لا يأخذ طابع التطور الطبيعي والتغير التدريجي بعد الأحـداث التي تمر في حياتـه، بل ينطوي على تعاقب حـالات نفسية فكرية تهز كيان البطل وتلـون شخصيته بألوان مختلفة كما ظهر أمامنا.

تختلط الأمور والأشياء أحياناً في ذهن راسكولينكوف بحيث لا يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والتصور، فبعد أن يتحدث حديثا طويلا مع سفيدريجالوف يشك في وجود مثل هذا النقاش وفي وجود محدثـه نفسه فنسمعه يناجـي نفسه «لقد تخيلـت أو تصورت هذا، وربما يكون مجرد فانتازيا»، يعكس هذا الالتباس بين الحقيقة والخيال التوتر العاطفـي والحمى الفكرية والهـزات العصبيـة التي يعيشهـا البطل باستمرار لدرجة يفقد أحياناً قابلية التمييز بين الأشياء.

ويبلغ الوضع النفسي المتأزم للبطل حداً يجعله يفقـد السيطرة علـى نفسه ويشعر معـه أنه مدفـوع دفعاً غريزيـاً للاعتراف بالجريمة أمام صونيا، لقد كان سابقاً يقاوم هذا الشعـور الغريزي ويصارعـه محاولاً كبته ولكنـه فجأة يشعر أنـه أصبح مسيراً لامخيّراً فـي اعترافه، إن هناك حتمية في الأمر لايستطيع الصمود أمامها، فكان عليه أن يفعـل ما تمليه عليـه مشاعره لا فكره، «أحـس فجأه بضـرورة الاعتـراف وبعدم إمكانية تأجيله لفترة قليلة، لم يعرف بذلك

وقد سحقه تقريباً وعيه المؤلم بضعفه أمام حتمية الأمر».

أراد دوستويفسكي تصوير حياة إنسان مدقع أدمن على شرب الخمر في قصة «السكارى» ثم أصبحت هذه القصة جزءاً هاماً في رواية «الجريمة والعقاب» وتمثل حياة عائلة مارميلادوف.

إن الأب مارميلادوف رجل سكير يقضي وقته في الحانات، وقد انجرف إلى طريق السكر من شدة بؤسه وتعاسته، وهو يشرب الخمر لا بحثاً عن السلوان وهروباً من الواقع، بل لغرض الإمعان في زيادة شقائه إنه يقول: «أنا لا أبحث عن السرور بل عن الحزن فقط، فأنا أشرب لكي أضاعف آلامي». إن مارميلادوف إنسان محطم شقي يائس من الحياة وليس لديه بصيص في التخلص من العذاب الذي يرافقه طوال حياته.

أما صونيا ابنة مارميلادوف فإنها نموذج للإنسان المعذب المتألم الذي يحترق من أجل الآخرين، ولذلك يجعل منها دوستويفسكي تجسيداً للمثل الأخلاقية فهي مستعدة للتضحية ونكران الذات لدرجة بيع جسدها وتحمل عار هذا العمل.

ويخلق منها شخصية تُمحى فيها الفوارق بين الخطيئة والبراءة، بين الألم والطهارة، بين الفسق والشرف، وتتمثل في تصرفات صوفيا الأخلاق المسيحية الحقيقية فهي مثال للصفح والتسامح مع المسيئين لها والاستسلام للوضع المهين الذي تعيش فيه دون التفكير بالتمرد عليه والبحث عن طريق الخلاص منه، فالتعليمات المسيحية تجد لها سبيلاً في تفكير صونيا وسلوكها.

وتبدو لنا مأساة صونيا منذ اللحظة الأولى التي تظهر بها في الرواية.. إذ نراها في ساعة وفاة والدها مارميلادوف خارجة في ملابس هفهافة ساطعة الألوان تتنافى مع حدث الموت، وتتجسد في هذا التناقض الصارخ بين مظهر صونيا الخارجي وجو الموت المخيم على الغرفة حياتها التراجيدية المفجعة يقول الكاتب «توقفت صونيا عند عتبة الباب لا تتخطاها ونظرت كالتائهة كأنها لا تعي شيئاً، ونسيت أن ثوبها الحريري المورَّد الذي ابتاعته عتيق لايليق بالوضع الراهن، لقد سد الباب طرفه الخلفي الطويل المضحك وشكله الواسع، وقد نسيت كذلك الحذاء الملون وقبعة القش المدورة ذات الريشة الحمراء الفاقعة، وبدا من تحت القبعة التي وضعتها جانبياً على رأسها مثل الأطفال، ووجهها النحيل الشاحب الخائف، وفمها المفتوح وعيناها الجاحظتان من الرعب».

إن وضع صونيا المأساوي وحياتها القاسية تجد لهما بعض الشبه في راسكولنيكوف

وتصرفاتــه، إن ضغــط الانطباعــات التي ولدتها حالة عائلتــه البائسة، ووضع عائلة مارميلادوف، هي من جملــة العوامل التي قادت راسكولينكوف إلــى الجريمة، أي إن حافز إنقاذ أهله زاد في تصميمه على القتل على الرغم من ضموره بعد وقوع الجريمة، وتقــدم صونيا على احتراف البغاء من أجل أن لا تهلــك عائلتها جوعاً، فتوفر لها بذلك أسباب الحد الأدنى من العيش، وعلى الرغم من التشابه فإن الدافع الرئيسي ليس واحداً في كلتا الحالتيــن، إن راسكولينكوف يقتل ليثبت أولاً وقبل كل شيء تفوقه على الآخرين واستعلاءه عليهم، أما صونيا فتصبح مومساً انطلاقاً من نكران الذات المحض في سبيل الآخرين.

إنَّ الــروح الفرديــة التــي ينطلق منها راسكولينكــوف، والتعليمــات المسيحيــة التي تؤمن بهــا صونيا، لايكتب لهما الظفر أو النصــر في النهاية، بــل إن الحب الذي يربطهمــا هو الــذي يعلو وينتصــر، يقول الكاتــب في خاتمة الروايــة «لقد بُعثا- اي صونيــا وراسكولينكوف- بالحــب، إن قلب أحدهما ينطوي علــى ينابيع متدفقة حياة وشوقاً للقلب الآخر».

يمثــل سفيدريجالــوف الملاكين الذين يحيون حيــاة طفيلية، وينحصــر اهتمامه بالنساء فهو يوقع بهــن ويقسو عليهن، وقد كان مصــدراً لكثير من الكوارث التي نزلت بهن. فقــد تسبب في موت زوجته، واعتدى على شــرف صبية مسكينــة انتحرت على إثــر ذلك. بيــد إن دوستويفسكــي لايصور سفيدريجالوف كانسان سيئ فقط ، فهو ليس متبلــد الأحاسيس بل لديــه المقدرة التامة على المعاناة والتجاوب مع مشاعر الآخرين على الرغم من أنه يتسم باللامبالاة والفقر الروحــي في الوقت نفسه، فلديه ميول نحو الخيــر والشر، ويضفي الكاتــب عليه شيئاً من المظهر الجذاب ومن كرم النفس، تعكس صــورة سفيدريجالوف الصفــات المتباينة التــي تنطوي عليها شخصيتــه، فهو جميل الهيئة ومخيف فــي الوقت ذاته. «إن وجهه لغريــب ويشبه القناع، هــو أبيض أحمر ذو شفاه قرمزيــة ولحية شقــراء وشعر كثيف وعيــون غامقة الزرقة ونظرة ثقيلة وجامدة ، وهناك شيء مرعب وقبيح في هذا الوجه الجميل الفتي».

يتصــف سفيدريجالــوف بقابلية كبيرة علــى الحدس وفهم النــاس ومعرفة دفائن نفوسهم. وقــد تكون علاقتــه الواسعة مع أفراد متباينيــن من شتى الطبقات والفئات الاجتماعية سبباً في ذلك. فهو يفهم طبائع وأفــكار مختلف أبطــال الرواية، إذ يحدس بالجريمــة التــي يرتكبهــا راسكولينكوف ويعرف الدوافع النظرية التي تكمن وراءها

والتي تقــوم عليها. فنسمعــه يقول «هناك نظريــة خاصــة تقســم الناس إلـــى عوام، وخاصة متميزة يبيح لها وضعها السامي أن لا تعترف بالقانون، وأن تسن القوانين للعوام القذرين»!.

يقود الصراع الذي يعانيه سفيدريجالوف والذي يتمثل في حبــه للحياة التي يحياها وفي اشمئزازه من نفسه التي يدرك ضحالتها وسطحيتها إلى إنهاء حياته بيده شنقاً.

يتسم المحقق بافيــري بتروفيتش بقوة الحدســ واليقظة والحساسيــة، فهو يتتبع خيــوط الجريمة ويمســك بتلابيبها بدهاء وذكاء فريدين، فهو لا يدرك أن راسكولينكوف هو القاتــل فحسب بل يبــدي فهماً عميقاً لمشاعــره ونزعاته وآرائــه الفلسفية، وقد اطلع علــى آراء راسكولينكوف في مقال له «حول الجريمة». استطاع بافيري بتروفيتش تحليــل طبيعــة راسكولينكــوف ومعرفــة شمائله وخصاله، ولــم يرَ فيه قاتلاً عادياً، بل تمكــن من الإحاطة بمختلف الملابسات والدوافــع والأحداث التي دفعته إلى القتل، وهــو يقــول لراسكولينكــوف «إن مقالتك خيالية وغيــر معقولة، بيد أنه يومض فيها الإخلاص وكبرياء الشباب وشجاعة يائسة، إنها قاتمة وجيدة». لا يلقي بافيري بتروفيتش القبضــ علــى راسكولينكــوف حــالاً بعد ارتكاب الجريمة مــع تأكده من اقترافه لها بل يستعمل معه أسلوباً نفسياً حذقاً، ويوجه له أسئلة محرجة ويناقشه في مختلف آرائه وأفكاره، ويكشف عن الصراع النفسي العنيف الذي يعانيــه البطل، إن طريقة الاستجواب الذكية التي اتبعها بافيري بتروفيتش تجعل راسكولينكوف نفسه يعترف بجريمته.

يتحــرك أبطــال دوستويفسكي في جو غامض مبهــم، حيــث إن كل شخصية في الروايــة تشكل لغزاً يستعصي فهمه بوضوح وجــلاء بالنسبة لبقية الأبطال، وتصدر عن الأبطال تصرفــات غريبة وغيــر متوقعة، فمثلاً ينتحر سفيدريجالوف في النهاية في الوقت الذي لا يقود مجرى تفكيره ونظرته للحيــاة وسلوكــه المشيــن إلــى مثل هذه الخاتمة، وإضافــة إلى ذلك يخصص كمية من المال إلى كل مــن راسكولينكوف ودونا وغيرهما من الأشخاص الذين لا يتفق معهم في المثل والأخلاق، ويكمن سر الإبهام في أبطال دوستويفسكي فــي الانعزال والحياة الفردية الانطوائية التــي يحيونها، فالبطل يعيش حياته الداخليــة الخاصة التي تبقى خفيــة أو غير ظاهرة في تصرفاته اليومية وسلوكــه المرئي، ولكنها تطفــو أحياناً إلى الخــارج وتفصح عن نفسهــا في اعترافاته ومنولوجاته الداخلية.

إنَّ كل بطــل مــن أبطــال روايــات دوستويفسكــي لــه طريقتــه الخاصة في

التفكيـر والعيش والسلـوك مستقلة تماماً عـن آراء الكاتب وفلسفته، وقد أشار الناقد الروسي م.م باختين إلى أن دوستويفسكي قد خلق نوعاً جديـداً من الرواية وهي الرواية المتعددة الأصوات. فدوستويفسكي لا يعبر عن أفكاره عبر بطل معين من الأبطال كما يفعل تولستوي مثلاً ولا يفرض آراءه عليهم بـل يفسح أمامهـم المجـال للتعبير الحر عن ذواتهـم وأفكارهم. ولذلـك تتطور كل شخصية روائيـة تطوراً مستقلاً وتنمو نمواً داخلياً طبيعياً نابعاً مـن طبيعتها الخاصة دون أن يقحم الكاتب نفسه عليها.

إن أبطال روايات دوستويفسكي يشبهون فرقـة في الأوبرا، كل مغنٍ فيها يغني أغنية خاصة تختلف عن أغنيـة الآخرين غير أن جميع هذه الأغاني تصل إلينا في نغم واحد متناسق ومنسجم. كذلك يحدث في روايات دوستويفسكـي إذ تتلاقـى أصوات الأبطال المتباينة في جوقة واحدة متناسقة.

الحل الثقافي.. المبادرة الثقافية الجميع من أجل الجميع

❁
غسان كامل ونوس

ليس جديداً ولا نافلاً القول إنّ الثقافة هي الحصانة الحقيقيّة للكائن البشريّ، وهي الضامن الفعليّ لوطنيّته، والراصد الذاتيّ لقوامه ومتانته وبقائه قائماً بذاته، متكاملاً مع أبناء وطنه، متماسكين في كتلة قادرة على المقاومة، مهما كانت القوى الخارجيّة المعتدية، التي قد تختلف، وتتباين، وتتزامن، وتتناوب، وتتشارس، وتتلاين، وتتلوّن..

مثلاً؛ قد يكون الهجوم بسوائل تذيب الذرّات الهشّة في الكتلة؛ ما يمكن أن يسبّب فجوات، قد ينفذ منها الأعداء، أو تنهار الكتلة، وهذا ما يقاوَم عن طريق الإمكانيّة الذاتيّة للذرّات/ الكائنات.. وقد يكون الهجوم جارفاً، لا تفيد إمكانيّة الذرات وحدها، فتقاوم الكتلة المتماسكة ذلك.

الأبعاد الثقافيّة للأزمة في سوريّة:

لم يعد ممكناً إغفال الأبعاد الثقافيّة للأزمة في سوريّة: العدوان المتّصل منذ نحو أربع سنوات، بمدبّريه التاريخيّين، وعملائهم في المنطقة، ومخطّطاته المدروسة بإتقان، وعناصره المتعدّدة الموصوفة والمتجدّدة؛ محقّقاً اختراقات

❁ أديب وشاعر وناقد.

هامّة في الساحات المختلفة، مستغلاً ثغرات وهشاشة وقصوراً والتباساً وغفلة وإهمالاً واستهتاراً؛ ومواجهتُه المستمرّة بلا هوادة، برؤيا إستراتيجيّة، ورؤى متفاوتة العمق والمرونة والجدوى، حسب المواقع والمهمّات والمسؤوليّات والأوقات.. مع محصّلة تقترب من المعجزة: صمود، وتجاوز للأصعب، واستمرار الدولة بمؤسّساتها الرئيسة؛ ولاسيّما الجيش العربي السوريّ البطل، وروافده من القوّات المسلّحة.. وقبل ذلك، ومعه، وبعده، الإحساس الرائع بالمسؤوليّة للشعب العربي السوريّ في مختلف الميادين، من دون أن نتغافل عن الخسائر الفاجعة في الأرواح والمواجع، والفواقد الكارثيّة في الموادّ والبناء..

هذا الصمود الذي يؤدّي، بلا أدنى ريب، إلى الانتصار القريب، الذي نستطيع تقرّي ملامحه من الأعداء قبل الحلفاء، يمثّل الحصانةَ، التي جُرِّبت بأقسى ما تكون الظروف حدّية، والمتنَ الذي يجب أن يُصان ويرمّم ويدعّم، وهو ما يجب أن يُبنى عليه.. وأساسه الثقافة الكامنة، وهو ما كان مستهدفاً عبر الحملات الإعلاميّة المبرمجة، والتحرّكات السياسيّة والاجتماعيّة والميدانيّة، وأبرز ملامحه:

- محاولات إثارة الفتنة الطائفيّة والمذهبيّة، باستخدام الدّين، والمصطلحات المثيرة للغرائز والعصبيّات، والتركيز عليها في وسائل الإعلام المتعدّدة، واستغلال المناسبات الدينيّة، والمساجد، والصلوات الجامعة..

- العَلَم الذي اُتّخذ راية للعدوان المسلّح؛ علم الدولة السوريّة أيام الاستقلال، وهو علم الانتداب بنجماته الثلاث، التي ترمز إلى دويلات طائفيّة مزعومة، جرى رفضها.

- المسمّيات المتعددة للألوية والكتائب والسرايا المعتدية على الأحياء والقرى والمدارس والمؤسّسات.. التي تستخدم أسماء الخلفاء والصحابة والقادة الإسلاميّين؛ إضافة إلى أسماء أخرى تاريخيّة ومعاصرة..

- استخدام آيات وأحاديث شريفة بمعان وتأويلات محرّفة، مع ما يكتنف بعضها من ضعف في المرجعيّة والوثوقيّة..

- استغلال الشعارات والعنوانات الفكريّة والحركات التاريخيّة..

- استهداف المراكز الثقافيّة والمراكز التعليميّة..

- استهداف الأعلام والرموز الثقافيّة التاريخيّة: قطع رأس تمثال أبي العلاء المعرّي في معرة النعمان، وتدمير تمثال الشاعر محمد الفراتي في دير الزور..

- استهداف القادة التاريخيّين والمعاصرين (الرموز الوطنيّة والقوميّة):

الشيخ صالح العلي، القائد الخالد حافظ الأسد، الرئيس جمال عبد الناصر، السيد حسن نصرالله، السيّد الرئيس بشار الأسد..

- اغتيال العلماء والخبراء والفنّيين.. (عيسى عبّود أصغر عالم في العالم؛ اغتيل في محلّه في حمص يوم ١٨/٤/٢٠١١م).

-الاعتماد على محدودي التعليم والثقافة في إثارة الفوضى، وتحريك الناس غرائزيّاً.

- تدمير المساجد والكنائس..

- تدمير بعض المقامات، ونبش قبور الأولياء..

- استخدام بعض المثقّفين، أو المحسوبين على الثقافة في الدعاية والتضليل..

ما من شكّ في أنّ التحضير للعدوان على سوريّة اعتمد على دراسات وبحوث، تتناول الواقع الجغرافيّ والديموغرافيّ بكلّ تفاصيله، ولعلّ في ملاحظة المناطق، التي بدأت فيها التحرّكات غير العفويّة، وتنقّلها بين الجنوب والساحل والوسط والشمال، والهتافات التي رافقتها منذ الأيام الأولى، ما يؤكّد التخطيط المحكم، والإعداد المزمن لهذا العدوان.. ومن المفيد أن نذكر أن الولايات المتّحدة الأميركية، قامت، لسنوات قبل العدوان، بتنظيم زيارات لمثقّفين سوريّين معروفين إليها مدداً كافية، في محاولة استمالتهم والتأثير عليهم..

ومن المهم أن نورد ما ذكره د.يحيى أبو زكريّا في موقع (دام برس) الإلكتروني: سوريّة في الذهنيّة الأميركيّة، وليس من الآن؛ فقد قال «وليام كيسي» مدير الاستخبارات الأميركية: «قررنا أن نشتري رسائل الدكتوراه التي أعدّها السوريّون في روسيا، فذهبت لأفاوض (غورباتشوف)، واشترطت عليه ألّا أخبره بما أريد، حتّى يوقّع العقد!». وتابع كيسي أنّه عند تحليل هذه الرسائل على مدى سنوات، سيُفهم العقل السوريّ؛ إذاً كان المقصود من ذلك فهم كينونة صانع القرار السوريّ.

وقد جاء القرار إلى دوائر الهجرة الغربيّة بقبول أيّ سوري جاء طالباً اللجوء السيّاسي، وبذلك شكّلوا بيئة في الغرب مضادّة لسوريّة؛ وأمكن عن طريقهم جمع معلومات مهمّة عن البلد.

لماذا الحلّ الثقافيّ؟!

قيل كلام كثير، وأثيرت حوارات وجدالات حول أولويّة الحل العسكريّ (الذي يُشوَّه بوصفه بالأمنيّ)، أو السيّاسيّ (الذي يُشوَّه بتخصيصه بالتعامل مع ما يُسمَّون معارضة، أو يُتبَنَّون من قبل الدول الراعية للإرهاب المحرّضة على الديمقراطيّة،

التي تريدها على مقاس غاياتها القاتمة..)، وجرى حديث مسؤول عن الحلّ الاجتماعيّ، ذكره السيد الرئيس للمرة الأولى في كلمته بتاريخ ٦-١-٢٠١٣م.

لكنّني أرى أنّ الحــلّ الأكثر جدوى، هو الحلّ الثقافيّ:

- لأنّه الأبقى

لم يبدأ العامل الثقافيّ مع الأزمة؛ (وأيّ أزمة)؛ بل سبقها تحضيراً خارجيّاً وداخليّاً، وممارســةً على الأرض: برامــج ونشاطات وملتقيــات وإصــدارات.. أو فــي الفضاء: خطاباً وإعلاماً ونتاجــاً مسموعاً أو مرئيّاً، مباشراً أو غير مباشر.

ولا يتوقّف العامــل الثقافيّ مع احتدام المواجهات؛ بل يكون لــه دور بالغ الأهمّيّة فــي القابليّــة للتأثّــر والتأثيــر، والتعامل الإيجابــيّ المباشر مع التغيّــرات الحاصلة على الأرض، ولا ينتهــي حضوره مع توقّف الرصاص؛ بل يمتدّ فعلــه بعد ذلك ترميماً وتصويبــاً ومراجعة وتحصينــاً، ومواجهة للمنعكســات السلبيّة، التي أثّرت في شرائح النـاس المختلفة: مقيميــن، أو نازحين، أو محزونين لخسارات فــي الأنفس والأموال والسنين المهدورة من أعمار محدودة..

- يحمّل المسؤوليّة على الجميع

أثبتــت الأحداث المؤلمة في سورية، أنّ الثقافــة، لا تتوقّف على أصحاب الشهادات والمواهــب والإصــدارات والمعارضــ..، ولا على المؤسّسات الثقافيّة الرسميّة (وهي الأكبر)، والخاصــة، بمسؤوليها وعناصرها وأدواتهــا وروّادهــا وآليات عملهــا؛ بل إنّ الشعب العــاديّ المثقّف، هــو الذي حمى البلد، ومؤسّساته الفاعلة: احتضن المؤسّسة العسكريّــة: الجيشــ والقــوات المسلّحة، وأفرادهــا يمثّلــون الشعب كلّــه، ولاسيّما الشرائح العاديّة محــدودة الدخل والمنافع والخدمات والنفوذ، غير محدودي الضحايا والأحزان والصبر والإيمان.. وهذا لا يعفي الآخرين، ولا يقلّل من خسارات بعضهم.

فالالتحــاق بالجيشــ وروافــده، وتقبّل الشهــادة والخسارات الأخــرى، واستقبال المهجّريــن داخــل الوطن.. جــزء مهمّ من الثقافة الحاضنة المتماسكة. ومن الضروري أن تستمرّ بمفهوماتها ومدلولاتها، وتعميمها عطاء وتلقّياً.

ومن الضروريّ احترام الناس، وإشراكهم فــي التخطيــط والاقتراحــات والتحضير والتنفيــذ، وفي هذا تحفيز علــى الإسهام الجــدّي والمجدي فــي العمليّــة الثقافيّة المتّصلــة؛ أي الحلّ الثقافــيّ، ومن الخطأ الكبيــر عدّهــم متلقّيــن سلبيّيــن، عليهم الاستمــاع والطاعــة، حتى بــلا مناقشة أو حوار، والتعامــل معهم بأنّهــم أقلّ مستوى أو فهماً أمام النخــب الثقافيّة والسياسيّة،

التـــي سُلّمــت مقادير المسؤوليّــة من دون معايير حقيقيّة للكفـــاءة والاستحقاق؛ مما يبعث النفور لدى هذه الشرائح الواسعة من المواطنين، الذيـــن ينفضّون عن النشاطات واللقـــاءات، أو يحضرون قلّـــة وبلا قابليّة، حيـــن ندعوهـــم إلينـــا، أو نستدعيهم لنمنّ عليهم بكنوزنـــا، ولا نتواضع فنذهب إليهم، ونقول مواساةً أو مداراةً أو تغافلاً أو مكابرة: إنّ الكـــرام قليل! وتكون النتيجة حين نبحث عنها الخواء واللاجدوى و..الكارثة.

- إمكانيّاته متوافرة

هـــي ما لـــدى أيّ شخص مـــن طاقات وخبـــرات ومعلومـــات ومواهـــب، يمكن أن يقدّمهـــا إلى الآخرين، ويرغب بذلك. وهذا الموضوع متّسع ومغتنٍ وغير محدود، وليس من السهـــل إحصاؤه، وليســـ مطلوباً ذلك؛ يمكن تقويم الإمكانيّات بآليّات يُتّفق عليها؛ كما يتمّ البحث للوقوف على كيفيّة الاستفادة مـــن أكبر قدر من القـــدرات في المجالات المتنوّعة.

- يمكن للجميع الإسهام فيه

لا تقتصر المشاركة فـــي هذه المبادرة على من هـــم معروفون كتّابـــاً أو فنانين أو مفكّرين؛ بـــل يستطيع من يشاء ويرغب، أن يتقـــدّم بإرادته، ويعرض مـــا لديه، ليتعرّف إليـــه الناس، ويطّلعوا على إمكانيّاته، ومدى الاستفادة منهـــا. كما يمكن أن يتمّ ذلك في أيّ موقـــع، في المدن والقـــرى والتجمّعات الدائمة أو الموسميّة..

- ليس مُلكاً لأحد

لا يستطيع أحد أن يدّعي أنه يمتلك الحقّ الشرعيّ أو الرسمـــيّ في الهيمنة على هذا المشروع، أو التحكّم بمساراته، والمدعويّن للإسهـــام فيه، وبالتالـــي لا يُنتظر أن تُحقّق مكاسب شخصيّة، تحيلنا إلى غسيل الأموال الثقافيّ، أو الانتفاع الدعائيّ الانتخابيّ، أو التسلّق من خلاله إلـــى المواقع والمناصب المختلفة.

- يشجّع المبادرات

يحتفـــي هذا الحلّ بجميـــع المبادرات، التي من شأنها تحقيق أهدافه، ويحفّز على ذلـــك. ولا يجوز الوقوف في وجه أيّ راغب بالإسهـــام في هذا المشـــروع؛ بل لا بدّ من أن يبـــادر الناس أصحـــاب الرؤى والهاجس والحماســـة والإمكانيّة إلى تقديم ما لديهم؛ إذ إنّ مـــا ينقصنا كثيراً المبـــادرة إلى فعل أمر غير مسبوق، أو غير مبرمج أو مخطّط ورقيّاً أو آليّاً تقليديّاً.

- يقوي الحصانة الذاتيّة والمجتمعيّة

لا شـــكّ في أنّ الحلّ الثقافيّ، يسهم في تجميع إراديّ للإمكانيّات، التي تتكامل في رفد الـــذات الشخصيّة، مـــا يجعل شرائح أوسع تهتمّ، وتلتقـــي، وتتقوّى، وتتقاوى، بما يؤدّي إلى حصانة أكبر للفرد والمجتمع.

-هنـاك سبب آخر، وربّمـا كان الأهمّ، وهو قصور المؤسّسات الثقافيّة القائمة عن إنجاز ما هو مطلوب، وعجزها، بحكم طبيعة عملها الرسمي، وآليّة التخطيط والتحرّك، وأكثريّـة القائمين عليها مـن المعيّنين بلا أسس ثقافيّة، أو المنتخَبين بلا كبير إحساس بالمسؤوليّـة، وعجز غالبيّـة المثقّفين عن التحلّـي بمـا يتطلّبـه العمـل الثقافيّ من تضحية وإقدام، وطبيعـة تحرّكهم الفردي - إن وجـد - خارج المؤسّسـات الرسميّة، ومشاركة المجتمع سلبياتِـه، بدل الصمود في وجه تأثيراتها، ومواجهتها، مع ما يتطلّبه ذلك مـن وضوح وشفافيّة ومسؤوليّة، تُطلب مـن المثقّفين أكثر مـن سواهم؛ وقد تبدّى هـذا العجز الرسميّ والقصـور الشخصيّ في هـذه الأزمة الكارثيّة؛ فلـم تتبدَّ جبهة ثقافيّـة متماسكـة مقنعـة، أو مجموعات ثقافيّـة متواصلـة، أو مبـادِرة فـي أبسط المشاهد والظواهر، حتّى في المناطق التي لا تشهـد مخاطر أمنية، فيمـا وجدنا مثل هذه المبادرات لدى شرائح أخرى: الجيش الإلكتروني مثلاً، بصمة شباب سوريّة...

- **الحلّ الثقافيّ هو الحلّ النظيف**

ليس من خاسر في هذا الحلّ/المشروع/المبادرة؛ الجميع رابحون: الواهب والمتلقّي والمساعـد في ذلك؛ بل إنّـه يشجّع الناس بمختلف شرائحهم على الانشغال بالثقافة، وهـذا ربـح أكيـد؛ ناهيك عـن الاشتغال بهـا. وليست لديه تأثيـرات جانبيّة سلبيّة، ولا يخلّف بقايـا أو حطاماً سوى الأمراض الاجتماعيّة والنفسيّة، والجهل، والتخلّف.. التـي تتساقط بلا أسف، ولا تحتاج إلى من يدفنها!

ما هو الحل الثقافي؟!

يمكن تلخيصه كما يلي:

اكتناز - تفاعل - حيويّة - حلّ

وبالاستفادة من الهندسة المائيّة، يمكن تمثيل ذلك بـ:

حوضـ صباب= هطل+ ميـاه جوفية+ روافـد+ جريان.. يؤدي إلـى توافر المياه، التي منها كلّ شيء حيّ!.

كلّما اتّسعت مساحـة الحوض الصباب، ازدادت إمكانيّة الحصول على الموارد، التي تمتصّهـا الأرض حتّى تُشبَـع، وبعدئذ تبدأ بإطلاقهـا أو إخراجها على شكل جريان حرّ مـن الينابيع، وتتعدّد الروافد، التي يمكن أن نستفيد منهـا، أو تذهب هباء.. وتمكن أكثر الاستفادة من المياه الجوفيّة عبر البحث أو السبر للوصول إلى ما تعذّر خروجه؛ لأسباب تتعلّق بطبقـات الأرض، وطبيعـة الطبقات الحاملـة، والمسـارب التي يمكـن أن تكون متعثّرة؛ فنساعد على إيصال المياه إلى سطح الأرض، ومن ثمّ يجري العمل على الاستفادة

منها، أو تضيع الإمكانيّات مرّة بعد مرّة..

من الواضح أننا مثّلنا الثقافة أو القدرات الثقافيّة بالمياه، وبالتالي تكون البيئة هي الحوض الصباب، والهطل هو ما يمكن أن يُضخّ فيه أو يزوّد بمعلومات وخبرات وشهادات وعلوم ومعارف، مع الإشارة إلى الانفتاح على البيئات الأخرى القريبة منها والبعيدة.. ويمكن استكمال التمثيل حول الطاقات الكامنة، والطبقات، والينابيع والروافد.. بما لا يخفى.

عناصر الحلّ الثقافي:

- **الكوادر البشرية...** كرة الثلج تتزايد

الأدباء والفنانون والمفكّرون والمثقّفون الآخرون المعروفون المنتسبون إلى اتّحاد الكتّاب العرب، ونقابة الفنانين، ونقابة الفنون الجميلة وسواها، والعاملون فيها من المهتمّين بالشأن الثقافيّ، ومن هم خارج النقابات والمؤسّسات؛ لم ينتسبوا بعد، أو لا يريدون الانتساب..

هناك كثيرون من أصحاب الإمكانيّات الثقافيّة، ويرغبون في الإسهام بأيّ عمل ثقافيّ، وقد لا يتبيّنون الطريقة المناسبة، وقد لا يجدون من يدعوهم، أو يرحّب بهم، أو يستمع إليهم، أو يعطيهم فرصة للتعبير عن رغباتهم وقدراتهم؛ وقد تنقصهم المبادرة، أو الجرأة، وينتظرون من يحفّزهم؛ لا شكّ في أنّ هناك مستويات متفاوتة؛ لكنّ الاستفادة من الجميع ضروريّة، وفي مواقع وسبل وأعمال مناسبة لكلّ منهم، مع السعي إلى ما يؤدّي إلى تطوير تلك المستويات، وهناك مهتمّون بالشأن الثقافيّ، ويمكن أن يسهموا في هذا المجال بإمكانيّاتهم غير الثقافيّة؛ إضافة إلى المهتمّين بالشأن الوطنيّ العام، ويرغبون في تأمين دعائم ومقوّمات في أيّ ميدان، ويمكن أن يجدوا في هذا النشاط ما يفيد ويُغني..

باختصار؛ إنهم: المنتجون في الميادين والمسارات المتعدّدة للثقافة، وأصحاب المواهب، وأصحاب الخبرة، وأصحاب الإمكانيّة، والمهتمّون؛ أي الفاعلون، والمشاركون، والمتفاعلون..

- **الأدوات:** النتاج الأدبيّ والفكريّ والفنّي.. يمكن عرضه، وبيعه، والتبرع بثمنه أو استثماره بما يفيد هذا المشروع، أو أيّ مشاريع وطنيّة أخرى.

ويمكن أن يتمّ التبرّع بالكتب أو اللوحات، ممّن لديهم مكتبات شخصيّة أو تجاريّة، أو لديهم نسخ متعدّدة من كتب، أو لوحات، ويمكن أن يقدّموها بالطريقة المناسبة..

- **الكتب:** الدعوة إلى حملة للاهتمام بالكتاب، والاستعارة من المكتبات العامة، وقراءة الكتب عرضاً ودراسة نقديّة، وإقامة

معارض كتب شبه مجانيّة؛ إضافة إلى التبرّع بالكتب والمجلّات والصحف الثقافيّة..

- **منشورات وصور وإعلانات ودعوات..**

- **النشاطات في المراكز الرسميّة والمواقع غير الرسميّة**؛ ولاسيّما في التجمّعات المهنيّة أو السكنيّة الدائمة أو الطارئة، والوصول الفعّال إلى القرى والأرياف مهما تباعدت؛ مع التشجيع على الحوارات، التي لابدّ منها، والندوات والملتقيات، التي تطرح فيها أفكار ورؤى متعدّدة، يكون للمتلقّين دور مهمّ في سياقاتها ومتونها.

وفي الطريق إلى إقامة المكتبات العامّة في كلّ قرية وحيّ وتجمّع عمّالي وسكنيّ، لابدّ من الاستفادة من الإمكانيّات الرسميّة المتمثّلة بالمراكز الثقافيّة ومكتباتها، ومنابرها، وقاعاتها، والمقرّات الحزبيّة، والمدارس، والمواقع الرسميّة الأخرى؛ إضافة إلى مواقع أخرى وإمكانيات أخرى.. لكن بآليّة مختلفة، وسبل أكثر حيويّة وتفاعلاً..

إنّ من الأهمّيّة القصوى أن تتغيّر العقليّة، التي تسهم في هذا الحلّ؛ إشرافاً وتنفيذاً، وأن تنفتح وتتعامل بأريحيّة وثقة، وتستخدم أساليب متجدّدة، للوصول إلى الأفضل باستمرار.

ولا أعتقد أنّ أحداً يشكّك في أنّه كلّما زاد الحوض الصبّاب لأيّ مجرى مائيّ، ازداد الرصيد المخزون والمكشوف لهذا المجرى، وبالتالي، تزايد المشتغلون بالثقافة، المنشغلون بها، في هذا الحيّز الجغرافيّ أو ذاك، وهذه البيئة المحدّدة أو تلك المفتوحة، وتضاعف الإحساس بالمسؤوليّة، والانتماء والحرص على المصير الجمعيّ، واحترام القوانين وتطويرها، وازداد الرصيد المعرفيّ للناس، وارتفعت احتمالات تشكيل الوعي الإنسانيّ، وتعالى المستوى المعنويّ للحياة المعيشة، واختلفت النظرة إلى الكثير من الأشياء؛ وجوهرها أهمّيّة المشاركة الفاعلة والوجدانيّة في تطوير الواقع، وإغنائه، وارتقائه، وأفراح الناس وأتراحهم..

ومن الطبيعي أن تختلف الطبيعة الأرضيّة والسكّانيّة في أركان الحيّز أو مَدَياتِه، فيختلف العطاء، وتتفاوت الاستجابة؛ كما قد تختلف الغزارات الهاطلة في جنبات الحوض الصبّاب، وتختلف درجات النفاذيّة والجريان والتجمّع المكشوف أو الجوفيّ.. ولا بدّ من معاينة هذا الاختلاف وهذه الفروقات، والسعي للتعويض، والاستزادة، وسدّ الثغرات، والحفظ المناسب للمياه المهدورة..

كيف؟!

هو الســؤال الأصعب في هذه المبادرة؛ فالإجابــة عليه تقتضي الرؤيــة المتبصّرة لمفاصل المبادرة، وتفاصيلها، وعناصرها، وآليّــات سيرورتهــا، وهذا مــا لا أزعم أنّه بيّــن جليّ؛ بل يتطلــب المشاركة من الذين يستطيعون تقديم مــا يفيد في ذلك؛ وهذا جزء من أسباب طرح هذه المبادرة.

ولا بدّ من التأكيــد أن التحرّك الشامل والمدروس للمضيّ في هذا الحلّ، يفترض أن يتســارع، من دون أن ننســى أنّه مشروع حيــاة ومصير، وهو ليســ طارئاً أو عارضاً أو راهنــاً؛ بــل يبــدأ، أو بدأ فــي الماضي البعيد والقريب، ويستمــرّ إلى ما لا نهاية؛ لأنّ هدفه مستمــرّ في التقدم أمام الخطا، مهما تعجّلت، والغاية أنصع وأجلّ، مهما بلغ الإنجاز، وهو متصــل مهما تقطّعت السبل، وتعكّرت المفازات، ولن يضعف بالتقادم، أو يهِن أو يهرم، مهما تقدّمت السنون..

ولعلّ في التفكير في الإجابة عن السؤال (كيف؟!) إسهاماً في المبادرة..

إنّ المطلــوب أن يعمــل الجميــع فــي الوطن من أجل الجميع في الوطن، وبالتالي العالــم؛ لأنّ خير الوطن يعمّ على الناس في القريــب والبعيد؛ ولاسيمــا بعد الإنجازات الهائلة في الاتّصالات؛ إنّ هذا الخير العميم، يمكن أن يتحقّق بالثقافة وفي الثقافة، ومن الصعب؛ بــل من المستحيل تحقيقه في أيّ قطاع آخــر؛ فليس ممكناً أن يحمل الجميع الســلاح، ولا أن يعمل الجميع في الزراعة، أو الصناعــة، أو التعليم، أو البناء.. ويمكن لجميع العاملين فــي هذه القطاعات كافة، أن ينمّــوا معارفهم وأذواقهــم واطّلاعاتهم وقراءاتهم ومواهبهم..

إنّ الثقافة مهمّة وضروريّة لكلّ فرد، وليس من مصلحة أحــد أن تسقط أهميّتها لديه؛ فهو يحكم على نفسه بالسُّبات والموات.

لذلك هنــاك أشكال متنوّعــة ومتعدّدة حســب الشريحــة والموقــع والظــروف والشــروط الموجودة، التي مــن المفترض تحسينها وتجويدها.

مــن هذه الأشكال ما هو معــروف رسميّاً وخاصّاً، ومنها ما يُفترض أن يُختلق أو يُكتشف، وينمّــى، وهو عمل حيــويّ يحدث فــي أثناء المسير، من دون الاضطرار إلى التوقّف..

ولا شــكّ في أنّه يكــون أكثر تركيزاً في أماكن ومجالات، كقطاع التعليم في مختلف مراحلــه؛ مثــلاً، ويُفترض أن يكــون أكثر انتشاراً واستثماراً في جيل الشباب.

إنّ العامــل المثقّــف يتعامل مع الآلة أو أيّ أداة أخرى، بشكل أكثر تفتّحاً واستيعاباً، والفــلاح المثقّف يفهــم المطلوب من أجل زراعاته ودوراتهــا أكثر من سواه، والجنديّ

المثقّف يكون أكثر حرصاً على سلاحه وأسراره وزملائه، والمعلّم المثقّف يترك لدى طلّابه آثاراً لا تنسى، وقد يزرع فيهم حبّ المطالعة، ويحثّهم على إظهار مواهبهم وإمكانيّاتهم الحقيقيّة؛ أما الواقف على الحاجز، فتظهر ثقافته من خلال تعامله مع العابرين ملامحَ وألفاظاً ونبرات.. ناهيك عن الطبيب المثقّف، والمهندس المثقّف، والتاجر المثقّف، والموظّف المثقّف، والسياسيّ المثقّف الذي يستطيع أن يُقنع إذا ما اقتنع!

ولا بدّ من تأكيد أهمّيّة تبنّي هذا الحل فرديّاً وجماعيّاً، ومن قبل الجهات العامّة والخاصّة، والترويج له إعلاميّاً، وبشكل واسع ومركّز ومتواصل، وبأساليب حضاريّة سلسة محبّبة..

متى؟!

متى نبدأ؟!

لقد بدأنا..

- نحن لا نبدأ من الصفر، ولانتحرّك في فراغ..

هناك بنية ثقافيّة تحتيّة منجزة خلال عقود؛ سواء عن طريق مؤسّسات ثقافيّة ونقابات ومنشآت ثقافيّة.. أو عن طريق وزارات وإدارات محليّة، وهي تعمل بهذا القدر أو ذاك؛ الأهمّ من كلّ ذلك أنّ لدى الشعب السوريّ عراقة في التاريخ والمشاركة في إنجاز الحضارة، والإنتاج الثقافيّ، وهذا ما أدّى إلى أن استطعنا الصمود والمواجهة، والاقتراب من الخلاص..

ويمكن استعراض بعض الظواهر الواقعيّة، التي تؤكّد متانة قوام الشخصيّة السوريّة:

- استقبال الشهداء باعتزاز وإحساس بالكرامة والإباء؛ لأنّهم يدافعون عن الوطن في جميع أركانه، ولعلّ وجود أكثر من شهيد في عدد من العائلات، يؤكّد هذا الرصيد..
- الحالة بين المقيمين والضيوف المهجّرين نتيجةٌ مهمّة، رصيد مهمّ.
- ثبات الجيش والشعب ضدّ الفتنة والانقسام.
- التقشّر (الانشقاق) القليل.
- التحوّل في المزاج العامّ لدى العديد من البيئات.
- انطلاق المصالحات واستمرارها.

يمكن أن نبدأ من خلال بعض الإجراءات الرسميّة:

- تفعيل النشاطات الثقافيّة الجدّيّة، التي لا تكون استعراضيّة وإعلاميّة وآليّة.
- تحريك الأرصدة الثقافيّة الرسميّة؛ سواء ما كان منها لدى المؤسّسات الثقافيّة، أو القطّاعات الأخرى، التي يوجد فيها رصيد للثقافة؛ ولاسيّما المدن والبلدان والبلديّات..

- إعادة النظر في الإدارات الثقافيّة، على أن يتمّ الاقتراح والتعيين وفق معايير تنطلق من الثقافة، وتنتهي بها، كالهاجس والمتابعة والمشاركة والممارسة والحيويّة، والمرونة الفكريّة، والقدرة على الاستيعاب والحوار، وتقبّل الرأي الآخر، والاهتمام بالمصلحة العامة..

- الاستفادة من الإمكانيّات الخاصّة في الجانب الثقافيّ بصورة مجدية، بشرط عدم استغلال ذلك في غسيل أموال أو استمرار نفوذ شاذّ، أو ظهور إعلاميّ تسويقيّ، أو لأسباب انتخابيّة..

ولا بدّ من تأكيد الأمور التالية:

- الحلّ الثقافي ليس بديلاً عن الحلول الأخرى؛ بل هو رصيد مساعد لها جميعاً. وبالتالي لا بدّ من استمرار القوّات المسلّحة في مواجهتها للإرهاب، حتّى القضاء عليه، مع مواصلة الحلّ الاجتماعي المتمثّل بالمصالحات، التي تتطوّر في كثير من المناطق السوريّة؛ إضافة إلى ضرورة المضيّ في الحلّ السياسيّ، بمشاركة أوسع لمختلف التيّارات الوطنيّة والأحزاب والشرائح والفعاليّات في العمليّة السياسيّة، وإدارة شؤون البلاد، ولاسيّما بعد إنجاز الاستحقاق الوطنيّ البالغ الأهمّيّة: انتخاب السيّد الرئيس بشار الأسد لولاية جديدة، مع ضرورة مشاركة المثقّفين بصورة أوضح في المرحلة القادمة.

- إنّ الثقافة فرض عين على كلّ مواطن؛ فأرجو من خلال هذه المبادرة، أن يفكّر كلّ منّا في ما يستطيع تقديمه؛ ابتداء من أسرته وحيّه أو قريته أو دائرته.. وصولاً إلى أبعد مدى..

ويمكن أن تتقدّم الاقتراحات والآراء مباشرة، أو عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ، مع اقتراح الآليّة والفعاليّة..

-ليست المبادرة الثقافيّة تنظيماً حزبيّاً، ولا تيّاراً سياسيّاً، ولا تحرّكاً فوضويّاً، وليست بديلاً عن جهة أو أحد؛ بل هي رغبة ثقافيّة وطنيّة خالصة لعيون أبناء الوطن، ووفاء لشهدائه، ودعماً معنويّاً للجرحى والمصابين والمحتاجين..

يمكن أن نبدأ بأضعف الإيمان: من النفس الأمّارة بالأحاديث السلبيّة وتعميم الممارسات الشاذّة، وتعويم السطحيّين والفارغين والمدّعين؛ لنتخلّص من هذا، ولنقمْ بتصحيح بعض المصطلحات، ورفض استخدام العبارات الفتنوية، حتّى في إطار مواجهتها، وتكريس الممارسات الحيويّة المنتجة، وتعميم الحالات الإيجابيّة؛ ولاسيّما البطولات الأسطوريّة للجيش العربي السوريّ وروافده، والمبادرات الإيجابيّة المتنوّعة في أيّ مكان من بلدنا الغالي سورية.

الميثولوجيا السورية
أصل المعتقدات الدينية القديمة في العالم

❁
د.خليل المقداد

مما لا شك فيه أن الإنسان خلق معبأً بالمعارف الفطرية التي منحه إياها الخالق عز وجل بالفطرة غير المكتسبة منذ نزوله على الأرض ليكون خليفةً له في المعمورة، وحاجج به الملائكة لقوله عز وجل: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)[1].

ثم أخذت هذه المعارف تزداد بشكلٍ مطّرد عبر التاريخ وحسب البيئة التي يعيش فيها الإنسان، بمعنى المعارف المكتسبة اكتساباً، ولدينا مثال على ذلك مما جاء في القرآن الكريم: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

❁ باحث في التاريخ والآثار.

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)[٣].

وكما منح الخالق عزّ وجل الإنسان مقومات ميزته عن بقية المخلوقات فكذلك ميز سورية عن بقية أصقاع الدنيا بميزاتٍ فريدة لم تتوافر في أنحاء العالم. ولذلك فمن الشيء الحتمي لهذا الموقع الجغرافي الذي كان مقدراً له من الله الخالق للكون أن يضعه في قلب العالم، أن يكون مولد الفكر والحضارة ومركز انطلاقٍ وإشعاعٍ لكل البشر عبر التاريخ.

وهذا يعني في المحصلة أن يكون مهداً لكل الديانات السماوية أو غير السماوية والمعتقدات الفكرية والأيديولوجية كما هو مهد للميثولوجيا العالمية، وبذلك أصبح منهل الفكر الفلسفي والعلمي والذي تولدت منه بالنتيجة العلوم التطبيقية والخلقية والفنية والجمالية، بمعنى كل ما نتج عن الفكر البشري من إبداعات ليكون وبحق خليفة الله في الأرض كما أراد له ذلك.

وهذا الأمر يقودنا من حيث المبدأ إلى استنتاج مؤكد بأن جميع ما جال في نفس الإنسان من تبصر وتأملات عن خلقه ونفسه وموقعه من هذه الدنيا وهذه الخليقة كان يتوافق مع الطبيعة التي نشأ فيها الإنسان العربي السوري فوق أرض سورية التي أصبحت موطن المعتقدات والأساطير والفلسفة بكل مشتقاتها والتي شكلت في النهاية مولد الحضارة العالمية التي أخذت تتبلور منذ الألف الخامس عشر قبل الميلاد، ثم لتكتمل بشكلها النهائي في الألف العاشر قبل الميلاد في فترةٍ عرفت عالمياً بفترة الثورة الزراعية وثورة الرموز ومولد الثورة الصناعية وتكيف الإنسان حسب موقعة الجغرافي الذي يعيش فيه وهذا ما تم التأكيد عليه بقوله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ

هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَـالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّـا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّـذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).(٣)

فالبحث عـن المعرفـة وإنتاجها هما اللذان شكلتهما ذاكرة الإنسان من مجموعة مقومات ومسارات توافقت مع وجوده على وجـه الأرض، وقد ارتكز هـذا الأمر على تصـورات العقـل البشـري دون غيره من المخلوقـات ومـن دون سابـق معرفة عن أسرار خلـق الكون أو الإنســان بحد ذاته أو ما يمكن أن يطلـق عليه ملحمة الخلق، ثم أخـذ الإنسان يرسم مـن الواقع الذي يعيشـ فيه والكائنات المحيطة به خيالات وتصـورات عن الخلق حتـى تشكلت عنده الأسس المعرفية عـن خلق الكون ووجوده في هذا الكون وتفاعله معه ودوره في مسار الأحداث ومن ثم توصل إلى سبل توجيهها بما يخدم مصالحـه ويساعده في تكييف الأحداث لخدمته.

مرتكزات بلوغ المعرفة:

ومـن المرتكـزات التي اعتمـد عليها الإنســان لبلـوغ المعرفة التـي كان يصبو إليها:

١- الخـوف والحـذر مـن الظواهر الطبيعية الحتمية المخيفة والمرعبة هما اللــذان دفعـا الإنسان إلــى التأقلم معها أو استنبــاط وسائل التكيـف معها عندما لـم يستطع أن يكـون له دور فـي التأثير فـي حدوثها، ومن ثم تفسيـر العلاقة بين الإنســان والطبيعة والكائنات الأخرى التي كان يتعايشـ معهـا على سطـح الأرض. وهذه الأمور تمثـل بواكير مراحل التفكير الإنساني عندما أخذ يطرح الأسئلة الأولى حول ماهية الكـون وأصوله والعلاقة التي تربـط بين عناصره وتحدد علاقة الإنسان به. وتعتبر هذه العمليـة شكلاً من أشكال بـوادر الفكر التـي وصلتنا عـن أجدادنا الأوائل.

٢- البحـث عـن اختـراق المجاهل وتحويلهـا إلـى معارف، ويدخـل في هذا الإطار تأليف القِصَص عن الآلهة والأرباب والأبطال وفئات من البشر تمتلك مقومات خارقة سـواء أكانت ذهنيـة أو جسمية أو أعمـالاً بطولية. كما تشتمـل هذه الأمور علـى مولـد هـؤلاء وموتهـم وأعمالهـم ويقظتهم ومنامهـم وأحفادهم ومؤامراتهم وانتصاراتهم وهزائمهم وأعمالهم الخارقة في الخلق أو التدمير.

٣- التكيف مـع المخلوقات الأخرى التـي تشاركه في العيشـ والتأقلم معها أو استئنـاسـ بعضهـا والتوصل إلـى وسائل الحمايـة من الأخـرى التي لـم يكن في

مقـــدوره أن تكون إلى جانبه أو ملتصقة به شاء أم أبى ولم يستطع الابتعاد عنها.

٤- تأسيس الإرهاصات الضرورية لبناء الحياة الاجتماعية والثقافية مع أخيه الإنسان. ويندرج ضمن هذا الإطار بناء المجتمع المدني بكامل مقوماته واستحداث النظم الرابطة والقوانين التي يلتزم بها الجميع والتوصل إلى بناء المدينة ضمن المناهج التنظيمية الدقيقة وبالنتيجة الوصول إلى المجتمع المتحضر فكرياً ومدنياً وعمرانياً.

٥- العلاقة بين الخالق والمخلوق والشخصيات التي كانت واسطة بين الطرفين. ومن ثم البحث عن الخلق والخالق والعلاقة بين الطرفين والذي كان في الأصل مطروحاً منذ البداية، وقد جاء ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام مناجياً ربه في قوله عزوجل: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)(٤).

وفي الحقيقة كانت هذه هي المقدمة أو المرتكز الأول للمعرفة أو المعتقد الأيديولوجي (للميثولوجيا) والتي تأسست عند الشعب السوري ثم انتقلت إلى بقية الشعوب لترتكز على المفاهيم الأسطورية التي أخذت في التبدد، كما أخذت تتوضح وتتبلور مع الزمن كلما توسعت معارف الإنسان لتتحول إلى قصص وملاحم وروايات بطولية أو خرافية أو نصف حقيقية وهكذا. ومهما تنوعت هذه المعارف وعاشت في حاضر الزمان وغابره وتقلبت زماناً ومكاناً يبقى الإنسان هو مصدرُها، لذلك فهي من إنتاجه المبني على العقل والفهم وسعة المعرفة وتنوعها بدءاً من موضوع الأرض التي يعيش عليها إلى الفضاء الخارجي الذي أوحى إليه

بالتبصر والخيال بما يحتويه من كواكب ونجوم، إلى الكون وما يحدث فيه من ظواهر مختلفة تتولد بشكلٍ مستمر.

المحتوى الجغرافي والتاريخي للمعتقدات القديمة:

ولو أمعنا النظر في المحتوى الجغرافي لكل هذه الأمور لوجدنا في البداية أن بلاد الشام ومن ثم ما جاورها من بلاد الرافدين(٥)، كانت هي الموطن الأول لهذه الفلسفة الفكرية التي ارتكزت على المعتقدات وعلى رأسها المعتقدات الدينية (الميثولوجيا) التي كانت ترتكز على طقوس القداسة والرهبة والتعظيم للظواهر الكبرى في الزمان والمكان ومنها الشمس والقمر والنجوم والأنهار والبحار حتى تحولت إلى أشياء مقدسة عند الإنسان.

ثم أخذ هذا الإنسان يتبصر في هذه الظواهر حتى توصل إلى أنها كانت ناتجة عن قدرة خارقة أو قدرة قادر؛ لذلك أخذ يبحث عن هذا الخالق في كل زمانٍ ومكان أيضاً، ومن ثم استهدى إلى الربط بين الظواهر والخالق بالرجال العمالقة من البشر الذين صورهم على أنهم يتمتعون بقدرات توصلهم إلى مرتبة الألوهية.

ولكن بقيت جميع هذه الأمور مرتبطة بالتساؤل المطروح بشكلٍ مستمر ولكن مع عدم الوصول إلى أجوبة نهائية شافية وكافية، ولهذا سكنت في ذهنه مسألة الربط بين الخالق والمخلوق والبحث عن تفسيرٍ مقنعٍ وملموس ومحسوس، أو مجردٍ من الأوهام، ومن هنا أخذت تتولد المبتكرات الفكرية التي استمرت حتى نزول الديانات السماوية التي حدت من المغالاة في فهم قصة الخلق وبينت ووضحت جميع الجوانب المتعلقة بالغيبيات التي كانت تقلق فكر الإنسان، ومن هنا أيضاً نجد أن الديانات السماوية ساهمت إلى حدٍ كبيرٍ في توضيح هذه الأمور وفي التركيز على تنوير العقل البشري والوصول إلى الإرهاصات الأولى للعلوم والمعارف مما ساعد على تلاشي المعتقدات الخيالية المبنية على الأوهام والتخيلات المخيفة.

ولا نريد أن نستعرض في هذا البحث التاريخي المتعلق بهذه المسائل بكل مقوماتها ومكوناتها، وإنما نريد التوضيح بأن هذه الرقعة الجغرافية كانت ومازالت هي الموقع الذي عاشت فوق أرضه الشعوب التي أسست الحضارات لتنطلق إلى شعوب العالم كافة لتتفاعل معها، وكانت المعتقدات هي الشغل الشاغل لحياة هذه الشعوب بشكل كان يتناسب طرداً مع المستوى الفكري الذي كان يترافق مع حياة المجتمع.

ولا بد من التركيز على مسألة هامة سوف نتناولها لاحقاً بشيء من التوضيح وهي أن الفلسفة والمعتقدات الدينية التي يتكلم عنها الكثير على أنها قد جاءت من الغرب وبالتحديد من الميثولوجيا الإغريقية، ثم أصبحت مولدة للفلسفة العربية، هذا أمر خاطئ جداً، بل على العكس فقد قُلبت الآية، والشيء الحقيقي أن الفلسفة الإغريقية لم تظهر سوى في مرحلة لاحقة من مراحل التاريخ المتأخر بعد أن تجلت هذه الأمور ونضجت في سورية بعشرات الآلاف من السنين قبل ظهور القبائل الإغريقية وتكوين حضارتهم على المنهج الفكري العربي وخاصةً الحضارة المنيوية التي يعتبرها الغرب بأنها أصل الحضارة الإغريقية من جهة والحضارة الغربية أو الأوروبية من جهةٍ أخرى كونها الحضارة الأقدم بين الشعوب اليونانية.

وقد ساعد التطور الفكري على تنظيم المجتمع ضمن قوانين وأنظمة شملت جميع شؤون الحياة الاجتماعية. وأكثر ما شغل تفكير الإنسان الظواهر الطبيعية الكبرى والتي لها التصاق حميمي بحياته اليومية وهي السماء والشمس والقمر والأرض خاصةً بعدما حلَّت الزراعة وحياة الاستقرار والبناء محل حياة الصيد والتنقل والعيش معظم الأحيان فوق الأشجار أو داخل الكهوف، ودخلت فصول السنة في الدورة السنوية عند تحديد الدورات الزراعية عند الإنسان السوري.

وعندما نتفهم المعتقدات الدينية القديمة (الميثولوجيا) فهذا يعني أننا استطعنا أن نتوصل إلى معرفة طرق وأساليب التفكير البشري في النفس البشرية ذاتها وفي الخالق الذي خلق النفس والكون وفي المحيط الذي تعيش فيه المخلوقات بما فيها الإنسان إضافة إلى معرفة أساليب التكيف مع كل هذه الأمور بما يتناسب مع متطلبات هذا الإنسان ليعيش حياة ناضجة توصله إلى بناء حضارة متطورة في جميع المجالات. ومن ثم بناء الحياة المدنية التي تعتبر قمة الهرم في المجتمع المتحضر، وهذا ما شهدته حياة الإنسان في سورية بعد الانتهاء من العصر النطوفي وبناء المدن وغزو العالم والاحتكاك بالشعوب المختلفة ونقل الحضارة إلى هذا العالم.

وحتى وصل الإنسان السوري إلى هذا المستوى من المدنية؛ فهذا يعني أنه استطاع أن يعيش حياة متلائمة مع المحيط الطبيعي الذي عاش فيه منذ بدء الخليقة وحتى التصاقه بكل ما كان يحيط به ويتعايش معه من المكونات الطبيعية بدءاً من الأرض التي كان يعيش فوقها ويدفن في جوفها وما ينبت فوق

سطحها من مزروعات ونباتات وأشجار، وحتى انتقاله ليتكيف مع الحياة والظواهر الطبيعية ويتعامل مع الأنهار والبحيرات والبحار والجبال والتلال والكهوف.

وحتى نفهم هذا جيداً فعلينا أن ندرك أن ذلك الإنسان في تلك الأزمنة والفترات التاريخية كان يمتلك من المواهب الشيء الكثير، إضافةً إلى الخيال الخصب والحي، وهذا يعني امتلاك العقل والرجوع إليه في تدبير الأمور وتحليل الظواهر، إلا أن هذه الملكة لم تكن متوافرة عند الجميع، وإنما كان هناك من يمتلك الذكاء العالي إلى جانب الإنسان البسيط ومن ثم الإنسان الذي يعيش في عقلية خالية من أي تفكير.

وهذه المسألة لا تقاس بالزمن بقدر ما تقاس بطبيعة الإنسان والملكات الذهنية الموهوبة له والمحيط الذي يعيش فيه والمستوى الثقافي والمدني، وهذا ما نشاهده حتى في أيامنا الحاضرة عند الكثير من الشعوب التي ما زالت تعيش الحياة البدائية في كثيرٍ من مناطق العالم وخاصةً في أواسط القارة الأفريقية والآسيوية وحتى في قارة أميركا الجنوبية، وكذلك في الكثير من الجيوب في المناطق المتحضرة.

ففي هذه المناطق نجد الإنسان يعيش الحياة البدائية في مسكنه وملبسه وطعامه وحتى في تفكيره، فنجده يعيش مع الطبيعة والحيوانات المتوحشة في حياةٍ ممزوجةٍ بالرعب والخوف، وهذا يعني أنه لم يكن قط قد استعمل عقله في التفكير بالإرهاصات التي يستطيع من خلالها الانتقال إلى حياةٍ أفضل، وهذا يعني في المحصلة أنه ليس قادراً على التفكير في نفسه أو خالقه أو المحيط الذي يعيش فيه؛ بمعنى أنه يفتقد إلى كل مقومات المعتقدات الدينية (الميثولوجيا) أو غيرها. ولو نظرنا إلى الأمور بالمقياس الأوسع جغرافياً وتاريخياً نجد أنفسنا مضطرين إلى تقسيم العالم في الزمان والمكان إلى أقسام عدة على الشكل التالي:

من الناحية الجغرافية:

١- المجتمع المتنور والذي أرسى قواعد الحضارة والمدنية في العالم والتاريخ، وقد انحصر هذا المجتمع في بلاد الشام منذ آلاف السنين قبل الميلاد.

٢- المجتمع المتأثر بحضارة بلاد الشام والذي تفاعل مع الحضارة وساهم في نشرها وتطويرها بما يتناسب مع الأصل وقد انطبق ذلك على الشعوب التي كانت تعيش بالمناطق بلاد مابين النهرين

العليا والسفلى وكذلك في منطقة حوض النيل.

٣- مجتمع حوض البحر الأبيض المتوسط والملتصق جغرافياً وبشكلٍ مباشر بالمناطق السابقة والذي يرجع في أصوله البشرية إلى هذه المناطق السابقة نفسها.

٤- المجتمع المنحدر من العديد من مناطق العالم من جنوب أفريقيا وباتجاه الشمال، والمنحدر من شمال أوروبا وباتجاه الجنوب، والقادم من أواسط آسيا إلى منطقة الشرق الأدنى بما فيها المنطقة الجنوبية الشرقية من القارة الأوروبية.

٥- مجتمعات القارات الأخرى وخاصة القارة الأميركية الشمالية والجنوبية والوسطى، إضافةً إلى العديد من الجزر في البحار والمحيطات العالمية.

من الناحية التاريخية:

١- المرحلة التأسيسية التي أخذ فيها الإنسان يتلمس وجوده وتفاعله مع الطبيعة، وتعتبر هذه المرحلة هي الأطول في تاريخ البشرية، وقد شملت العصور التاريخية الموغلة في القدم، بمعنى منذ العصر الحجري القديم بفروعه الثلاثة (الباليوليتيك الأعلى ٩٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد- بداية الباليوليتيك ٦٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد- الباليوليتيك القديم ما بعد ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد). وهي العصور التي وضع الإنسان فيها بصماته من خلال ما تركه من آثار تدل على رقيه ودوره الفاعل في تغيير معالم الطبيعة لصالحه. ولا بد من التذكير بالعلوم التي تتقدم يوماً بعد يوم معمقةً معرفتنا بالماضي مع الإشارة إلى أن المقاييس التي يدور الحديث حولها تبقى نسبية لأنها لا تدخل في مضمار التأكد المطلق.

وفي تلك الفترات توصل الإنسان في سورية إلى صنع أدوات كثيرة ومختلفة تلِف كثيرٌ منها ولم يبقَ إلا القليل كونها صنعت من مواد قاسية قاومت العوامل الطبيعية التي تعرضت لها كالأدوات الصوانية والحجرية والعظمية.

٢- المرحلة الانتقالية في التفكير الذهني والتبصر في الذات والتكيف مع الطبيعة ويمكن حصر هذه المرحلة منذ بداية العصر الأشولي القديم ٢٨٠٠٠٠سنة قبل الميلاد وحتى العصر الأشولي الأخير ١٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

٣- المرحلة الثالثة وتشمل العصر الحجري الأوسط، وهي مرحلة الانطلاق في تأسيس الحضارة والمجتمع المتحضر، وكذلك المرحلة التأسيسية لبناء المجتمع المتمدن وقد شملت هذه المرحلة عصر

الميزوليتيك بمراحله المختلفة بدءاً من عصر الميزوليتيك البدائي وحتى الميزوليتيك الأخير ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

٤- المرحلة الرابعة وتشمل فترة الانتقال من العصر الحجري الأوسط إلى عصر التعدين وتصنيع المعادن وتضم بين طياتها عصور النحاس ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، والبرونز الأول ٣٠٠٠-٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، والبرونز الوسيط ١٦٠٠-١٢٠٠ سنة قبل الميلاد، والبرونز الثالث ١٢٠٠-٩٠٠ سنة قبل الميلاد. وأخيراً عصر الحديد الأول ١٢٠٠-٩٠٠ سنة قبل الميلاد وعصر الحديد الثاني ٩٠٠-٦٠٠ سنة قبل الميلاد، وعصر الحديد الثالث ما بعد ٦٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمكن أن نتكلم في هذا الموضوع من خلال معيار آخر وهو معيار الحضارات التاريخية في بلاد الشام والعالم أيضاً على الشكل التالي:

١- الحضارة الأشولية في الشرق الأوسط والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ ثلاثمئة ألف سنة قبل الميلاد واستمرت حتى مئة وخمسين ألف عام قبل الميلاد، وقد ترك ذلك الإنسان مخلفات أثرية كثيرة تدل على رقيه الفكري.

٢- الحضارة اليبرودية في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ مئة وخمسين ألف عام قبل الميلاد واستمرت حتى مئة ألف عام قبل الميلاد.

٣- الحضارة الهامولية في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ مئة ألف عام قبل الميلاد واستمرت حتى خمسة وعشرين ألف عام قبل الميلاد.

٤- الحضارة الرعوية في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ خمسة وعشرين ألف عام قبل الميلاد واستمرت حتى الألف الخامس عشر قبل الميلاد، وكان لها توسع جغرافي شمل العديد من مناطق الجزيرة العربية.

٥- الحضارة النطوفية في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ الألف العاشر قبل الميلاد واستمرت حتى الألف الثامن قبل الميلاد.

٦- الحضارة الزراعية في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ الألف الثامن قبل الميلاد واستمرت حتى الألف السادس قبل الميلاد.

٧- حضارة الفخار في سورية والتي عاش فيها الإنسان فترة بدأت تقريباً منذ الألف السادس قبل الميلاد.

٨- حضارة الكتابة في سورية والتي بدأت تقريباً منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

٩- حضارة التنظيم في سورية والتي بدأت تقريباً منذ الألف الرابع قبل الميلاد.

وإذا قارنا هذه الحضارات مع الحضارات الأخرى في العالم نجد أن الحضارات التي بدأت في العالم كانت على الشكل التالي:

حضارات بلاد النيل: وتتمثل في حضارة الخرطوم التي بدأت تاريخياً بين أعوام ٥٠٠٠-٤٧٠٠ قبل الميلاد، حضارة مرمدة ٤٥٠٠ قبل الميلاد، حضارة البداري ٤٤٠٠ قبل الميلاد، حضارة ما قبل الأسرات ٥٠٠٠-٣٢٠٠ قبل الميلاد، الحضارة في عهد الأسرات ٣٢٠٠-٣٣٠ قبل الميلاد، وقد عاصرتها في بلاد الشام الحضارات العمورية ٣٠٠٠-٢٠٠٠ قبل الميلاد، والحضارة الكنعانية ٢٠٠٠-١٠٠٠ قبل الميلاد والحضارة الفينيقية ١٦٠٠- ٨٦٨ قبل الميلاد، والحضارة الآرامية ١٤٠٠-٨٠٠ قبل الميلاد، والحضارة النبطية من عام ٥٠٠ قبل الميلاد إلى عام ١٠٠ بعد الميلاد.

أما في بلاد النهرين فقد عاصرتها الحضارات التالية:

حضارة ما قبل الأسرات من عام ٥٠٠٠ إلى عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد، حضارة تل حلف من عام ٣٠٠٠ إلى عام٥٠٠ قبل الميلاد، حضارة تل العبيد من عام ٥٠٠٠ إلى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، حضارة أوروك من عام ٤٠٠٠ إلى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد- حضارة عصر جمدة نصر من عام ٢٨٠٠ إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد، الحضارة الأكادية من عام ٢٣٥٠ إلى عام ٢١٥٠ قبل الميلاد، الحضارة السومرية من عام ٢٢٥٠ إلى عام ١٨٦٩ قبل الميلاد، الحضارة العمورية من عام ٢٢٥٠ إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، الحضارة البابلية من عام ١٨٣٠ إلى عام ٦٢٦ قبل الميلاد، حضارة عيلام من عام ١٨١٦ إلى عام ٦٣٩ قبل الميلاد، الحضارة الآشورية من عام ٣٠٠٠ إلى عام ٦٠٦ قبل الميلاد، حضارة ماري ١٧٢٨ قبل الميلاد. حضارة الكاشيين من عام ١٧٠٠ إلى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد، حضارة الميتانيين من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٢٤٤ قبل الميلاد، الحضارة الإيرانية من عام ٧١٥ إلى عام ٤٨٦ قبل الميلاد- الحضارة الكلدانية من عام ٦٢٥ إلى عام ٥٣٦ قبل الميلاد.

وفي آسيا الصغرى فقد عاصرتها: حضارة الحثيين من عام ١٦٣٠ إلى عام ١١٦٠ قبل الميلاد. حضارة الفرجيين عام ١١٦٠ قبل الميلاد.

أما الحضارة الإغريقية فقد تشكلت على النحو التالي:

حضارة جزر كريت وبحر إيجة وساحل آسيا الصغرى الغربي بين أعوام ١٨٠٠-١٧٠٠ قبل الميلاد، ثم الحضارة الميسينية

في أعوام ١٧٠٠-١٦٠٠ قبل الميلاد، ثم حضارة بحر إيجة وآسيا الصغرى بين أعوام ١٨٠٠-١٧٠٠ قبل الميلاد أيضاً. بعد ذلك جاءت الحضارة الدورية منذ عام ١١٠٠ قبل الميلاد، وأخيراً الحضارة الهلينستية منذ عام ٣٣٠ قبل الميلاد حيث تمازجت الحضارة الإغريقية مع الحضارة العربية.

أما بخصوص الحضارة الرومانية فقد بدأت مع تأسيس مدينة روما منذ عام ٨٠٠ قبل الميلاد وشهدت بعد ذلك العهد الملكي منذ عام ٦٠٠ قبل الميلاد ثم العهد الجمهوري منذ عام ٥٠٨ قبل الميلاد وأخيراً العهد الإمبراطوري منذ عام ٢٣ قبل الميلاد.

الهوامش

١- الآيات ٣٠-٣٣ من سورة البقرة.

٢- الآيات ٢٧-٣١ من سورة المائدة.

٣- الآيات ٧٤-٧٩ من سورة الأنعام.

٤- الآيات ٢٥٨-٢٦٠ من سورة البقرة

٥- مع العلم أن حيزاً جغرافياً كبيراً من بلاد الرافدين يتبع جغرافياً إلى سورية كما تتبع إليها سيناء أيضاً وحتى حدود حوض النيل الشرقية.

مستقبل القوة الأميركية

ترجمة وإعداد: وفيق شعبو ❁

في ٢٢حزيران عام ١٨٩٧م حصل (٤٠٠) مليون إنسان حول العالم- أي ربع سكان الأرض في ذلك الوقت - على يوم عطلة رسمية. إنها الذكرى الستون لتنصيب الملكة فيكتوريا على العرش الإنكليزي. اليوبيل الألماسي استمر خمسة أيام على البر والبحر لكن ذروته كانت بالعرض العسكري ومراسم الشكر في ٢٢ حزيران. حضر الاحتفال (١١) رئيس وزراء إضافة للأمراء والدوق والسفراء والممثلين من مختلف أرجاء العالم وتضمن المسير العسكري (٥٠) ألف جندي من بينهم (الهوسار) من كندا و(الخيالة) من جنوب ويلز الجديدة و(الجنود حملة البنادق القصيرة) من نابلس و(فرقة الجمالة) من النيبال. لقد كانت «لحظة رومانية» كما كتب أحد المؤرخين.

كان أرنولد تونبي ذو الثمان سنوات يتكئ على كتفي عمه ويراقب بشغف هذا العرض. تونبي هذا والذي أصبح أشهر مؤرخي عصره استذكر ذلك اليوم العظيم وقال إنه أحسّ بأن الشمس كانت جامدة في وسط السماء ترقب الحدث، كتب يقول: «أتذكَّر الجو العام لقد كنّا في القمة ولقد وصلنا القمة لكي نبقى فيها إلى الأبد. بالطبع

❁ كاتب ومترجم من سورية.

هناك تاريخ والتاريخ شيء غير سعيد يطال الشعوب الأخرى لكننا بالتأكيد خارج دائرة تأثيراته».

لكن دائرة التاريخ دارت على بريطانيا. والسؤال بالنسبة للقوة العظمى في هذا العصر هل ستدور دائرة التاريخ على الولايات المتحدة أيضاً؟ هل الدائرة تدور الآن؟ ليس هناك من تطابق، لكن الإمبراطورية البريطانيا في ذروة مجدها هي اقرب إلى واقع الولايات المتحدة في العصر الحديث. وللنظر في الكيفية والاحتمالية اللتين ستؤثر فيهما قوى التغيير في الولايات المتحدة من المهم أن نمعن النظر في تجربة بريطانيا.

هناك أصداء مشابهة في العصر الحديث. التدخلات العسكرية الحالية في الصومال وأفغانستان والعراق كلها لها ما يوازيها في التدخلات العسكرية البريطانيا في العقود الأخيرة. القضية الإستراتيجية الأساسية هي أن الولايات المتحدة كما كانت بريطانيا سابقاً هي اللاعب الفعال الحقيقي على المسرح العالمي ولكن يوجد فروق أساسية بينهما، بالنسبة لبريطانيا فإن التحدي الكبير الذي واجهته للحفاظ على مركزها كان اقتصادياً وليس سياسياً، أمَّا بالنسبة للولايات المتحدة فالوضع مختلف.

من خلال الخيارات الإستراتيجية الحاسمة والدبلوماسية الحاذقة كان بإمكان بريطانيا أن تحافظ وحتى أن تطيل مدة نفوذها إلى عقود عدة لكن في النهاية لم يكن بالإمكان تغيير الحقيقة بأن نفوذها - نشاطها الاقتصادي والتكنولوجي - كان يتآكل بسرعة. لقد انحدرت بريطانيا بهدوء ولكن من دون رحمة. المشكلة التي تواجهها الولايات المتحدة الآن مختلفة تماما فاقتصادها (بغض النظر عن الأزمة الحالية) يبقى أساسياً ونشيطاً بالمقارنة مع باقي الاقتصاديات، والمجتمع الأميركي حيوي. الخلل يكمن في النظام السياسي العاجز عن إيجاد الصيغة التي تضع البلاد على أسس صلبة للمستقبل. تبدو واشنطن غافلة عن القوى الصاعدة حولها- وتبدي علامات على أنها قادرة على إعادة صياغة سياستها في الشرق للفترة القادمة.

النهاية البريطانية:

من الصعب الآن تخيل عظمة الإمبراطورية البريطانية، ففي أوجها غطت حوالى ربع مساحة المعمورة، وشملت ربع سكانها. لقد وصلت شبكات الطرق اللندنية العالم ما بين مستعمراتها وقواعدها وموانئها. وكانت الإمبراطورية محمية بأسطولها الملكي -القوة البحرية الأعظم في ذلك التاريخ- المتصل بحزمة أسلاك هاتفية بطول (١٧٠) ألف ميل بحري إضافة

إلى (٦٦٢) ألف ميل من الحزم الهوائية والمطمورة.

لقد سهلت السفن البريطانية تطور شبكة الاتصالات العالمية من خلال البرقيات. ودعمت نظام تواصل الخطوط الحديدية والقنوات المائية (خاصة قناة السويس). من خلال هذا كله خلقت الإمبراطورية البريطانية السوق العالمية الحقيقية لأوّل مرة.

غالبا ما يتحدث الأميركيون عن إغراء ثقافتهم وأفكارهم ولكن هذه (القوة الناعمة) قد بدأت فعلياً مع بريطانيا. يشير المؤرخ «كلاوديو فيلز» بأنه في القرن السابع عشر كانت القوتان الإمبراطوريتان بريطانيا وإسبانيا تحاولان تصدير أفكارهما وأساليب حياتهما إلى مستعمراتهما الغربية. فمن ناحيتها أرادت إسبانيا السيطرة على العالم الجديد من خلال الإبقاء على الوضع الراهن ومعارضة الإصلاح بينما اتّبعت بريطانيا التعددية الدينية والرأسمالية. وقد أثبتت الأفكار البريطانيا صوابيتها عالمياً، في الواقع كانت بريطانيا أنجح مصّدر لثقافتها في تاريخ البشرية.

قبل الحلم الأميركي كان هناك «الطريقة الإنكليزية في الحياة» - هذه الطريقة التي أعجب بها العالم وأخذها منهم. ويعود الفضل للإمبراطورية البريطانية في نشر اللغة الإنكليزية كلغة عالمية منطوق بها من الكاريبي في أميركا إلى كيب تاون في أفريقيا إلى كالكوتا في آسيا.

جزء يسير من هذه المعلومات كان معروفاً في حزيران ١٨٩٧م ولكن أغلبها كان مجهولاً. كانت بريطانيا الإمبراطورية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بروما. أشارت صحيفة «لوفيغارو الباريسية» أنها قد فاقت قوة روما نفسها من خلال القوى المتواجدة تحت سيطرتها في كندا وأسترالية والهند وفي بحار الصين ومصر ووسط وجنوب أفريقيا وفي الأطلسي والمتوسط. وفي برلين وصفت صحيفة «كروز تسايتونغ» الإمبراطورية البريطانية بأنها الشيء الحصين الذي لا يمكن مهاجمته. وعبر الأطلسي عبرت صحيفة «نيويورك تايمز» قائلة: «نحن جزء، جزء كبير من بريطانيا الأعظم والتي يبدو أنه مقدر لها أن تسيطر على كامل الكوكب».

كان موقع بريطانيا السامي عرضة للانهيار أكثر مما يبدو، فبعد عامين فقط من اليوبيل الألماسي دخلت بريطانيا حرب (البور) هذا الصراع الذي يعده الكثير من الدارسين لحظة بدء انهيار القوة البريطانية. كانت لندن واثقة بأنها ستكسب القتال من دون متاعب حيث كان الجيش البريطاني قد كسب معركة مماثلة ضد المتمردين

في (دارفور) السودان، على الرغم من أن عددهم كان ضعفي البريطانيين فقد أوقع الجيش البريطاني (٤٨) ألف إصابة في الدارفوريين في معركة (أم درمان) خلال خمس ساعات بينما كانت خسائرهم (٤٨) جندياً فقط. تصوّر العديد من البريطانيين أن النصر ضد البوريين سيكون أسهل، وقد وصف نائب في البرلمان هذه الحرب:«إنها الإمبراطورية البريطانية في مواجهة ٣٠ ألف مزارع».

الهدف الظاهري لشن هذه الحرب كان نبيلاً، وهو الدفاع عن حقوق الناطقين بالإنكليزية في جمهوريات البور، والذين كانوا يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية، لكنها لم تستطع إخفاء اهتمامها بالذهب الذي اكتشف في المنطقة عام ١٨٨٦م حيث وصل إنتاج هذه الجمهوريات من الذهب إلى ربع الإنتاج العالمي. على أية حال بدأت الحرب عام ١٨٩٩م بعد قيام سكان البور بإضراب عام.

أخذت الأمور تسوء بالنسبة لبريطانيا منذ البداية، لقد تفوقت بعدد الرجال، ونوعية الأسلحة، وزجت بخيرة جنرالاتها(بما فيهم اللورد كيتشنر بطل معركة أم درمان). لكن البوريين كانوا متفانين في الدفاع عن أنفسهم، فهم يعرفون الأرض جيداً، واعتمدوا تكتيك حرب العصابات التي تركّز على الضربة الخاطفة والفرار. إن تفوق الجيش البريطاني الهائل لم يعنِ الكثير على أرض المعركة وقد لجأ قواده إلى أساليب همجية - كإحراق المدن والقرى، وسجن المدنيين في معسكرات اعتقال بدائية وإرسال المزيد من القوات حتى أصبح لبريطانيا (٤٥٠) ألف مقاتل في مواجهة (٤٥) ألفاً من أفراد الميليشيا.

لم يتمكن البوريون من صد البريطانيين إلى الأبد وفي عام ١٩٠٢م أعلنوا استسلامهم، لكن بالمفهوم العام فإن بريطانيا خسرت الحرب. لقد تكبدت (٤٥) ألف إصابة وأنفقت نصف مليار جنيه ونشرت قواتها إلى أقصى درجة واكتشفت فساداً كبيراً وعدم كفاءة في عملياتها الحربية كما أن أسلوبها البربري أثناء الحرب لفت أنظار العالم بأسره. وفي الداخل أثارت مجمل هذه العوامل انقساماً كبيراً حول دور بريطانيا العالمي. أما في الخارج فإن كل القوى الكبرى - فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة - أدانت أفعال لندن. «أصبحوا من دون أصدقاء» هذا ما كتبه المؤرخ «لورنس جيمس» عام ١٩٠٢م.

بالعودة إلى وقتنا الحاضر، قوة عظمى أخرى لا تضاهى عسكرياً كسبت نصراً سهلاً في أفغانستان. بعدها خاضت معركة سهلة ضد نظام صدام حسين المعزول في العراق.

وكانت النتيجة انتصاراً أولياً سريعاً متبوعاً بصراع شرس، مليء بأخطاء وحماقات سياسية وعسكرية ومواجه بمعارضة دولية شديدة.

التماثل واضح بين الولايات المتحدة وبريطانيا، فالحرب العراقية كحرب (البور) وبالتالي فإن مستقبل الولايات المتحدة قاتم. وبغض النظر عن نتيجة الحرب في العراق فإن الكلفة كانت باهظة. الولايات المتحدة أرهقت جيشها وشتتت تركيزه ولطخت صورته. دول محور الشر كإيران وفنزويلا والقوى العظمى كالصين وروسيا يكسبون من غفلة واشنطن وسوء طالعها. إن المعنى العام للانحدار الإمبراطوري يعمل عمله مرة أخرى، والتاريخ يعيد نفسه.

الوداع الطويل:

مهما يكن التشابه ظاهراً بين الحالتين فإن الظروف مختلفة، فبريطانيا كانت قوة عظمى استثنائية. كتب المؤرخون مئات الكتب يشرحون فيها كيف كان بإمكان لندن باتباع سياسة خارجية معينة أن تغيّر مصيرها. لو أنها فقط تجنبت حرب (البور)، قال بعضهم وقال آخرون لو أنها فقط لم تدخل أفريقيا.

يقترح المؤرخ «نيل فيرغسون» بشكل مثير أنه لو لم تدخل بريطانيا الحرب العالمية الأولى (ربما لم يكن هناك حرب عالمية دون مشاركة بريطانيا) لكان بإمكانها المحافظة على موقعها كقوة عظمى. هناك بعض الحقيقة في هذا (الحرب العالمية الأولى أدت إلى إفلاس بريطانيا) ولكن لوضع ذلك في سياقه التاريخي من الأفضل النظر إلى التاريخ من زاوية أخرى فالإمبراطورية البريطانية الهائلة كانت نتاج ظروف استثنائية محددة والعجيب ليس انهيارها بل بقاء سيطرتها على مدى هذه الفترة الطويلة من الزمن. وبفهم كيف تصرفت بريطانيا إبان اضمحلال قوتها على مرّ الزمان نستطيع إنارة الطريق أمام الولايات المتحدة لاحقاً.

كانت بريطانيا بلداً غنيا لقرون عدّة (وكانت قوة عظيمة معظم الأحيان) لكنها لم تكن القوة الاقتصادية الأعظم إلا لفترة جيل أو أكثر بقليل. يخطئ المراقبون عندما يؤرخون أوج الإمبراطورية بالأحداث الإمبراطورية كاليوبيل الألماسي. في الواقع إن سنوات بريطانيا الأفضل كانت قبل عام ١٨٩٧م بحوالى جيل أي في الفترة مابين ١٨٤٥-١٨٧٠م حيث كانت تنتج ٣٠٪ من الناتج المحلي العالمي الإجمالي وكانت قدرتها تعادل خمسة أضعاف قدرة الولايات المتحدة و١٥٥ ضعف قدرة روسيا. كان بيدها خمس التجارة العالمية وخمسا التجارة الصناعية، وكل هذا كان ينجزه ٢٪ فقط من عدد سكان الأرض.

في نهاية السبعينيات من القرن التاسع عشر تساوت الولايات المتحدة مع بريطانيا وفقاً لمعظم المقاييس الصناعية وفي ثمانينيات ذلك القرن تجاوزتها، وقد فعلت ذلك ألمانيا بعدها بخمسة عشر عاما. إبان الحرب العالمية الأولى أصبح الاقتصاد الأميركي ضعفي الاقتصاد البريطاني وكذلك أصبح اقتصاد كل من فرنسا وروسيا أكبر من الاقتصاد البريطاني. ففي عام ١٨٦٠م على سبيل المثال أنتجت بريطانيا ٥٣٪ من حديد العالم (وهذا كان علامة على القوة الصناعية) وفي عام ١٩١٤ لم يتعد إنتاجها ١٠٪.

بالطبع كانت لندن عاصمة العالم سياسياً في فترة الحرب العالمية الأولى وكانت أوامرها لا ترد على مستوى العالم لأنها أنشأت إمبراطوريتها قبل ولادة عصر القوميات ولهذا لم تعترضها الكثير من العقبات بفرض سيطرتها على الأمكنة المترامية الأطراف، فقوتها البحرية لا تجارى، وظلت مهيمنة على قطاعات المصارف والسفن والتأمين والاستثمارات.

كانت لندن لا تزال المركز المالي للعالم والجنيه الإسترليني العملة الاحتياطية للعالم، حتى إنها في العام ١٩١٤م استثمرت في الخارج ضعفي رأس المال الذي استثمرته منافستها الأقرب فرنسا وخمسة أضعاف ما استثمرته الولايات المتحدة. لقد خففت العائدات الاقتصادية لهذه الاستثمارات والعائدات التجارية من سرعة انهيار بريطانيا.

في الواقع إن الاقتصاد البريطاني كان ينحدر، فمعدل النمو انخفض إلى ما دون ٢٪ في العقود السابقة للحرب العالمية الأولى وفي الوقت نفسه كان معدل النمو في الولايات المتحدة وألمانيا حوالى ٥٪. احتلت بريطانيا مرتبة الصدارة في الثورة الصناعية الأولى لكنها كانت أقل مقدرة على تصدّر الثانية، فالبضائع التي كانت تنتجها تمثل الماضي أكثر من المستقبل، في عام ١٩٠٧م على سبيل المثال صنعت من الدراجات أربعة أضعاف ما صنعته الولايات المتحدة لكن الأخيرة صنعت أكثر منها من السيارات (١٢) ضعفاً.

تباحث الدارسون في أسباب الانهيار البريطاني بعد بدئه بوقت قصير، بعضهم ركّز على علم السياسة الطبيعية وآخرون على العوامل الاقتصادية كانخفاض الاستثمار في المشاريع الصناعية وسوء قوانين العمل.

في الواقع إن الرأسمالية البريطانية بقيت قديمة وجامدة صناعتها انطلقت بمصانع أو ورش صغيرة معتمدة على الحرفيّين المهرة أكثر من المصانع الضخمة التي بزغت في

ألمانيا والولايات المتحدة. إضافة إلى ذلك كان هنالــك علامات لمشاكل ثقافية أوسع، فبريطانيــا الأكثر ثراء كانت تفقد تركيزها علــى الثقافــة العملية، وحافــظ المجتمع البريطاني علــى النظــام الإقطاعي الذي قدمه الأرستقراطيون وملاك الأراضي.

ربما لم يكن لأي من هذه العيوب الدور الحاسم. لقــد شرح المــؤرخ «بول كيندي» الظــروف الخاصة والاستثنائيــة التي أدت إلــى الهيمنة البريطانية فــي القرن التاسع عشر، يشير إلى أن الموقع الجغرافي وعدد السكان وتعدد الموارد يؤهل بريطانيا لإنتاج ٣-٤٪ مــن الناتــج المحلــي العالمي لكن حصتها في الواقع كانت عشرة أضعاف هذه النسبة تقريباً. وبانتهاء الظروف الاستثنائية - حيــث التقطت الــدول الغربيــة ناصية التصنيع، ألمانيا توحدت، الولايات المتحدة حلت مشكلة انقسامها بين جنوب وشمال - كان مصير بريطانيا المحتوم هو الانحدار. رجل الدولة البريطاني «ليو أميري» رأى ذلك بوضوح عــام ١٩٠٥م متسائلاً «كيف يمكن لهذه الجزر الصغيرة مجاراة إمبراطوريات غنيــة كالولايات المتحــدة وألمانيا؟ كيف لنــا بأربعين مليون مواطــن أن ننافس دولا بضعفــي حجمنا؟ إنه الســؤال نفسه الذي يسألــه العديد من الأميركيين الآن في وجه نهضة الصين.

تمكنت بريطانيا من الحفاظ على موقعها كقوة قائدة للعالم لعقود عدّة بعد أن فقدت سيطرتها الاقتصاديــة وذلك بفضل الدمج بين إستراتيجيتها الفذة وسياستها البارعة. عندما لاحظت لندن بشكل مبكر بأن توازن القوى يميل ضد مصلحتهــا اتخذت قراراً حاسماً أطال فترة نفوذها عقوداً عدة: لقد اختارت أن تلائم نفسها مع صعود الولايات المتحــدة أكثــر مــن أن تخاصمهــا، وفي العقود اللاحقة لعام١٨٨٠م استسلمت لندن تدريجياً للنمو الحاسم لواشنطن.

لــم يكن مــن السهل علــى بريطانيا أن تتخلى عن قيادة العالم لإحدى مستعمراتها السابقــة، البلد الذي خاضــت معه حربين والــذي تعاطفت مــع الانفصاليين فيه في آخر حرب أهلية. لكنهــا كانت ضربة معلم إستراتيجية، فلــو حاولت بريطانيا مقاومة صعود الولايات المتحدة، فوق كل جرائمها السابقة لكانت قد نزفت حتى الموت، على الرغم من كل أخطاء لندن على مدى نصف القرن التالي فإن إستراتيجيتها نحو واشنطن - المتبعــة من قبل الحكومــات البريطانية كافــة منذ عــام ١٨٩٠م - كانــت تعني بأن بريطانيا تركز اهتمامها على جبهات حاسمة أخــرى. فقــد حافظت على سبيــل المثال على سيادتها على البحــار وسيطرتها على الطرق و الممــرات وبمفاتيح خمسة كانت

قادرة من خلالها على إغلاق العالم وهي: سنغافورة، رأس الرجاء الصالح، الإسكندرية (قناة السويس)، مضيق جبل طارق و باب السلام.

حافظت بريطانيا على سيطرتها على إمبراطوريتها ونفوذها في العالم لعقود عدّة وبمعارضة ضئيلة (في التسوية بعد الحرب العالمية الأولى أخذت أكثر من ١،٨مليوناً ميل مربع من الأرض و(١٣) مليوناً من المستعمرين الجدد معظمهم في الشرق الأوسط) وقد كانت الفجوة تزداد بين دورها السياسي وقدراتها الاقتصادية. في القرن العشرين كانت الخزينة البريطانية تنزف، فقد كلفتها الحرب العالمية الأولى أكثر من أربعين مليار دولار وبريطانيا التي كانت أكبر دائن في العالم أصبحت مدينة بحوالى ١٣٦٪ من نتاجها المحلي. وفي منتصف العشرينيات كانت تسديدات الفوائد تمتص أكثر من نصف ميزانية الحكومة. في تلك الأثناء وفي عام ١٩٣٦م بالتحديد كانت نفقات الدفاع الألمانية أعلى بثلاثة أضعاف من النفقات البريطانية.

في العام نفسه الذي غزت فيه إيطاليا إثيوبيا وضع موسوليني (٥٠) ألف جندي في ليبيا - وهذا يعادل (١٠) أضعاف الجنود البريطانيين الذين يحرسون قناة السويس. في ظل هذه الظروف - مقترنة مع ذاكرة الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى مقتل أكثر من (٧٠٠) ألف شاب بريطاني - إضافة إلى مواجهة القوى الفاشية الصاعدة في أوروبة، فضّلت الحكومات البريطانية في الثلاثينيات المهادنة مع الولايات المتحدة على المجابهة.

لقد كانت الحرب العالمية الثانية المسمار الأخير في نعش قوة الاقتصاد البريطاني: عام ١٩٤٥م كان الناتج المحلي للولايات المتحدة يفوق بعشرة أضعاف الناتج البريطاني ومع هذا ظل لبريطانيا تأثير ملحوظ بسبب الطاقة الخلاقة والطموح لونستون تشرشل. بالنظر لأن الولايات المتحدة كانت تدفع معظم التكاليف الاقتصادية لدول الحلفاء وكانت روسيا تتحمل القدر الأكبر من الإصابات البشرية فقد كان ظرفاً استثنائياً بقاء بريطانيا واحدة من بين القوى الأساسية الثلاث التي ستقرر مصائر العالم من بعد الحرب. (إن الصور الملتقطة لفرانكلين روزفلت وجوزيف ستالين وتشرشل في مؤتمر يالطه في شباط عام ١٩٤٥م تعطي انطباعاً خاطئاً بأن هناك ثلاثة كبار في يالطه بينما كان هناك اثنان كبار إضافة إلى أحد المقاولين السياسيين البارعين الذي كان قادراً على إبقاء نفسه وبلده ضمن اللعبة).

ولكـــن حتى هـــذا كان له ثمـــن، مقابل الأقساط المترتبة على لندن أخذت الولايات المتحدة عشرات القواعـــد البريطانية في كندا والكاريبي والمحيط الهندي والمحيط الهـــادي حيث قـــال نائـــب فـــي البرلمان البريطانـــي:«إن الإمبراطوريـــة البريطانية تـــم تسليمها إلى الدائـــن الأميركي - أملنا الوحيد». يصـــف الاقتصادي «جون مينارد كينز» قانون الإعارة والتأجير (صدر بتاريخ ١١/٣/١٩٤١م وقدمـــت بموجبـــه أميـــركا مساعدات للحلفـــاء) بأنـــه محاولة لإفقاء أعيـــن الإمبراطوريـــة البريطانية، مراقبون أقـــل تحسســـاً رؤوا بأن هـــذا التحول كان أمراً محتوماً. «توينبـــي» -المؤرخ المميز - نصح البريطانيين بأن التعامل مع الولايات المتحـــدة سيكـــون أخف وطـــأة عليهم من البدائـــل الأخرى المتمثلة بروسيا أو ألمانيا أو اليابان.

الإمبراطورية المقاولة:

كانت بريطانيا قوة عالمية غير مكتملة ليس بسبب التقصير السياسي ولكن بسبب الاقتصـــاد السيئ. إن المهـــارة الملحوظة التـــي لعبت بهـــا لندن خلال فتـــرة ضعفها الاقتصـــادي على مدى سبعيـــن عاماً تقدم درساً هاماً للولايـــات المتحدة. في البداية من المهـــم أن نلاحظ أن العلامة المركزية للانحـــدار البريطاني - عدم إمكانية إحياء الاقتصاد المتدهور - لا تنطبق على الولايات المتحدة اليـــوم. الاقتصاد البريطاني الذي لا يضاهى استمر لعقود قليلة بينما اقتصاد الولايـــات المتحـــدة مستمر منـــذ أكثر من (١٢٠) سنـــة، فهو أكبر اقتصاد عالمي منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر وحتى الآن.

في الواقع إن الولايـــات المتحدة تسهم بحصـــة كبيـــرة وثابتة في الناتـــج المحلي العالمي منذ ذلك الوقت باستثناء بسيط في أربعينيات القرن العشرين عندما تم تدمير اقتصاد الـــدول الأخرى ارتفعت مساهمتها إلـــى ٥٠ ٪ ولكن بالإجمـــال فان مساهمتها لم تقل عن ٢٥٪ من الناتج المحلي العالمي طوال أكثر من قرن (٣٢٪ عام ١٩١٣، ٢٦٪ عـــام ١٩٦٠، ٢٢٪ عـــام ١٩٨٠، ٢٧٪ عـــام ٢٠٠٠، ٢٦٪ عـــام ٢٠٠٧) يبدو أنه تناقص في العقديـــن الأخيرين ولكـــن ليس بشكل كبير. يقـــدر المراقبون أنه في عام ٢٠٢٥م سيكون اقتصاد الولايـــات المتحدة ضعفي حجم اقتصاد الصيـــن وفقا لبيانات الناتج المحلي (GDP).

ينعكس الاختلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيـــا مـــن خـــلال أعبـــاء الميزانية العسكرية. بريطانيـــا حكمت البحار وليس الأراضـــي فقـــد كان الجيشـــ البريطانـــي صغيراً لدرجة أن بسمارك علق مرة بأنه لو غـــزا البريطانيون ألمانيا فإنه سيرسل قوى الشرطة المحلية لاعتقالهم جميعاً.

في الوقت نفسه فقد امتازت لندن فوق البحار - حيث كان أسطولها يفوق أكبر أسطولين في العالم - وهذا ترتب عليه تكاليف باهظة.

بالمقارنة فإن القوة العسكرية للولايات المتحدة التي تسيطر على المستويات كافة - على الأرض، في البحر، في الجو وفي الفضاء - تنفق أكثر من الأربع عشرة دولة الكبار وبما يعادل ٥٠٪ من نفقات الدفاع العالمية كما أنها تنفق على البحوث الدفاعية وتطوير الأسلحة أكثر مما تنفقه كافة دول العالم مجتمعة وهي تعمل ذلك دون أن تفلس بنوكها. إن الإنفاق الدفاعي للولايات المتحدة يصل إلى ٤،١٪ من الناتج المحلي وهو أقل مما كان عليه أثناء الحرب الباردة (في ظل أيزنهاور ارتفع إلى١٠٪) وبما أن الناتج المحلي الأميركي ينمو باضطراد فإن النفقات العسكرية التي كان من المتوقع أن تكون منهكة أصبح مقدور عليها، فحرب العراق أكانت مأساة (أم عملاً إنسانياً) لن تؤدي إلى إفلاس الولايات المتحدة. بلغت كلفة الحرب في العراق وأفغانستان معاً -(١٢٥) مليار سنوياً- ما يعادل أقل من ١٪ من الناتج المحلي السنوي. الحرب في فيتنام على سبيل المقارنة كلفت ما يعادل ٦،١٪ من الناتج المحلي الأميركي عام ١٩٧٠م (لا تتضمن هذه النسب التكاليف الجانبية للحرب والتي تتيح مقارنة عادلة في حال وجود شك في دقة هذه الأرقام).

القوة العسكرية الأميركية ليست السبب الأساس لعظمتها بل نتيجة لهذه العظمة. فالوقود يمثل قاعدة متينة للاقتصاد والتكنولوجيا الأميركيين. لكنها تواجه أعظم وأوسع تحد في تاريخها وسوف تخسر بلاشك نسبة من حصتها في الناتج المحلي العالمي ولكن هذا لن يكون ذا شأن بالمقارنة مع انحدار بريطانيا في القرن العشرين عندما فقدت ريادتها في مجال الاختراعات والطاقة والمشاريع الضخمة. ستبقى الولايات المتحدة ذات اقتصاد نشيط وحيوي وفي مقدمة الثورة القادمة في مجالات الصناعة والتكنولوجيا والعلوم.

ولمحاولة فهم كيف ستتدبر الولايات المتحدة أمرها في العالم الجديد أول شيء يمكن فعله أن ننظر حولنا: المستقبل قد بدا هنا. على مدى أكثر من عشرين عاماً كانت العولمة تكسب أفقياً وعمودياً. بلدان كثيرة يصّنعون البضائع، الاتصالات التقنية أصبحت ساحة عالمية، رأس المال أصبح حر الحركة عبر العالم - والولايات المتحدة استفادت بشكل هائل من هذه التوجهات، فاقتصادها تلقى مئات المليارات من الدولارات في الاستثمار، وشركاتها دخلت بلداناً وصناعات جديدة بنجاح كبير.

على الرغم من مرور عقدين من الدولار مرتفــع القيمـــة والذي أدّى إلــى انخفاض صادراتهــا إلــى الحضيض فــإن المنتدى الاقتصـــادي العالمـــي صنــف الاقتصـــاد الأميركي بأنه أكثر اقتصاد منافس في العالم فنمو الناتج المحلي بنسبة أعلى من ٣٪ كحد أدنى لمدة خمسة وعشرين عاماً فاق ما كان فــي أوروبا واليابان. ونمـــو الإنتاجية،الذي هو إكسير الاقتصاد الحديث، تجاوز ٢،٥٪ منــذ عقد وحتى الآن وهـــذا يفوق المعدل الأوروبــي. هذا المسار العالــي للنمو ربما يتلاشى وربمــا يكون نمــواً مضطرداً لبلد صناعــي متقــدم للسنــوات القادمة ولكن النقطة الأساسية أن لدى الولايات المتحدة اقتصاداً نشطا قادراً على تجاوز المعدلات بغض النظر عن حجمه الهائل.

ولننظــر إلــى صناعـــة المستقبــل - النانوتكنولوجي(علم تطبيقي يتعامل بالتحكم بمستوى الذرة أو الجزيئات) التي تقود إلى اختــراق أساسي في مــدى خمسين السنة القادمة نجــد أن الولايات المتحدة تسيطر على هذا المجال ولديها مراكز متخصصة بالنانـــو، أكثر من ثلاث أمم معـــاً (ألمانيا، بريطانيــا والصين) وقد أصــدرت براءات اختراع فــي مجال النانوتكنولوجي أكثر من بقية دول العالم مجتمعة مؤكدة بذلك قوتها الفائقة بتحويــل النظريات المجــردة إلى منتجات عملية. التقنية الحيوية (استخدام النظـــام البيولوجي لإنجاز منتجات طبية أو زراعية أو صناعية) مسيطر عليها أيضاً من قبل الولايات المتحدة، فالإيرادات الحيوية في الولايــات المتحدة اقتربت من خمسين مليـــار دولار عام ٢٠٠٥م وهي أكبر بخمسة أضعـــاف مما أحرزته أوروبـــا، ويشكل ٧٦٪ من الإيراد الحيوي العالمي.

غادر التصنيع البلــد منتقلاً إلى العالم النامــي ومحـــولاً الولايـــات المتحـــدة إلى اقتصاد خدمات وهذا دعا بعض الأميركيين إلى التخوف وهـــم يتساءلون ماذا سيحصل لبلدهـــم إذا كانت كل السلـــع مكتوباً عليها (صنع في الصيـــن)! لكن التصنيع الآسيوي يجـــب أن ينظـــر إليه في سيـــاق الاقتصاد العالمـــي. «جيمس فيلوز» الذي قضى عاماً فـــي الصين يراقب عن كثب قـــوة التصنيع قدم شرحاً مقنعاً كيف أن انخفاض تكاليف التصنيع تقـــوي التنافسية الأميركية ويشير إلى أن الأرباح الحقيقية يتم تحصيلها فعلياً مـــن عوائد التصميـــم والتوزيـــع والتسويق - حيـــث تسيطر الولايـــات المتحدة - أكثر من عملية التصنيع بحد ذاتها. مثال حيوي على ذلك هو صناعة IPOD إنه ينتج غالباً خارج الولايات المتحدة ولكن معظم القيمة المضافة تسدّد في حساب شركة APPLE في كاليفورنيا.

العديد من الخبراء والدارسين وحتى بعض السياسيين يبدون قلقاً حول بعض البيانات التي تنبئ بضعف الولايات المتحدة فمعدل الإدخار في الولايات المتحدة (٠)، وحساباتها الجارية تشير إلى عجز، وميزانها التجاري خاسر، وعجز ميزانيتها كبير، ومتوسط الدخل ثابت، وليس هناك برنامج حكومي قوي وثابت. كل هذه الأمور الحيوية يجب أن تدرس ولكن من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار بأن العديد من هذه الإحصائيات المشار إليها تقدم فقط قياسات تقريبية أو عتيقة لأي اقتصاد. الكثير من هذه الإحصائيات تعود لأواخر القرن التاسع عشر حيث كان الاقتصاد الصناعي يعبر الحدود بشكل جزئي، بينما الاقتصاديات الحديثة هذه الأيام لديها سوق عالمي متصل.

في العقدين الماضيين على سبيل المثال بلغت نسبة العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة ما دون المستوى الذي كان يعتقد الاقتصاديون أنه يقود إلى التضخم دون أن يحدث تضخم، وحتى العجز في الحسابات الجارية الذي وصل إلى ٨٠٠ مليار دولار عام ٢٠٠٧م (٧٪من الناتج المحلي) كان يعتقد بأنه إذا وصلت النسبة إلى ٤٪ لايمكن للاقتصاد أن يتحملها. وصل العجز في الحسابات الجارية إلى مستوى خطير ولكن يمكن أن يفسر هذا جزئياً بحقيقة وجود فائض في المدخرات على مستوى العالم وبالتالي تبقى الولايات المتحدة وبشكل غير عادي مستقرة ومكاناً جاذباً للاستثمار.

إن انخفاض المدخرات الشخصية كما أشار الباحث الاقتصادي من جامعة هارفرد «ريتشارد كوبر» كان له دور كبير في زيادة المدخرات المشتركة. فصورة الاستثمارات الأميركية تبدو أكثر تفاؤلاً إذا أخذ في الاعتبار النفقات على التعليم وتطوير الأبحاث والنفقات الملموسة على الإسكان.

لدى الولايات المتحدة مشاكل جدية ووفقاً لكل التقديرات، فالرعاية الصحية تهدد بتفجير الميزانية الفيدرالية. التأرجح ما بين الفائض والعجز بين عام ٢٠٠٠و٢٠٠٨م كان له دلالات خطيرة وازدياد التباين (نتيجة اقتصاد المعلومات، التكنولوجيا، العولمة) أصبح علامة فارقة في العصر الحديث وربما ما يدعو للقلق أن الأميركيين يستدينون ٨٠٪ من مدخرات الفائض العالمي ويستخدمونها للاستهلاك، فهم يبيعون مقتنياتهم الثمينة للأجانب ليشتروا أشياء غير ذات قيمة. ولكن هذه المشكلات يجب أن ينظر إليها في سياق عام لاقتصاد بقي قوياً ونشيطاً.

أمة التعليم:

يقــول بعضــ القلقيــن أنتــم لا ترون الصــورة الكاملة فميزات الولايات المتحدة تتآكل بسرعة حيث إن البلاد تفقد قاعدتها التكنولوجيــة والعلمية وتعاني من انحطاط ثقافــي شديــد. الأميركيون الذيــن كانوا ملتزمين بالأسس الأخلاقية بدؤوا يفقدون اهتمامهــم بالرياضيــات والتصنيع والعمل الجاد، والادخار، وأصبح المجتمع مختصاً بالاستهلاك واللهو.

ليســ هناك من إحصائيــات تؤكد هذا القلق أكثر من التي تشير إلى تراجع الولايات المتحــدة في مجــال الهندســة. أصدرت الأكاديميــة الوطنيــة للعلــوم تقريــراً عام ٢٠٠٥م حذرت فيه من أن الولايات المتحدة يمكــن أن تفقد قريباً موقعها الريادي لعلوم العالــم. يضيــف التقريــر أن الصيــن قد خرّجــت (٦٠٠) ألف مهندس عام (٢٠٠٤م) والهند (٣٥٠) ألفاً والولايات المتحدة (٧٠) ألفــاً – تم تكرار هذه الأرقام في الكثير من الدراسات والكتب والمقابلات. بالطبع هذه الأرقام تدعو للقنوط. مــن أين يأتي الأمل للولايات المتحدة إذا كان مقابل كل مهندس أميركي مؤهل يوجــد (١٢) صينياً وهندياً؟ يشيــر التقرير أيضاً أنه لقــاء الأجر الذي يتقاضاه الكيميائــي أو المهندس الأميركي تستطيع الشركة استئجار خمسة كيميائيين صينيين أو (١١) مهندســاً هندياً. على كل حال هذه الأرقام غير صحيحة. دقق العديد مــن الأكاديميين والصحفيين بهذه المسألة وأدركــوا بسرعــة بــأن الأرقــام الآسيوية تشمل الطــلاب الذين كانت برامج تدريبهم لمــدة سنتين أو ثلاث وتشمــل مهاماً تقنية بسيطة.

مؤسســة العلــوم الوطنيــة التــي تتابع هــذه الإحصائيات في الولايــات المتحدة وبقيــة أرجــاء العالم أشارت إلــى أن عدد المهندسيــن المتخرجين فــي الصين يبلغ (٢٠٠) ألــف سنوياً، كما أشــار «رون هيرا» من معهــد روتشيستر للتكنولوجيــا إلى أن عدد المهندسين الهنود الذين يتخرجون في العام يبلغ (١٢٥) ألفاً. هذا يعني أن الولايات المتحــدة تدرب عمليــاً مهندسين أكثر من الصين والهند نسبة إلى عدد السكان.

هذه الأرقام لا تتنــاول الكفاءة. أفضل المهندسيــن الصينيين والهنود هؤلاء الذين ينجحون بامتياز فــي الأكاديميات الشهيرة كالمعهد الهنــدي للتكنولوجيا (الذي يجتاز امتحان القبول فيــه ٥ آلاف من كل (٣٠٠) ألف سينجحون وفقاً لأي نظام تعليمي. ولكن عندمــا ننظر إلى المعاهــد ما دون معاهد النخبــة التي تخرج حوالى (١٠٠٠٠) طالب سنويــاً، فإن مستوى التعليــم العالي في كل من الصين والهند يبقى ضعيفاً، ولهذا يغادر

العديد من الطلاب بلدانهم للدراسة في الخارج. في عام ٢٠٠٥م أعد معهد ماكنسي العالمي دراسة بعنوان «سوق العمل العالمي» وجد من خلالها أن البلدان الـ (٢٨) الأقل أجوراً في العالم لديها حوالى (٣٣) مليوناً من الكفاءات الشابة، ولكن جزءاً قليلاً جداً من هؤلاء المرشحين يمكن أن يعملوا بنجاح في الشركات الأجنبية والسبب الأساسي هو عدم كفاءة التعليم.

بالطبع إن التعليم العالي هو الصناعة الأفضل للولايات المتحدة وهو المجال الأول لتميزها وتفوقها. في عام ٢٠٠٦م أشار تقرير أعدّه مركز الإصلاح الأوروبي – في لندن – إلى أن الولايات المتحدة تستثمر ٢,٦٪ من الناتج المحلي في مجال التعليم العالي بالمقارنة مع ٢,١٪ في أوروبة و١,١٪ في اليابان. الولايات المتحدة التي تشكل ٥ ٪ من عدد سكان العالم لديها سبع أو ثماني جامعات من أفضل عشر جامعات في العالم و٤٨٪إلى ٦٨٪ من أفضل خمسين. والوضع بالنسبة للعلوم تحديداً مذهل، في الهند تمنح الجامعات سنوياً ما بين (٣٥) إلى (٥٠) شهادة دكتوراه في علوم الحاسب بينما هذا الرقم يصل إلى (١٠٠٠) في الولايات المتحدة.

إن اللائحة التي تشير إلى المكان الذي تعلم فيه أفضل (١٠٠٠) عالم في الحاسب يعني بالتأكيد إن أفضل عشر مدارس في العالم أميركية. وتبقى الولايات المتحدة بلا منازع المكان الأكثر جذباً للطلاب حيث تستقطب٣٠٪ من مجموع الطلاب الأجانب في العالم، كما أن التعاون الذي رسخته بين العمل التطبيقي والمعاهد التعليمية لا مثيل له في العالم. لا يمكن ببساطة شطب كل هذه الميزات، لأن بنية الجامعات الأوروبية واليابانية – المحكومة غالباً بالبيروقراطية – لن تتغير في المدى المنظور. وعلى الرغم من أن الصين والهند تفتتحان معاهد جديدة فإنه ليس من السهل الوصول إلى مستوى الجامعات الدولي خلال عقود قليلة.

قليلون الذين يعتقدون أن مدارس التعليم الأساسي والثانوي تستحق هذا الثناء. النظام المدرسي في أزمة حيث إن تحصيل الطلبة يتراجع خاصة في العلوم والرياضيات وفقاً للمعدلات الدولية. ولكن على الرغم من صحة هذه الإحصائيات فإنها تبدي شيئاً ما مختلفاً، المشكلة الحقيقية ليست في التفوق بل بآلية الدخول إلى المعلومة. مركز النزعات في الدراسات الدولية للرياضيات والعلوم (TIMSS)- المستوى المعياري للبرامج التعليمية للدول- يضع الولايات المتحدة بإنصاف في الوسط. وسائل الإعلام نقلت الخبر بميل واضح للتشاؤم: حيث كتبت «وول ستريت جورنال»:

«فتيان الولايات المتحدة من بين الأسوأ في الرياضيات»

لكن هذه النقاط تخفي اختلافاً إقليمياً وعرقياً واجتماعياً عميقاً. فطلاب الأقليات الفقراء سجلوا نقاطاً أقل بكثير من المعدل الأميركي، بينما وكما أشار أحد الطلبة: «سجل طلاب الأحياء الغنية كأقرانهم في سنغافورة، نقاطا في الرياضيات تجاري معدلات (TIMSS)». إن الفرق في معدل العلوم على سبيل المثال ضمن الولايات المتحدة بين مدارس الأحياء الغنية ومدارس الفقراء يفوق بنسبة أربعة إلى خمسة أضعاف الفرق ما بين المعدل الوطني السنغافوري والأميركي.

بعبارة أخرى إن المشكلة في الولايات المتحدة تكمن في عدم المساواة وهذا على مر الزمن سينعكس سلباً على التنافسية. فإن كانت الولايات المتحدة غير قادرة على تعليم وتدريب ثلث قوتها العاملة لتنافس في مجال اقتصاد المعرفة فإن بلدها سيخسر، لكنها تدرك ذلك.

ربما يكون النظام التعليمي الأميركي مرناً جداً حيال الاستحفاظ والتعليم الجامد لكنه بارع في تطوير القدرات الذهنية الخلاقة للطلاب. من المؤكد أن هذه الصفة توضح لماذا أنجبت الولايات المتحدة العديد من المقاولين والمخترعين والمغامرين. يشرح «ثارمان شانغاراتنام» – وزير التعليم السنغافوري السابق – الفرق بين النظام التعليمي في بلده ونظام الولايات المتحدة قائلاً:

«كلانا لدينا أنظمة تعليمية فاضلة، إيجابيات نظامكم تكمن في تنمية المواهب والبراعة، إيجابياتنا تكمن في المقدرة على تجاوز الامتحان. نحن نعرف كيف ندرب الناس على اجتياز الامتحان، وأنتم تعرفون كيف تستثمرون مهارات الناس إلى الحد الأقصى، كلا الأمرين مهم، لكن هناك بعض الأجزاء من الفكر لا يمكن إخضاعها للامتحان – كالإبداعية، والفضول، وحس المغامرة، والطموح. وفوق كل هذا يمتلك الأميركيون ثقافة التعلم التي تتحدى المعارف التقليدية وحتى المستندات النصية المعتمدة». هذا أحد الأسباب التي أدت إلى قيام المسؤولين السنغافوريين مؤخراً بزيارة المدارس الأميركية وذلك ليتعلموا كيفية خلق البرنامج التعليمي الذي ينمي الإبداع وسرعة البديهة وحل المسائل. قال زائر سنغافوري للواشنطن بوست: «بالمراقبة تستطيع أن ترى الطلبة الأميركيين منهمكين ومشغولين أكثر بالمواضيع الدراسية بدلاً من أن يلقنوا المعلومة بطريقة لا تُبقي مجالاً لأية مبادرة أو تفكير شخصي». في الوقت الذي تعجب

الولايات المتحدة بالمهارات الآسيوية في إجراء الاختبارات، تأتي الحكومات الآسيوية إلى الولايات المتحدة ليفهموا كيف يحملون أطفالهم على التفكير.

المنطقة الرمادية:

إن ميزات الولايات المتحدة تبدو جلية بالمقارنة مع آسيا التي لا تزال على الأغلب قارة للبلدان النامية. يضيق الفارق بالمقارنة مع أوروبة أكثر مما يظن بعض الأميركيين. لقد شهدت المنطقة الأوروبية نمواً ملحوظاً في مستوى نمو الولايات المتحدة منذ العام ٢٠٠٠م، فهي تحوز على نصف الاستثمارات الأجنبية العالمية، وتحقق إنتاجية عمل قوية، وأحرزت فائضاً تجارياً بقيمة ٣٠ مليار دولار في الأشهر العشرة الأولى من عام ٢٠٠٧م. في دليل المنافسة العالمي للمنتدى الاقتصادي الدولي احتلت الدول الأوروبية المراتب السبع الأولى. أوروبة لها مشاكلها - كارتفاع معدل البطالة، أسواق العمل القاسية - لكن لها ميزاتها كنظام الضمان الصحي ونظام التقاعد. وبالإجمال تمثل أوروبة التحدي الأوضح والأقرب للولايات المتحدة في الساحة الاقتصادية.

لكن أوروبة لديها نقطة ضعف حاسمة، أو لنقول بشكل أكثر دقة إن الولايات المتحدة تمتاز على أوروبة ومعظم دول العالم المتطورة بحيوية نموها السكاني. يقدّر «نيكولاس إيبرستيت» الدارس في معهد المشروع الأميركي الزيادة في عدد سكان الولايات المتحدة حتى العام ٢٠٣٠م بـ(٦٥) مليوناً بينما سيبقى عدد سكان أوروبة عملياً كما هو، وسيكون عدد المعمرين فوق (٦٥) سنة ضعفي عدد الأطفال ما دون (١٥) سنة (أطفال أقل يعني لاحقاً عمالاً أقل). وبالمقارنة فإن الأطفال في الولايات المتحدة سيبقون أكثر عدداً من العجائز. يقدر قسم السكان في الأمم المتحدة بأن نسبة عدد الناس في سن العمل إلى عدد العجائز في أوروبة الغربية ستنخفض من ٣،٨ الآن إلى ٢،٤ عام ٢٠٣٠م، وفي أميركا ستنخفض من ٥،٤ إلى ٣،١.

الطريقة الفعلية الوحيدة لتجنب الانخفاض السكاني في أوروبة هي قبول عدد أكبر من المهاجرين. الأوروبيون لم يعودوا يعوضون أنفسهم منذ مطلع ٢٠٠٧م، أي أن الحفاظ على العدد الحالي للسكان يتطلب قبول مستوى متوسط من المهاجرين الجدد، لكن المجتمعات الأوروبية لا تبدو قادرة على استيعاب المزيد من المهاجرين من ثقافات غريبة وغير مألوفة وخاصة من الأرياف الفقيرة في العالم الإسلامي. والسؤال «من هو الملام المهاجرون أم المجتمع؟» لم يعد ذو أهمية. في الواقع إن أوروبة تتجه لأخذ مهاجرين أقل في الوقت الذي يتطلب اقتصادها الكثير. ومن ناحية

أخرى فإن الولايات المتحدة تخلق أول أمّة كونية بتمازج الألوان، والأعراق، والعقائد، يعيشون ويعملون معاً بتناغم وانسجام كبيرين. لنمعن النظر في الانتخابات الرئاسية حيث تضمنت قائمة المتنافسين الرجل الأسود، والمرأة، والمورمون (طائفة دينية) ومن الأصول الإسبانية، ومن أميركا اللاتينية.

تمر العديد من الدول الآسيوية (باستثناء الهند) بحالة ديموغرافية مشابهة أو أسوأ من البلدان الأوروبية. معدل الخصوبة في الصين واليابان وكوريا الجنوبية وتايوان أقل بشكل ملموس من حد التعويض البالغ ٢،١ مولود لكل امرأة، وتشير التقديرات بأن معظم دول شرق آسيا ستعاني من انخفاض كبير بعدد السكان في سن العمل في نصف القرن القادم. عدد سكان اليابان في سن العمل سينخفض بحدود قصوى عام٢٠١٠م حيث سيقل عدد عمالها عن (٣) ملايين عن عام ٢٠٠٥م. وكذلك الأمر بالنسبة للصين وكوريا الجنوبية حيث ستتناقص أعداد العاملين إلى حدود كبيرة خلال العقد القادم. يتنبأ «غولدمانساش» بأن متوسط العمر في الصين سيرتفع من ٣٣ في عام ٢٠٠٥ إلى ٤٥ في عام ٢٠٥٠م أي سيكون هناك ارتفاع بعدد العجائز. كما أن للدول الآسيوية مشاكل مع الهجرات كالدول الأوروبية، فاليابان تواجه نقصاً كبيراً في القوى العاملة لأنها لا تستطيع أخذ كفايتها من المهاجرين ولا أن تسمح لنسائها بان تشاركن مشاركة كاملة في العمل.

تقدم السكان بالعمر له تأثيرات هامة، أولا هناك أعباء تسديد رواتب التقاعد - عدد قليل من العمال يدعمون عدداً أكبر من العجائز ذوي الشعر الأبيض، ثانياً معظم المخترعين - كما يقول الاقتصادي «بنيامين جونز» - والغالبية العظمى من حملة جائزة نوبل - قاموا بأهم أعمالهم بين عمر (٣٣ و٤٤) سنة، بعبارة أخرى عدد أقل من السكان في سن العمل يعني تقدماً أقل في المجالات التقنية والعلمية والإدارية.

ثالثاً: يتوقف على عمر العمال إما أن يكونوا مدّخرين أو العكس وبالتالي تشتيت المدخرات الوطنية ومعدلات الاستثمار. إن الديموغرافيا السيئة مرض قاتل بالنسبة للبلدان الصناعية المتقدمة.

تكمن الميزات الهامة لدى الولايات المتحدة هذه الأيام بجزئها الأكبر بإنتاج الهجرة. لولا الهجرة لكان نمو نتاجها المحلي خلال ربع القرن الماضي مشابهاً للنمو الأوروبي، لأن معدل خصوبة المواطنين الأميركيين البيض نفس معدل خصوبة الأوروبيين. شكّل الطلاب الأجانب والمهاجرون ٥٠٪ من الباحثين في العلوم

علـى مستـوى البـلاد، وفي عـام ٢٠٠٦م حصلوا علـى ٤٠٪ من درجـات الدكتوراه فـي العلـوم والهندسـة كما حصلـوا على ٦٥٪ مـن شهـادات الدكتـوراه فـي علوم الحاسـب، وسينـال الطلبـة الأجانب في العـام ٢٠١٠م حوالـى ٥٠٪ مـن شهادات الدكتوراه الممنوحـة في الولايات المتحدة بجميع الاختصاصـات، ستكون النسبة في العلـوم ٧٥٪. نصف وادي السيليكون أسّسه إمّـا مهاجـر أو أميركي مـن الجيل الأول. وباختصار إن الانفجار الجديد الممكن في إنتاجيـة الولايات المتحـدة وانطلاقها في حقلـي النانوتكنولوجي والبيوتكنولوجي كل هــذا يقع على عاتق سياستها تجاه الهجرة. إذا استطاعت الولايات المتحدة إبقاء الناس الذين علمتهم فـي البلاد فان الاختراعات ستتـم هنا أمـا إذا عـادوا إلـى أوطانهم فالاختراعات ستسافر معهم.

تمنـح الهجرة الولايـات المتحدة صفة الحيويـة وهي صفة نـادرة لبلد غني. هذا البلد وجـد السبيل للحفـاظ على حيويته الدائمـة مـن خلال أفـواج الناس الذين يتوقون إلى حياة جديـدة في عالم جديد. يقلق بعض الأميركيين من هؤلاء المهاجرين - أكانـوا من إيرلنـدا أو إيطاليا أو الصين أو المكسيك لكنهم أصبحوا العمود الفقري للطبقـة العاملـة الأميركيـة وأطفالهـم وأحفادهم اندمجوا في المجتمع الأميركي. لقد استطاعت الولايـات المتحدة التحكم بهذه الطاقة وإدارتهـا واستيعاب القادمين الجـدد والانطـلاق نحو الاقتصـاد، هذا مـا جنب البـلاد تجربة بريطانيـا والقوى الاقتصاديـة الكبـرى في الماضـي، التي تضخمت وتكاسلت ثم تقهقرت في مواجهة الأمم الفقيرة الجائعة.

التعلم من العالم:

تلقت مدينة نيويـورك في عام ٢٠٠٥م نـداء يقظـة. (٢٤) مـن أصـل (٢٥) من المانحيـن (الممولين) فـي العالم في ذلك العـام كانوا من خـارج الولايات المتحدة. هـذا كان مذهلاً. أسواق المـال الأميركية كانت الأكبر في العالم. فقد مولوا التصنيع فـي ثمانينيـات القـرن الماضـي والثورة التكنولوجيـة في تسعينياتـه ويمولون الآن التقدم المطرد في علم الأحياء. إن السيولة المتوافـرة في هـذه الأسـواق أبقت على حيويـة العمل في الولايـات المتحدة. ومن المؤسف أن تخسـر الولايات المتحدة هذه الميزة الهامة.

تركز الكثير من المناقشات التي عالجت هذا الموضوع على التشريعات في الولايات المتحـدة خاصـة قوانين ما بعـد «أنرون» والتهديد الدائم بالمقاضاة الذي يخيم على

سوق العمل. العقبات موجودة لكنها لم تصل إلى حد تهجير العمل إلى الخارج. الولايات المتحدة تقود العمل عادة لكن الآخرين أخذوا ينضمون للعبة.

في الواقع إن ما يحدث هنا كما في بقية المناطق هو ببساطة صعود الآخرين. إن أسهم الولايات المتحدة وسنداتها وإيداعاتها وقروضها وأدواتها المالية الأخرى - أسهمها المالية - لا تزال تفوق ما لدى أي منطقة في العالم، ولكن الأسهم المالية للمناطق الأخرى تنمو بسرعة أكبر بكثير. هذا ينطبق خاصة على بلدان آسيا الصاعدة، وحتى المنطقة الأوروبية تسبق أميركا. إيرادات أوروبة البنكية والتجارية وصلت إلى (٩٨) مليار دولار عام ٢٠٠٥م وهذا يقارب إيرادات الولايات المتحدة. كما نرى لندن لاعباً مسيطراً في إدارة الأسهم وتحديد مستوى الفائدة وهذا له أهمية كبيرة في حماية النقد والبنوك والتأمين.

هذا جزء من التوجه الواسع، فالدول والشركات أصبح لها الآن خيارات لم تكن متاحة من قبل.

لا تخطئ الولايات المتحدة في هذا الخصوص وفي المواضيع المتصلة الأخرى. إنها تتصرف - ربما من دون وعي - على أنها لا تزال تقود المجموعة الدولية. المشرعون الأميركيون نادراً ما يفكرون ببقية العالم عندما يسنون القوانين أو التشريعات أو السياسات. ونادراً ما يشير الموظفون الأميركيون إلى المعدلات العالمية لأنه ولوقت طويل كانت الولايات المتحدة هي المعادل العالمي وعندما تختار شيئاً ما غريباً كان العالم كله ينحو نحوها باتجاه هذا الاستثناء. الولايات المتحدة هي البلد الوحيد إضافة إلى ليبيريا ومايانمار الذي لا يتبع النظام المتري في القياس. وإضافة إلى الصومال تبقى الولايات المتحدة البلد الوحيد الذي لم يصادق على معاهدة حقوق الطفل.

في مجال العمل كانت الولايات المتحدة تعلّم العالم كيف يكون رأسمالياً، أما الآن فالجميع يلعب لعبتها ويلعب ليربح.

كان معدل الضرائب في الولايات المتحدة على مدى أكثر من (٣٠) عاماً الأخفض بين أغلب الدول الصناعية أما الآن فهو في المرتبة الثانية من حيث الارتفاع. لم ترتفع الضرائب في الولايات المتحدة ولكن الآخرون خفضوا ضرائبهم. ألمانيا على سبيل المثال التي كانت تؤمن دوماً بالنظام الضريبي العالي خفضت ضرائبها لتنضم إليها النمسا وسلوفاكيا. لقد أصبح هذا النوع من المنافسة بين البلدان الصناعية واسع الانتشار وهذا ليس سباقاً نحو الأسفل (الدول الإسكندنافية لديها ضرائب عالية

وخدمات جيدة ونمو قوي) ولكنه بحث عن النمو. كانت التشريعات الأميركية أكثر مرونة وأمانة من غيرها لمتطلبات السوق، هذا لم يعد صحيحاً. النظام المالي اللندني وبعد دراسة دقيقة عام ٢٠٠١م استبدل مجموعة المشرعين غير المتجانسين بهيئة موحدة، هذا كان أحد أسباب تفوق القطاع المالي في لندن على نيويورك في بعض المقاييس. تعمل الحكومة البريطانية كاملة بحزم لجعل لندن محوراً مالياً عالمياً. يسعى المشرعون من وارسو إلى شنغهاي إلى بومباي كل يوم ليجعلوا نظامهم أكثر جاذبية للمستثمرين والمصنعين. وعلى النقيض من ذلك تقضي واشنطن جل وقتها وطاقتها لإيجاد السبل الكفيلة بفرض الضرائب على نيويورك ليتم بعدها توزيع إيراداتها على بقية أنحاء البلاد.

البقاء في القمة لوقت طويل له سلبياته. كان الاقتصاد الأميركي من الضخامة بحيث افترض الأميركيون بأن على الجميع تحمل أعباء فهمه وفهمهم، لم يكن عليهم أن يتحاوروا مع أحد أو أن يتعلموا لغات أو أن يطلعوا على ثقافات أو أن يدخلوا أسواقاً أجنبية. وهذا يمكن أن يجعل الولايات المتحدة في وضع تنافسي سيئ. خذ انتشار اللغة الإنكليزية في العالم على سبيل المثال، فقد سرّ الأميركيون بهذه العملية لأنها سهلت عليهم السفر والعمل في الخارج. لكن هذا قد سهل أيضاً على الاقتصاديين المحليين استيعاب ودخول سوقين أو ثقافتين، فهم يستطيعون تكلم الإنكليزية إضافة إلى الماندرين (اللغة الرسمية في الصين) أو الهندية أو البرتغالية. وبالتالي يستطيعون النفوذ إلى السوق الأميركي إضافة للسوق الداخلي الصيني أو الهندي أو البرازيلي. وعلى العكس من ذلك لم يطور الأميركيون مقدراتهم للدخول إلى عوالم الشعوب الأخرى.

اعتادت الولايات المتحدة أن تكون قائدة للاقتصاد والمجتمع. إنها لم تلحظ بأن معظم الدول الصناعية الأخرى في العالم - إضافة إلى قسم كبيرٍ من الدول غير الصناعية - لديها خدمات اتصالات خليوية أفضل منها.

خدمة الإنترنت أسرع وأرخص في باقي الدول الصناعية، من كندا إلى فرنسا إلى اليابان. تحتل الولايات المتحدة الآن المرتبة ١٦ لخدمات الإنترنت نسبة لعدد السكان. الأميركيون يسمعون دائماً من سياسييهم بأن الشيء الوحيد الذي يجب أن يتعلموه من أنظمة الضمان الصحي للبلدان الأخرى هو أن يشكروا حكومتهم. قلما نظر

الأميركيون حولهم ليروا الخيارات المتاحة أمامهم والبدائل الممكنة.

لم يبق التعلم من الآخرين مسألة أخلاقية أو سياسية، إنها التنافسية. لننظر إلى الصناعة المتنقلة لأكثر من قرن منذ ١٨٩٤م كانت معظم السيارات المصنوعة في أميركا تصنع في ميتشيغان، ومنذ ٢٠٠٤م حلت أونتاريو - كندا محل ميتشيغان. السبب بسيط: إنه الرعاية الصحية. يتوجب على صانعي السيارات في الولايات المتحدة تسديد (٦٥٠٠) دولار تكاليف ضمان ورعاية صحية عن كل عامل. إذا تم نقل المصنع إلى كندا - حيث يوجد نظام رعاية صحية حكومي- تصبح الكلفة (٨٠٠) دولار لكل عامل. هذا ليس دعاية لنظام الرعاية الصحي الكندي لكنه يوضح أن كلفة الرعاية الصحية في أميركا قد ارتفعت لدرجة أصبح فيها استخدام العمال الأميركيين غير تنافسي إطلاقاً. العمل لا يتوجه إلى البلدان ذات الأجور المنخفضة بل إلى الأمكنة التي يوجد فيها عمال متعلمون ومتدربون جيداً: إنها لفتة ذكية ألا يكون المشغلون يبحثون عن الأجور المنخفضة.

امتاز العمال الأميركيون لعقود عدة في شركات السيارات أو مصانع الفولاذ أو البنوك على غيرهم من العمال بميزة دخولهم إلى رأس المال الأميركي. بإمكانهم استخدام هذه الميزة لشراء التكنولوجيا أو التدريب الذي لا يحصّله غيرهم - وبالتالي إنتاج منتجات لا يستطيع غيرهم إنتاجها وبأسعار منافسة.

هذه الميزة الخاصة خسرناها أيضاً. العالم يسبح برأس المال، وفجأة يسأل الأميركيون أنفسهم، ماذا نستطيع أن نفعل أفضل من الآخرين؟ إنها معضلة ليس فقط للعمال بل أيضاً للشركات. عندما كانت الشركات الأميركية تسافر إلى الخارج كانوا يأخذون معهم رأس المال والبراعة، لكنهم عندما يسافرون الآن يجدون أن المحليين أصبح لديهم المال والبراعة.

في الواقع لم يعد هناك عالم ثالث. ماذا تجلب الشركات الأميركية إلى البرازيل أو الهند؟ ما هي الميزات التنافسية للولايات المتحدة؟ هذا هو السؤال الذي لم يعتقد أي من رجال الأعمال الأميركيين بأن عليهم الإجابة عنه. يشير الاقتصادي «مارتن وولف» أن الجواب يكمن في مكان آخر، فالاقتصاديون اعتادوا أن يناقشوا مفهومين أساسيين هما رأس المال والعمل، ولكن الآن أصبحت السلع متاحة للجميع. إن ما يميز الاقتصاديات اليوم هو الأفكار والطاقة. يستطيع البلد أن يزدهر ويتقدم إذا كان مصدرا للأفكار أو الطاقة.

سياسات بلا فاعلية:

كانــت الولايات المتحــدة وتستطيع أن تبقــى المصــدر الأهم للأفــكار الجديدة، كبيرهـــا وصغيرها، التقنية منها والإبداعية الاقتصادية والسياسية. (إذا كانت إبداعية حقـــاً، يمكنهـــا توليد أفكار جديـــدة لإنتاج أنواع جديدة من الطاقة) ولكن للقيام بذلك عليها إجــراء تغييرات ملموســة. للولايات المتحــدة تاريخ من الخــوف على مكانتها، وتتنابهـــا في هذه الأيام الموجة الرابعة من هذه المخاوف منذ الحرب العالمية الثانية. أما الأولى فكانت فـــي أواخر الخمسينيات نتيجة إطــلاق الاتحـــاد السوفييتي مركبة سبوتنيك الفضائية. والثانية كانت في أوائل السبعينيـــات حيث اعتقـــد الأميركيون بعد ارتفـــاع أسعار النفـــط وانخفاض النمو بأن أوروبة الغربيـــة والمملكة العربية السعودية ستمتلـــكان ناصية الطاقة فـــي المستقبل. والثالثة كانت منتصـــف الثمانينيات عندما اعتقـــد معظم الخبـــراء أن اليابان ستصبح القوة العظمى المهيمنـــة تقنياً واقتصادياً. هذا الخـــوف أسّس لنشـــوء الاستخبارات. ولكـــن لم يتحقـــق أي من هـــذه المخاوف. السبب أن نظـــام الولايـــات المتحدة أثبت مرونـــة، وغنى بالمصـــادر وقابلية للتعافي، وقدرة على تصحيح أخطائه.

المشكلـــة اليـــوم أن النظـــام السياسي للولايـــات المتحدة قد فقـــد مقدرته على معالجة الاعتلال.

المشـــاكل الاقتصاديـــة فـــي الولايات المتحدة اليوم مشـــاكل حقيقية لكنها على العموم غير ناتجة عن عدم كفاءة الاقتصاد الأميركـــي وليست انعكاساً لانحلال ثقافي. تستطيع والولايات المتحدة باتباع سياسات مختلفـــة أن تنتقل بسرعـــة ويسر من هذه الحالـــة وتقف علـــى أرض صلبـــة. يمكنها القيام بمجموعة من الإصلاحات الملموسة اعتباراً من الغد: كالتقليل من الهدر والإنفاق الحكومـــي، وزيـــادة الادخـــار والتوسع في التدريب في مجالي العلـــوم والتكنولوجيا، وتأمين المتقاعدين، وخلـــق هجرة مناسبة للقوى العاملة، وترشيد استخدام الطاقة.

الخبراء السياسيون لا يعارضون بالمطلق معظـــم هذه البنـــود ومن جهـــة أخرى فإن تطبيـــق أي من هذه الإجـــراءات المقترحة لا يتطلـــب تضحيات تذكرنـــا بمشقة أزمنة الحرب بل مجرد تعديلات بسيطة في النظام القائم. ومع هـــذا، وبسبب السياسيين، فإن هذه الإجراءات تبـــدو مستحيلة. إن النظام السياسي في الولايات المتحدة فقد قدرته على تحمل بعض الألم الآن لتحقيق مكاسب عظيمة لاحقاً.

لم تدخل الولايات المتحدة القرن الواحد والعشرين باقتصاد ضعيف أو مجتمع منحل، لكنها طورت سياسات مختلة. لقد اتبعوا نظاماً سياسياً قديماً (عمره حوالى ٢٢٥ عاماً) يعتمد على المال والمصالح الخاصة، والصحافة الحسية المثيرة، ومجموعات التطبيل الأيديولوجي. والنتيجة هي جدال خبيث متواصل حول توافه الأمور - أصبحت السياسة كالمسرح - وقليلاً من الجوهر والمساومات والعمل. البلد الحيوي أرهق بعملية سياسية جوفاء مصممة للمعركة الحزبية أكثر منها لحل مشكلات البلد.

إنه تناقض ماكر أن تكون لصالح سياسات متطرفة لحزب وضد الدعوة القيّمة للتعاون بين الحزبين. تمنى بعض علماء السياسة أن تكون الأحزاب الأميركية مشابهه للأوروبية - نقية أيديولوجياً ومنضبطة بحزم. لكن النظام البرلماني الأوروبي يسير جيداً وفق تنافس الأحزاب التي تسيطر فيها الهيئات التنفيذية على التشريعية، وهكذا فإن الحزب الحاكم يستطيع تطبيق برنامجه بسهولة. وعلى العكس من ذلك فالنظام الأميركي يقوم على تشاركية السلطة وتداخل المهام والتدقيق والتوازنات. التقدم يحتاج إلى توافق عريض بين الحزبين الرئيسين إضافة للسياسيين غير الحزبيين. ولهذا لا يثق «جيمس ماديسون» بالأحزاب السياسية واصفاً إياها بالعصابات ومعتبراً بأنها تشكل خطراً داهماً على الجمهورية الأميركية الشابة.

التقدم في أي قضية جوهرية- كالرعاية الصحية، الأمن الاجتماعي، إصلاح النظام الضريبي - يتطلب مساومات من كلا الطرفين. يحتاج إلى إمعان النظر مطولاً والتدقيق،وهذا أصبح مميتاً في السياسة. هؤلاء الذين يدافعون عن حلول ملموسة ومساومات تشريعية يجدون أنفسهم مهمشين من قبل قيادة الحزب، يخسرون الدعم المالي من مجموعات المصالح الخاصة، وتتم مهاجمتهم من خلال الإذاعة والتلفزيون. يقدم النظام حوافز كبيرة للوقوف بقوة والعودة إلى فريقك لتخبرهم بأنك رفضت الانحناء للعدو، إنه شيء مريع في الحكم.

صعود الآخرين:

الاختبار الحقيقي للولايات المتحدة يناقض ما واجهته بريطانيا عام ١٩٠٠م. لقد اضمحلت قوة الاقتصاد البريطاني حتى عندما أريد منه أن يساند النفوذ السياسي الهائل حول العالم. في المقابل فإن الاقتصاد الأميركي والمجتمع الأميركي قادران على تحمل ومواجهة الضغوط الاقتصادية والمنافسة. يستطيعان أن يتعاملا ويتكيفا ويتقدما. الاختبار أمام

الولايــات المتحــدة سياســي - وهو غير متــروك للولايــات المتحدة كاملــة، بل إنه متروك لواشنطن بشكل خاص. هل تستطيع واشنطن أن تتعامل وتتكيف مع عالم بدأ فيه الآخرون بالصعود؟ هل تستطيع الاستجابة لمتغيرات المتطلبــات الاقتصادية والقوى السياسية الناشئة؟

كانــت الولايات المتحدة قوة لا تضاهى على مدى عقدين من الزمن، وبمعنى أشمل لقــد كان العالــم مركباً حســب التصميم الأميركــي منــذ نهايــة الحــرب العالمية الثانية. لكنه الآن وسط فترة تغيير تاريخية عظيمة.

هناك ثلاث قوى تكتونية أدت على مدى الـ(٥٠٠) سنــة الأخيرة إلى تغيرات أساسية فــي توزيع القــوة والنفوذ وبالتالــي إعادة صياغة الحياة الدولية - سياسياً، اقتصادياً، ثقافياً. الأولــى كانت صعود العالم الغربي، العملية التي بدأت في القرن الخامس عشر وتسارعت بخطى حثيثة فــي أواخر القرن الثامــن عشر. لقــد أنتجــت الحداثة كما نعرفها: علوم وتكنولوجيا، تجارة ورأسمالية، الثورات الزراعية والصناعية. كما أدت إلى هيمنة سياسية مستمرة للدول الغربية.

حدث التبدل الثاني بنهاية سنوات القرن التاسع عشــر بصعود الولايــات المتحدة. بعد التصنيــع مباشرة أصبحــت الولايات المتحــدة الأمة الأقوى منــذ الإمبراطورية الرومانيــة والأقــوى من أي تجمــع للأمم الأخــرى. لقد كانت تسيطــر معظم القرن الماضي على الاقتصــاد والسياسة والعلوم والثقافة والأفكار العالمية. خلال العشرين سنة الماضية كانت هذه الهيمنة لا تضاهى، وظاهرة غير مسبوقة في التاريخ.

نحن نعيش الآن مرحلــة التبدل الثالث للقــوة العظمــى فــي العصــر الحديث- صعود الآخرين. على مــدى العقود القليلة الماضيــة كانت بلدان العالم تشهد معدلات نمو اقتصاديــة وصلت أحيانــاً لمستويات لاتصدق. على الرغم من التعاظم والاتساع كان هنــاك إخفاقات، ولكــن المؤشر العام كان إيجابيــاً جداً. (هذا النمو كان ملحوظاً أكثر فــي آسيا، لكنه غيــر مقتصر عليها، ولهذا فإن تسمية هذا التغيير «صعود آسيا» لا يعطي وصفاً دقيقاً للحالة).

يبدو النظــام العالمي الناشــئ مختلفاً تمامــاً عن الأنظمة التــي سبقته. منذ مئة سنة كان هناك تعددية قطبية تدار من قبل الحكومات الأوروبية مــع تغيير وتبديل في التحالفات، وأخطاء في التقدير،ومنافسات، وحروب.

بعدها جاءت الثنائيــة القطبية للحرب الباردة والتي كانت أكثر استقراراً من نواحي عــدة، ولكن كان ينشأ أحيانــاً تجاذب كبير بين القوى العظمى.

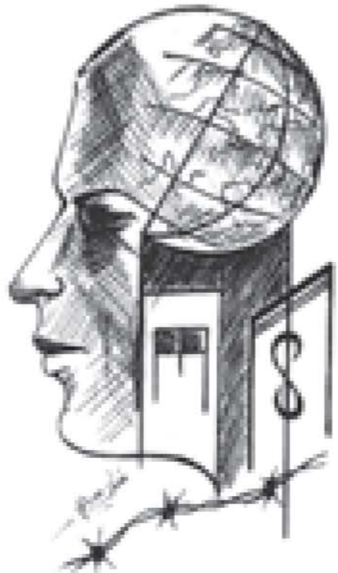
منذ العام ١٩٩١ نعيش تحت سلطة الولايات المتحدة المتفردة، عالم القطب الواحد والذي توسع فيه الاقتصاد العالمي وتسارع. هذا التوسع يقود إلى التغير القادم في طبيعة النظام العالمي. على الصعيد السياسي - العسكري لا زلنا في عالم القوة العظمى الوحيدة. لكن القطبية ليست ظاهرة ثنائية حصرا. لن يبقى العالم وحيد القطب لمدة عقود وفجأة، في إحدى الأمسيات، يصبح متعدد الأقطاب. باستثناء القوة العسكرية، فإن الولايات المتحدة بدأت تفقد هيمنتها على المجالات الصناعية والمالية والاجتماعية والثقافية للعالم. هذا لا يعني أننا ندخل عالماً معادياً لأميركا. لكننا نتحرك نحو عالم ما بعد أميركا عالم محدد وموجه من أمكنة عدة ومن قبل شعوب عدة.

هناك العديد من السياسات المحددة والبرامج الكفيلة بجعل الاقتصاد والمجتمع الأميركيين أكثر تنافسية. ولكن ما هو مطلوب فوق ذلك هو تغييرات واسعة في الإستراتيجية والمواقف. يجب على الولايات المتحدة أن تدرك بأنها أمام خيار وحيد - إنها تستطيع أن توازن انبثاق النظام العالمي الجديد بالاعتراف بالدول الصاعدة، والتخلي عن بعض نفوذها وأرباحها، والقبول بعالم متعدد الأصوات والآراء. وإلا سترى بأن صعود الآخرين سينتج عنه المزيد من التعصب القومي والغموض، والانقسام، وهذا سيؤدي بالتدريج إلى تشظي النظام العالمي الذي بنته الولايات المتحدة على مدى (٦٠) عاماً.

الحالة السابقة واضحة ، العالم يتغير لكنه يسلك مسار الولايات المتحدة نفسه. الآخرون الصاعدون أسواقهم مفتوحة، حكوماتهم ديمقراطية (بشكل أو بآخر) ولديهم انفتاح أكبر وشفافية. ربما يقل اتساع فضاء الولايات المتحدة لكنه سيظل عالماً تهيمن فيه الأفكار والقيم الأميركية. لدى الولايات المتحدة فرصة لصياغة وقيادة التغيرات العالمية، شريطة أن تدرك أولاً بأن عالم ما بعد أميركا أصبح واقعاً - وأن تتقبل وتتفاعل مع هذه الحقيقة.

البعد السياسي للعولمة

د. جهاد ملحم ❁



ليست مهمة سهلة البحث في ظاهرة معقدة كالعولمة، باعتبارها ظاهرة متعددة الأبعاد تخترق أعماق الاقتصاد والسياسة والثقافة والتكنولوجيا وكل جوانب الحياة البيئية والاجتماعية المعاصرة. ويُعَدُّ هذا البحث استكمالاً للبحث المنشور في العدد (٥٩٧)، حزيران عام ٢٠١٣م الذي يحمل عنوان «تاريخ العولمة». وقبل الدخول في تفاصيل البعد السياسي للعولمة، ولكي نعطي القارئ صورة شاملة عن موضوع في غاية التعقيد، نسوق بعض تعريفات العولمة

❁ باحث في العلوم، وأستاذ في جامعة تشرين.
العمل الفني: الفنان نتمي صالح.

لكبار المفكرين والعاملين في هذا الميدان في العالم الرأسمالي.

– **أنتوني غايدينس**، مدير مدرسة لندن لعلم الاقتصاد London School of Economics: تُعَرّف العولمة بأنها تمتين العلاقات الاجتماعية على مستوى العالم بطريقة تترابط فيها الأحداث التي تحصل في أمكنة متباعدة فيما بينها.

– **فريدريك جيمسون**، أستاذ الأدب في جامعة ديوك Duke: يعكس مفهوم العولمة توجهاً عاماً نحو توسّع هائل في الاتصالات الدولية، وفي نطاق التجارة العالمية، حيث تبدوان أسرع وأضخم مما كانتا عليه في المراحل المبكرة للحداثة.

– **رولاند روبرتسون**، أستاذ علم الاجتماع في جامعة بيتسبورج Pittsburgh: يشير مفهوم العولمة إلى تقلص العالم وإلى ازدياد حدة الوعي عنه ككل.

– **جيمس ميتلمان**، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة أميركان American: تضغط العولمة البعدين الزماني والمكاني للعلاقات الاجتماعية.

والتعريف الأكثر شمولاً للعولمة، الذي يردده مؤيدوها، بأنها نظام عالمي جديد يقوم على حرِّيَّة انتقال المعلومات وتدفُّق رؤوس الأموال والسِّلع والتِّكنولوجيا والأفكار والمنتجات الإعلاميّة والثَّقافيّة والبشر أنفسهم بين جميع المجتمعات الإنسانيّة حيث تجري الحياة في العالم كمكان واحد أو قرية كونية صغيرة. والعولمة، في نهاية المطاف، هي ظاهرة تنحو بالمجتمعات الإنسانية قاطبة نحو التجانس (التشابه) الثقافي وتكوُّن الشخصية العالمية ذات الطابع الانفتاحي على ما حولها من مجتمعات وثقافات مختلفة. إلا أن معارضي العولمة لهم رأي آخر مناقض تماماً، إذ يرون فيها الوجه السياسي القبيح لسيطرة النمط الأميركي والغربي في العالم دون الأنماط الأخرى، بل هي أبشع وأحدث صور الهيمنة الاستعمارية.

تشير العولمة السياسية، بوجه عام، إلى تكثيف العلاقات السياسية بين الدول وإلى اتساعها عبر الكرة الأرضية. وترافق هذه العمليات مجموعة من المسائل الجوهرية تتعلق بمبدأ سيادة الدول، بتزايد تأثير المنظمات الدولية، وبالآفاق المستقبلية للحكومات المحلية والحكومة العالمية.

ومما لا شك فيه أن هذه المفاهيم تستجيب لتطور الأنظمة السياسية العابرة لإطار الدولة الوطنية، وتؤدي بالتالي إلى خلق أرضية مناسبة لنشوء أفكار جديدة. ومع ذلك، فيما يتعلق بالقرون القليلة الماضية، نظّم الجنس البشري خلافاته السياسية تمشياً مع حدود جغرافية محددة

خلقت إحساس «الانتماء» إلى دولة وطنية مستقلة.

يتوافق هذا التقسيم الاصطناعي للفضاء الاجتماعي على كوكب الأرض إلى مناطق جغرافية «وطنية» و«أجنبية» مع هويات جماعية للسكان مبنية على خلق المشترك بيننا «نحن» وعلى رفض المخالف لنا «هم». وهكذا، قام نظام الدولة الحديثة على الأسس السيكولوجية والافتراضات الثقافية التي تنقل إحساس الأمن بالكيان والاستمرارية التاريخية، لكنه تطلّب في الوقت نفسه من مواطنيها الإخلاص والتضحية. ومن خلال تغذية الجماهير بصور شيطانية عن «الآخرين»، قدّم الإيمان القائل بتفوق أبناء الوطن الواحد الطاقة الفكرية اللازمة لخوض الصراعات على نطاق واسع ضد هؤلاء الغرباء «هم» - مثلما قدّم الإنتاج الصناعي الوافر للدولة الحديثة في القرن العشرين المنصرم الوسائل المادية الضرورية لخوض حرب شاملة.

أدت المظاهر المعاصرة للعولمة إلى اختراق جزئي للحدود الجغرافية القديمة، وهذا بدوره أدى إلى تليين المفاهيم الصلبة وتخطي خطوط التماس الثقافية بين المجتمعات. وفي تأكيدهم على هذه الاتجاهات الجديدة، رأى المعلقون العائدون لمعسكر العولمة الفائقة أن الفترة التي أعقبت أواخر عام ١٩٦٠م شهدت تدهوراً جذرياً في ميادين السياسة، والقوانين، وأنظمة الحكم القائمة.

من جهة ثانية، يرى معارضو العولمة أن مثل هذه الآراء مبتسرة في أحسن الأحوال وخاطئة في أسوئها، ويؤكدون على الأهلية المستمرة للدولة الوطنية ليس كوعاء للحياة الاجتماعية الحديثة فحسب، بل على رسوخها الذي يدل عليه نشوء تجمعات جغرافية تطالب بكيانات مستقلة (أي ظهور دول جديدة).

وبما أن كل مجموعة من النقاد تقدم تقييمها الخاص بها لمصير الدولة الوطنية الحديثة، أصبح الجميع غير متفقين حول الأهمية النسبية للعوامل السياسية والاقتصادية.

وبغض النظر عن هذه الاختلافات الحاصلة بين الطرفين، فقد انبثقت ثلاثة أسئلة أساسية تسبر المدى الذي وصلت إليه العولمة السياسية.

السؤال الأول: هل تقلصت فعلياً مقدرة الدولة الوطنية نتيجة التدفقات الضخمة لرؤوس الأموال، والأفراد، والتكنولوجيا عبر الحدود الإقليمية؟

السؤال الثاني: هل يمكن رؤية الأسباب الأولية الكائنة وراء هذه التدفقات في السياسة أو في الاقتصاد؟

السؤال الثالث: هل نشهد مستقبلاً انبثاق حكومة عولمة تدير العالم؟

وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة بالتفصيل، دعنا نتحدث باختصار عن السمات الرئيسية لنظام «الدولة الوطنية الحديثة» (nation - state system Modern).

نظام الدولة الوطنية الحديثة

يمكن تقفّي أصول نظام الدولة الوطنية الحديثة رجوعاً إلى التطورات السياسية التي حصلت في أوروبا في القرن السابع عشر. في عام ١٦٤٨م، أنهت اتفاقية سلام ويستفاليا[1] سلسلة من الحروب الدينية بين القوى الأوروبية الرئيسية والولايات التي تسير على نهج الإصلاح البروتستانتي. بالاستناد إلى مبادئ مصاغة حديثاً عن سلطة الدولة وجغرافيتها، واجه النموذج الضامن للدولة المستقلة وغير الشخصية (أي غير المرتبطة باسم شخص معين) تحديات من مجموعة فسيفسائية من أنظمة حكم سياسية صغيرة جاءت من العصور الوسطى حيث كانت السلطة السياسية فيها محلية وشخصية في المركز لكن ظلت خاضعة لسلطة إمبراطورية أعلى.

على الرغم من أن ظهور نموذج ويستفاليا لم يحجب بين عشية وضحاها سمة الإمبراطوريات الضخمة في تخطي الحدود والتدخل في شؤون الآخرين، فإنه أخذ يقوي تدريجياً مفهوماً جديداً للعولمة مستنداً على مبدأ أن لكل الدول الحق نفسه في تقرير المصير. وسواء حكم تلك الدول ملوك حكماً مطلقاً كما في بروسيا وفرنسا أو حكمها ملوك دستوريون وقادة جمهوريون في نظم أكثر ديمقراطية كما في إنكلترا وهولندا، فقد شكّلت هذه المناطق الموحدة الأساس للنظام الوطني الحديث وغير الديني للسلطة السياسية. وفقاً للمحلل السياسي ديفيد هيلد، فإن نظام ويستفاليا احتوى على النقاط الأساسية التالية:

١ - العالم مؤلف من، ومقسم إلى، دويلات إقليمية مستقلة لا تتبع سلطة عليا أخرى.

٢ - عملية صياغة القوانين، تسوية النزاعات، وتطبيق القانون هي إلى حد بعيد بأيدي كل دولة على حدة.

٣ - القانون الدولي موجه لترسيخ القواعد الدنيا الضرورية لحماية استقلال الدول؛ الهدف هو خلق علاقات دولية ثابتة، لكن فقط إلى الحد الذي يسمح بتحقيق المصالح الوطنية.

٤ - مسؤولية الأفعال غير الشرعية ضمن حدود دولة ما «مسألة خاصة» تتعلق بأولئك الذين يتأثرون بها فقط.

٥ - جميع الدول متساوية أمام القانون، لكن القوانين الشرعية لا تأخذ بعين الاعتبار عدم التماثل في القوة بينها.

٦ - تتحدد الفروق بين الدول غالباً بمدى قوتها؛ يستمر مبدأ القوة الفعالة (أو ما يسمى أحياناً «بحق القوة» ولو كانت غاشمة) مسيطراً. افتراضياً لا توجد قيود شرعية تكبح اللجوء إلى القوة؛ لأن مقاييس الشرعية الدولية تمنح حماية دنيا فقط، لا تكون كافية للحفاظ على الدول في حالات كثيرة.

٧ - يجب أن تكون الأولوية الجماعية لجميع الدول هو العمل على اختزال الموانع الشرعية أمام حرية الدولة.

شهدت القرون التي أعقبت سلام ويستفاليا مزيداً من تمركز السلطة السياسية، من توسّع في الإدارات الحكومية، من تطور في حِرَفيّة السلك الدبلوماسي، ومن احتكار الدولة الناجح لوسائل القوة. علاوة على ذلك، أنشأت الدول أيضاً القوات العسكرية المطلوبة لحماية التبادلات التجارية المتزايدة، التي، في المقابل، ساهمت تباعاً في انتشار هذا الشكل الأوروبي من السلطة السياسية حول العالم.

وجد نظام الدولة الوطنية الحديث صيغته الناضجة في نهاية الحرب العالمية الأولى من خلال النقاط الأربع عشرة الشهيرة التي اقترحها الرئيس الأميركي /وودر ويلسون/ التي استندت على مبدأ تقرير المصير للشعوب. لكن فرضيته هذه بأن جميع الهويات المتماثلة يجب أن تكون دولاً لها حدود جغرافية تحت سلطة وطنية، فقد برهنت الأحداث صعوبة وضعها موضع التنفيذ عملياً.

علاوة على ذلك، في سبيل الاحتفاظ بالدول الوطنية في منظومته المفترضة التي تحدد العلاقات بينها كما لو أنها برج قانوني وأخلاقي، قدّم ويلسون من دون قصد للقوى القومية والعرقية المتزمتة نوعاً من الشرعية التي دفعت الدول الرئيسية في العالم إلى خوض حرب أخرى ذات مواصفات عالمية.

في نهاية المطاف، ترافق مشروع ويلسون حول الدولة الوطنية مع حلمه الشمولي في إقامة منظومة عالمية من الأمن الجماعي تحت رعاية منظمة عالمية جديدة، هي عصبة الأمم. وقد أدت فكرته في إعطاء التعاون الدولي صيغة مؤسساتية إلى تأسيس الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥م. بينما تجذّر عميقاً في العرف السياسي كل ما يقوم على نظام الدولة الوطنية الحديثة، فإن الأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى ناشئة لعبت أيضاً كمحفزات لتوسّع تدريجي في الأنشطة السياسية عبر حدود الدول،

مما أدى إلى تقويض سلطة الدولة الوطنية وتزايد هيمنة الدول العظمى في آن.

مع الاتجاهات المتزايدة بقوة نحو العولمة خلال عام ١٩٧٠م(٢)، أصبح واضحاً أن المجتمع الدولي المكوّن من دول مستقلة أخذ يتحول بسرعة إلى شبكة عالمية من العلاقات السياسية المتداخلة التي تتحدّى سلطة الدولة الوطنية. وفي عام ١٩٩٠م، مع مستهل حرب الخليج وغزو العراق، أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش جهاراً موت نموذج ويستفاليا بإعلانه ولادة نظام عالمي جديد لم يعد قادته بعد الآن يعترفون بفكرة أن الأفعال غير الشرعية التي تنتهك الحدود مسألة تخص الدول المتأثرة بها فقط. هل هذا يعني أن نظام الدولة الوطنية لم يعد قابلاً للحياة بعد الآن؟

موت الدولة الوطنية!

يجيب مؤيدو «العولمة الفائقة» على السؤال أعلاه بنعم. وفي الوقت نفسه، يعتبر معظمهم أن العولمة السياسية مجرد ظاهرة ثانوية تحركها قوى اقتصادية وتكنولوجية أكثر أساسية. فهم يجادلون بأن السياسة قد أصبحت عاجزة تقريباً نتيجة القوة الماحقة للاقتصاد المؤتمت التي لا يمكن إيقافها والتي سوف تسحق كل محاولات الحكومات لإعادة إنتاج سياسات وقوانين مقيدة.

كما يتطلع مؤيدو «العولمة الفائقة» بشغف، عندما يتم منح الاقتصاد حريته المطلقة، بغض النظر عن السياسيين، وخارج سلطتهم، إلى طور جديد في تاريخ العالم حيث يكون الدور الرئيسي للحكومة بمثابة ناقل ممتاز للرأسمالية العالمية وخادم لها.

من خلال إعلان نشوء «عالم من دون حدود»، يسعى مؤيدو العولمة الفائقة إلى إقناع عامة الشعب بأن العولمة تسعى حتماً إلى زوال الحدود الجغرافية كفكرة مهمة في فهم التغيرات السياسية والاجتماعية. وبناء على ذلك، تقترح هذه الزمرة من المؤيدين أن تتمركز السلطة السياسية في تشكيلات اجتماعية على مستوى الكرة الأرضية وتُظهر نفسها من خلال شبكات عالمية بدلاً من ظهورها من خلال الدول القائمة ضمن حدود جغرافية محددة.

في الواقع، هم يؤكدون على أن الدول الوطنية قد فقدت دورها المسيطر في الاقتصاد العالمي. ومع ما آلت إليه التقسيمات الجغرافية من فقدان الأهمية بشكل متزايد، أصبحت الدول أقل قدرة في تحديد اتجاه الحياة الاجتماعية ضمن حدودها. فعلى سبيل المثال، منذ أن قلّصت حركة الأسواق الرأسمالية التجارية العالمية حقاً مقدرة الحكومات في التحكم بمعدلات

تبادلاتها التجارية أو حماية عملتها، أصبحت الدول الوطنية سريعة التأثر بالقواعد المفروضة باختيارات اقتصادية تُقرّر في مكان آخر، حيث لن يكون لهذه الدول أية سيطرة عملية.

ويصر مؤيدو العولمة الفائقة على أن النظام السياسي الذي يحقق الحد الأدنى من الاكتفاء الذاتي للمستقبل سوف يتحدد بالاقتصاديات المحلية المرتبطة معاً في شبكة عالمية من الإنتاج والتبادل سلسة وخالية من العيوب.

لا توافق مجموعة المشككين بالعولمة الفائقة على العرض السابق، بل تركز الأضواء بدلاً من ذلك على الدور المركزي الذي لعبه السياسيون في إطلاق العنان لقوى العولمة، خصوصاً من خلال التحريك الناجح للسلطة السياسية. وبرأيهم، فإن التمدد السريع للنشاط الاقتصادي العالمي لا يمكن اختزاله عن طريق قانون طبيعي للبورصة ولا عن طريق تطوير تكنولوجيا الحواسيب. بل لم يكن ذلك ليحدث لولا القرارات السياسية التي اتخذتها الحكومات الليبرالية الجديدة في عامي ١٩٨٠م و١٩٩٠م والتي قضت برفع القيود العالمية عن رأس المال(٣). ما أن وُضعت هذه القرارات موضع التنفيذ، حتى آلت أسواق التجارة العالمية والتكنولوجية إلى ملكيات خاصة.

وهذه النتيجة الصريحة والسلبية لهذه السياسة، كما يراها مناهضو العولمة، تستدعي ضرورة دعم مسألة بقاء الدول وتعزيز دورها. وهم يصرون أيضاً على الأهمية المستمرة للوحدات السياسية التقليدية، من خلال عملها إما على شكل دول وطنية حديثة أو مدن عالمية.

من وجهة نظر محايدة، فإن الحجج التي يقدمها مؤيدو العولمة ومعارضوها تربك المتابع كما هو حاصل في الجدال الذي يدور في نسخة المناكفة الشهيرة «أيهما أقدم البيضة أم الدجاجة». ومع هذا، فالأشكال الاقتصادية المتبادلة هي في حالة حركية نتيجة قرارات سياسية، لكن هذه القرارات على الرغم من ذلك تتم في سياقات اقتصادية.

ومن الجدير بالذكر أن المظاهر السياسية والاقتصادية متداخلة بعمق على أرض الواقع. لا يوجد أي شك في أن التطورات الاقتصادية الحديثة مثل تحرير التجارة ورفع القيود عنها أربكت بشكل فعّال مجموعة الاختيارات السياسية المتاحة أمام الحكومات، خصوصاً في جنوب الكرة الأرضية. فعلى سبيل المثال، أصبح أكثر سهولة للرأسمال أن يهرب من الضرائب ومن القيود السياسية التي تفرضها عليه الدولة. وعلى هذا النحو، غالباً ما تقوض سوق

العولمة مقدرة الحكومات على إقامة سياسة وطنية مستقلة وتفرض مقاييسها المحلية الخاصة بها. بناء عليه، يجب الاعتراف بأن هناك تراجعاً في سلطة الدولة الوطنية باعتبارها كينونة مستقلة وتنازلاً عن سلطاتها إلى حكومات محلية وجغرافية إضافة إلى مؤسسات عالمية مختلفة.

ومن جهة أخرى، لا يعني هذا التنازل بالضرورة أن الدول الوطنية أصبحت في موقف المتفرج والضعيف تجاه أنشطة قوى العولمة.

فلا تزال الحكومات تتخذ التدابير اللازمة لجعل اقتصادها أقل أو أكثر جذباً للمستثمرين العالميين. إضافة إلى ذلك، ما زالت الدولة تحتفظ بالسيطرة على الثقافة، والبنية التحتية، وبشكل أكثر أهمية، على تحركات السكان. وفي الواقع، فإن السيطرة على الهجرة، وعملية تسجيل السكان ومراقبتهم، لا يزالان شاهدين على الاستثناء الأهم الذي يعاكس الاتجاه العام نحو العولمة. وبما أن ٢ ٪ من سكان العالم يعيشون خارج بلدانهم الأصلية، أصبحت عملية ضبط الهجرة مسألة مركزية في أكثر الدول تقدماً. وتحاول حكومات عدة ضبط تدفق المهاجرين، خصوصاً أولئك الذين ينحدرون من دول فقيرة في جنوب الكرة الأرضية بحثاً عن فرصة عمل، أو عن مواطنة جديدة معاصرة، أو الهروب من جحيم الحروب الأهلية إلخ.. حتى في الولايات المتحدة الأميركية، فإنه من أصل ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر وصل إليها خلال تسعينيات القرن العشرين المنصرم سجل منهم فقط نصف العدد الذي سُجِّل خلال العقدين الأولين منه.

أخيراً، فإن سلسلة قاسية من الإجراءات الأمنية الوطنية التي أنجزت على مستوى العالم كرد فعل للهجمات الإرهابية في الحادي عشر من أيلول عكست الحراك السياسي الذي يسير معاكساً لتنبؤات المؤمنين بعولمة عابرة لحدود الدول. وقد وصل الأمر لدى بعض مؤيدي الحقوق المدنية إلى الخشية من أن انتعاش الوطنية على نطاق واسع حول العالم يمكن أن يساعد الدول على إعادة فرض قيود على حرية حركة الأفراد والمنظمات الأهلية. وفي الوقت نفسه، فإن أنشطة شبكات الإرهاب العالمية أظهرت عدم كفاية أجهزة الأمن المحلية المستندة إلى نظام الدولة الوطنية الحديثة، مجبرة بذلك حكومات تلك الدول أن تنخرط في أشكال جديدة من التعاون الدولي.

وفي كل الأحوال، يجب أن نرفض التصريحات السابقة لأوانها عن موت وشيك للدولة الوطنية في حين يجب الإقرار بالصعوبات المتزايدة التي تواجهها

في تأدية بعض وظائفها الاعتيادية.

لقد أضعفت العولمة المعاصرة بعض الحدود التقليدية القائمة بين السياسات الأجنبية والمحلية، لكنها شجعت نموّ فضاء اجتماعي عابر للأماكن وأدت إلى ظهور مؤسسات وفككت، بالمقابل، بنية ترتيبات سياسية قائمة. مع بداية القرن الحادي والعشرين، يجد العالم نفسه في طور انتقالي بين أشكال أكثر حداثة لحكومة العولمة وبين الدولة الوطنية الحالية.

العولمة السياسية وحكومة العولمة

تبدو العولمة السياسية أكثر وضوحاً من خلال إقامة مؤسسات عابرة للجغرافيا وتنظيمات تكوّنت على مبادئ ومصالح مشتركة. عند هذا الطور المبكر من حكومة العولمة، تعادل هذه البنيات شبكة إلكترونية مؤلفة من مراكز قوى متداخلة شبيهة بسلطات بلدية ومحلية، وتكتلات جغرافية، ومنظمات دولية، وجمعيات طوائف خاصة وطنية وعالمية.

ونشهد الآن، على مستوى البلديات والمحافظات، تعاظماً متزايداً في عدد المبادرات السياسية والعلاقات العابرة للحدود بين السلطات المحلية في دولة ما ونظرائها في دولة أخرى. على سبيل المثال، أقامت محافظات صينية عدة وولايات أميركية فيما بينها بعثات دائمة ونقاط تواصل، بعض منها يعمل بشكل مستقل نسبياً مع مراقبة محدودة من حكومتيهما المركزيتين.

كما أن مقاطعات وولايات عدة في كندا، الهند، والبرازيل، بدأت في إنشاء أجنداتها التجارية وإستراتيجياتها الاقتصادية الخاصة بها في الحصول على قروض تمويل. وكمثال على التعاون الدولي على مستوى المقاطعات والولايات، هو ظهور شبكات المدن الفعّالة مثل «الرابطة العالمية للعواصم الكبرى» التي تطور مشاريع تعاونية تخص المسائل المحلية المشتركة بينها متخطية بذلك الحدود الوطنية. هناك مدن عالمية مثل طوكيو، لندن، نيويورك، وسنغافورة تميل لأن تترابط مع بعضها البعض أكثر من ترابطها مع مدن الدولة الواحدة.

وفق المستوى الإقليمي، هناك تكاثر غير عادي في المنظمات والاتفاقيات متعددة الجوانب. فالنوادي والوكالات الإقليمية التي انبثقت عبر العالم، جعلت بعض المراقبين يتوقعون في نهاية المطاف إزاحة الدولة كوحدة أساسية للحكم منطلقين من محاولات دمج الاقتصاديات الإقليمية، وقد تطوّرت هذه الكتل الإقليمية، في بعض الحالات، إلى اتحادات سياسية بمؤسسات حكومية مشتركة.

على سبيل المثال، بدأ الاتحاد الأوروبي

في عام ١٩٥٠م بخطة متواضعة اقترحها وزير الخارجية الفرنسي روبرت شومان لخلق مؤسسة «فوق وطنية» مسؤولة عن تنظيم إنتاج الحديد والفولاذ في ألمانيا وفرنسا. بعد نصف قرن، شكلت خمس عشرة دولة اتحاداً مترابطاً بمؤسسات سياسية تضع برامج سياسية عامة مشتركة ومخططات أمنية مترابطة. وفي الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م، قدّمت معظم الدول الشيوعية السابقة في أوروبا الشرقية أوراقاً رسمية للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي EU.

وعلى المستوى الدولي، شكّلت الحكومات عدداً من المنظمات العالمية، من بينها الأمم المتحدة UN، حلف الناتو NATO، منظمة التعاون والتطوير الاقتصادي OECD، ومنظمة التجارة العالمية WTO. تكون العضوية القانونية الكاملة لهذه المنظمات من حق الدول فقط، وتقع سلطة صنع القرار على عاتق ممثلي حكومات تلك الدول. ويبيّن انتشار هذه الهيئات عبر العالم أن الدول الوطنية تجد صعوبة متزايدة في إدارة شبكات مترامية الأطراف من العلاقات الاجتماعية المتداخلة، وبذلك يشكل عامل ضغط على هذه الدول للتنازل لصالح العولمة.

في نهاية المطاف، يتحدد إطار البنية الناشئة لحكومة العولمة بفعل المجتمع المدني المعولم، وهو ميدان يمتلئ من أقصاه إلى أقصاه بآلاف المنظمات الطوعية والجمعيات غير الحكومية. وهذه المنظمات غير الرسمية NGO مثل منظمة العفو الدولية، أو حركة السلام الأخضر، أو خصوم استخدام المفاعلات النووية لإنتاج الطاقة الكهربائية، والتي تستقطب كل واحدة منها ملايين المواطنين العاديين الذين هم على استعداد لتحدي القرارات السياسية والاقتصادية التي تصدرها سواء الدول الوطنية أو المنظمات الدولية.

يعتقد بعض الباحثين في شؤون العولمة أن العولمة السياسة قد تسهل ظهور قوى اجتماعية ديمقراطية عابرة للحدود الإقليمية تنمو ويشتد عودها في هذه الأجواء المزدهرة من مجتمعات مدنية عالمية. وتتنبأ هذه الأصوات المتفائلة بأن القوى الديمقراطية ستتحرر في الأخير من علاقاتها الضيقة وتنطلق إلى وحدات إقليمية منفصلة، مما يؤدي إلى خلق هيكل حكومة عولمة ديمقراطية تقوم على المثل الغربية الشاملة، وعلى تنظيمات شرعية دولية، وعلى نسيج من الروابط الواسعة بين المنظمات الحكومية وغير الحكومية. إذا تحقق مثل هذا السيناريو الواعد حقاً، عندئذ فالتاريخ النهائي للعولمة السياسية يمكن أن يقود إلى ظهور ديمقراطية شاملة ستشكل الأساس لانبثاق هويات

متعـــددة ضمن بنية مـــن التسامح المتبادل والمسؤوليـــة. وفقـــاً لديفيـــد هيلـــد، أحد المناصريـــن الرئيسيين لوجهة النظر هذه، ســـوف تحتوي ديمقراطية العولمة مستقبلاً على الملامح السياسية التالية:

١- برلمـــان عالمي مرتبـــط بالمناطق، والدول والأقاليم.

٢ - ميثاق جديد من الحقوق والواجبات يشمـــل مجـــالات مختلفـــة مـــن السياسة، والاجتماع، والاقتصاد.

٣ - فـــرز شكلي في المصالح السياسية والاقتصادية.

٤ - نظـــام قانوني عالمي متشابك يرتبط بآليات تنفيذ تنطلق من المحلي إلى العالمي.

ومع ذلك، فإن هناك عدداً من المعلقين الأقل تفاؤلاً تحدّوا الفكرة السابقة والقائلة بـــأن العولمـــة السياسية هي فـــي طريقها لتحقيق ديمقراطية عالمية.

ومعظـــم الانتقادات تنحصـــر في اتهام مثل هـــذه الرؤيـــة بالحالمـــة، وأنها تطلق العنـــان لمثالية مجردة سوف تخفق في رفع التطـــورات السياسية الجاريـــة إلى مستوى سياســـة عامة. وعبّـــر المشككون أيضاً عن شكوكهم في أن مناصري العولمة لا يأخذون بعين الاعتبار الجدوى الثقافية لديمقراطية العولمة، والتي تعني في أحد وجوهها انكفاء جميع الثقافات العالمية المغايرة.

بكلمـــات أخـــرى، هم يـــرون أن تكثيف التفاعلات الاقتصادية والسياسية والثقافية على مستوى العالم، يجعل إمكانية مقاومتها ومعارضتها حقيقياً تماماً بمقدار ما ينحرف مؤيدوهـــا عـــن رؤيـــة معتدلـــة للخلافات المتبادلـــة وميل للتسامح تجـــاه الفروق مع الآخرين.

الهوامش

١ - هي سلسلة من الاتفاقيات وقعت خلال عام ١٦٤٨م في أونسبروك ومونستر في ولاية ويستفاليا. أنهت هذه الاتفاقيـــات حرب الثلاثين عاماً فـــي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحرب الثمانين عاماً بين إسبانيا وجمهورية الدوتش، والتي اعترف بموجبها الإسبان باستقلالية جمهوريات الشعوب الناطقة بالألمانية.

٢ - لعبت التكنولوجيا المتطورة الدور الحاسم في صناعة التحولات الاجتماعية العالمية ومضاعفتها وتوسيعها وتكثيفهـــا. فالإنترنت، على وجـــه الخصوص، أخذ على عاتقه وظيفة حيوية في تسهيل العولمة من خلال خلق صفحة تواصل عالمية بين ملايين الأفراد والمنظمات والأحزاب.

٣ - هـــذا مـــا فعلته حكومة الرئيـــس رونالد ريغان في أميـــركا وحكومة رئيسة الـــوزراء مارغريت تاتشر في بريطانيا.

جدل حول الثقوب السوداء

❀
موسى ديب الخوري



في عام ١٩٧٥م، اكتشف ستيفن هوكنغ أن الثقوب السوداء ليست سوداء بالمقدار الذي نتصوره. فقد أخذ بعين الاعتبار آثاراً كوانتية وبرهن أنها تشع إشعاعاً حرارياً معيناً. وهو إشعاع ضعيف بالتأكيد، لكنه يؤدي مع مرور الزمن إلى تبخرها. فهل يمكن لجزء من المعلومات التي يحتويها الثقب الأسود أن تختفي بالكامل من الكون؟ لم تحسم المسألة إلا في عام ٢٠٠٤م، لكن الحل جاء عند تقاطع النظريتين الكبيرتين

❀ باحث وآثاري ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

في الفيزياء، النسبية العامة والميكانيك الكمومي، ولهذا فإن المسألة لم تحل بشكل نهائي حتى الآن.

هل يمحو الثقب الأسود الذي يتبخر كامل المعلومات التي يتضمنها أم أنها تنحفظ؟ هذه المسألة قسمت الفيزيائيين إلى فريقين مؤيد ومعارض طوال سنوات عدّة. ويعتقد العلماء اليوم أن المعلومات لاتختفي، لكن لا نعرف كيف يمكن الوصول إليها.

في نهاية عام ٢٠٠٨م، نشر الفيزيائي والكوزمولوجي ليونارد سوسكيند من جامعة ستانفورد وأحد آباء نظرية الأوتار الفائقة، كتاباً بعنوان The Black Hole War (حرب الثقب الأسود)، وجاء في العنوان الفرعي له: حربي مع ستيفن هوكنغ من أجل جعل العالم آمناً مع الميكانيك الكمومي، وجاء هذا الكتاب بمثابة إعلان له عن انتصاره في الجدل الذي طال سنوات كثيرة وناصره فيه عدد من الفيزيائيين والرياضيين تجاه ستيفن هوكنغ من جامعة كامبريدج في بريطانيا. وكان ستيفن هوكنغ قد نشر، وهو المرجع في نظرية الجاذبية والأخصائي ببدايات الكون والثقوب السوداء، بحثاً في مطلع السبعينيات من القرن الماضي كانت إحدى نتائجه أن كوننا يفقد ببساطة وبشكل كامل المعلومات. وكان ذلك يعارض بشكل جلي المبادئ الأساسية في الميكانيك الكمومي، وهو الذي دافع عنه سوسكيند وزملاؤه. وقد شحذت هذه الحوارات والمواجهات العلمية بشكل رائع العقول الرياضية عبر العالم، لا بل والمنطق المجرد والفيزياء النظرية على حد سواء.

وقد أعلن ستيفن هوكنغ في النهاية هزيمته «في هذه الحرب الخاصة بالثقوب السوداء». ومع ذلك، وعلى عكس ما يؤكده ليونارد سوسكيند، فإنَّ الكلمة الحاسمة في نهاية هذه القصة لم تكتب ربما بعد. ويقول سوسكيند:

يحكي كتابي قصة معرفة فكرية بين عدد من الفيزيائيين المشهورين طوال نحو ثلاثة عقود. وقد يبدو العنوان مبالغاً فيه. لكن بدا لي أنَّه يترجم التحديات التي مرَّ بها هذا الجدل، حيث كان يمكن أن تؤدي إلى انهيار الصرح النظري للفيزياء المعاصرة. فقد بدا أن النظريتين الكبيرتين اللتين برهنتا مرات ومرات، النسبية العامة والميكانيك الكمومي، تختلفان في وصف مستقبل المعلومات المحتواة في ثقب أسود. ونحن نعرف أنه عندما يتفاعل جسيم مع جسيم آخر، يمكن أن يتم امتصاصه أو ينعكس أو يتحلل إلى جسيمات عدة. لكن يمكننا دائماً إعادة

بنـــاء حالته الأصلية (الشحنـــة الكهربائية والكتلة ولفه.. إلخ)، وذلك ابتداء من نتائج التفاعل. وتكون المعلومة التي يحملها هذا الجسيم بالتالـــي محفوظة دائماً. إنه مبدأ جوهري في الميكانيك الكمومي بل ويمكن أن يكون المبدأ الأكثر أهمية على الإطلاق في الفيزياء كلها، الكوانتية أو الكلاسيكية على حد سواء. لنأخذ مثال الحاسوب.

إن المعلومـــات التي تخزَّن على قرصه الصلب يمكن أن تُمحى. لكنها في الحقيقة لم تمـــحَ نهائياً، بل يمكن القـــول في أسوأ الأحوال إنَّها قذفت إلى الجو المحيط بنا، على شكل كمية مـــن الطاقة التي تمتصها الجزيئـــات المحيطة أيضـــاً. هكذا تكون المعلومـــات البدئية قد تشوهت تماماً، ولا يمكن استعادتها علـــى الأقل ضمن الوضع الراهن للتكنولوجيـــا. لكنها لم تختف كلياً وللأبـــد! وفـــي عـــام ١٩٧٦م، رأى ستيفن هوكنـــغ أن الثقـــوب السوداء تخـــرق مبدأ انحفاظ المعلومات هـــذا، بسبب صيرورة تبخر الثقب الأسود التي تؤدي إلى اختفائه تدريجياً، وبالتالي اختفاء المعلومات التي كان يحويها.

إنَّ جوهر هذا الخـــلاف كما يمكن أن نستشـــف يتعلق بأحد أكثر جوانب الفيزياء جوهريـــة، ألا وهـــو طبيعة السببيـــة. إن فهمنـــا للعلاقة السببيـــة ذات الأثر يرتكز بشكل أساسي علـــى نظرية النسبية العامة لآينشتاين. وقد صيغت في عام ١٩١٥م على شكل سلسلة من المعادلات، وهي عبارة عن نظرية للزمان والمكان والجاذبية. وهي لا تعتبـــر الجاذبية كقوة، علـــى عكس نظرية نيوتن، بـــل كانحناء، وتشويـــه في هندسة الفضـــاء الزمكانـــي. وأحـــد أوَّل الحلول لمعـــادلات آينشتاين الـــذي يصف فقاعة كروية من المادة يمكـــن أن تشكل نموذجاً بسيطاً لنجم. ونعرف منذ ثلاثينيات القرن الماضـــي، إنما من دون أن نعرف لماذا، أن هـــذه الكرة إذا كانت كثيفـــة ومتراصة بما فيه الكفاية، فإن السببية كانت تخضع في جوهرها المباشر لشيء فائق الغرابة. فعلى سبيل المثال، إذا تم ضغط كتلة مماثلة لكتلة الشمـــس في كرة قطرها بضعة كيلومترات فقط، فـــإنَّ جاذبيتها ستصبـــح هائلة إلى درجة أن الضوء لـــن يستطيع الإفلات من سطحها. وهكذا عندما ننظر إلى مثل هذا الجســـم من بعيد فإنه ســـوف يبدو أسود. أمـــا الكرة نفسها فإنها تصل إلى مرحلة لا تستطيع مقاومة جاذبيتها الخاصة فتنفجر كلياً في جزء من الثانية.

إنَّ هـــذه الكرة التي تنهـــار على نفسها هـــي ما نسميه اليوم «الثقـــب الأسود». إن أحد أسس نظرية النسبية كان المبدأ الذي وفقه لا يمكـــن لأي جسم أو تأثير فيزيائي

أن ينتقل أسرع من سرعة الضوء، فإذا كان الضوء لا يستطيع الإفلات من ثقب أسود فهذا يعني أن لا شيء يستطيع الإفلات من الثقب الأسود. ولا يمكن عندها بشكل خاص حصول أي نوع من نقل المعلومات من قلب الثقب الأسود باتجاه خارجه. ولهذا يوصف سطح ثقب أسود بعبارة «أفق الحدث». بعبارة أخرى، فإنَّ الأحداث الحاصلة داخل الثقب الأسود أو داخل هذا الأفق لا يمكن أن تمارس أي نوع من التأثير على الأحداث خارج الثقب الأسود.

في الستينيات من القرن الماضي، أصبح من المؤكد أن الثقوب السوداء كانت أكثر من مجرد شطحات أو فضول نظري للفيزياء. فقد كشفت أرصاد فلكية عن طرق عدّة يمكن أن تتشكل وفقها الثقوب السوداء، وكان أكثرها احتمالاً انفجار نجم كبير الكتلة استهلك مادته. وبدأ عندها علماء الفيزياء الفلكية يحاولون التحقق إذا ما كانت الخصائص الغريبة للثقوب السوداء يمكن أن تنتج آثاراً يمكن رصدها. وخلال العقود القليلة التالية راكمت المراصد والأقمار الصناعية كتلة من المؤشرات على وجود حقيقي للثقوب السوداء.

كان ستيفن هوكنغ من رواد فيزياء الثقوب السوداء. وقد برهن بالتعاون مع الفيزيائي والرياضي الإنكليزي روجر بنروز العديد من المبرهنات العامة الأساسية حول الطريقة التي يتشكل بها أفق الحدث وحول ما يحصل للجسم الذي ينهار ليشكل الثقب الأسود.

ولكن في عام ١٩٧٥م أعلن هوكنغ عن نتيجة جديدة كانت مفاجئة تماماً. فمعظم الأبحاث التي كانت تتم على الثقوب السوداء حتى ذلك الوقت لم تكن ترتكز على الميكانيك الكمومي الذي يشكل مع النسبية العامة أهم تقدم علمي في القرن العشرين. وإحدى الفرضيات الأساسية في الميكانيك الكمومي أنه بوجود منبع للطاقة مناسب يمكن أن تظهر جسيمات من المادة تسمى «الكم»، حتى وإن كان الفضاء فارغاً. والمادة هنا تشير إلى جسيمات الضوء - الفوتونات - وإلى مكافئاتها بالنسبة للجاذبية وتسمى غرافيتون.

استطاع هوكنغ بفضل برهان رياضي متقدم أن يبرهن أنه بانفجار نجم فإنه تتخلق في جواره في الفراغ المحيط به تيارات من الجسيمات تشع في دفق منتظم لفترة طويلة بعد اختفاء النجم. وبما أن هذا الإشعاع، الذي سمي إشعاع هوكنغ، يحمل الطاقة، فلا بد بالتالي من أن شيئاً آخر يفقد الطاقة بالمقابل بحيث يصبح ثمة توازن في انحفاظ الطاقة.

أما ماهية هـذا الشيء فلا يمكن أن يكون سوى جسم الثقب الأسود نفسه، أي كتلته (وذلك اعتماداً على المعادلة التي كان قد بيـن آينشتاين بوساطتها قبل وقت طويل من ذلـك أن الطاقة والكتلـة متكافئتان). فـإذا كان الثقب الأسود يفقـد من كتلته، فهذا يعني أن حجمه يتقلص بشكل ثابت ومستمر وفق صيرورة طويلة من «التبخر» كما سمـاه هوكنغ. وهو أمـر يستمر حتى يختفـي الثقب الأسود نفسـه. وقد حسب ستيفن هوكنـغ بشكل خاص أن الإشعاع الصادر يملك سمة خاصة - هي عبارة عن طيف حراري - الأمر الذي يعني أنه يشكل شكلاً من الحرارة المشعة المزودة بحرارة خاصة تتعلق بكتلة الثقب الأسود. فنظرية ستيفن هوكنغ كانـت تؤسس بالتالي رابطاً وثيقاً وغريباً بين الثقوب السوداء والفيزياء الكمومية وقوانيـن الترموديناميك، وهو رابط لا يزال بعـد ثلاثة عقود من طرحه يثير مزيـداً مـن الحيرة والارتبـاك بين الفيزيائيين.

كانت هـذه النظرية تبيـن أن الثقوب السـوداء ليست سوداء تمامـاً بل إنها تشع الحرارة وتتبخر شيئاً فشيئاً. وكان لإعلان هـذه النتيجـة صدى كبير ودفـع بستيفن هوكنغ إلى مقدمة الشهرة الدولية في عالم الفيزياء والكوزمولوجيا. لكن لم يكن الحبر الـذي كتب به ستيفن هوكنـغ هذا المقال قـد جف بعد حتى أيقـن أن نتائجه كانت تطرح لغزاً قد لا يكون له حل. فإذا اختفى نجم في ثقب أسود، واختفى الثقب الأسود بـدوره، فما الذي يصير إليه ما كان يشكل أساس وأصل هذا النجم؟ إنَّ الجواب الذي سرعان ما يأتي إلى الذهن - وهو أن هذه المكونات كافة تخرج من الثقب الأسود مع إشعاع هوكنغ - يطـرح مشكلة بحد ذاته. فكتلـة النجم تتألـف بشـكل أساسي من بروتونات ونترونات.

غير أن حـرارة ثقب أسـود كتلته كتلة نجم تكـون منخفضـة جداً (أقـل من ١ ميكروكلفـن) بحيث إن الإشعـاع الصادر يكون بشـكل رئيسي على شـكل فوتونات منخفضة الطاقـة. ولا يبدأ الثقب الأسود بإصـدار البروتونات والنترونات إلا عندما يكون قـد انضغط إلى أبعاد ما تحت ذرية ويصبح بالتالي حـاراً بدرجة كافية. ولكن حتى ذلك الوقت، فـإنَّ مجمل كتلة الثقب الأسود أو معظمها تكون قد أشعت، والكتلة الباقية لا تعود كافية ببساطة لكي «يلفظ» الثقب الأسود مكونات النجم الأصلية.

إنَّ مثل هـذا الانعدام للمادة الممتصة فـي الثقب الأسـود يطرح إشكاليـة أكثر صعوبـة أيضاً، طالمـا أن صيرورة التبخر تدمر كما يبدو بشكل كامل المعلومات - ليس

فقط المعلومة المتعلقة بنمط الجسيمات، بل كذلك المعلومة المتعلقة بالمكان الذي كان موجوداً فيه أو يوجد فيه، والطريقة التي ينتقل بها.

بعبارة أخرى، فإنَّ السمات الدقيقة للمادة الغارقة في الثقب الأسود تضيع بشكل لا يمكن تعويضه. وهكذا أخذ هوكنغ على عاتقه التأكيد على أن هذه المعلومة كانت تدمر، الأمر الذي يعني ببساطة أن الكون لا يحفظ هذه المعلومة.

لفهم هذه الحالة التي وصل إليها المجتمع العلمي في ذلك الوقت، لا بد من معرفة أن أعمال ستيفن هوكنغ كلها كانت تتم في إطار نظرية النسبية العامة. إنَّ قسماً كبيراً من أبحاثه مع روجر بنروز كانت تتعلق بدراسة حالات الفرادة الزمكانية. وتشير هذه الحالات إلى تخوم أو حدود للزمان والمكان تظهر على سبيل المثال إثر انهيار ثقالي. لنتخيل كرة من المادة كروية تماماً وهي تنضغط على نفسها حتى يصبح قطرها صفراً. عندها تصبح كثافة المادة فيها لانهاية. وينطبق ذلك على الحقل الثقالي، وبالتالي على الانحناء الزمكاني. وتشير نقطة الانحناء اللانهائي – أي الفرادة – إلى نهاية الفضاء والزمان، أي الحد الذي تصبح بعده النظرية غير فاعلة. في النسبية العامة تُدَمَّر المعلومة بالضرورة عند ملاقاتها للفرادة.

ووفق أعمال هوكنغ وروجر بنروز فإن الثقوب السوداء كافة (بما فيها تلك التي كانت مادتها المنكمشة على نفسها ليست كرة كاملة الكروية) تخفي فيها فرادة كامنة في قلبها. وبالنتيجة، كان من الممكن اللجوء إلى آلية طبيعية لحل لغز المعلومات في الثقب الأسود: فكل معلومة تدخل في ثقب أسود تُبتلع بوساطة الفرادة وتمحى بالتالي بشكل نهائي. وعندما يتبخر الثقب الأسود، فإنَّ الفرادة نفسها تنتهي وتختفي من الكون حاملة معها المعلومة.

فيزيائيون مخالفون لهذا الرأي

مع ذلك، كان عدد كبير من الفيزيائيين غير راضين عن هذه النظرية. وكان منهم بشكل خاص الذين يعملون على فيزياء الجسيمات الدقيقة أكثر من الذين يعملون على النسبية العامة إذ كانوا يعتبرون أن قوانين الميكانيك الكمومي قوانين مطلقة. والحال أن الميكانيك الكمومي يقول بشكل منهجي وأكيد إن المعلومة لا يمكن أن تضيع أو تدمر. فيمكن للمعلومة أن تشوه حتى يصبح من المستحيل فك رموزها وبالتالي لا يمكن استخدامها، لكن كائناً إلهياً على سبيل المثال يملك نظرة شاملة للكون يجب أن يستطيع من حيث المبدأ معرفة أدق وأبسط معلومة منتشرة في أرجائه.

ما هو المنطق الذي استند عليه هوكنغ؟ إنَّ المعلومات التي تحملها مكونات شيء تؤثر عليه قوة جاذبية ثقب أسود تُفقد بشكل نهائي، ما أن يجتاز هذا الشيء المنطقة التخيلية من الفضاء المسمى «أفق الأحداث». ويمثل أفق الحدث هذا بشكل سطح كروي، وهو عبارة عن نقطة لاعودة لا يمكن للمادة أو الضوء الإفلات بعد الدخول فيها. فهو يحدد داخل وخارج الثقب الأسود، الذي تنتهي بنيته الجيوديسية على شكل قمع بنقطة فائقة الصغر والكثافة تسمى الفرادة. فأي جسم ما أن يجتاز أفق الحدث لا يمكنه العودة منه والخروج من الثقب الأسود، إلا إذا انتقل بسرعة أعلى من سرعة الضوء خارقاً بذلك قوانين النسبية العامة. ووفق هوكنغ، فإن الثقوب السوداء تصبح بذلك أشبه بآكلة المعلومات.

بدأت حرب الثقوب السوداء أو الجدل بين هوكنغ ومعارضيه بعد عام ١٩٧٦م بسنوات عدة، لأنَّ فرضية هوكنغ ظلت سنوات عدة مقبولة بين الفيزيائيين والكوزمولوجيين. ولم يطرح أحد حججاً جدية ضدها. يقول سوسكيند:

في عام ١٩٨٣م عرفت بهذه المخمنة، والتقيت بهوكنغ للمرة الأولى. كنا نشارك حينها في مؤتمر نظم في سان فرانسيسكو من قبل الملياردير ورنر إرهارد، الشغوف بالفيزياء والجدالات الكبيرة بين الفيزيائيين. ولم نكن كثيرين، لكن بين المدعوين كان يوجد كبار من شيوخ الفيزيائيين والحائزين على جائزة نوبل، أو الذين حازوا عليها لاحقاً، مثل موراي جل مان Murray Gell-Mann وشلدون غلاشو Sheldon Glashow وفرانك ويلكزيك Frank Wilczek وجيراردت هوف. وكان هوكنغ قد بدأ يعاني في ذلك الوقت من مرضه العضال (شاركو charcot) الذي حرمه من استخدام أعضائه. لكنه كان لا يزال يستطيع التعبير من دون اللجوء إلى الجهاز الذي يستخدمه اليوم لتحويل أفكاره إلى معلومات صوتية. وقد شرح عندها لماذا كانت ظاهرة تبخر الثقوب السوداء تقود إلى الاختفاء البطيء إنما الحتمي للمعلومات الماثلة في الكون.

ويتابع سوسكيند:

كنا أنا وجيراردت هوف الوحيدين اللذين أبديا حيرتهما حول المخمنة، وليس أكثر من ذلك، وربما يشير ذلك إلى براعة البرهان الرياضي الذي قدمه هوكنغ وقوة حجته. لم نكن مختصين بالنسبية العامة، بل بفيزياء الجسيمات. وكنت أهتم من جهتي بأسس وجوهر الميكانيك الكمومي، وكنت لا أزال أعمل على نظرية الأوتار الفائقة،

وكانت آنذاك نظرية افتراضية تتكون وفقها الجسيمات كافة من أوتار لامتناهية الصغر في حالة اهتزاز. ولم نكن في الواقع نعرف الكثير حول بنية وفيزياء الثقوب السوداء. لا يمنع مع ذلك وعلى الرغم من أننا لم نجد أخطاء في برهان هوكنغ أننا كنا مقتنعين بأن هذا الأخير أخطأ في زاوية ما، وإلا فإن المبادئ الأساسية في الفيزياء كانت معرضة كلها للسقوط!

ويؤكد هؤلاء الفيزيائيون المنشقون إذاً، أنه لو كانت نظرية الميكانيك الكمومي مطبقة بشكل صحيح على الحقل الثقالي، فيجب أن نتمكن من تحديد الطريقة التي تحفظ فيها المعلومة المتعلقة بالنجم. لكن مع الأسف لا يوجد حتى اليوم نظرية تجمع بشكل متناغم نظريتي الميكانيك الكمومي والجاذبية. ومع أن نظرية الأوتار طرحت بعض الآمال في هذا المجال، لكنها لم تستطع بعد تقديم نظرية متناسقة أن تجمع هاتين النظريتين. ووفق هذه النظرية فإن جسيمات المادة كافة توافق بشكل أساسي اهتزازات أوتار صغيرة لامتناهية في الصغر. لكن نظرية الأوتار ليست قابلة حتى الآن للاختبار أو البرهان. ولهذا ظل عدد كبير من العلماء يقرون بأن تناول مشكلة معلومات الثقوب السوداء تبقى خارج إطار النظريات العلمية القائمة.

وكانت أسباب عدم الوفاق كثيرة بالتالي بين العلماء أنفسهم.

يقول سوسكيند:

في عام ١٩٩٤م، زرت جامعة كامبريدج لشهر وكان هوكنغ لا يزال يشغل كرسي الرياضيات فيها. لكنه كان في غاية المرض ولمرة أخرى لم نستطع اللقاء والحوار حول وجهتي نظرنا. وقبل العودة إلى ستانفورد قررت أن أزور زميلي وصديقي جيراردت هوف في هولندا. وكانت فرصة أدت إلى تبلور حلٍّ لهذا التعارض كان في بدايته.

وقد سميتُ هذا الحل «المبدأ الهولوغرافي». ولا أذكر بالضبط من طرحه أولاً، أنا أم صديقي. لنقل إنها فكرة بلورناها معاً. وهي تختصر على النحو التالي: إن الكمية القصوى من المعلومات المتضمنة في حجم من الفضاء لا يمكن أن تكون أكبر من التي تخزن على سطح هذا الحجم، حيث تشغل كمية أولية (أو «بت») من المعلومات ربع مساحة بلانك. ومساحة بلانك هي وحدة قياس دنيا في الميكانيك الكمومي توافق طول بلانك. والاسم المعطى لهذا المبدأ يأتي من التشابه مع الهولوغرام، حيث يتم وفقه بناء صورة ثلاثية البعد انطلاقاً من إسقاط التفاصيل المشفرة في فيلم ثنائي الأبعاد. ووفق المبدأ الهولوغرافي هذا فإن أفق

الثقب الأسود يشتمل على مجمل المعلومات المتضمنة داخله. فالأفق يحفظ المعلومات التي تحملها المكونات كافة التي أدت إلى نشوء الثقب الأسود، بل والأشياء التي مرت عبــره كافة وقد جذبتها قــوة ثقالته. يعاد تشكيل هذه المعلومـــات بوساطة فوتونات يتم إنتاجها خلال صيرورة التبخر. وهكذا فإنَّ المعلومات المرتبطة بالثقوب السوداء تعــود فتحقن في الكون إنمـــا بشكل فائق التشـــوه. ولهـــذا لا يجب اعتبــار الثقوب السوداء بالعة للمعلومات بل خزانات لها.

نشـــر كوسكيند هـــذه الأعمال في عام ١٩٩٥م في مقال بعنوان: الكون كهولوغرام. وكانت الفكرة فيه تبدو غامضة، ومعاكسة للحدســ تمامـــاً، لكنها سرعـــان ما لفتت الانتباه إليها. وبـــدأت أعمال نظرية كثيرة تنشر لتدعمها. في عام ١٩٦٦م، قام كل من كومروم فافـــا Cumrum Vafa وأندرو سترومنجر Andrew Strominger من جامعة هارفرد بنمذجة حسابية لنمط معين من الثقوب الســـوداء المسماة «المتطرفة» أو «الشديدة»، (وهي ثقوب سوداء مشحونة كهربائيـــاً وتـــوازن فيها الثقالـــة بالضبط التفاعـــلات الكهرومغنطيسيـــة)، وذلـــك بمساعدة نظرية الأوتـــار الفائقة، وأدوات رياضية أخـــرى، تسمى «البرين»، وتقع في أطـــراف الأوتار المهتـــزة! واستنتج هذان العالمـــان أن كمية المعلومـــات المتضمنة داخل ثقب أسود كانت متناسبة بالضبط مع تلك الموجودة على سطح أفق الحدث. بعد ذلك، حصـــل فيزيائيون آخرون على نتائج مشابهـــة مع ثقوب سوداء من نمط مختلف قليلاً. ثم توصل كل من كورت كالان وخوان ملدسينـــا من جامعة برينستون إلى نمذجة صيرورة تبخر الثقـــوب السوداء باستخدام مبـــادئ نظريـــة الأوتار الفائقـــة فقط مع الميكانيك الكمومي، مبرهنين بذلك بشكل ضمني، أن المعلومـــة كانت تتحفظ خلال هذه الصيـــرورة. عندها بدأ عدد كبير من الفيزيائييـــن الذين كانـــوا في صف هوكنغ يعيدون النظر في رأيهم.

فقد نجـــح هذان العالمـــان باستخدام نظرية الأوتار الفائقة لحساب إيقاع تبخر نوع خاصـــ من الثقـــوب الســـوداء، وهي الحالـــة التي يملـــك فيها الثقـــب الأسود شحنـــة كهربائية قوية جـــداً إلى درجة أن قوته الكهربائية وقوته الثقالية تكونان شبه متكافئتيـــن. وبيَّنت طريقتهمـــا التي كانت ترتكز على الميكانيك الكمومي البحت، أنه في حالة الثقوب السوداء الخاصة هذه كان الثقب الأسود يتبخـــر بشكل جيد كما كان يتنبأ ستيفن هوكنـــغ. لكنها بينت أيضاً أنه على الرغم من هـــذا التبخر فإنه بإمكاننا مع ذلك إيجاد المعلومة.

في عام ١٩٩٧م، قام جون برسكيل، وهو فيزيائي من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، بمراهنة ستيفن هوكنغ بأن الأمر سينتهي بالبرهان أن المعلومة كانت محفوظة خلال صيرورة تبخر الثقب الأسود. وشيئاً فشيئاً بدأ العلماء يميلون بأعداد متزايدة إلى ليونار سوسكيند وجيراردت هوف متفقين مع طرح جون برسكيل. كانت المسألة في جوهرها مسألة حدس، لأنَّه لم يكن ثمة نتائج حاسمة لصالح فرضية حفظ المعلومة.

بالنسبة لليونارد سوسكيند، فقد حمل حساب كورت كالان وخوان ملدسينا المميَّز الضربة القاضية لفرضية ستيفن هوكنغ. يقول سوسكيند:

لقد جاء تغيير هوكنغ لقناعته لأن ما جاء به ملدسينا إثبات آخر غير مباشر للمبدأ الهولوغرافي، فقوة الجاذبية الموصوفة وفق نظرية الأوتار، ضمن حجم في الفضاء الزائدي الرباعي الأبعاد، كانت مكافئة على المستوى الرياضي لنظرية كمومية في التفاعلات بين الجسيمات الموجودة على سطح هذا الحجم. فكل ما يظهر في الداخل يكون عبارة عن هولوغرام، وإسقاطاً للواقع المرتبط بسطح هذه المنطقة. وكان لأعمال ملدسينا وقع وأثر كبيران. فقد أثبتت من وجهة نظري، أن المعلومة المتضمنة في الثقب الأسود لا تُفقد نهائياً بحيث لا يمكن استعادتها، بل تسجل وترمز إن صح التعبير على سطح أفق الحدث. لقد وجد هوكنغ بعدها نفسه وقد أصبح أكثر عزلة. وانتهى به الأمر إلى الإقرار في عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥م بأنَّه كان مخطئاً.

وكان هوكنغ في عام ٢٠٠٤م، قد أعلن أنه غيّر رأيه حول تناقض المعلومة وأقر بخسارته الرهان مع برسكيل مهدياً إياه موسوعة في لعبة البيسبول!

مع ذلك فإنَّ المسألة لم تحل بشكل نهائي. فمنذ البداية كان من الواضح أن نظرية ستيفن هوكنغ التي تصف تبخر ثقب أسود لا تعود فعالة ما إن ينتقل هذا الأخير وهو ينضغط إلى أقل من حجم معين. ويقدر عموماً أن هذا الحجم الحدي أقل بنحو عشرين مرة من رتبة نواة الذرة (وهو ما يسمى بطول بلانك، أي ١٠-٣٣ سم). إننا نستطيع على المستوى الكبير أن نعالج الحقل الثقالي لثقب أسود بشكل كلاسيكي، أي بمعالجة مظاهره الكمومية على أنها تخلخلات ضعيفة. ولكن على مستوى طول بلانك تصبح الآثار الكمومية ملحوظة وكبيرة. والفرادة التي تنبأت بها النسبية العامة تتأثر تماماً حتى وإن كان لا أحد يعرف بماذا! ونظرية الأوتار كما سبق

وأشرنا بعيدة اليوم عن حل هذا الإشكال، مثلها مثل نظريات أخرى تتعلق بالجاذبية الكمومية. ولا شك أن إحدى الإمكانيات ستكون مع ذلك هو أن الفرادة سوف تجد نفسها وقد استبدلت بنفق أو أنفاق عدة أو أنفاق الديدان التي تربط زمكاننا مع زمكانات أخرى. فإذ تبدى أنَّ هذه الفرضية صحيحة فإنَّ المعلومات ستتمكن من اجتياز النفق وستكون قد فقدت تماماً بالنسبة لكوننا وعالمنا، لتعود فتظهر في كون آخر. وبشكل عام، فإن المعلومة تكون محفوظة، حتى وإن كان يبدو أنها تضيع بالنسبة لكون خاص. ويبدو مع ذلك أننا بعيدون عن حل المسألة عبر برهان شامل.

إنَّ الحساب الذي قام به كل من كورتيس كالان وخوان ملدسينا يتعلق بحالة خاصة وهامة، لكن في الفيزياء النظرية يمكن للحلول الخاصة أن تؤدي إلى إجابات خاصة إنما غير شاملة. ولا أحد حتى الآن يعرف كيفية تطبيق نظرية الأوتار على ثقب أسود نوعي وشامل.

هل يمكن حل المسألة باللجوء إلى مبدأ جوهري يتجاوز الصعوبات التقنية النوعية؟ في عام ١٩٧٠م، استخدم جيكوب بكنستاين الميكانيك الكمومي لحساب كمية قصوى من المعلومات التي يمكن أن يبتلعها ثقب أسود. إنَّ كمية المعلومات الكلية في كرة من المادة العادية تتناسب ببساطة مع كمية المادة، وبالتالي مع حجم الكرة. غير أن بكنستاين اكتشف أنه في حالة الثقب الأسود فإن هذه العلاقة مختلفة تماماً: فمحتوى المعلومات متناسب مع سطح الثقب الأسود. جاءت هذه النتيجة غير المتوقعة والغامضة لتزيد من غموض المسألة، وقد أكد عليها ستيفن هوكنغ في بحثه الشهير الذي نشر عام ١٩٧٥م حول إشعاع الثقب الأسود. وتذكِّر هذه النتيجة قليلاً بمثال الهولوغرام، حيث تكون الصورة في ثلاثة أبعاد مرمزة على سطح ثنائي البعد. واقترح ليونار سوسكيند أخذ العلاقة بين سطح الثقب الأسود والمعلومات كنقطة انطلاق وجعله مبدأ كونياً سماه المبدأ الهولوغرافي. والمبدأ الهولوغرافي في شكله العام يقول إنَّ المعلومات الماثلة في منطقة معطاة من الفضاء محتواة تماماً وبالكامل على السطح ثنائي البعد المحيط بهذه المنطقة. فإذا كان المبدأ الهولوغرافي صحيحاً، فإنَّ واقع أن ثقباً أسود يتشكل ثم يختفي لا يغير في شيء من المحتوى المعلوماتي لداخل المنطقة المحددة بالسطح الثنائي البعد. إنَّ الكمية الكلية للمعلومات تظل غير متغيرة. لكن للأسف فإن الإثباتات التي تؤكد صحة المبدأ الهولوغرافي لا تزال نادرة جداً.

يعترف الفيزيائيون أن الريبة الكوانتية، التي اكتشفها ويرنر هايزنبرغ، تشكل مصدراً أساسياً وجوهرياً في الطبيعة لمعرفة لا يمكن بلوغها. فإذا ما تأكد يقين هوكنغ الأصلي - ومن الواضح أنه من المبكر جداً القول بخطئه بشكل نهائي منذ الآن - فإن ذلك سيعني أن الكون يخفي مصدراً ثانياً للمعرفة من غير الممكن الوصول إليها: ألا وهو امحاء المعلومات بوساطة الثقوب السوداء. كان آينشتاين يكره الميكانيك الكوانتي بسبب عنصر الريبة فيه. وكتب مرة أن الله لم يكن يلعب بالنرد بالنسبة للكون. وبعد اكتشافه لإشعاع الثقوب السوداء كتب ستيفن هوكنغ معدلاً عبارة آينشتاين:

الله يلعب بالنرد وليس ذلك فقط، بل هو يرمي النرد أحياناً إلى موضع لا نستطيع رؤيته فيه.

وفي الحقيقة، فقد قدَّر هوكنغ النتائج الهائلة والبعيدة لامحاء المعلومات. ربما كان النرد هو لعبة المصادفة، لكن على الأقل فإنَّ الاحتمالات تخضع لقواعد رياضية محددة. إنَّ كوناً كمومياً يخفي ربما فيه جزءاً من الريبة، لكنه لا يخلو من القوانين. بالمقابل، فإن امحاء المعلومات يشكل انقطاعاً أكثر جذرية بكثير في نظرياتنا وفهمنا للكون، لأنَّ مثل هذه الظاهرة لا تخضع لأي قانون معروف. كان هوكنغ ليقول إنَّ الله عموماً يلعب بالنرد من دون أن يغش، إنما يحدث في بعض الأحيان أن يرمي النرد في سلة المهملات. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فلا شيء ينتج عن ذلك أقل من تراتبية كونية ربما تكون لانهائية.

من جهة أخرى، ومنذ نحو عقد من الزمن، أصبح عدد أكثر فأكثر من الفيزيائيين يعملون على المبدأ الهولوغرافي وتطبيقاته، وخاصة في إطار نظرية الكرومودیناميك الكوانتية، وهي نظرية تفسر التحام الجسيمات في قلب النوى الذرية، وحتى في فيزياء المادة الصلبة. وأنا مقتنع اليوم أن المبدأ الهولوغرافي هو مبدأ جوهري للقوانين التي تحكم الكون وفهمه. فنحن نعرف مثلاً منذ عام ١٩٩٨م أن كوننا خاضع لتوسع متسارع. فإذا نظرنا إليه بعيداً جداً بما يكفي، أي نحو ١٥ مليار سنة ضوئية في كل الاتجاهات، سنلاحظ مناطق من الفضاء حيث توجد مجرات تبتعد عنا بسرعة الضوء. إن إحدى الخصائص الأكثر تميزاً في كون متسارع التمدد هي أن المسافة بين المراقب وهذه المناطق البعيدة تظل دائماً هي نفسها. فنحن هكذا نكون محاطين بأفق كوني هو

سطح كروي تخيلي إلى ما ورائه لا يمكن لأي إشارة أن تصلنا. هكذا تبدو المجرات والنجوم وكأنها تُبتلع في هذا الأفق ما أن تتجاوزه. فكل شيء يجري كما لو كنا في مركز ثقب أسود معكوس، بدلاً من أن يمتص المادة يلفظها. وتشير أبحاث حديثة بالمقابل إلى أن خصائص الأفق الكوني مشابهة لخصائص أفق الثقوب السوداء. فأي وصف أو نظام يجب أن نعطي بالتالي للأجسام التي توجد إلى ما وراء الأفق الكوني؟ وهل هي حقاً أجسام حقيقية؟ وما هو الدور الذي تلعبه في وصف كوننا؟ إن هذه الأسئلة سوف تحتل مكانة مركزية في علم الكونيات المعاصر.

المراجع:

1- J. Bekenstein, L'Univers holographique, Pour la Science n° 313, novembre2003.
2- J. Maldacena, La gravité est-elle illusion?, Pour la Science n° 339, janvier 2006.
3- J. Sonner, Holographic Schwinger effect and the geometry of entanglement, Physical Review Letters, vol. 111, n° 21, 2013.
4- K. Jensen et A. Karch, Holographic dual of an Einstein-Podolsky-Rosen pair has a wormhole, Physical Review Letters, vol. 111, n° 21, 2013.
5- L. Susskind, « Lattice Models Of Quark Confinement At High Temperature », Physical Revue D, vol. 20, no 10, 1979, p. 26102618-.
6- L. Susskind, The cosmic landscape: string theory and the illusion of intelligent design, Little, Brown and Company, 2005, 416 p.
7- L. Susskind, Paysage cosmique : notre Univers en cacherait-il des millions d'autres ?, Robert Laffont, 2007.
8- L. Susskind, Trous noirs, La guerre des savants, Robert Laffont, 2010.
9- S. Hawking, Phys. Rev. D, 13, 191, 1976.
10-T. Coudreau et P. Milman, Domestiquer l'intrication quantique, Pour la Science, n° 361, novembre 2007.

النبات والإنسان
راحة نفسية ومخاطر صحية

د.نبيل عرقاوي ❁

الترويــح عن النفس أثنــاء العمل، وفي حياة الإنسان اليوميــة،، سواء في البيت أو المكتب أو المدرسة أو المعهد أو الجامعة أو المعمل أو المتجر...، أو في المزرعة ذاتها، أصبح ضــرورة حياتية، فالمكان الذي يخلو من نبــات أو زهرة يملؤه فراغ، ويبدو كئيباً، وتنقصــه الحيوية والطاقة اللازمة لإمضاء ساعات فيه سواء بالعيش براحة وسكينة أم في العمل بجد واجتهاد لذا أضحت البستنة التزيينية بما تحتويه من فنون تربية النباتات والأزهار والتزيين بها، علماً ومهنة وهواية، يمارسهــا كل حســب حاجته، ففــي العلوم الزراعيــة هي مهنة، وفــي الفنون الجميلة هــي حرفة، وفي مراكــز البحوث هي دأب وإبداع، وهي المهنة في المكاتب الهندسية المختصــة بتنسيــق الحدائــق، والمشاتل، والأســواق، وهي كهوايــة متاحة لكل إنسان وفق رغبته وموهبته وحاجته..

كما تعتبــر البستنة التزينيــة بتقنياتها وفنونها قديمــة العهد تراثية الثقافة، بقدر ما هي حديثة ومعاصرة، فقد أبدع الإغريق والرومان بفنونها، وعني بها العرب واشتهرت لديهم، وأضافوا لهــا من فكرهم وإبداعهم ما غنى التراث الإنساني وحضارته الراهنة،

❁ باحث في الطب والتراث العلمي العربي.

فكاد لا يخلو بيت فقير من النباتات والأزهار والورود، كما لا يخلو بيت أمير من حديقة غناء، وبذل الملوك الأموال الطائلة في هذا السبيل، وزرعوا الحدائق الغناء الواسعة، والرياض الجميلة وفق هندسة معمارية وحدائقية راقية،كالحدائق المتناظرة والمعلقة والطبيعية، والتي تغنى بها الشعراء ووصفها الكتّاب والأدباء، وشبهوها بجنات عدن، فكان لها شأن في دمشق وغوطتها، وكان لها شأن عظيم في قرطبة والأندلس وصقلية، حيث برع العرب بفنونها ويشهد لهم الإنسان على مرّ الزمن بذلك، إذ إنهم أبدعوا في قصر الحمراء حديقة رائعة تجري من تحتها الأنهار، وتتفجر المياه العذبة السلسبيل من أفواه حجارتها المنحوتة الجميلة، تحت الأشجار الباسقة الوارفة، وبين الرياحين الغضة الكثيفة الفواحة، والأزهار الطبيعية الملونة العطرة المنعكسة صورها على صفحات المياه الصافية الهادئة كأنها مرآة تعكس كل الجمال البادي عليها مرسلة عبق العطر الكامن فيها، فكانت ومازالت زينة للناظرين.

وقد أغنى العرب هذه الحدائق بالنباتات الطبية والعطرية والثمرية وبرعوا في زراعتها ودراستها واستعمالها في الطب والصيدلة والعطارة وتعليمها لطلبة العلم من مختلف البلدان والأمصار، وكان فيها أشهر عشابي الأندلس وحكمائها مثل «ابن العباس» الذي صنف النباتات الطبية وغيرها من الأعشاب البرية والزراعية وعرفها وعلمها لطلبة العلم من العرب والأجانب الأوروبيين وغيرهم، وكان من أشهر تلامذته أيضاً العلامة العربي عبد الله ابن البيطار صاحب موسوعة الأعشاب الطبية «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» الذي احتوى على أكثر من ألف دواء مفرد ومركب من أصل نباتي وحيواني، وكتاب «الحشائش» الذي رسم فيه الأعشاب بيده وأعطاها أسماءها العربية ووصفها وعرفها بأسلوب علمي لم يسبقه إليه أحد سوى العالم الإغريقي ديسقوريدس في رسم الأعشاب، وقام «ابن البيطار» برحلات علمية شملت بلاد الروم والإغريق والعجم والمغرب العربي ومصر وبلاد الشام واستقر فيها وتوفي في دمشق. وفي هذا القول إشارة إلى العلاقة الحميمة والأزلية بين النبات والإنسان..

وقد اهتم الأوروبيون بحدائق الأزهار ونباتات الزينة منذ القدم، وكان للألمان والبلجيك قصب السبق في هذا الميدان، ثم انتشرت في أرجاء القارة الأوروبية كافة، وتشهد على ذلك حدائق فرساي واللوفر، وكذلك الدفيئات الزجاجية التي بنيت في القرن السابع عشر في فرنسا وانجلترا

وسان فرانسيسكو وبنسلفانيا والتي تضم آلاف الأجناس والأنواع من نباتات الزينة والأزهار الاستوائية إضافة لأنواع الأحياء البيئية الأخرى من حيوانات وطيور وحشرات وأسماك.. حيث تقف شاهداً على التحول التاريخي الجوهري في هذا الميدان، كما برع اليابانيون في تنسيق حدائقهم فجعلوها معلقة في الشرفات وسطوح المنازل لضيق الأراضي لديهم وأبدعوا في ذلك فناً فريداً، وأضحت مثال الذوق والفن.

لقد أصبح فن تنسيق الحدائق وتشكيل النباتات والأزهار والتزيين الداخلي في البيوت والشرفات فناً قائماً بذاته، له مدارسه وفلسفته، ويُدرَّس في أكاديميات ومعاهد الفنون الجميلة والهندسة المعمارية والمدنية والزراعية، وأصبح علماً وتخصصاً تكمن فيه كل بذور الإبداع والابتكار، بل تجاوز في شموليته النمط المدرسي ليصل إلى كل إنسان ومكان، حيث تنوعت الحدائق باختلاف المدن والبلدان والأزمان، كما أدخل عليه (العلم) تغييرات متوالية، فماشى بسيره المدنيات المتعاقبة، وواكب تغير الأذواق في العالم بأسره.

ويطلق على نباتات الزينة أسماء عدة في اللغة العربية كما في اللغات الأجنبية أيضاً، فتعرف باسم نباتات الزينة الداخلية، ونباتات البيوت الخضراء ونباتات الزينة الورقية والمزهرة، وانتشرت هذه النباتات على اختلاف أسمائها انتشاراً واسعاً في القرن العشرين، وهي مستمرة بذلك في هذا القرن أيضاً لتشمل الدنيا بأسرها. ولهذا الانتشار الواسع جذور تاريخية عميقة تعود لأكثر من خمسة آلاف سنة، حينما ابتكر الصينيون الحدائق المنزلية المغلقة، وحين نجح الإغريق والرومان وأبدعوا في ذلك، كما حظيت هذه النباتات بمكانة وجاذبية خاصة عند العرب، فكاد لا يخلو منها بيت من بيوت دمشق القديمة والحديثة، هذه المدينة التي تعتبر أقدم مدينة حية في التاريخ، ومازالت بيوتها القديمة والحديثة تزخر بمختلف أنواع النباتات وأصنافها، ولا سيما الوردة الدمشقية (روزا داماسينا) Rosa damascene التي تزين حدائق العالم، ويصنع من أزهارها عطر الورد الشامي المصنف كأجود أنواع العطور وأثمنها.



وردة دمشقية

وتأتـــي قيمة هذه النباتـــات من إغنائها لبيئـــة المنزل وإدخالهـــا التغيير والتجديد والتنوع باستمرار عليـــه، ومن ناحية أخرى تعتبـــر العلاقة اليومية بين الإنسان والنبات علاقة بسيطة خالية من التعقيد ،لكنها ذات تأثير نفسي صحـــي كبير، لأنها تشغل وقت فـــراغ الإنسان بتربيتهـــا والعناية بها بشكل مباشر وبتأثير متبـــادل، وتكون الأسرة على تماس مباشر بها ســـواء داخل البيت أم في الحديقـــة، ويعرف معظـــم أفرداها طريقة زراعتهـــا والعنايـــة بها، ويستمتـــع جميعهم بألوانهـــا وأشكالهـــا وروائحهـــا العطـــرة، وتعطـــي تأثيرها الإيجابي وقت الضيق كما فـــي أوقات الراحـــة والاسترخاء، فهي تمد الإنسان بالطاقـــة الإيجابية وتمنحه المتعة بالنظر واللمس والنفس، فهي تحرك العين تـــارة للمتعة وتتوقف بها أخرى للتمعن، كما تشغـــل اليدين بسقايتها وقطـــف أزهارها، وتضـــخ الأوكسجين مـــن أوراقها في النهار وتنقـــي هـــواء المنزل من الغبـــار، كما أنها تشغـــل فراغـــات البيـــت وزوايـــاه ونوافذه فتصبـــح ممتلئة بالجمـــال والأناقة، وبذلك أصبحـــت النباتات عامـــلاً أساسياً في فن الديكـــور والتزيين الداخلي، فهي تأتلف مع الضوء والهـــواء والأواني والأثـــاث بصورة عامة، بشرط تأمين حاجتها البيئية من ماء وضوء وحـــرارة وتربة ونظافـــة، علماً بأنها تتمايـــز في احتياجاتها البيئيـــة، وهذا أمر هام يجب أخذه بعيـــن الاعتبار عند اقتناء النباتات الثمينـــة والنادرة منها، إضافة إلى النباتـــات الأخرى لأنها جميعاً تكون بحاجة للتعامل معها بشكل صحيح كي تستمر حياتها لأطول فترة ممكنة من عمرها الافتراضي، وكـــي نحصل منها على أقصى منفعة ومتعة وراحة نفسية وجسدية.

تـــزرع نباتـــات الزينة والأزهـــار داخل البيـــوت والشرفـــات والحدائـــق المنزلية، وتعـــرف بالزراعـــة المنزليـــة أو الداخلية، فتعيش مع أهلها كباراً وصغاراً وتأتلف معهم



نبات الأفوكادو

وتصبح كفرد منهم تشاركهم الهواء والضوء والمـــاء، وتأخذ مكاناً لافتـــاً فيها، كي تمتع أبصارهـــم بجمالها ورونقها، وتخفف عنهم من حالـــة الضيق والقلـــق والتوتر العصبي بما تملكه مـــن خصائـــص جمالية وطاقة حيويـــة يعبق بها مـــكان وجودهـــا . إضافة لكونها كائناً حياً مسالماً ومحايداً يعيش مع

الإنسان وحيواناته المنزلية الأليفة يعطيهم ولا يأخذ منهم، يعيش معهم ولا يتدخل بمشاكلهم، يصغي إليهم ولا يثرثر بينهم، يسمع أسرارهم ولا يبوح بها (مجازاً)، فهو بحق كائن جميل بلونه وشكله، وأليف بطبعه وسلوكه، وقنوع بحاجاته وطلباته، حيث يظهر كل الجمال إذا وضع في المكان المناسب، وقد يضمر ويحزن ويتلاشى إذا أسأنا فهمه وأهملناه، أو أخطأنا في التعامل معه، وأغفلنا عنه نظرنا، فينزوي عنا وينأى بنفسه، لعله يجد مأوى آخر له ليكمل به دورة حياته، كي يتجدد ويتابع مسيرته التي لم يختر اتجاهها ومكانها، بل كافح وناضل (إن صح التعبير) كي تستمر حياته ووجوده في بيئة صحية ملائمة له.. لذلك تعتبر صحة النباتات والأزهار ذاتها مسألة هامة لأنها تتعرض في البيوت والحدائق بمختلف أنواعها من نباتات الزينة والأزهار للإصابة بالآفات الزراعية كالحشرات التي تأكل الأوراق والأزهار والثمار.. والأمراض التي قد تسبب تلف الأوراق والأزهار والثمار أيضاً وموت النباتات، أو سبب الأخطاء الشائعة في تربيتها والعناية بها كإغراقها بماء السقاية ،الذي قد يتسبب أيضاً في تلف الأوراق والجذور وموت النبات بأكمله، شأنه في ذلك شأن النباتات الزراعية والبيئية الأخرى. وقد تظهر بعض الأعراض المرضية (اصفرار، ضمور، تساقط الأوراق، ذبول..) بسبب فقر التربة ونقص بعض العناصر الغذائية فيها (السمادية) كالآزوت والفوسفور والبوتاسيوم والحديد والمنغنيز والبورون...، وتتم معالجة هذه الأعراض بعملية التسميد المناسبة لكل حالة.

وبما أن نباتات الزراعة الداخلية غالية الثمن وكثيرة التداول... فإن أول إجراءات العناية بها هي وقايتها من الإصابة بالآفات وتجنب الأخطاء الشائعة في التعامل معها. أما طرق العلاج في حالة الإصابة، فأبسطها هي المعالجة اليدوية (في النباتات المفردة) بالغسل بالماء والمسح والتنظيف بقطعة قماش نظيفة وقص الأوراق أو الأغصان المصابة وإتلافها، وتجنب الأخطاء كالمبالغة في سقايتها.. وسوف يكون ذلك ناجعاً بعد التعرف على الإصابة بشكل دقيق وهذا ما تساعد فيه الصورة التالية، علماً بأن الحشرة الظاهرة في الصورة صغيرة جداً بالحالة الطبيعية، ولا يتجاوز طولها ١ ميليمتر أو جزءاً منه، لذلك يجب تشخيصها بوساطة العدسة المكبرة، وكذلك من خلال الأعراض العامة للإصابة كتآكل الأوراق والأزهار وذبولها واصفرارها وسقوطها.

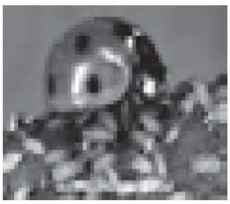


حشرة التريس الضارة بالنباتات

وقد نلجأ إلى المعالجة الكيميائية بالأدوية الزراعية في حالة الإصابة الشديدة في الحديقة أو خارج المنزل، خاصة عند وجود نباتات كثيرة كثيفة النمو ومترامية الأغصان ووارفة الأوراق، والمعالجة لكل حالة بشكل منفرد، مع مراعاة إجراءات السلامة من أثر الأدوية الزراعية وسمية بعضها وخطرها على صحة الإنسان وسلامته. أما من ناحية أثر النبات الإيجابي على صحة الإنسان، فإن لهذه النباتات أثراً صحياً نافعاً لصحة الإنسان بصورة عامة من خلال الترويح عن النفس لجمال شكلها وألوانها ورائحة عطرها وشذاها، فهي أكثر محتويات المنزل قدرة على التغيير والتجديد بفعل خصائصها الذاتية كالنمو والسكون وتفتح الأزهار والتفرع والاستطالة والاستدارة ولون الأوراق. وصفاتها الموضوعية من حيث القدرة على التكيف مع المساحة والفراغ المتاحين داخل المنزل، والاستفادة من الضوء الطبيعي (أشعة الشمس المباشرة، والظل) والاصطناعي منه، وتحويله إلى الطاقة اللازمة لحياة النبات ونموه بتأثير عملية التمثيل اليخضوري في الأوراق، وامتصاص غاز الفحم (ثاني أكسيد الكربون) اللازم لهذه العملية الحيوية التي يختص بها النبات دون غيره من الأحياء، إضافة لضخه الأوكسجين بفعل العملية ذاتها، فينعش به بيئة المنزل التي تتحول بتأثير هذه الخصائص إلى واحة هادئة تعم سكينتها غرف النوم والجلوس والطعام والمطبخ أيضاً، فتتحول إلى أماكن رحبة فسيحة خالية من الضيق والتوتر، تنعكس إيجابياً وبشكل مباشر في صحة سكانه وضيوفه أيضاً.

أمَّا الحديقة التي تتنوع فيها أجناس النباتات وتتباين في الحجم والخصائص، فإنها تضيف على الأثر الإيجابي المذكور فعل الحركة والنشاط والهواء الطلق المكتنز بالأوكسجين والشذا والأريج والألوان والحركة، والأثر الإيجابي للأحياء الأخرى كالفراشات والحشرات الجميلة الملونة وأخص منها حشرة (أبو العيد) الصغيرة ذات اللون الأحمر البرتقالي والمنقط بالأسود، وهي نافعة لأنها تتطفل على الحشرات الضارة كحشرة المن والحشرات القشرية والتربس وغيرها، فتحمي النباتات من أضرارها، وبذلك يمكن أن تقدم الحديقة المنزلية أنموذجاً حياً للبيئة الطبيعية السليمة التي تتكامل فيها الأحياء النباتية (فلورا) والأحياء الحيوانية (فونا) النافعة التي تعيش مع بعضها.


فراشة السذابة السورية من فراشات البيئة السورية


حشرة (زيز) أبو العيد تفترس حشرات المن الضارة

إلا أن لبعضها أثراً جانبياً ضاراً بالصحة، يعرف بالأثر السلبي للنبات على صحة الإنسان، فالصباريات والنباتات العصارية والورود لها أشواك مؤذية وقد سبق التحذير منها، وأخرى سامة هي النباتات التي تسبب التسمم عند تناولها عن طريق الفم، أو تناول أي جزء منها كالزهرة أو الورقة أو الثمرة أو البذرة، لذلك يجب وضعها بعيداً عن متناول أيدي الأطفال داخل المنزل أوفي الحديقة، ويفضل كتابة تحذير عليها (نبات زينة سام) لتنبيه الزوار والضيوف...



نبات كروتون (سام)

ومن أكثر نباتات الزينة السامة تداولاً في الأسواق: كروتون، دفنباخيا، شمعة، قفص صدري، فلودندرون، بنت القنصل، يوكا، آزاليا، فلامين جو، سيكلاما (سكوكع)، سنريريا، بنفسج، شمعدان، ايفوربيا ،جلوكسينا ،هيدرا، مرجان،قلب دامي، دفلة، كرز الشتاء.

وللنباتات الطبية مكانة خاصة في الحدائق العامة وفي الحدائق المتخصصة بها، لأنها نباتات عطرية ومتنوعة في الأحجام والأشكال، بدءاً من الأعشاب المفترشة على سطح التربة وانتهاء بالأشجار الباسقة، فعلى سبيل المثال نبات القمعية الأرجواني اللون الذي يعرف بالديجتاليس Digitalis purpurea هو من النباتات الطبية التي تصنع من أوراقها أدوية الديجوكسين والديجوتوكسين واللانوكسين، وهي من أدوية القلب الأساسية التي يجب استعمالها بوصفة الطبيب المختص حصراً، وهو يزرع في الحدائق على نطاق واسع كنبات زينة نظراً لجمال أزهاره القمعية الشكل والأرجوانية اللون، إلا أن أوراقة وأزهاره وكل أجزائه سامة جدا ومميتة إذا استعملت بشكل مباشر سواء أكانت خضراء أم جافة، لذلك يجب أيضاً أن تزرع في أحواض خاصة في الحديقة ويكتب اسمها مع تحذير واضح بأنها نباتات سامة. وكذلك نبات السذاب أو الفيجن Ruta graveolens الذي يتميز بشكل ولون أوراقه وأزهاره الصفراء ورائحته العطرية المميزة التي تجذب الفراشات الجميلة الملونة بالأصفر والعسلي والأسود، وتضفي جمالاً متفرداً وتنوعاً حيوياً في الحدائق، فهو نبات طبي تحتوي أوراقة مواد طبية فعالة تستعمل في صناعة أدوية الأعصاب ومعالجة كثير من الأمراض، إلا أن لأدويته

آثاراً جانبية ضارة على النساء الحوامل لأنه يسبب الإجهاض، كما تسبب زيادة الجرعات منه عن الحد المقرر تسمماً معوياً وتخرشاً جلدياً، لذلك تستعمل أدويته بوصفة طبيب، كما يزرع في الحديقة في مكان خاص به ويكتب اسمه مع تحذير واضح بأنه سام، كما تعتبر ثمار وأوراق وقشور أشجار الزنزلخت شديدة السمية للإنسان والحيوان وتسبب الشلل والاختناق في حالة تناولها عن طريق الفم، علماً بأن الثمرة والقشرة تحتويان مواداً طبية فعالة تستعمل في صناعة أدوية الأمراض الجلدية، لذلك يجب زراعة هذه الشجرة في مكان مناسب في الحديقة مع كتابة تحذير واضح بأنها سامة.

أمَّا النباتات والأزهار المسببة للحساسية فهي كثيرة وتعرف بالحساسية الربيعية التي تظهر لدى كثير من الناس عند تفتح الأزهار، وقد تمتد لفصول السنة الأخرى بسبب تتابع تفتح الأزهار وانتشار غبار الطلع منها في الهواء أو بوساطة الحشرات الطائرة، أو الروائح العطرية التي تنبعث من كثير من الأعشاب خاصة الطبية منها، ومن أكثر الأزهار المسببة للحساسية الصدرية التي تسبب احتقان المجاري التنفسية والسعال والرشح من الأنف والعين، هي أزهار نباتات الفصيلة المركبة Labiatae، أذكر منها إكليل الجبل،ترنجان (عشبة النحل)، حبق، زعتر، زوفا، عشبة الجرح، عشبة القلب، فراسيون، قسطران، لافندر، مردكوش، ميرمية، نعنع، ندغ البساتين.. وكذلك بعض نباتات الفصيلة المركبة Compositae البابونج، الأقحوان، دوار القمر، الأشواك الصيفية كالشوكة المباركة والخرشوف، والقيصوم والشيح، وزهرة العطاس والطيون..

لذلك يجب معرفة أنواع النباتات وتأثيرها الصحي خاصة الحساسية الصدرية، قبل زراعة هذه الأعشاب في الحديقة المنزلية ،وكذلك داخل المنزل كنباتات الزينة أو باقات أزهار للتزيين الداخلي

أما العلاقة بين الزهرة والنحلة فهي خطرة على صحة الإنسان في بعض الحالات، حيث تجذب الأزهار بمختلف أنواعها النحل لامتصاص الرحيق وجمع غبار الطلع (حبوب اللقاح) لنقلها إلى خلية النحل (صندوق التربية، بيت النحل) لصنع العسل وتخزينه في أقراص الشمع داخل الخلية من أجل التغذية الشتوية..

أما المشكلة بل الخطر في هذه العملية، فهو وجود حساسية شديدة لدى بعض الناس للسعة النحلة (الوخزة) بإبرتها والسم الخارج منها إلى داخل جلد الإنسان،

فيسبب له انتفاخاً سريعاً في الجسم خاصة في الرقبة واحمرار الجلد وارتفاعاً مفاجئاً في الحرارة وضيقاً في التنفس وآلاماً في كل أعضاء الجسم، وفي هذا خطر حقيقي على الحياة يقتضي النقل الفوري إلى أقرب مركز صحي أو إسعافاً سريعاً للمعالجة الطبية الفورية ومن دون تأخير. لذلك يجب الانتباه إلى هذا الخطر وتفاديه كي لا تفاجأ الأسرة بحادث مجهول الأسباب، ويمكن تجنب هذا الخطر بزراعة نباتات غير جاذبة للنحل قليلة الأزهار ذات أوراق خضراء زاهية جميلة وألوان متنوعة حسب الفصول ،وأحجام متناسبة مع مساحة الحديقة كأشجار النارنج والكباد والياسمين والمتسلقات كاللبلاب والمجنونة الحمراء والزهرية والياسمين، علماً بأن عريشة العنب تجلب النحل والدبابير فيكون الخطر أعظم . وقد يسبب غبار الطلع المختلط بالعسل حساسية صدرية لبعض الأشخاص لكن بدرجة أقل من لسع النحل، وبدرجة مساوية تقريباً للحساسية الربيعية التي سبق ذكرها .

ومن ناحية أخرى فإن النبات قد يكون سبباً في التلوث البيئي، وهنا يطرح سؤال جوهري: هل تلوث النباتات البيئة حقاً!؟ نعم لأن لبعضها مخلفات كثيفة كالأوراق المتعفنة المتساقطة على الأرض خاصة داخل المنزل، وقد تكون مأوى لبعض الحشرات الضارة كالصراصير والفئران والعقارب والزواحف وغيرها وفي هذا خطر حقيقي على صحة الإنسان، كما تحمل النباتات والأزهار آثاراً من الأدوية الزراعية السامة عند نقلها من المشتل والمزارع إلى الحدائق أو مباشرة إلى داخل البيوت، فهي تشكل خطراً مباشراً سواء بالملامسة أو الاستنشاق، وبذلك تنقل التلوث إلى الأماكن المأهولة، كما قد يكون في التربة المزروعة فيها، ضمن أواني الزراعة التي تحتويها، مخابئ للنمل وديدان الزرع، التي تبدأ بالنشاط والحركة في دفء المنزل وشمس الحديقة، فتصبح بذلك ثمة مشكلة بيئية حقيقية لكنها محدودة ومقتصرة على المكان الجديد الذي نقلت إليه، كما تجلب الرطوبة الزائدة في الحديقة نتيجة المبالغة في سقاية النباتات كثيراً من الحشرات الطائرة المؤذية كالبعوض (الناموس) والذباب، وكذلك أضواء الحديقة في الليل تجلب هذه الحشرات، إضافة للفراشات الليلية من الأماكن الملوثة والمستنقعات والمجاري غير الصحية، فتنقل معها الفطريات والجراثيم وغيرها .

وتسبب المبالغة في اقتناء نباتات الزينة الداخلية واكتظاظ المنـزل بها شكلاً آخر من التلـوث، هو انخفاض نسبة الأوكسجين في هواء المنزل ليلاً، بسبب عملية التنفس النباتـي، التي تأخـذ الأوكسجين من هواء المنزل وتضخ فيه غاز الفحم (ثاني أوكسيد الكربون)، وتوقف عمليـة التمثيل الضوئي (اليخضوري) التي يقوم بها النبات في ضوء النهار، والتي سبق ذكرها.

أما سبل تخفيـف التلوث البيئي، وإنتاج نباتات وأزهار نظيفة خالية من التلوث، فهو ممكن أيضاً باتباع طريقة الزراعة العضوية (Organic farming)، وهـي طريقـة زراعة أنواع وأصناف النباتات القادرة على التأقلم وإكمـال دورة حياتها وإعطاء أجود إنتاجهـا بأكبر كمية ممكنـة، دون الحاجة إلـى استعمال الأسمـدة الكيماوية الآزوتية والفوسفاتية والبوتاسيـة وأسمدة العناصر الصغرى، والأدوية الزراعية لمكافحة الآفات الزراعيـة كالحشـرات والأمراض النباتية، والهرمونـات المحفـزة للنمـو والإثمـار. واستعمال المخصبـات العضوية الطبيعية النظيفة بدلاً منها، والمكافحة الميكانيكية واليدويـة، والحشـرات النافعـة (الأعداء الحيوية الطبيعية للآفات الزراعية كحشرة «أبـو العيد» المذكـورة)، إضافـة لزراعة أصنـاف نباتية ذات خصائـص وراثية في التأقلم والمقاومة الذاتية للآفات الزراعية، وذات إنتاجيـة عاليـة نسبيـاً ضمـن هذه الطريقة من الزراعـة (الزراعة العضوية). ويمكن القول هنـا إن هذا النمط الزراعي كان سائـداً في العالم حتـى الستينيات من القـرن الماضي، وهو نمط مغرق في القدم أيضـاً كان يعـرف بالزراعـة البلدية ذات ثمـار مميزة بطعمها ولونهـا ورائحتها، إلا أن «الثـورة الخضراء» التي ظهرت في تلك الحقبـة، وجلبت معها الأسمـدة الكيماوية والأدويـة الزراعية من أجل زيـادة الإنتاج الزراعـي لمواجهة النمـو السكاني الهائل، وحدوث المجاعات في الهند وأفريقيا وبعض مناطـق أميركا الجنوبية بـأي ثمن، وتلبية لاحتياجات الأصناف عالية الإنتاج كالقمح المكسيكي، وهجائن الخضراوات والفاكهة والحبوب. كانت ومازالت هذه الأسمدة أحد أكبـر مصـادر التلوث المباشـر ذات الأثر الخطير على صحـة الإنسان وحياته بشكل مباشر، إضافـة لتلوث مياه الري السطحية منهـا والجوفية، ذات الأثـر الضار أيضاً.. لهذه الأسباب أعيد الاعتبار لنمط الزراعة العضويـة وأدخـل عليه تحسينـات كثيرة عن النمط القديـم، لمواكبة التقدم التقني

في هذا المجال، وأصبحت المنتجات الزراعية الغذائية العضوية (Organic products) ذات مكانة فعالة ومنافسة في الأسواق، وتحظى بأسعار مضاعفة عن المنتجات الأخرى بسبب قيمتها الغذائية الصحية السليمة ونظافتها من التلوث.

خلاصة القول: إن للنباتات والأزهار أثراً صحياً وعضوياً إيجابياً مباشراً في صحة الإنسان، سواء أكانت نباتات زينة داخلية أو باقات زهر للتزيين داخل المنزل وصالات الأفراح، أو على أرض الحديقة ضمن أحواض بأشكال هندسية أو وفق تنسيق طبيعي فيه محاكاة للنمط الطبيعي وبيئة النبات وموطنه الأصلي.

فالنباتات داخل المنزل تعطي جمالاً ورونقاً وعطراً، وتملأ الفراغ الداخلي أفقياً وعامودياً، وتتناسق مع أثاث المنزل، وتأتلف مع سكانه، فتمدهم بمقومات الصحة والنشاط، فهي تضخ الأوكسجين في هواء المنزل من أوراقها في النهار بفعل التمثيل الضوئي (اليخضوري)، وتنقي هواءه من الغبار والجراثيم، وتبعث في نفس سكانه راحة نفسية ومتعة بصرية ونشاطاً وطاقة حيوية في الجسم تتجدد يومياً، كما تشغل أوقات فراغهم بالعناية بها، في السقاية والنكش والتنظيف، والنقل من مكان لآخر حسب الحاجة والمناسبة، فهي بحق كائن حي جميل يعيش مع الإنسان بمرونة ومن دون تعقيد، فتنشأ بينهم علاقة حب حميمة يتبادلان فيها لغة ملؤها التعبير الجميل والعطر الفواح والسكينة والهدوء والراحة النفسية التي تنعكس على جسم الإنسان بالصحة والنشاط والحيوية وتنعكس إيجابياً في علاقته بأفراد أسرته وعلمه وعمله.

وإذا كان النبات لا يملك ملكة النطق، فإنه يملك هبة التعبير في الشكل واللون والرائحة، ويبادل الإنسان سلوكه ويعامله بالمثل، فإذا أحسن معاملته بالعناية والرعاية ووضعه في المكان المناسب أعطى أفضل ما لديه من جمال وأثر إيجابي في بيئة المنزل، والعكس صحيح، سواء أكان ذلك بسبب الإهمال أو عدم الدراية بحاجاته وبيئته، فينزوي ويذبل وتتساقط أوراقه وتضمر أزهاره وتختفي ملامح التعبير فيه، وتغيب عنه طاقة التأثير الإيجابية على صحة الإنسان وسلوكه، أو يعيش غير مكترث بما يدور حوله ،وغير مبالٍ بل يعيش مضطرباً في نموه وعيشه! وقد يعكس ذلك نمط عيش سكان المنزل ذاتهم وسلوكهم وعلاقاتهم فيما بينهم، أو مع أثاث المنزل وأشيائه الأخرى في فوضى عارمة، فتضيع

الغاية التي جلبت من أجلها النباتات، وتخسر قيمتها المادية والمعنوية.

ومن ناحية أخرى فإن لبعض نباتات الزينة والأزهار أثراً ضاراً مباشراً في صحة الإنسان العضوية والنفسية أيضاً، فنباتات الصباريات والورود تحوي أشواكاً واخزة وجارحة إذا ما وضعت في مكان غير مناسب في البيت أو الحديقة، وتسبب الأذى للصغار والكبار، كما أن بعض نباتات الزينة تحوي السم في أوراقها وأزهارها على الرغم من كل الجمال الكامن فيها، وتكون ذات قيمة سوقية عالية، إلا أن الجهل بخصائصها قد يؤدي إلى حوادث خطيرة، وقد تم ذكر أسماء بعض نباتات الزينة والنباتات الطبية السامة سابقاً، والثقافة العامة بهذا الخطر أمر جوهري، فيجب في أول الأمر أن يكتب اسم المنتج لدى باعة نباتات الزينة والأزهار على لوحات مربوطة بهذه النباتات بإحكام، والإعلان بوضوح أنها سامة، ووضع خط أحمر تحت كلمة سامة، مع التنبيه الشفهي وإرشاد من يشتريها إلى كيفية التعامل الصحيح معها لكي يتجنب السم الكامن في أوراقها وأزهارها وثمارها، ويحقق المنفعة المرجوة من اقتنائها.

ويجب غسل نباتات الزينة قبل وضعها في المكان المناسب داخل المنزل وعدم استنشاق روائح باقات الأزهار وأكاليل الزينة قبل تنظيفها، أو لمسها بالأنف واليد لأنها غالباً ما تكون مرشوشة بالأدوية الزراعية وهي غالباً سامة أو ذات أثر مخرش، والاكتفاء بما تنثره من عطور. وغالباً ما تكون النباتات والأزهار المنتجة بطريقة الزراعة العضوية خالية من الأدوية الزراعية والهرمونية والكيماويات الأخرى، فتكون آمنة، شرط توافر شهادة المنشأ والجودة التي تثبت ذلك.

إن الاطمئنان المفرط للنباتات والهوس بجمالها والمبالغة في اقتنائها، ومن دون معرفة وثقافة واعية بقيمتها وخصائصها، سواء أكانت نباتات وأزهار زينة أم نباتات وأعشاباً طبية وغذائية، قد يعكس المنفعة المرجوة منها إلى ضرر في صحة الإنسان وبيئته ومجتمعه. والعكس هو الحصول على أقصى ما نريده منها، والتمتع بجمالها وكل ما يمكن أن تقدمه لنا من طاقة وحيوية واستقرار بأقل تكلفة ممكنة، كي تحفزنا على التقدم بأعمالنا وعلومنا وثقافتنا، حثيثاً في مضمار الحداثة والتطور والحضارة.

المراجع

المراجع العربية:

١- د نبيل عرقاوي، «موسوعة النباتات الطبية المصورة»، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢- د نبيل عرقاوي، «نباتات الزينة والأزهار» دمشق، ٢٠١١م.

٣- د نبيل عرقاوي، وليد قاسو، «تربية النحل وإنتاج العسل» دمشق، ١٩٨٣م.

٤- د نبيل عرقاوي «البيوت البلاستيكية الزراعية وإنتاج الخضار والأزهار والفاكهة» دمشق، ١٩٨١م.

٥- د أحمد عيسى، د نبيل عرقاوي، «معجم أسماء النبات المصور»، دمشق ٢٠١٢م.

المراجع أجنبية:

1- The Macdonald Encyclopedia of plants Macdonald, London, 1974.

2- How to Grow Roses, A Sunset Book, California, 1980.

3- Cactus and Succulents, A Sunset Book, California, 1978.

4- How to Grow House Plants, A Sunset Book, California 1980.

5- Small-Space Gardens, A Sunset Book, California, 1978.

6- How to Grow Herbs, A Sunset Book, California, 1975.

حدائق موتٍ معلقة في سماء بابل

❀
بديع صقور



لمن كل أزهار المــوت هذه التي تغطي
حدائق ثغــرك أيها الفــرات!؟ ولمن زهرة
الآلام[1] هذه المعلقة على صدر دجلة..!؟
ينقش الموت وشمه
على ثغر الفرات
نهارات القتل تطول
الغزاة تحت قوس النخيل..
يطأ الجند زهر الفرات
ثغر بغداد يزهر بموت الطيبين.
السيوف مغمدة
والخيل سراب..

❀ شاعر وأديب.

رايتنا تطولُ..

ومن ماء إلى ماء

نهزُّ شجر النشيد:

«بلاد العرب أوطاني»[٢]

❁ ❁ ❁

على ضامر من أفق الندى

يأتي الحسين[٣]..

وبعينيه نهر من دموع الغَرب[٤]

يحبو على صدر الخراب..

وعلى كفّيه سرب من دماء

والبساتين بقايا حداء..

يأتي الحسين..

يقطر من خنجر الكوفة دم طير..

ودمي الصباح

❁ ❁ ❁

بغداد طيرٌ

بلل القتل جناحيه..

بغداد قبة ليلٍ..

وحدائق موت معلقة

بغداد ضفتان..

على باب نخلتين

سيفٌ وكفن..

❁ ❁ ❁

باب غرناطة مغلق.. تلفّتْ!

ولا تبك ملكاً أضعته

لا تبك كالنساء

قمراً وشمساً أضعتهما

في فضاء الأندلس...

❁ ❁ ❁

على باب الرشيد[٥]

قباب نهار عجوز

وبستان موتى

يشدون الرحيل...

دجلةُ واقفٌ على باب قبره:

«يا حسافي كنت أحسبك نبع ريحان»[٦]

«وانت الماي أشيلك من نبع روحي»

«يا حسافي..»

بغداد.. وأنا

غريبان تحت ظلال السيوف

على باب الخراب

نعيد ترتيب الذكريات

نعيد نسْجَ خيوط ماضٍ بعيد

رجع صوت أم:

«أبا عبد الله[٧] لا تبك ملكاً أضعته..»

«أبا عبد الله لا تبك كالنساء...»

❁ ❁ ❁

على باب الرشيد

تحت ظلال السكون

عبد الله كان واقفاً

يمدّ عصاه للسّهوب

يجسّ زهر المقابر

وفي محجريه بقايا دموع
بقايا صوت يقول:
«أبا عبد الله لا تبك ملكاً أضعته..»
«أبا عبد الله لا تبك كالنساء...»

❁ ❁ ❁

على مرمى من البحر
فوق شطآن الهزائم
كان النهار يجري
حاملاً نهر الرحيل
وبقايا صهيل الأندلس..
على مرمى من صباح المطر
مرّ الحسين
ومرّ الفرات
ومرّت الأندلس
ومرَّ الغزاة
وكان دجلة يذرف دم الفرات
مرّ الحسين
أيقظ نهر الظباء
ومضى في ثنايا الرياح...

❁ ❁ ❁

«يا حسافي.. تنتحر نجمة صبح
فوق خد الليل كانت تستريح..»
بغداد إسورة في معصم النخيل
تاج الخليفة[٨]
وابن العلقمي[٩]
بوابة العار تُفتح
أسوار بغداد تُدكُّ
الغدر يصهل في الشوارع
حفنةٌ من هباء..
دمُ الطيبين يهدر
ذلٌّ يستوطن الروح..
تاج بغداد ينكسر حفنة
من هباء...

❁ ❁ ❁

على مرمى من وردة المهد[١٠]
عند بستان النواقيس
على الأرض موتٌ
وفي العُلا
تدقّ النّواقيس
تدقُّ..
تدق..
فيخرس قارعها الرصاص
تدق..
تدق..
في العلا نهر محبة
وعلى الأرض ينابيع دماء...

❁ ❁ ❁

على مرمى من بقايا نعوش
من بقايا ملوك
من بقايا قصور

ومن بقايا سراب
يزهر عطر النواقيس
ينهض صبح...
وفي الصبح موت جديد...

❁ ❁ ❁

على مرمى من بقايا صباح بعيد
بقايا صوت بعيد:
لا تبك ملكاً...
لا تبك أرضاً... أضعتهما
في براري الأندلس
أبا عبد الله، لا تبك كالنساء...

❁ ❁ ❁

على مرمى من بيت الأصيل
غداً عند تخوم الفصول
فوق ضفاف الحياة
وفوق براري المحيط
وحيداً كالصحارى.. تموت
غريباً يذرون غبار طلعك
عند السياج غداً
عند براري الغبار
على سراج العدم بقايا صوت ينوس:
أبا عبد الله متّ هناك
مُتّ هنا
مُتّ حيث تشاء
مُتّ وحيداً كظباء الأندلس
تحت نعوش العواصم
على حوافي النعال
أو خلف بساتين الحياة
مُتّ هذا زمان غروب الشمس
عن هذا المحيط
إلى ذاك الخليج...
متّ على ساعد الموج
مثلما الشمس على وجه الندى
ومثلما العطر على ثغر الكروم...
ومثلما «الملك لله...»
ومثلما بقايا ملوك
بقايا عروش
بقايا غزاة...
ومثلما بقايا ضفاف ننام عليها
عليها، نمدّ سجّادة الحلم
عليها، ننام على طيوف نصر
ونصحو... «الملك لله»
نستوقف النخيل
نسأل عن حصين كلّ ركب
وعند جهينة موت النوارس
عند جهينة
بقايا حدود وليل يستوطن الروح..
بقايا حداة يسوقون ظعني.. وبقايا
«بلاد العرب أوطاني».

الهوامش

١- زهــرة الآلام: نبــات جميل معرش مــن فصيلة الآلاميات، لــه أزهار كبيرة تشبه أجزاؤهــا أدوات تعذيب المسيح. مهده الأصلي أميركا الجنوبية، وأشهر أنواعه زهرة الآلام الزرقاء.

٢- بلاد العرب أوطاني: نشيد عربي قومي...

٣- الحسين: ابن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» شهيد كربلاء.

٤- الغَرب: شجر ينبت على ضفاف الفرات.

٥- الرشيــد : الخليفة العباسي الخامس (هارون الرشيد) حكم من ٧٨٦-٨٠٩م ابن المهدي والخيزران حارب البيزنطيين.. بلغ أبواب القسطنطينية-ازدهرت في عهده التجارة والآداب والعلوم.

٦- ياحسافي: بالعامية العراقية ياحسرتي.

٧- أبــو عبد الله محمد الصغير: آخر ملوك الأندلس الذي قالت له أمه: السلطانة المتجبرة «ايقصا لاهورا» أبــو عبــد الله حسناً فعلت إذ بكيت كالنساء، لأنك لم تحفظ ملكك حفظ الرجال، وذلك عندما رأته يبكي وهو يلقي النظرة الأخيرة على «غرناطة» عند أقدام جبل «البقصار».

٨- الخليفــة المستعصم: آخــر خليفة عباسي قتل على يد جنود هولاكو يــوم الأربعاء ٢٠ شباط ١٢٥٨م بعد سقــوط بغداد بعشرة أيام وذلك يوم الأحد ١٠ شباط، وبذلك أسدل الستار على الخلافة العباسية تماماً، حيث قدر عدد القتلى بمليوني قتيل إلى جانب الدمار والخراب والاستباحة لكل شيء...

٩- ابــن العلقمــي: وزير المعتصم الذي تآمر مــع المغول وقدم لهم معلومات لتسهيــل دخولهم بغداد بقيادة «هولاكو».

١٠-المهد: كنيسة القيامة.. مهد السيد المسيح عليه السلام...

حِكايَةُ النَّفْيِ إلى الوَطَن

✽
محمد بسام الجندلي



(١)

كانَتِ اللَّيْلَةُ قمراءَ وكانْ، في قديم الزَّمانْ،
والمكانْ، فيهِ عِطْرُ الزَّيْتِ واللَّيمونِ يُوحي بالأمانْ،
وعلى الشُّرْفَةِ زَهْرُ اللَّوْزِ دِفْءٌ وحَنانْ،
وعبيرُ القَهْوَةِ السَّمْراءِ، والتَّبْغُ المضَمَّخُ،
والصَّفــاءُ.. كانَ يُغْري بالشُّرودِ العَذْبِ،
والحُلْمِ، ورَجْعِ الذِّكْرياتْ.
كانَتِ اللَّيْلَةُ قَمْراءَ وكانْ، يا ما كانْ:
مالَ يَهْمِسُ -وارْتِعاشُ الصَّوتِ كالعُصفُورِ بَلَّلَهُ النَّدى،
والشَّوْقُ يَطْفَحُ في العُيونْ-:
«فَلْنَعُدْ لِلدّار، لِلأمِّ الحَنونْ..

✽ أديب من سورية.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

دارُنا في سُرَّةِ الأرضِ،
وفيها الحُبُّ والأحلامُ والخَيْرُ العَميمْ.
أهْلُنا فيها، وهُمْ أحْفَى بِنا،
وثَراها فيهِ عِطْرُ الذِّكْرياتْ،
وَرُؤوسُ النَّاسِ فيها شامِخاتْ.
فَلْنَعُدْ لِلدَّارِ نَبْني لِلغَدِ المَوْعُودِ أحْلَى الأمْنِياتْ.
لَمْلِمي مِن هذهِ الغُرْبَةِ ذِكْرانا،
وَرُشّي دَرْبَنا بالياسَمِينْ»
وَيعودُ الرَّكْبُ يَحْلُمُ بالوَطَنْ،
بالأمانْ،
باعْتِزازِ الابْنِ بالأمِّ المِثالْ،
بالحَنانْ،
والإباءْ،
وَشُموخِ الكِبْرياءْ.
«في حُقولِ الوَطَنِ الخُضْرِ
-يقولُ العائدُ المَفْتُــونُ لِلعائدَةِ الوَلْهَى
بعَيْنَيْها حَنينْ-
«نَزْرَعُ النِّسْرينَ في كُلِّ الزَّوايا،
وَنَرُشُّ الفُلَّ حَوْلَ الدَّارِ تَعْبَقُ بالطُّيوبْ،
ثُمَّ نَبْني ظلَّةً كَيْ يَلْعَبَ الأطْفالُ فيها،
وعَريشَةْ،
فإذا جاءَ المساءْ،
نُنْشِدُ الأشْعارَ
أو نَحْكي الحَكايا عَنْ أبي زَيْدِ الهِلالي،
أو صَلاحِ الدِّين، أو قَيْسٍ ولُبنَى،
نُطْعِمُ الأطْفالَ مِنْ مَنٍّ وسَلْوى.. ونَنامْ،
في فِراشٍ حَشْوُهُ رِيشُ النَّعامْ.»
كان يا مكانْ.

(٢)

الرِّياحُ الهُوجُ تَعْوي في المدِينَةْ،
وَالمتاريسُ على الأبْوابِ وَالقُفْلُ الثِّقالُ.
والعُيونُ الجُوفُ في قِيعانِها يَصْحُو السُّؤالُ،
وَالنُّفُوسُ المُسْتَكِينَةْ،
في خَفاياها ثَوَى الحُلْمُ القَتيلُ،
وَالرِّياحُ الهُوجُ نَدْبٌ وَعَويلُ،
يَجْثُمُ اللّيْلُ على الصَّدْرِ ثَقِيلَ الوَطْءِ،
فَظَّ اللَّمَسات.
يَرْصُدُ الأفْكارَ، يُحْصِي نَبْضَها،
يَفْتَرِعُ الأحْلامَ،
يَغْتالُ الدَّراري الزُّهْرَ،
يَكْسُو البَدْرَ أثْوابَ الحِدادِ،
يَسْكُبُ العتْمَةَ في كأسِ العُيونِ الفاغِراتِ.
يَصْرُخُ الأطْفالُ جُوعاً وَصَقيعًا،
تَطْبُخُ الأمُّ لَهُم مِن قَلْبِها الدَّامي دُموعًا.
يا لَيالي القَهْرِ وَالحِرْمانِ وَالبَرْدِ..
لماذا ليسَ يُغْني الدَّمْعُ مِن جُوعٍ رَضِيعًا؟!
«أيْنَ في الدَّار»
-تَقُولُ الزَّوْجُ وَالدَّمْعُ على الخَدَّيْنِ سَيْلُ-

«مارَسَمْنَا مِن أمانٍ وَخَيالْ؟
بَيْتُنا قبْرٌ،
وهذي الظُّلْمَةُ الشَّوْهاءُ عِفْريتٌ،
وَحَقْلُ الزَّهْرِ قفْرٌ،
وَالنَّدى جَفَّ،
وَجَفَّ الحُبُّ، ما عادَ لَهُ مَعْنَى،
وَما عُدْنَا -مِنَ الحِرْمانِ- نَشْكُو،
والفِراشُ اليَوْمَ شَوْكُ.
نَشْرَبُ الصَّابَ،
ونَقْتاتُ على الذِّكْرى،
وَنَكْوي الجُرْحَ.. لا نَنطِقُ بِالآهِ،
فَفِي كُلِّ الزَّوايا،
أعْيُنٌ رُقْطٌ يَفِيضُ الشَّرُّ مِنها كَالأفاعي؛
تَرْصُدُ اللَّفْتَةَ،
والصَّمْتُ -سِوى الرِّيحِ- يَصُبُّ الوَيْلَ في الأرْواحِ،
والجُدْرانُ آذانٌ تَرَصَّدْنَ الخَطايا قبْلَ أنْ
تَصِلَ اللِّسانْ.».

كانَ يا مكانْ، في قديمِ الزَّمانْ.
قالَتِ الزَّوْجُ: «الرَّحِيلْ؛
فَلْنَعُدْ مِن حَيْثُ جِئْنَا،
لم يَعُدْ لِلعَيْشِ في أرْضِ العَفاريتِ سَبيلْ؛
صَارَتِ الدُّودَةُ فيها أُفْعُوانْ.».
وَيَفُضُّ السَّامِرُ الإيوانْ، بكانَ يا ما كانْ.

عودة الأحبة

شادي أبو حلاوة ❁



كان الأوان صيفـاً عندما دخلوا القرية علـى حين غرة كذئاب تلهث جوعاً للقتل... للدماء.

دبَّ الذعـر والهلع بيـن الناس الآمنين حينمـا بدأ أزيـز الرصاص يُجفل نومهم الهانـئ ساعة الفجـر، وأصـوات الصراخ والتكبير تعلو وتقترب من أبواب المنازل.

اندفعت جموع الناس المسلوبين للتو من طمأنينتهـم نحو ساحة القرية، تحت تهديد السلاح وكيل الشتائم والاتهامات.

في الساحة احتضنـت النسوة الأطفال الخائفين الذيـن تداخلوا فيما بينهم كأنهم

❁ أديب وقاص.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

خراف انتهكت وداعتها وسكينتها أنياب تشتهي رائحة الدماء.

قام المسلحون بتفتيش المنازل وأعملوا فيها حرقاً وسلباً ودمروا كل ما تأتي عليه أيديهم، فصارت معالم القرية تأخذ شكلاً مأساوياً حزيناً والحرائق تمتد ألسنتها من مكان إلى آخر ولا تبقي على شيء في طريقها.

في هذه الأثناء تقدّم قطيع الوحوش رجل خمسيني شكله يذكرك بإنسان ما قبل أزمان مندثرة، شعره طويل مجدول بالغبار ولحية طويلة كثة ويرتدي جلباباً تزنره مخازن الذخيرة. ونعق بصوته كالغراب: «بسم الله والحمد لله أن أتم لنا النصر من عنده على القوم الكافرين» فعلا صوت التكبير.

لم يفهم الناس ما الذي يجري؟ ومن هؤلاء الغرباء؟ بعضهم كان ملثماً والبعض الآخر هيئته تعيدك إلى العصور المنسية. أشار الأمير كما كان يُنادى أن يُفصل الرجال عن النساء والأطفال، خرج عن صمته أحد رجال القرية وصرخ محتجاً ملء فمه ماذا تريدون منا؟ من أنتم؟ فانقض عليه المسلحون كأنه فريسة وقعت بين ذئاب برية جائعة فسقط أرضاً يتأوه وهو مثخن الجراح.

عندما أشرقت الشمس كان الصباح متلبداً بالدخان وبدا النهار كئيباً، والقرية مهجورة من نسائها وأطفالها، بعد أن أجبرهم غدر الغرباء على الرحيل من دون الرجال الذين اقتادهم المسلحون إلى جهة مجهولة.

كانوا ثلاثة عشر رجلاً في مكان تلفه العتمة ورائحة النتن، والعفونة تخيم حولهم كأنهم في حظيرة، حشروا فيها كأغنام تنتظر الذبح ساعة ما، وكانت تأتيهم من الخارج جلبة وصراخ أشخاص وأحياناً إطلاق نار، فيرتعدون في أماكنهم وينزوون في زوايا المكان لكنهم لم يُظهروا أي خوف لبعضهم البعض فينال منهم ويحطم عزيمتهم خاصة بعد مرور أسابيع على وجودهم في الأسر.

ساءت أحوال أبي أكرم الذي تعرض للضرب المبرّح في ذلك اليوم المشؤوم حيث تم اختطافهم، حاول أصدقاؤه مساعدته وشدَّ أزره، لكن تقدمه في العمر وتعبَ السنين لم يسعفاه على الصمود كثيراً. لاحيلة لهم.

مات أبو أكرم ميتة لم يتوقعها، رحل سجيناً محروماً من أحبة يأسون احتضاره بيدين من دعاء ورحمة.

عند الصباح جاء رجلٌ هزيلٌ قبيحُ الطلعةِ ومعه الخبزُ والماءُ، فوجد أبا أكرم ممدداً يتوسد الأرض ومسجى وحوله الرفاق يتلون صلاة الميت، لم ينبس الرجل ببنت

شفة عندما وقعت عيناه على الميت، فعاد أدراجه ليخبر الأمير بالحدث.

كان الخبر صادماً لرفاق أبي أكرم عندما أخبرهم الرجل الذي عاد ومعه عدد من الأشخاص: «ليس مسموحاً لكم دفن الجثة»، نحن سنقوم بذلك، ثارت براكين غضبهم من وقع ما سمعوا وبدؤوا الصراخ والشتائم إلى أن تدخل شخص آخر يكبرهم سناً، قائلاً: حسناً لكم ذلك، قالها ومضى والآخرون.

مرت الأيام وذئاب الفلاة تعوي ويصل عواؤها إلى مسامع السجناء. ودخل الشتاء فصلاً عامراً بالبرد والحرمان، وصقيع الذكرى يستبيح مكانهم ويقوّض أيامهم. كل واحد منهم متكور في زاويته سارح بأفكاره ويراوده حلم الرجوع إلى البيت والأهل المقطوعة أخبارهم.

من ثقب أحد الجدران نظر أحمد إلى الخارج وصرخ ثلج، إنها تثلج يا جماعة ونسي ورفاقه الوجع والبرد وتناوبوا النظر من ثقب الحائط، فتسرح عيونهم في بياضه الممتد كحزنهم. وتنهمر الدموع من قلب مضمخ بالآلام وأعين أتعبها السهاد.

في الصباح كان أحمد جثة هامدة توفي هو الآخر إثر نوبة قلبية لم يحتملها قلبه التعب النازف بعداً، توقف عن الحياة بعدما سلبته نبض أحبته وتركته يقارع مع رفاقه زمناً يرعف بالوحوش الكاسرة. أُقيمت له طقوس الدفن ووري الثرى بجانب قبر أبي أكرم، يؤنس وحدته في صمت اللحد.

بعد وفاة أحمد أصبح السجناء ضجرين من كل شيء، يقلقهم شعور السأم ورتابة الانتظار، انتظار الفرج.

في أحد أيام الشتاء الباردة أخذت أصوات الرصاص والقذائف تقترب ويشتد وقع الاشتباكات، واستمرت هذه الحال أياماً، لم يعرف السجناء ما الذي يحدث في الخارج، تساءلوا فيما بينهم وخمنوا، قال أحدهم: ربما الأعداء يتقاتلون على منصب أو السيطرة على مكان ما، ردَّ عليه آخر: ربما يتقاتلون على مسروقات فهم قبل كل شيء لصوص وقتلة، وانتهى النقاش والأسئلة معلقة في ذهن مشتت أصلاً لم يعد يقوى على التركيز من كثرة التعذيب القهري الذي أثقله الغياب.

في مساء يوم ممطر، وكان قد مضى على وجودهم في الأسر أربعة أشهر. دخل شخص غريب ملثم قال لهم بلهجة مألوفة، جهزوا أنفسكم للهروب، إنَّ الحرب تستعر وربما العين عنكم غافلة سأحاول ترك الباب الخارجي غير مقفل.

مضى الغريب مسرعاً وترك الرجال في حيرة من أمرهم، وفرحة لذيذة تلمع في عيونهم التي كاد أن يطفئها اليأس، توجس

البعض من حيلة غـادرة ترميهم في شرك الخديعة، وقف أحدهم وقد بحَّ صوته وقال: إنَّ القــدر الذي صفعنا بيديه القاسيتين ها هو يمدّها لينتشلنا مـــن هذا الجحيم، هي فرصتنا للهروب يا أصدقاء. انهضوا واملؤوا قلوبكـم بالإيمان والعزيمة، شعر الرجال أن أرواحهـم انتفضت من سكونهـا والعزيمة تقـوي أجسادهـم المتهالكة التـي أنهكها الجوع والمرض، خرجـوا واحداً تلو الآخر إلى جهة الشمـال الغربي حسب تقديرهم، كانوا حفاة في جوٍ ماطـرٍ تنغرس أقدامهم في الوحل تـارة وتارة تتعثر في ظلام الليل ابتعدوا عـن المكان وها هي رحلة الانعتاق يشـدُّ بعضهم بعضاً والمطـر الغزير يغسل عنهم وجع الحرمان.

خارت قـوة أحد الرجـال في منتصف الطريق. وسقط فاقداً وعيه فتناوب البقية على حمله على الرغـم من وهن أجسادهم أيضـاً. عندمـا استعاد وعيـه ثانية، طلب مـن رفاق الـدرب أن يتركوه لقـدره وأصرَّ على البقـاء أمام رفضهم فـي حلكة الليل الموحش.

مضى الرجال من دونه، عيونهم مشدودة نحـو أملٍ يوصلهم إلى بيت أو قرية أو حتى طريـق. وقلوبهم مزروعة عنـده علّها تبثّه نبضاً جديداً أو يستعيد قواه.

عند منبلج الفجر لاح لهم من بعيد خيمة وحيـدة قابعة وسط أرض فسيحة فقصدوا المـكان والتعـب أعيا سيرهم. نـادوا أهل البيت، فخـرج رجلٌ بملامـح طيبة ترتسم علـى محيـاه، فألقوا تحية متعبـة وبادروه بالسـؤال عن المـكان، فدعاهـم للدخول والراحة بعدما لاحظ عليهم علائم الضعف والوهن، اطمئن لهـم صاحب البيت عندما سمـع قصتهم وقرر المساعـدة بعدما قدّم لهم الطعام والشراب الدافئ. سأوصلكم إلى نقطة قريبة تسمى «السدة» ستكونون بخير عندما نصل إليها.

طلب منه الرجال أن يسدي معروفاً آخر ويتصل بالخليوي الذي كان يحمله ليطمئن الأهـل ويأتي أحد ما منهـم ليقلهم إلى بر الأمان.

كان الرجل الذي تُرك وحيداً قد استجمع قواه بإرادة أبقته حياً فمضى ثابتاً في خطاه وقابضاً بيديه المرتجفتيـن ناصية الأمل. فـي طريقه رأى على مرمـى نظره مباشرة بيتـاً قروياً عنـد سفح تلـة، فاندفع كموج البحر نحو شاطئ الأمان يتنفس الصعداء، فكان كلما اقترب من المنزل امتلأت روحه غبطة.

شرعـتْ الشمـس تمـزق قطـع الغيم وترسل أشعتها الدافئة عندما وصل الرجال برفقة الرجـل الطيب إلى منطقة «السدة»،

أشــار لهم الرجل الطيــب: من هذا الاتجاه سوف تأتي السيارة، أمعنوا النظر في الأفق فتراءى لهم من بعيــد قرية صغيرة تناثرت بيوتها كأنها نجوم في صفحة الأرض، وانتبه أحدهم لطريق وعرة بــدت أنها التي تصل إلى مكان انتظارهم.

ساعة من الانتظار عادلت في ثقلها أربعة أشهر من الأسر، وأخيراً وصلت السيارة.

في طريــق العودة، شعــروا أن فرحتهم لــم تكتمل بتركهم صديقهم وحيداً، أصابهم شعور الندم والخــذلان، اختلطت المشاعر وامتزجت دموع الفرح مــع تنهدات قلوبهم على مصيره المجهول.

عند باب المنزل وقــف رفعت مترنحاً، طرق الباب مستغيثــاً «يا أهل البيت»، تأتّى إلى سمعــه أصوات نباح الــكلاب وإطلاق رصاصــ، فُتــح البــاب وإذ برجــل مازال يغالبه النعاس، لكــن سرعان ما استيقظت جميع حواسه عندما رأى رجلاً ممدداً على الأرض.

فــي الداخــل كان دفء الغرفــة ينتشر في ثنايــا جسده. أفاق مــن غيبوبته فرأى صاحب البيت يتفرّسه بعينين سوداوين وقد ارتسمت على ملامحه الدهشة والرغبة في معرفــة من هذا الغريب؟ ومــا هي قصته؟ سألــه صاحب البيت بصــوت خافت: كيف تشعر الآن؟ الحمد لله، الله يجزيك الخير.

ولكي يطفئ فضول الرجل، بدأ رفعت يحكي قصته.

لمــح في عيني الرجل رأفــة تعبر إليه، فتمنحــه طمأنينــة عذبة، لم يطــل كثيراً بالكلام حتى قاطعه الرجل، «على هونك يا خوي»، أحسَّ رفعت أن الرجل تعاطف معه، كأنه يريد أن يفصح عن رغبة في مساعدته للعودة إلى أهله.

كان صاحــب البيت يستمــع إلى رفعت وهو يــروي قصته بصوت متهــدّج. وكانت علامات الشفقة باديــة على وجهه، فامتلأ بأسباب المساعدة لهذا المظلوم.

انتصــف النهــار وكانت بضــع غيمات تتجمــع فــي كبد السمــاء وتحجــب ضوء الشمس. في هــذه الأثناء كان رفعت برفقة الرجــل الــذي أنقذه فــي سيارتــه باتجاه المنطقــة التي سوف يجتمع فيها مع أخوته الذين أخذتهم الفرحة بعودة أخيهم سالماً. وصــلا بالسيارة عبر طريق ريفية وعرة إلى «الســدة» المنطقة نفسها التــي وصل إليها رفاق رفعت.

شكــر رفعت الرجل على مــا قدّمه من مساعدة ومخاطرة في إيصاله لهذه المنطقة المليئة بالمسلحين وقاطعي الطريق.

بفخــر وأنفــة تعتمران وقفتــه ودّع الرجــل رفعت وعاد إلــى قريته التي لم

ينتبه أحد فيها على الرجل الغريب، ربما لأنَّ بيته متطرف عن القرية أو لأنه أراد إبقاء قصته سراً بعيداً عن عيون المندسين.

اتكأ رفعت على صخرة بجانب الطريق، أغلق جفنيه المرهقين، وساقه شرود متعب إلى قصة اختطافه مع رفاقه، والعذاب الجسدي والنفسي الذي تعرضوا له. أجفله صوت الرصاص القريب، انتفض من مكانه قلقاً، إنها سيارتهم، لقد عرفها سيارتهم البيضاء مركونة على الطريق. وإطلاق النار يستبيح وقوفها، فجأة توقف صوت الرصاص، تسمّر رفعت في مكانه، هدوء قلق هيمن للحظات، سأل في سرّه: أين إخوتي؟ رفع يديه المرتجفتين للدعاء إلى الله يحميهم من كل شر عظيم.

لقد كان اشتباهاً بسيارتهم، أطلقت قوات حماية المنطقة النار عليهم بعدما اعتقدت أنها سيارة مسلحين تجوب المكان للسرقة أو الاختطاف.

فصل رعب جديد عاشه رفعت مع إخوته. قطع نصف المسافة يحثّ الخطا إليهم عندما لمح إخوته بجانب السيارة، لم يستطع الانتظار ليأتوا. انطلق إليهم كعصفور قبّل الفجر بعد ليل طويل، وأطلق جناحيه مسرعاً تكلله الفرحة كجندي عاد من معركة سجل فيها انتصاراً عنيداً على الأعداء.

امتزجت الدموع في اللقاء بين الإخوة ورقصت الطبيعة فرحاً. ما أجمل لقاء الأحبة بعد افتراق، تلك الأهداب التي اخضلّتْ بالدماء من قبل، الآن يبللها دمع الفرح بالتقاء الأشقاء.

حتى المرآة لا تراه

❀
غزوان بزي



لفحةُ التفاجؤ وشبح الذعر ما أصابه، حتى إنه كاد يسقط مغشياً عليه.. حدث ذلك في صبيحة أحد الأيام، عندما وقف أمام المرآة ليمشّط شعره، ويعدّل (الكرافتة) قبل خروجه إلى وظيفته، فلم ير صورته مرسومة على وجه المرآة!

مسح المرآة بصفحة يده.. لكنها بقيت صامتة وفارغة من صورته..

وقتها شعر بالخوف، وحفّه الاستغراب والتكهن، لم يشأ إخبار زوجته بذلك، لأنها لن تصدقه، وستسخر منه، لأنه أمرٌ غير

❀ أديب وقاص.

معقول الحدوث على الإطلاق، فالمرآة وظيفتها أن تعكس صورة الأشياء لا أن تبتلعها..

فقرر أخيراً ألّا يخبرها، في الوقت الحاضر على الأقل، فلربما كانت عيناه متعبتين قليلاً من كثرة العمل والتدقيق في الأرقام، أو ربما هو في قرارة نفسه أراد ألّا يرى صورته في المرآة، فعقله المنشغل في أمور هامة، لم يستقبل الصورة ولم يحللها، فبدت صفحة المرآة فارغة أمام عينيه..

هكذا راح يتكهن ويحلل ويفلسف الأمور، لكن اللافت للنظر أنه بقي لايرى صورته في المرآة!

في طريقه إلى مكان وظيفته كان يقف أمام واجهات المحلات الزجاجية، علّ هذه المرايا تعكس صورته بدورها لكن بلا جدوى فصورته بقيت ضائعة في المرايا المسحورة التي كانت تعكس صور الناس المارين، والأبنية المجاورة.

تفاقم القلق في نفسه، وتعاظم الذهول والذعر، فلم يعد ينظر إلى زجاج أي واجهة أو مرآة تصادفه، بل راح يتحاشاها جميعاً.. حتى وصل أخيراً إلى مقر عمله.. (أبو أسعد) مراقب الدوام كان يجلس كعادته على الكرسي ويحتسي كأس الشاي، وهو يبرم سيجارته فألقى عليه التحية:

صباح الخير (أبو أسعد).. فلم يجب.. لا بمثلها ولا بأحسن منها، وكأنه لم يره أو يشعر به من أصله!

لم يعلّق وتابع سيره صاعداً على السلم إلى الطابق الثالث، حيث غرفته هناك في آخر الممر..

لقد مضى على وجوده فيها عشرون عاماً، وعلى الطاولة نفسها، لم يبدّلها حتى.. كان يعتبر هذه الطاولة رفيقته يأنس بها وتأنس به.. هكذا كان يقول..

وعندما دخل وجلس وراءها، حجبته المصنفات المكدسة فوقها كالبرج، لو وقفت أمامه فإنك بالتأكيد لن تراه من ارتفاعها..

كان هناك أمامه أيضاً ورقة موقعة من زميله في الغرفة (أبو محمود)، كتب عليها بعض الكلمات..

هذه المصنفات والمعاملات متأخرة عندي، ولم أستطع تدقيقها ومتابعتها، فأرجوك يا سليم، دققها من أجلي وسأوقعها أنا عندما أعود من الإجازة، فزوجتي ولدت طفلها الرابع..

أخرج سليم نظارته من جيبه ووضعها أمام عينيه، فتح المعاملة الأولى، وبدأ يقلب أوراقها ويدققها بكل هدوء ورقة ورقة، وما مرت ساعتان حتى بدأ عامود المعاملات بالتهاوي والنزول ومازال سليم منهمكاً

بفحصهـا وكتابة نواقصـ كل معاملة على الغلاف إلى أن دخـل عليه المستخدم (أبو محمد)..

طرق الباب، رفع سليم رأسه ونظر إليه، فلم يتفوَّه أبو محمد بحرف واحد، بل أشار بيـده إلى الأعلى، عندها عـرف سليم بأن المدير يطلبه..

خطف نظارته من أمام عينيه، طواها ثم وضعها فـي جيبه، وتوجه خارج الغرفة إلى السلـم الذي سيوصله إلى غرفة المدير في الطابق الخامس..

دخل غرفـة السكرتيرة مها، كانت تدير ظهرها إليـه وهي تعمل علـى الكمبيوتر، ألقـى التحية، لكنها لم تجبه أو تلتفت إليه، بـل أشارت له بيدها بأن يجلس، ريثما يأتي دوره للمثول أمام المدير..

جلس علـى مقدمة الكرسي من دون أن يريح ظهره، واضعاً كفيه بين فخذيه، مطرقاً إلى الأرض وكأنه ينتظر نتيجة امتحان.

حتـى فُتح بـاب المديـر وخرجت منه امرأة جميلة تلوك لبانة في فمها، هـي أيضاً لم تلتفت نحوه ولم تعره أي انتباه..

عندهـا أشارت له السكرتيـرة مها بأن يدخل إلى المدير، وقف سليم، عدّل كرافتته وأصلح شعـره بمشط صغير كان في جيبه العلوي، ثم دخل غرفة المدير، أدار المدير ظهر كرسيه الهـزاز إلى سليم فلم يظهر له إلا قمة رأسه مـن الخلف، ألقى سليم عليه التحية، فلم يرد أو يلتفت إليه، وبقي منشغلاً بالحديث على الهاتف.

تسمّر سليم في مكانه لمدة عشر دقائق، لا يتحرك يمنة ولا شمالاً، كأنه تمثال، لكنه ملّ وضجـر، فبدأ يصدر حـركات خفيفة بحذائـه، ومـرة يصـدر صوتـاً بالمفاتيح الموجودة في جيبه، علّه يُوفّق في لفت انتباه المديـر، ليقطع حديثه على الهاتف، مضى ربـع ساعة وهو واقف، فـراح يكح ويسعل، لكـن المدير أبداً لم يلتفـت، فكسا الخجل وجهـه، وشعر بالعار والـذل، كان في أدنى درجات الـذل والإهانة والإحراج، غام وراء عالم آخـر خارج هذه الغرفـة، التي بدأت تضيّق أنفاسه وتخنقه ، تذكر زوجته وكيف أنها لم تحترمه يوماً، أو تحسب حساباً قط لغضبه و تهديده، بل كانت تسخر وتهزأ منه على الـدوام وهو واجمٌ صامـتٌ، لينسحب من أمامها أخيـراً يجر وراءه ثوب البساطة والسذاجة والمهانة.

وكذلك زملاؤه وأصدقاؤه يقللون دائماً من قـدره، ويتلمَّزون عليه، يضحكون عليه مـن ورائه ومـن أمامـه، ويحمّلونه عملهم ومعاملاتهم، وهـم يتسكعون من مكتب إلى آخر، ومن غرفة إلى غرفة، يحتسون القهوة

والشـــاي، يضيّعــون أوقاتهــم، ويتسامرون بقصة فـــلان أو فلانة، بينمـــا هو منهمكٌ، عاكفٌ علـــى إنجـــاز عمله وعملهـــم، وفي النهاية، التقدير والمكافـــأة للأسف.. لهم، وهـــو إن نال شيئاً فمثلهـــم أو أقل، سخروا علـــى الدوام من بساطتـــه وطيبته، وبأنه لا يتعب أو يمل من العمل، فهو من دون إحساس أو مشاعـــر، حتى المستخـــدم البسيط (أبو أسعـــد) لم يـــرد عليه التحية يومـــاً، لأنه لا يعني له شيئاً، ولا يكنُّ له أي احترام، لكنهم لم يعرفوا أو يفهموا أبداً بأنه هو وحده من امتلك المشاعـــر والأحاسيس والقيم، التي خوَّلته دوماً أن يفوقهـــم مكانة وقدراً، على الأقـــل أمام نفســـه، التي حـــاول أن يقنعها علـــى الدوام بالقناعة والرضـــا، فاستكانت وهدأت.

عاد لتذكر عدم ارتسام صورته في المرآة هذا الصباح، فاغرورقت عيناه بالدموع، ثم راح يضحك، وبدأ يكلّم نفسه..

لا أعجـــب من عدم وجـــود صورتي في المـــرآة، لأنها هي أيضاً لا تريد أن تراني أو تعيرني أيَّ انتباه، وكأنها حسبتني ميتاً، بلا روح أو قلـــب، فعاملتنـــي بقسوة كما زوجتي وزملائـــي وأصدقائـــي، رؤوني آلـــة تعمل وتنجـــز، لا قلب فيها ولا إحساس، وليس لي الحق بالألم أو الفرح أو الشكوى..

داســـوا على صمتي وضعفـــي، فلم أكن علـــى مستوى أعينهم، أو اهتمامهم، أو حتى تقديرهم..

فمـــاذا عسانـــي أفعل لأجلهـــم؟ حتى يرَونـــي، ولكـــي تنعكس صورتـــي على وجه المـــرآة، فلقد جعلوني غريباً تائهاً لا أعرف وجهي ووجهتـــي، وضعيفـــاً لتحمُّل ظلمهم وتجاهلهم لي..

عندها مســـح سليم دمعته قبل أن تصل إلى خده، واتجه نحو باب غرفة المدير، فتح الباب وخرج، ثـــم أغلقه بقوة، كاد يحطمه، ارتجـــف المدير في داخل الغرفة، وسقطت سماعة الهاتف من يـــده، أدار كرسيه ليرى من أغلق الباب بهذه القوة، والسكرتيرة مها شخصت عيناها نحو سليم، الذي نظر إليها نظرة غريبة مخيفة، ولّدت في نفسها ذعراً وارتباكاً، عندها كان سليم قد غادر غرفتها مـــن دون أن يعيرها أيَّ اهتمـــام أو يستأذن كعادته.

بعد ثوانٍ هاتفها المدير قائلاً:

من هذا الوقح، قليل الأدب، الذي أغلق الباب بهذه القوة، وخرج دون استئذان؟

فقالـــت له مهـــا: لم يكن ثمـــة أحدٌ في الداخل يا أستاذ، إنَّها الريح، أغلقته بقوة.

تباريح أقوى من الريح

❁
ساجدة الموسوي



شيءٌ من المحال

كنت أدفع بعجلة الزمن الدائرية إلى الخلف، أدفع بها بكل قوة، لكنها على سكتها واقفة لا تتزحزح ولا تستجيب لضعفي، قلتُ أتحدى المستحيل وأدفع، عسى ولعل أن تتحرك ولو قليلاً وتخرجني من المكان الضيق الذي أوصلتني إليه، دفعتُ بكل قوة، تعاطفت معي السناجب والأرانب والقطط وبدأت تدفع، مرت الريحُ ولم تلتفت، أيتها الريحُ تعالي ساعديني، أُريد أن أرجع بعجلة الزمن إلى الوراء، ضحكت الريحُ وقالت: أستطيعُ أن أهدم بيوتاً وقصوراً وأدمر

❁ أديبة وشاعرة من العراق الشقيق.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بلدانـــاً، لكني لا أستطيع إرجاع هذه العجلة دقيقة واحدة إلى الوراء.

وبقيــتُ أدفعُ وأدفــعُ كالمجنونة، أتاني صوت مـــن هناك: إلى أيـــن تودين الرجوع أيتها المرأة المستحيلة؟

أريد الخروج من هذا الزمن

أريد أن أرجع إلى الماضي القريب الآمن الأميـــن حيث لا حـــروب ولا أسلحة مدمرة ولا صواريـــخ ولا هجرات جماعية، ولا مدن جميلـــة تدمـــر... لقد اختنقـــت من دخان الحـــروب وأصـــوات الراجمـــات وصيحات المذيعيـــن في الشاشـــات المذيلة بالأحمر العاجل، يومياً أعيش عذاب الأم التي فقدت وليدها والزوجة التي فقدت زوجها والأخت التـــي فقدت أخاها، بل عذاب اليمامة التي انقض الغراب على عشها فهدمه...

أيـــن بيتـــي؟ أعدنـــي إليه أيُّهـــا الزمن القاســـي، لا أريد هذه الأطـــلال المحاطة بالوحوشـــن الضارية، أريـــد بيتي ارجع بي للـــوراء كي أعود له حيـــث النخيل والزيتون والأعنـــاب، حيث الجنائن الخضر والمزارع المعطرة برائحة الحنطة والزعتر والخباز، حيث الفجر إذا أطل أذان تخشع له القلوب، وشـــاي وجبنة وزيتون أو قيمر ومربى وخبز حار فطـــور العائلة وكل يذهـــب إلى عمله متوكلاً على الحي القيوم...

ارجع بي إلـــى أخبار الوطـــن الجميل، رايـــات سامقة ترفـــرف بالعـــز، وجحافل مـــن الأطفـــال بثيابهم المدرسيـــة يهرعون لطلـــب العلم.. المعامل تنتـــج والحاصدات تحصـــد والبواخر تشحـــن والمطارات تعج بالمسافريـــن (الرائحيـــن والغادين) بحب وأمل، ووداع بدموع واستقبال بورود.. ارجع بي إلى الناس الطيبة التي كانت تعرف الله ليســـ في صلاتها فقط بـــل بالتراحم فيما بينها، بالغيرة على الجار والقريب والصديق، بالأمانـــة وحفظ العهـــود، بالوفاء والصدق والنبل الذي ما له حدود، لم يكونوا بحاجة إلى مـــن يعلمهم أصول الحيـــاة ولا مبادئ الأخلاق ولا أصول الدين، كل يعرف حدوده وكل يتسابق ليكون قدوة في أسرته أو عمله أو عشيرته.

ارجع بـــي أيُّها الزمن لأعيش تلك الأيام التي كنا نغني فيها للوطن الحبيب والعروبة الغاليـــة، لم تكن قيمة الإنســـان آنذاك في حزبـــه أو دينـــه أو قوميتـــه أو طائفته، كان المقياســـ الأساســـ هو مقياســـ المواطنة الحقـــة والأخـــلاق الفاضلـــة والكفـــاءة أو القـــدرات العلميـــة أو الثقافيـــة يترجمها العطاء المتواصل، كان الجميع يعمل لإسعاد الفرد والفرد يعمل لإسعاد الجميع.

الجنون أعلى مراتب الحب

ما الذي دهانا؟ وماذا حلَّ بنا لنقف على أطلال الخراب المادي والأخلاقي وكأننا لسنا أبناء هذه الأرض العربية التي أرضعتنا القيم مع حليب الأمهات.

أكاد أختنق اليوم مما أرى وأسمع، لذا قررت أن أعمل المستحيل، أو الذي يراه غيري مستحيلاً وأراه ممكناً، أن أعود بعجلة الزمن إلى الوراء، أي أن أتخلص من هذا الحاضر الرث المربك المهلك الحزين فهل من يعاون لدفع عجلة الزمن القاسية إلى الوراء؟ قولوا عني مجنونة، أليس الجنون من مراتب الحب؟

بل هو أعلى مراتب الحب التي قال العرب أنها تبدأ بالعلاقة/الحب اللازم، ثم الكلف أي شدة الحب، ثم العشق لما زاد عن الحب، فالشغف وهو مالامس شغاف القلب ثم الجوى أي الهوى الباطن ثم التيم أي الذي يتيم بمن يحب أو يستعبده حبه، ثم التبل أي من يسقمه حبه، فالتدليه وهو ذهاب العقل من الهوى والمرحلة الأخيرة هي الهيام ويعني فقدان العقل بالكامل بسبب الهوى، بمعنى آخر (الجنون)... لقد مررت بكل هذه المراحل في حب وطني وأمتي... حتى أخذت أهذي وأطلب المستحيل، فهل هناك من يشاركني جنوني هذا؟ إنَّ العقلاء لحد الآن لم يفعلوا شيئاً، لنجرب نحن، لنقتحم أسوار الخوف والتردد ونعمل بصدق لعودة أمتنا إلى عهدها الزاهر القريب وليس عهدها الزاهر البعيد لأننا منهكون من الحروب ولا قدرة لنا على دفع عجلة الزمن أبعد من ذلك.

من لا يحترق لا يضيء

علينا أن نعود إلى إشراقات عصر التحرر من الاستعمار، وفورة التحرر الوطني، ثم فترة المد القومي بلا تقاطعات ولا مواربات، أثبتت حقائق التاريخ أن الوحدة الوطنية حاجة ماسة وتعود بالنفع على جميع المكونات، وأن لحمة النسيج الوطني والقومي حاجة أيضاً ماسة للوقوف بوجه المحن والشدائد، وأن الكف الواحدة لا تصفق، وأن الذي يخسر وطنه يخسر الماضي والحاضر والمستقبل، وأن التضحية شرط واجب على الجميع لأن الأنانية وحب الفرد لنفسه بشكل براغماتي هو الذي أوصلنا لهذه النتيجة. قال مانديلا (ليس حراً من يُهان أمامه إنسان ولا يشعر بالإهانة).

وها هم العرب كل يوم يجلدون بنازلة من النوازل على أيدي أعدائها المعروفين ، هل أواصل الهذيان أم أتوقف لأن الساعة أمامي تشير إلى الرابعة صباحاً وما زلت هائمة بهذا الوطن الذي أحلم أن يستعيد

طاقاتــه الكبــرى الكامنة فــي نفوس أهله ليضعوا الكف على الكف والقلب على القلب حتــى تشرق من جديــد شمسهم التي أفلت وتستجيــب عجلة الزمن أمــام طاقة الحب الكبــرى فترجعنا إلى ماكنــا عليه من أمن وأمان وحب وعطاء.

وليس هذا بالمستحيل، أراهن على ذلك.

وإنــي أكاد أرى ما لا يــراه العقلاء لأنهم لم يصلوا لمراتب الحب العليا كما وصلت ولم يحترقــوا بنار الحروب كما احترقت ولذلك أضأت ومن لم يحترق لا يضيء.

أدبيّة الحوار الرّوائيّ

د. سمر روحي الفيصل ❀

قادتني تجربتي أنّ استعمال الفصيحة في لغة الحوار الرّوائيّ يجب ألا يحجب عنّا جانباً آخر أساسيّاً في الحوار، هو أدبيّته؛ أي ما يجعله حواراً روائيّاً ذا شروط ووظائف وفوائد تُدخله حقل الرّواية، وتُوَضِّح أثره في حوادثها وشخصيّاتها، وترسم الحدود التي تميزه من مثيله في القصّة والمسرحيّة. وهناك مسوّغ آخر لانصرافي إلى أدبيّة الحوار الرّوائيّ، هو ما لاحظتُه، غير مرّة، من تداخلٍ بين لغة الحوار الرّوائيّ وأدبيّته. من ذلك ما لاحظتُه من أنّ هناك روائيّين رفضوا استعمال الفصيحة في حوار رواياتهم انطلاقاً من عدم انسجامها مع تنوّع الشّخصيّات في مجتمع رواياتهم.

وأنّ هناك روائيّين آخرين رفضوا استعمال الفصيحة في حوار رواياتهم انطلاقاً من عدم واقعيّتها الفنّيّة الرّوائيّة. ورأيي أنّ هذين الفريقين خلطا بين لغة الحوار وأدبيّته، فجعلا منهما شيئاً واحداً. ويبدو لي أنّ الفريقين رفضا استعمال الفصيحة (وهي لغة)؛ لأنّها لا توفِّر الواقعيّة الفنّيّة؛ أي تحويل اللّغة إلى كلام أدبيّ؛ أي إنّهم لم يميزوا بين لغة الحوار وأدبيّته.

❀ أديب وناقد وباحث سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة.

وقادهم هذا التّداخـل إلى تفضيل العامّيّة لمراعاتهـا المنطق الفنّيّ فـي بناء الحوار بين الشّخصيّات الرّوائيّة.

أرغب، هنا، في القـول إنّني لن أناقش صوغ الحوار الرّوائيّ باللّغة الفصيحة، ولن أتحدَّث عن عامّيّة هذا الحوار، أو عن اللّغة الوسطى أو الثّالثة التي اقْتُرِحَتْ حلاً وسطاً بيـن الفصيحة والعامّيّة. ذلك أنّني مطمئنّ إلى أنّ الفصيحة قـادرة على صوغ الحوار الرّوائيّ، فضـلاً عـن أنّ اختيارها واجب قومـيّ، يدعونا إليه ما بلغتـه اللّغة العربيّة من تدهور وغُربة فـي بلادها وعلى ألسنة أبنائهـا وأقلامهم. فإذا استقـرّ هذا الأمر في أذهاننا وجـب التّذكير بأنّ هناك هدفاً واحـداً لحديثي عن أدبيّـة الحوار الرّوائيّ هـو مناقشة قضايـا (أدبيّة الحـوار)؛ أي القضايـا الخاصّة بالصَّـوغ الأدبيّ للحوار الرّوائيّ المكتـوب باللّغة العربيّة الفصيحة وحدَها، وهي قضايا متنوّعة متباينة، يمكن الدّلالة على بعضها، في حين يحتاج بعضها الآخـر إلى عون من حقـول معرفيّة أخرى غير حقلـي الأدب والنّقـد الأدبيّ. ويمكن جَمْـعُ هـذه القضايا، في حـدود ما أعلم، في ثـلاث قضايا رئيسة، هي: شكل الحوار الرّوائيّ، وفائدة الحـوار الرّوائيّ، وشروط الحوار الرّوائـيّ. وسأكتفي، هنا، بالحديث عن القضيّة الأولى ليس غير.

شكل الحوار الرّوائيّ

أقصـد بشكل الحـوار الرّوائـيّ، هنا، شكل اللّغـة العربيّة الفصيحـة المستَعمَلة في هذا الحوار. ذلك أنّ هناك من يظنّ أنّ استعمال الرّوائيّيـن شكلاً واحداً، هو اللّغة العربيّـة الفصيحة، كافٍ فـي الدّلالة على اشتراك هـؤلاء الرّوائيّين في شيء إيجابيّ واحـد موحّد. في حيـن يشير واقع الحوار الرّوائيّ عنـد الرّوائيّين العرب إلى أنّ هذا الظّنّ قاد إلـى أوهام لغويّة، أكثرها بساطة اتّفـاق مستعملي الفصيحة فـي المستوى اللّغويّ لحـوار رواياتهم ما داموا يستعملون شكلاً لغويّاً واحداً. وأشدّها خطراً انحراف الرّوائيّين عن الصّواب اللّغويّ إلى الأخطاء اللّغويّـة فـي أثناء استعمالهم هـذا الشّكل الواحـد. ومن المفيـد لتوضيـح الأوهام اللّغويّة القول إنّ استعمـال الرّوائيّين اللّغة العربيّة الفصيحة في حوار رواياتهم قادني إلى النّتائج الثّلاث الآتية:

- **النّتيجـة الأولـى: الانتقـال من اللّغة إلى الكلام**

أعتقـد أنّ استعمـال الرّوائيّيـن اللّغة العربيّـة الفصيحـة فـي حـوار رواياتهم، يعنـي أنّهـم يستعملون شـكلاً لغويّاً واحداً موحَّداً، لكنّه لا يعني أنّهم متساوون في هذا الاستعمال. ذلك أنّ الاعتقاد بالتّساوي يبقى

صحيحاً ما دمنا نقصد أنّ الرّوائيّين العرب يشتركون في استعمال لغة واحدة، هي اللّغة العربيّة الفصيحة، ولا يستعملون لغة أخرى كاللّغة الفرنسيّة أو الإنكليزيّة أو الألمانيّة أو غيرها من اللّغات. فإذا غادرنا هذا الاعتقاد، فخرجنا من الشّكل اللّغويّ العام إلى الاستعمال اللّغويّ الخاصّ للشّكل العامّ؛ أي خرجنا من اللّغة إلى الكلام، لاحظنا أنّ الاستعمال اللّغويّ الخاصّ بالحوار يتعدّد بتعدُّد الرّوائيّين، بل إنّه يتعدّد، أحياناً كثيرة، بتعدُّد الرّوايات عند الرّوائيّ الواحد. وهذا يعني أنّ الرّوائيّين ينتقلون من الاشتراك في (اللّغة) الفصيحة إلى التّباين والتّعدُّد في (الكلام)؛ أي الحوار الذي صِيغ من الألفاظ والتّراكيب التي اختارها الرّوائيّ من (اللّغة) المشتركة؛ للتّعبير عن مراد كلّ شخصيّة من الشّخصيّات المتحاورة في رواياته. وهو، في الوقت نفسه، انتقال إلى مستوياتٍ من الحوار فرديّةٍ كثيرةٍ جدّاً، هي المستويات التي نقرؤها في روايات الرّوائيّين المختلفين، وفي روايات الرّوائيّ الواحد. فهناك مستويات من الحوار متباينة بين روايات (السّفينة) لجبرا إبراهيم جبرا، و(اللّص والكلاب) لنجيب محفوظ، و(شرق المتوسّط) لعبد الرحمن منيف. وهناك مستويات أخرى متباينة بين روايات كلّ روائيّ من الرّوائيّين المذكورين. فالحوار في (اللّص والكلاب) يختلف عن الحوار في (الثّلاثيّة)، وعن الحوار في (رادوبيس) وهي كلّها روايات لروائيّ واحد، هو نجيب محفوظ، على الرّغم من أنّ هذه الرّوايات تشترك في المستوى اللّغويّ الفصيح.

هذا الانتقال من (اللّغة) إلى (الكلام) هو النّتيجة الأولى لاستعمال الفصيحة في الحوار الرّوائيّ. والفائدة من هذه النّتيجة هي أنّ صناعة الحوار الرّوائيّ صناعة فرديّة وليست صناعة عامّة مشتركة بين الرّوائيّين، وإنّ صِيغ هذا الحوار باللّغة الفصيحة عند الرّوائيّين المشتركين في استعمالها. وكأنّ كلّ واحد من هؤلاء الرّوائيّين جسّد وحدَه قاعدة التّفرُّد في التّأليف، أو النَّظْم، التي قدّمها عبد القاهر الجُرْجَانيّ في (أسرار البلاغة)، وخلاصتها اتّجاه الرّوائيّ باللّغة في أثناء صوغه حوار روايته (إلى وجه دون وجه من التّركيب والتّرتيب)[1]. أي أنّ كلّ واحد من الرّوائيّين يؤلِّف من الألفاظ والتّراكيب اللّغويّة الواحدة حواراً مختلفاً؛ لأنّ العبرة بعد الاشتراك في الشّكل العامّ تكمن في المهارة التّأليفيّة؛ مهارة الصّوغ. كما تعني هذه النّتيجة أيضاً أنّ الرّوائيّين العرب استعملوا لغة واحدة، هي اللّغة الفصيحة، في التّعبير عن أدقّ أحاسيسهم

ومشاعرهم، ولكنّهم استعملوها استعمالات مختلفة، متباينة، معبِّرة عن قدرة كلٍّ منهم وموهبته.

- **النّتيجة الثّانية: قدرة الرّوائيّ اللّغويّة**

النّتيجة الثّانية لاستعمال الرّوائيّين العرب شكلاً لغويّاً واحداً تنبع من النّتيجة الأولى. فإذا اختلف الرّوائيّون في صناعة الحوار، فإنّ اختلافهم يعني تباينهم في تقديم الحوار الملائم للشّخصيّات، المعبِّر عن أفكارها ووجهات نظرها. وبتعبير آخر أقول: إذا كان الهدف من الحوار الرّوائيّ تعبير كلّ شخصيّة عن أفكارها ووجهات نظرها، وسعيها إلى تنمية الحدث والإسهام فيه، فإنّ من أكثر الأمور الفنّيّة صعوبة أنّ ينجح الرّوائيّ في تقديم حوارٍ ملائم لكلّ شخصيّة من شخصيّاته على حدة، بحيث تبدو الشّخصيّات، مجتمعةً، من خلال حوارها ووجهات نظرها، مختلفة متباينة مقنعة. ويرجع تباين الشّخصيّات الرّوائيّة من خلال الحوار إلى أمرين:

- أوّلهما قدرة الرّوائيّ الفنّيّة على صوغ الحوار المفيد الماتع.

- والأمر الثّاني هو قدرة الرّوائيّ اللّغويّة، وهي قدرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشّكل؛ ولذلك رأيتُ من الواجب الحديث عنها هنا. ذلك أنّ الرّوائيّين يجب أن يشتركوا في شيئين أساسيّين، هما:

- أوّلهما معرفة السّنن اللّغويّة العربيّة الأساسيّة، وخصوصاً الأصول العامّة في النّحو والإملاء والصّرف.

- وثانيهما امتلاك الذّخيرة اللّغويّة الكافية؛ ليتمكّنوا من صوغ الحوار المعبِّر بدقّة عمّا ترغب فيه كلُّ شخصيّة من الشّخصيّات المتحاورة في رواياتهم.

هذه الأصول العامّة التي تسمح بصوغ الجمل المتقيِّدة بسنن اللّغة العربيّة، والذّخيرة الكافية من الألفاظ التي يحتاج الرّوائيّ إلى الحدّ الأدنى منها ليتصرَّف في أداء المعاني، غير محدَّدة تحديداً دقيقاً، لكنّ حدودها العامّة هي المعارف والمهارات التي تُقدَّم للتّلاميذ حتّى الثّانويّة العامّة. وكانت تُسمَّى (البضاعة الأساسيّة)، أو (الزّوّادة الأساسيّة)؛ أي المادّة اللّغويّة التي تساعد الطّالب العربيّ على الخوض في الحياة اللّغويّة بعد الثّانويّة العامّة. وتشمل، في حدودها كلّها، معرفة حالات صوغ الجملتين الاسمية والفعليّة، وإتقان الأساليب العربيّة كالشَّرط والاستفهام والنَّفي والتَّعجُّب وغيرها، والتَّمهُّر في رسم الكلمات رسماً صحيحاً بحسب قواعد الإملاء، والدّقّة في استعمال الأبنية الصَّرفيّة للمشتقّات والجموع وتّصريف الأفعال والأوزان، وامتلاك قَدْرٍ جيِّد كافٍ

من الكلمات يسمح للرّوائيّ بالاختيار منه لحالات التّعبير المختلفة.

وكلّما عمقت معرفة الرّوائيّ بسنن العربيّة، أو بهذه البضاعة العامّة، اتّضحت مهاراته اللّغويّة، ونضجت، وانعكست انعكاساً إيجابيّاً في أثناء صوغه الحوار الرّوائيّ. وهذا كلّه يعني أنّ الرّوائيّ مُطَالَب، في الحدود الدُّنيا، بامتلاك المهارات اللّغويّة الأساسيّة التي تساعده على التّعبير الدّقيق، ولا يعني أن الرّوائيّ يجب أن يكون عالماً لغويّاً، إنّما يعني أن يكون الرّوائيّ إنساناً موهوباً، يملك حساسيّة لغويّة تساعده على تقديم حوارٍ جميل ملائم معبِّر.

من الواضح أنّني أرى أنّ امتلاك الرّوائيّ الحدود الدُّنيا من سنن العربيّة أمر واجب، لا يحتاج إلى تنبيه وتذكير. بل إنّ حديثي عن الحدود الدُّنيا من سنن العربيّة يُضمر رغبتي في وصول الرّوائيّ إلى مرتبة الفنّان في الاستعمال اللّغويّ، كما هي حال الاستعمال اللّغويّ الماتع الشّائق الدّقيق في روايات بديع حقّي وفاضل السّباعي ونجيب محفوظ ومحمّد عبد الحليم عبد الله. فهؤلاء جميعاً استعملوا شكلاً فصيحاً واحداً، لكنّهم صنعوا منه حوارات رشيقة معبِّرة تختلف من شخصيّة إلى أخرى.

بيد أنّ الواقع اللّغويّ الرّاهن للحوار الرّوائيّ أعلن مشكلة صرفتنا عن الطّموح إلى تجويد الحوار الرّوائيّ الفصيح والارتقاء به فوق الذي قدَّمه روّاد الرّوايّة العربيّة والمجوِّدون فيها. وقد بدأت هذه المشكلة تتّضح عند الرّوائيّين العرب في العقد الأخير، ومُفادها الخلل في المشترك اللّغويّ الفصيح، أو ما يجب أن يكون مشترَكاً بين الرّوائيّين. وأبرز تجلّيات هذا الخلل كثرة الأخطاء في النّحو والصّرف والإملاء واللّغة وتركيب الجمل، وعدم اهتمام الرّوائيّين الجدد بتكليف مَنْ يرونه مناسباً لتصويب الأخطاء في رواياتهم، وإهمال دُوَر النَّشْر تصويب أخطاء الرّوائيّين قبل طباعة الرّوايات، ورَفْض الرّوائيّين، والرّوائيّات أيضاً، التّنبيهات الشّفويّة والمكتوبة المتوالية من النّقّاد على تقصيرهم في إتقان مهارات اللّغة العربيّة، وعدم معرفتهم بأنّ هناك خللاً جماليّاً في نصوصهم الرّوائيّة نابعاً من الأخطاء التي وردت في هذه النّصوص، وانعكس بعضها في حوار رواياتهم، حتّى إنّ المرء بدأ يعتقد أنّ هؤلاء الرّوائيّين يجهلون مواضع الخلل والخطأ في نصوصهم؛ وشرع يشكّ في أنّهم لا يملكون القدرات اللّغويّة التي تُعينهم على تمييز الخطأ من الصّواب. وإليك نماذج من بعض الرّوايات(٢) تضمّ أخطاء في الأمور الأساسيّة الثّلاثة البسيطة التي يتقنها تلاميذ المدارس عادةً:

اسم الرّواية	الخطأ النّحويّ	الخطأ الإملائيّ	الخطأ اللّغويّ
عناق عند جسر بروكلين	كلّما فعلت كلّما اتّضح	هيأتي	مضطراً لتقديمها
مذكّرات فارسة عربية	لكنّ شعور تملّكني	إمرأة	الشّتاء القارص
للقمر جانب آخر	كان أباه وجدّه عاملين	شيئ	إضافة عمّ قدّموا
رسل السلام	لم يبق أحد	الإعتياديّة	طيلة الوقت
هربتْ	منذ ثلاثون سنة	أفريقيّة	بالنّسبة لي
يطالبني بالرقصة كاملة	أمّا كرسي يوسف فخالياً	الخطى	صدفة
زينة	ينطلق خلفه المتظاهرين	مَلاّ الفراغ	الغير متجانس

يضمّ الجدول السّابق نماذج من الأخطاء النَّحويّة والإملائيّة واللّغويّة في بعض الرّوايات العربيّة؛ لأنّه ليس من غرضي إحصاء الأخطاء التي وقع الرّوائيّون كلّهم فيها في العقد الأخير(٣)، إنّما غرضي، في حدود الأخطاء المدوّنة في الجدول، هو التّنبيه على أنّ الرّوائيّين الذين لا يملكون لغتهم العربيّة الفصيحة يتّصفون بثلاث صفات:

- أوّلها عدم معرفتهم الألفاظ والتّراكيب التي تؤدّي المعاني التي يرغبون في تقديمها في حوار رواياتهم أداءً دقيقاً.

- وثانيها ضَعْف قدراتهم على التأليف بين الألفاظ لصُنْع التّراكيب الدّالّة على المعاني التي يرغبون في إيصالها إلى المتلقّين.

- وثالثها عجزهم عن تقديم سرد جميل وحوارات ماتعة مفيدة؛ لأنّ مواهبهم (الفطريّة) ورغباتهم الأدبيّة في كتابة الرّوايات، لا تكفي وحدَها للنّهوض ببناء نصوصهم الرّوائيّة، تبعاً لحاجة هذا البناء إلى معارف لغويّة، وخبرات جماليّة، وقدرات فنّيّة، وتجارب روائيّة، تساعدهم على تجسيد مواهبهم في أثناء صوغ الحوار والسّرد والوصف وابتداع الحوادث وتقديمها للمتلقّين.

- النّتيجة الثّالثة: تباين مستويات الحوار

النّتيجة الثّالثة مرتبطة بالنّتيجتين السّابقتين. فإذا كان الحوار الرّوائيّ صناعة فرديّة من اللّغة العربيّة الفصيحة المشتركة بين الرّوائيّين، وكانت الدّقّة والمعرفة اللّغويّة تقودان الرّوائيّ إلى تقديم الحوار الجميل الماتع، وكانت الأخطاء تقود الحوار الرّوائيّ إلى الضّعف وعدم الدِّقّة في التّعبير عن

المراد، فإنّ من البديهيّ أن نستنتج أنّ مستوى الحوار، قوّةً وضعفاً، فصاحةً وركاكةً، مسؤوليّة الرّوائيّ وحدَه. ذلك أنّ اللّغة العربيّة الفصيحة ملك الرّوائيّين جميعاً، وأنّ الحوار كلام يصنعه الرّوائيّ، ويتّخذه وسيلة للتّعبير عن مراده، ومن ثَمَّ فهو كلام فرديّ، لكنّه في الوقت نفسه ذو مستويات عدّة، داخل الرّواية الواحدة، وبين الرّوايات المختلفة للرّوائيّ الواحد. ومن المفيد أن نلاحظ هنا أنّ الرّوائيّ الواحد لا يُقدِّم مستوى واحداً من الحوار، إنّما براعته تكمن في تقديمه حوارات ذات مستويات عدّة، لكلّ شخصيّة من الشّخصيّات المتحاورة في روايته مستوى خاصّ بها وحدَها، معبِّر عن آرائها ووجهات نظرها، فضلاً عن إسهامه في الحدث الرّوائيّ. أي أنّ حوار كلِّ شخصيّة ذو مستوى لغويّ مغاير لمستوى الحوار عند الشّخصيّة الأخرى في الرّواية نفسها.

أمّا الرّوائيّ فقدرته الإبداعية تتجلّى في تقديمه المستويات الحواريّة المختلفة، المتباينة، من دون أن يُفضِّل مستوى منها على المستويات الأخرى؛ لأنّ الحوار ليس وسيلة للتّعبير عن المعاني فحسب، إنّما هو في الوقت نفسه وسيلة لإبداع الشّخصيّات المتباينة في مواقفها وآرائها داخل الرّواية.

ثمّ إنّ تعدُّد مستويات الحوار الرّوائيّ دليل على أدبيّة الحوار، وعلى فنّيّته، وعلى المستوى الفنّيّ للرّوائيّين الذين قدَّموا روايات ناجحة لا تنقصها القدرة على الإقناع والإمتاع والتّأثير.

وعلى الرّغم من أنّ تقديم الرّوائيّين مستويات مختلفة من الحوار دليل آخر على مرونة الفصيحة وقدرتها على صوغ الحوار الفنّيّ الماتع، فإنّ العكس سيكون صحيحاً؛ أي أنّ الإخفاق في تقديم مستويات حواريّة مختلفة داخل الرّواية، أي عدم نجاح الرّوائيّ في تقديم حوار مقنع، سيكون دليلاً على ضعفه اللّغويّ والفنّيّ، وعلى حاجته إلى سدِّ ثغرات عجزه بشيء غير قليلٍ من التَّعلُّم الذّاتيّ قبل إقدامه على كتابة الحوار الرّوائيّ.

خاتمة:

لا أشكّ في خاتمة حديثي في أنّ أدبيّة الحوار الرّوائيّ تتكوَّن من شكل هذا الحوار وفائدته وشروطه. ولا أكرِّر هنا ما تحدَّثْتُ عنه مفصَّلاً، ولكنّني أعتقد أنّ أدبيّة الحوار الرّوائيّ تحتاج إلى حديث آخر عن شروط الحوار الرّوائيّ وفائدته، من دون أن ننسى أنّ هذا الحوار موهبة وصناعة. فإذا كانت الموهبة فطريّة فإنّ الصّناعة أمر مكتسب، يحتاج إلى تدقيق

في شـكل الحوار اللّغـويّ، وفي فائدته في تنمية الحـدث والشّخصيّة وترسيخ موضوعيّـة الرّوائيّ وحواريّـة الرّواية، وإنعام النَّظر فـي الشّروط حتّى تُصبح مهارة يمارسها الرّوائيّ من دون أن يُفكِّر فيها.

الإحالات

١- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ١٩٩١م، ص٤.
٢- سأكتفـي، فـي هذا الجدول، بذكر عناوين الروايات من دون أسماء أصحابها؛ لأن الغرض هو الدّلالة على كثرة الأخطاء، وليس الغرض الإساءة إلى أصحابها.
٣- انظر تفصيلات أخرى حول الأخطاء في الألفاظ والتّراكيب عند الرّوائيين في: سمر روحي الفيصل (د): أسلوبية الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١١م، ص وما بعد.

المرأة في شعر عمر أبي ريشة

عبد اللطيف الأرناؤوط ❁



لــم تكن المرأة عند «عمر أبي ريشة» ملاكاً هبــط من السمــاء مثلما صورّها بعضُ شعــراء الرومانسيــة، ولا شيطاناً رجيماً، على المــرء أن يفرّ منه كما يفرُّ من الخطيئة... مثلما رسمها «إلياس أبو شبكــة» و«بودلير» إنّهــا في نظره، معبد للجمال، وزهــرة متفتحة يجب أن تُصان وتُدارى لتجمل بعطرها صحراء الحياة، سألتــه إحــدى الصحفيات فــي مقابلة معه:

❁ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

- يقولون إنك شاعر الحب والجمال، إلاَّ أنني لاحظت أنك لم تدخل مخادع النساء، وتصف عطرهن كما فعل سواك، فأين تقف المرأة في شعرك؟..

فأجاب: المرأة جمال، والجمال له قدسيته في نفسي، فكيف أهينه وأحدُّه في وصفي له أو لتجلياته...؟؟

لم يخص «عمر» امرأة واحدة في تأملاته الغزلية، بل كانت المرأة عنده عالماً رحيباً ودنيا من السحر والفتون، ودنيا من مغامرات تنجح أحياناً وتخفق في أكثر الأحيان، هي في نظره نجم يدور شاعرنا في فلكه، حتى إذا اعترض مداره ما يعكر صفوه انسحب منه مؤثراً السلامة، وغادر دون عنف أو عذاب..

في شعره الغزلي اجتمعت كل المذاهب والاتجاهات، فجمع بين عفة الغزل العذري ومغامرات الغزل العمري، ومجون الشعر البودليري، ورقة الرومانسيين في تصوير حبهم الخائب، ووصف الجسد المادي، مثلما أمعن في التحليل النفسي الرائع، وفي غزله تتجلى لباقة السفير في تهذيبه ونفاذه إلى قلب المرأة، فهو يشعرك أن المرأة مخلوق جدير بالتقدير والرعاية، وعلى الرجل أن يعاملها برقة ولطف ومداورة.

فما سرّ تلك المرونة في تعامله مع المرأة..؟؟

نشأ عمر أبو ريشة في بيئة محافظة تنظر إلى المرأة على أنها مخلوق يصان ويحمى، وفي مجتمع فرض قيوداً صارمة عليها، وساعده اطلاعه على الأدب العربي ولاسيما الغزل العذري على تمثل دنيا المرأة الشرقية، وما أفرزته علاقتها بالرجل من شعر يعكس الحرمان والظمأ الروحي والجسدي ثم مكنته أسفاره العديدة وإقامته في بلدان غربية وشرقية كثيرة، وثقافته الواسعة، أن يوسع نظرته إلى المرأة، فلم تعد في نظره عالماً من الحب والجسد فحسب بل مصدر الهام، وإبداع وربة شعر، وعروس وحي، ثم بلغت في تجلياته الشعرية مكانة رفيعة، إذ لم تعد عنده محركة لأحاسيس الرجل يطفئ في ينبوعها رغباته المتأججة.

أصبح الجسد في نظره طريقاً إلى الكمال والوجد الصوفي وجسراً ينتقل منه الإنسان من دنيا الغرائز الجسدية إلى الكشف الروحي السامي، ولم تعد علاقته بالمرأة علاقة عابرة، بل أصبحت رابطاً يكمل فيه ذاته، وينفذ من خلالها إلى قلب الوجود.

❁ ❁ ❁

المرأة في مرحلة شباب عمر:

في المرحلة الأولى من حياته، وفي غمرة اندفاعة الشباب، كانت المرأة في شعر عمر أبي ريشة، معبراً للجمال وعالماً من السحر والإغراء، أحب فيها جسدها وروحها، وتراوحت صلته بها بين الجنس والحب، وهي صلة لا تعرف الثبات والاستمرار، فإن مقطوعات الغزل التي كتبها في الثلاثينيات والأربعينيات لا تتجاوز التعبير عن مواقفه من أنماط النساء اللواتي جمعته بهن ظروف متباينة وعلاقات متفاوتة تطول أو تقصر، والشاعر يتنقل في عالم المرأة كالنحلة تطير من زهرة إلى زهرة، ولكل زهرة طعمها ولونها وعبيرها وعالمها، يطالعك في المقطوعات التالية أنموذج المرأة المتقلبة:

منى قلبي أرى قلبك
على عهد
أسائل عنك أحلامي
وأسكتها على الرد
أردت فنلت ما أمَّلتُ
من عزِّي ومن مجدي
فأنت اليوم ألحاني
وألحان الدنى بعدي!

وقد يظهر من خلالها الشاعر محباً صامتاً أرمضه الهوى وحبيبته غافلة عنه:

أختاه قد أزف النوى فتنعمي
بعدي فإن الحب لن يتكلما
إن تهتكي سر السراب وجدته
حلم الرمال الهاجعات على الظما

وقد يغدو حبه للمرأة صلاة وتعبداً:

هويتك في غصة المؤمنين
إلى جرعةٍ من فم الكوثر
وفوق جفوني عصاب الذهول
فلم أتبصّرْ ولم أبصر
دعيني وحيداً أزجي الخطى
على مخصب الوهم والمقفر

ومقابل الحب العفيف لا تعدم في شعره مواقف بودليرية، يصور فيها الشاعر أحياناً جسد المرأة، ويهبط بها إلى عالم الحس:

هنا في موسم الورد
تلاقينا بلا وعد
وسرنا في جلال الصمت
فوق مناكب الخلد
وفي ألحاظنا جوع
على الحرمان يستجدي
وأهوى جيدها الريان متكئاً على زندي
وشعرك مائج والطيب
ينضح فجوة النهد
فكنا غفوة خرسا
ء بين الخدّ والخد

ومع إباء الشاعر وتمنعه أن يهب حبه لامرأة تشرك الآخرين فيه، فإننا نراه

- أحياناً - يسلم بالأمر الواقع ويقبل بالصلات العابرة:

لن أسأل الكأس على راحتي
مَنْ يا ترى بعدي بها يجرح
حسبي من الزنبق أن لا أرى
من أي شلو في الثرى يرضع
فاستمهلي الليل فلي في غد
ما يبعد الظل الذي أتبع

وكان يرضى من محبوباته عبثهن في الحب، لكنه لم يكن يعد ذلك حباً:

منية النفس تناسي سيرة
تركت في مسمع البغي صداها
وأسدلي الستر على الماضي الذي
أخذت من لهوه نفسي مناها
هي أهواء شباب مترف
بلغ الطهر على رجس خطاها
فتعالي نلتمس دنيا من
الحب لم يبلغ سوى الوهم مداها
كملاكين إذا ما التقيا
ما تعدت ثورة الشوق الشفاها

والشاعر يقدس جمال المرأة، ويخشى عليه من تقلبات الزمن، ويتمنى لو يتحول جسدها إلى تمثال حجري كتمثال فينوس ليمنع عبث الزمن بالجمال:

عريانة سكر الخيال بعريها المتكبر
أبداً ممتعة بينبوع الصبا المتفجر
ترنو إليها في وجوم الحالم المستفسر
والطرف بين منقّل في سحرها ومسمر
أخشى تموت رؤاي إن تتغيري فتحجّري!!

وهو أميل إلى الموادعة مع النساء، يغادرهن بعد تحول دون احتجاج إلاَّ ما خلفه الفراق في نفسه من ألم:

قفي لا تخجلي مني
فما أشقاك أشقاني
كلانا مرّ بالنُعمى
مرور المتعب الواني
وغادرها كومض الشوق
في أحداق سكران
قفي، لن تسمعي مني
عتاب المدنف الواني
وسيري سير حالمة
وقولي كان يهواني

وتهزه خيانة المرأة وتبدل قلبها في الأعماق، فيتمثل موقف ديك الجن الحمصي الشاعر الذي تزعم سيرته أنه قتل حبيبته لشكه في تحولها عنه، وجبل من دمها إناء كان يشرب فيه الخمرة على ذكراها:

قبلتها، والليل ينفض
عنه أسراب النجوم
ومدامعي تجري وكفي
فوق خنجري الأثيم
هي وقفة رعناء ضاق
بهولها حلم الحليم
فحملت شلو ضحيتي
والنار حمراء الأديم

وجبلت من تلك الجذى
كأسي ومن تلك الكلوم
فاشرب ودعها فهي ما
مرت على شفتي نديم

على أن «عمر أبا ريشة» لم تكن له نزوات ديك الجن ولا إقدامه وتهوره، ففي قصيدته «عاصفة» يذهب إلى محبوبته ليقتلها لكنه يكتفي بتقريعها بشعره، زاعماً أنه إذ يقتلها نفسياً أقسى من أن يصفي جسدها، إن خيانتها وإثمها خير سلاح تجهز فيهما على حياتها:

اشربي اشربي بقايا خمور
أسأرتها يد الأسى في إنائي
اشربي وارقصي وغني وهزي
مزهر اللهو في يد الإغراء
اشربي وانضحي اللذائذ حتى
تتولاك رعشة الإعياء
إن هذي العروق في جسمك
البض أنابيب شهوة لا دماء

❁ ❁ ❁

انهضي، انهضي فلست أطيق
الحسن تذوي أزهاره في يديا
أنت أولى بالعيش مني فسيري
واتركيني أطوي الحياة شقيا

وليس غريباً أن يتخلى «عمر» عن محبوباته بيسر، فحبه... لم يكن فيما يبدو، حباً بالمعنى الدقيق، كان صلة عابرة لاعمق فيها، وسعياً وراء جمال المرأة الذي يراه أعلى مراتب الجمال، ولذلك نراه ضعيف الالتزام بمحبوبة معينة، وكانت علاقته بالمرأة مزيجاً من الطهر والإثم:

أنكرتني؟ مازال عبق الهوى
ووهجه في ثغري الدامي
كم سرت في أثرك في غفلة
عنك، وملء الدرب أحلامي
وكم تلفت ويا ظالماً
عرفتني من وقع أقدامي
مررت بي اليوم ولا بسمة
منك لطهري أو لآثامي

إنَّ طبع الشاعر السمح وقبوله الحياة كما تجيء، دفعاه إلى موادعة المرأة والتلطف بها... ومسامحتها:

حكاية حبنا ختمت
فما أشجى وما أقسى
جميل منك أن تعفي
وأجمل منه أن أنسى

ويبلغ رفقه بمحبوبته وتلطفه بها أن يخاف عليها، أذى البرد بعد أن سئمته وغادر غرفتها حاقداً:

قالت مللتك اذهب لستُ نادمةً
على فراقك إن الحب ليس لنا
قالت وقالت ولم أهمس بمسمعها
ما ثار من غصصي الحرّى وما سكنا
تركت حجرتها والدفء منسرحاً
والعطرُ منسكباً والعمر مرتهنا

وسرت في وحشتي.. والليل ملتحف
بالزمهرير، ومافي الأفق ومض سنا
وصحت يا فتنتي ما تفعلين هنا
البرد يؤذيك، عودي، لن أعود أنا

ومامن شك في أنَّ «عمر أبا ريشة» كان يجيد تصوير المواقف النفسية روح عمر بن أبي ربيعة وعبث الشعراء الرمزيين.

وقد استطاع أن يبتدع لغة جديدة للغزل، مهّد لظهورها الشاعر الأخطل الصغير، لكنه أرسى دعائمها وتابع بعده صقلها الشاعران نزار قباني وسعيد عقل اللذان نسجا على منواله في تصيّد الصور الموحية.. وطريقة التعبير بها:

غدا ينقل الكون ألحاننا
ويسمر في ذكرنا السّمر
فميلي نغب في شذا ضمة
يرفّ عليها المدى المقفر
أخاف انفلات الرؤى الباسمات
إذا خلج الحسن والمحجر
فأحلامنا.. يقظات الحياة
ووحي النفوس التي تشعر

❁ ❁ ❁

المرأة في مرحلة شيخوخة عمر:

ولّى الشباب ومات الحب، وإن لم تخمد نزواته، فتحول «عمر» مع الزمن الذي كان يخشى أثره، فلم تعد المرأة عنده جمالاً فحسب، بل أصبحت مخلوقاً يعضده في دروب الحياة، فهي زوج تفيض عليه بالحنان، وهي مصدر وحي وإلهام ورمز للعظمة الإنسانية في طموحها ودورها الفاعل، وهي في شعره الوطني رائدة تحرير تخوض المعارك في سبيل الحرية، حتى لقد أعجب الشاعر بجان دارك التي نظم فيها قصيدة يمجد وطنيتها ليبعث العزة في نفوس بنات وطنه، من دون أن يغفل عن وصف أنوثتها ومشاعرها الوجدانية كامرأة:

نادت بفيلقها البتول
وهزّ ساعدها المهند
وعدت إلى حرم الجهاد
السمح بالعزم الموطد
فتلاحم الجيشان فاندلع
اللظى والهول أرعد
بدت البتول كما بدا
من كوة الظلماء فرقد
تختال جذلى بالفخار
وعزة النصر المخلد

وأذهلته الحسناء الأندلسية التي التقاها في إحدى رحلاته الجوية فسألها عن نسبها، فانتسبت إلى أصلها العربي معتزة:

قلت: يا حسناء مَنْ أنتِ؟ ومِنْ
أيّ دوح أفرع الغصن وطالا
وأجابت: أنا من أندلس
جنة الدنيا سهولاً وجبالا
وجدودي ألمح الدهر على
ذكرهم يطوي جناحيه جلالا

حملوا الشرق سناء وسنا
وتخطّوا ملعب الغرب نضالا
فنما المجد على آثارهم
وتحدى بعدما زالوا الزوالا

المرأة أم أولاده، يفيء إليها في المحن، ويسند رأسه على ساعدها كلما تجاذبه القلق والأرق:

رفيقة العمر.. جفاني الكرى
فوسديني الساعد اللينا
مري بجفنيك على جبهتي
واستعرضي العيش الغني السنا
وسلسليه قصة.. قصة
وقربيه موطناً.. موطناً
أريد أن أغفو وفي مسمعي
ما يستعير الحب من حبنا

وحين شعر عمر بدنوّ أجله.. لم يجد إلاّ أم أولاده يحمّلها رسالة مختومة قبل أن يجري العملية التي مات على إثرها.. وفيها هذه الأبيات الحزينة، وهي الأخيرة في حياته:

رفيقتي لا تخبري أخوتي
كيف الردى، كيف عليَّ اعتدى
إن يسألوا عني وقد راعهم
إن أبصروا هيكلي الموصدا
لا تجفلي، لا تطرقي خشعة
لا تسمحي للحزن أن يولدا
قولي لهم: سافر.. قولي لهم
إن له في كوكب موعدا

في مرحلة النضج تلك، بدت المرأة في شعر عمر ذات وجه إنساني نبيل ورسالة سامية في حياة الشاعر وحياة الأمة.

❁ ❁ ❁

الجنس والتصوف في شعر عمر:

في قصيدة معبد «كاجاراو» التي نظمها عمر أبو ريشة في الهند، يرسم الشاعر فلسفة التصوف الهندي، من خلال وصف مشاهد الجنس الغريبة التي أبصرها في المعبد، وهي تصور علاقة الرجل بالمرأة، ويُفهم من قصيدته أن التصوف يمزق أقنعة الحياة، ويعري الإنسان من كل قيود المادة في نزوعه إلى المطلق، فالجمال الأنثوي وعلاقة الرجل بالمرأة هي لون من ألوان النزوع إلى المطلق، وطلب الكمال والجمال البشري مرتبة دنيا من الجمال الكامل، والمرء ينحرف في هذه الحياة فيحسب أنه يحقق كماله بالنزوع إلى الجنس الآخر وهو لا يعلم أنه يغفل عن ملك أسمى، وأن وراء نشوة الجسد نشوة أعظم تتجلى في النزوع إلى الخالق الأسمى، وأبو ريشة يستعرض صور المعبد الجنسية ومواقف الحب المشخصة أمامه بريشة فنان، فتكاد تتمثل أمامك كل موقف من مواقف الحب والجنس، وكأنه ينطق ويتكلم، إنها مشاهد

تفضح أقنعة الإنسان وتكشف الحجب عن نزوعه إلى المطلق لكن في غير الطريق القويم:

هذان نضوا صبوة مجنونة يتعانقان
على ارتخاء الساعد
الريان تخفق خصلتان
شفة على شفة تفتّح برعماً وتلف بان
وإلى جوارهما تثنّت سروة بل سروتان
غابت به خصرا فأجفل
واستدار الناهدان

وفي آخر القصيدة يفضح أبو ريشة زيف البشر وأقنعتهم الكاذبة تجاه الجنس، ويسخر من زوار المعبد الذين يستنكرون وجود مثل هذه الصور فيه، لأنهم لم يدركوا الغايات البعيدة لوجودها:

كاجراو هل من حرمة
لك عند رائيها تصان
مزقت أقنعة الحياة وما عليها من دهان
وجلوتها في عريها
فترفعت بعد امتهان
كاجراو لولا العجز
والحرمان ما كان الجبان

❁ ❁ ❁

ويسلم عمر أبو ريشة الروح.. ولكن حكايته مع المرأة تظل نبعاً دافقاً من العطاء الأدبي تتداولها الأجيال فتلج مخادع النساء وقلوب العذارى، وتداعب أحلام الفتيات... وعلى شفة كل قارئ همسة عرفان وتقدير للشاعر الذي عبر بإبداع عن تجاربه مع المرأة في مقطوعات ستبقى مثار اعتزاز أمتنا، وغرة في جبين أدبنا العربي.

مقدمات أفول مابعد الحداثة

د.خير الدين عبد الرحمن ❀



شهــدت أوروبا خاصــة، والغرب عامة، موجات متصاعدة من التبشير بعالم جديد تمامــاً يتشكل فــي بيئة جائحــة الثورات الإلكترونية والمعلوماتية والرقمية والحيوية والنانويــة والفضائية المتجددة بحيث تطل معالم مرحلة تزيح عالم ما بعد الحداثة Post Modernism الــذي أخذ بالأفول قبل أن يكمل تشكُّله. كانــت مقدمات تلك الثورات عاصفة وسريعة، فأطاحت بما استقر نسبياً من أسس وخصائــص مجتمع الحداثة، ثم ألحقتها بأسس وخصائص ما بعد الحداثة.

❀ كاتب وباحث ومترجم ودبلوماسي سابق.

وراح مفكرون يتلمسون مقدمات ما يعقب أفول ما بعد الحداثة. استقبل بعضهم مثلاً مقولة أننا دخلنا مرحلة ما بعد الإنسانية Post-human World، متغافلين عن استشراء عودة عملية إلى عصور التغول الإمبراطوري في استباحة وامتهان أمم العالم، وإطلاق سياسات القسوة The Politics of Cruelty.

ولئن لخص هشام جعيط الحداثة عبر تجربة إقامته في أوروبا وانخراطه في ثقافتها بأنَّها خلاصة عليا للثورات العلمية والتاريخية والعقلانية والصناعية، الليبرالية والاشتراكية وسواها (هشام جعيط، أوروبا والإسلام - صدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٥٥م، ص١٠١) فإنَّ المفكرين الفرنسيين (آلان تورين، وفرانسوا ليوتار) قد اعتبرا أن ثقافة الحداثة وثقافة ما بعد الحداثة اللتين أفرزهما المجتمع الصناعي تعجَّان بالأوهام. إذ انتشرت عملية تزييف وأدلجة للثقافة في عصر العولمة الراهن، كما في أطروحة نهاية التاريخ التي تراجع عنها مطلقها فرانسيس فوكوياما، وأطروحة ألفين توفلر حول ثالوث المعرفة والعنف والثروة، وأطروحة صمويل هنتنجتون حول صدام الحضارات. (د.عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦م). وحذر ليكلرك المثقفين من أن المبالغة في الاعتقاد الراسخ قد تتحول إلى تعصُّب، ومن هنا جاءت في رأيه دعوة ميشيل فوكو مابعد الحداثية بأن على المثقف أن لا يصدر أحكاماً قطعية، أو يدّعي بأنه يمثل ضمير الأمة أو لسان الجماهير أو العرّاف الكبير..إلخ. وعلى الرغم من أن بعض مابعد الحداثيين استند على فكرة فوكو هذه لطرح مقولة موت الأيديولوجيا ونهاية التزام المثقف، فإن انخراط فوكو في الفعل الثقافي من مظاهرات وبيانات احتجاج في الستينيات والثمانينيات من القرن الماضي يوضح أن ما رمى فوكو إليه كان تحويل خطاب المثقف إلى خطاب الحياة بدلاً من خطاب الحق... (ليكليرك، سوسيولوجيا المثقفين، ٢٠٠٨م).

وكتب جيروم باندي وجان جوزف جو مقالاً مشتركاً نشرته بالإنجليزية صحيفة (الأهرام ويكلي، القاهرة، ٢٠-٢٠٠١/١٢/٢٦م) قالا فيه إن عهد الأحكام المطلقة قد ولى، فمصادر الأخلاقيات متعددة، كما يبين ظهور مبدأ النسبية الثقافية للقيم، وازدياد الشك حول المعنى المطلق للحق والخير والجمال... لقد شمل التغيير بعض الثوابت المتوارثة شديدة الرسوخ في بنية المجتمع الإنساني، والعديد من النظم المستقرة

والعقائد الدينية والقيم الأخلاقية مثل نظام وأخلاقيات الزواج والسلوك الجنسي والعلاقة بين الأجيال، فقد اهتزت هذه النظم والقيم بعنف، وتلاحقت الصدمات الفكرية والقيمية والأخلاقية والاجتماعية. كان من إفرازات هذا الاهتزاز الذي غذته عبادة التكنولوجيا وفلسفة ما بعد الحداثة المتكئة إلى مستجدات التكنولوجيا، وخاصة منها الحيوية، غلو في تحدي ناموس الخلق البشري على نحو ما ذهبت إليه مثلاً مقالة بعنوان (نحو الخلود: الأعباء الاجتماعية للحياة الأكثر طولاً) نشرتها مجلة (علم الحياة) روّجت لخلود الإنسان بقولها: «يعتقد كثيرون من العلماء حالياً بأننا اقتربنا جداً من تحقيق الحياة الخالدة، أو الحياة بلا موت. لن تتحقق هذه المعجزة بتناول أدوية معينة أو إكسير الحياة، وإنما بالفهم العلمي لتركيب وعمل الخلايا والجزيئات البشرية ذاتها». (Towards Immortality: the Social Burden of Longer Lives، Livescience، ٢٢،٥،٢٠٠٦) لاحظ آخرون أن حرية الإعلام والتواصل والتجارة عبر الفضاء الإلكتروني قد أوجدت مجتمع الإباحة Permissive Society، الذي لا يجدي معه قسر الدولة وقمعها وبطشها. ونضيف من ناحيتنا لمن قد تلتبس عليه هذه التسمية أن اختلاف الإباحة عن الإباحية لا ينفي نمو مجتمع الإباحية أيضاً وتغوله تحت عباءة مجتمع الإباحة. ورأى كينيث بولدنغ أننا ندخل مرحلة ما بعد التمدن Post Civilized Era، حيث بات الاستخدام الفعال للمعرفة مقدمة أساسية للتوجيه الاجتماعي. بينما تحدث إيزنشتادت Eisenstadt عن ما بعد التقليد التراثيPost Traditional حيث لم تعد المجتمعات مرتبطة بمعايير الماضي وموروثاته في ظل تغيير اجتماعي متسارع. أمَّا رؤية أميتال إتزوين AmitalEtzoin فهي أن مجتمع ما بعد الحداثة ارتبط بتكنولوجيا الاتصال والمعرفة والطاقة، وهذه تتعرض لتحولات سريعة لم تستقر بعد. كما أن ما بعد الحداثة ليست صفة مرحلة، وإنما هي تساؤل عن مدى قدرة المجتمع الفعال The Activing Society في ظل تعقد خصائصه. «بدا كأن كل شيء محكوم بسؤال النهايات والمفاهيم التي ظنها الملأ كالأجناس العالية، لا يدنو منها الشك، هبطت إلى دنيا المساءلة والمجادلة والنقض، فلم ينج بعد هذا لا التاريخ ولا عقلانية الحداثة، ولا أحياز التنوير الغربي بألوانها وأشيائها وكلماتها من سيل اللعنات أو حمى النقد.كما لو أن الزمن الذي ولد من الحرب الباردة لم يلبث حتى ذوى في ما يشبه الأبدية المفتوحة على الفراغ، فإذا

العالم وهو يتهيأ للألف الثالث الميلادي، أقرب إلى ذلك الذي وضعه العلامة ابن خلدون ذات يوم بالقول: كأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة.. فإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث..» (محمود حيدر، ماذا بقي من دولة ما بعد الحداثة؟!، الحلقة الأولى، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٣/١٠/٢٠٠١م، ص٣٠).

تعددت الآراء والتعريفات والتوقعات لكنها تتفق على استمرار التشديد السابق لمعظم فلاسفة ومنظري فلسفة ما بعد الحداثة على أنها تخص الغرب المتطور الذي هو وحده المؤهل لولوج عصر ما بعد الحداثة، ثم ما بعده. نما في المقابل، في إطار معسكر الثورة الثقافية المضادة، تيار ما بعد الاستعمار Post Colonialism متمايزاً بكونه شمولياً كونياً في كشف ظلم المستعمر وفضح جوهره وجرائمه وما ألحقه بمجتمعاته من إفساد وعنصرية، وبالأمم الأخرى من تدمير وتخلف وفقر، محاولاً إنصاف الضحايا في عمليتين متكاملتين: مقاومة الصيغ المتجددة البديلة للاستعمار، وإعادة البناء المجتمعي المحلي والعالمي.

حبر الأمس يقرأ ملامح الغد

❁
ديب علي حسن



الرائد لا يكذب أهله، هكذا تقول العرب يوم كانت عرباً، وكانت لها الدنيا ولها من الألق والرؤيا ما يجعل روادها وحكماءها يبصرون بروى القلب، ملامح وصوى على دروب الغد، ومن هنا ربما كان الحديث السريع عما يتنبأ به الشعراء من باب الحدس والاستقراء، وكثيراً ما تداخلت مهنة الرائي (الكاهن) مع شذرات من عوالم الشعراء تأتي وكأنها ومضة سريعة تنير لمسافات، وتعكس استشرافاً؛ وفي تاريخ الأدب العربي، شعراً ونثراً، وفي حوادث الكهان الكثير مما يمكن أن نقف عنده وهو يقدم دليلاً على أن

❁ إعلامي وكاتب سوري.

الرؤيا هي محصلة عصف دماغي حقيقي، لا تأتي من باب النبوءة أبداً.

والوقوف عند هــذه الشذرات السريعة يقتضي بالضرورة أن نفرق بين الرؤيا كرؤيا معاصرة استشرافية، وبين شيء من ضروب التخميــن أحياناً، وقد تطــور مفهوم الرؤيا الاستشرافية ليغدو مصطلحاً ثرياً بالدلالات وليدخل حقل العلــوم الاستشرافية، ولكننا نقــف عند تخومه الإبداعيــة، وثراء دلالته الفنيــة ومشاعره الطافحة بــكل ما للنص الأدبي من روحانيــة، ومعالم فنية واستلهام للطقوس والرموز والأساطير وقراءة الواقع واستلهامــه عبر نص إبداعــي يشي ويشع بالدلالات، غير تلــك الدراسات التي تعنى بالمستقبــل، وتخطط له ونحن العرب أبعد الأمــم عنه، لــذا ترانا في صحــراء التيه، وخطواتنا فــي عالم الضبــاب بينما يعمل الآخرون ويخططون لسنوات وعقود.

ولا ندري إذا مــا كان المبدعون العرب قد تولــوا مهمة الاستشــراف والرؤيا بدلاً مــن مراكز الدراسات المستقبلية، بحكم ما قالــه أدونيس ذات يوم مــن أن الشعر رؤيا والرؤيا قفز خارج حــدود الزمان والمكان، واليوم ونحن نعيش عامنا الرابع في مواجهة الحــرب الضروس التي تشــن علينا، وعلى حضارتنا من كل شذاذ الآفاق، ربما يقتضي الواقــع والحال أن نقف ونســأل: هل كانت ثمة بوادر ورؤى تنذر بما هو قادم؟

ومن هو هذا الرائي الذي يمكن أن تجد عنده ملامح أكثر وضوحاً وتجسداً وإشارات إلى أن النار تقترب منا جميعاً؟

بالتأكيد ما مــن أحد أقدر من الشاعر، الشاعــر الحق على فعل ذلك، أو الفيض به إبداعاً، نبوءة، رؤيــا، استلهاماً، استشرافاً، بشــكل مباشر أو غيــر مباشــر، ربما كان لنجيب محفوظ كروائــي قصب السبق في تقديم إشارات في رواياته (السراب، وثرثرة فوق النيل، وأولاد حارتنا) في هذه الأعمال الروائية ولاسيما أولاد حارتنا يقفز محفوظ إلــى عالم الرؤيــا، وأولاد حارتنــا الرواية الأبرز إشكالاً ورفضاً من قبل البعض، تقدم هذه الرواية اليــوم تفسيراً لما يجري على الساحة العربية والإسلامية، إن بقيت ساحة واحدة، أو بقي المصطلحان متلازمين.

ولايخفــى أيضاً في مجــال الرواية أن (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف تقف اليوم أمامنا شامخة كلافتة مكتوبة بأروع أسلوب وتصــدح: ألم أكن أحذركم من أنكم تائهون، ضائعــون وأنكــم لستــم أفضل مــن عبيد للأجنبي الذي أتاكــم غازياً، وطور أساليبه وأدواتــه وها أنتــم الآن تنفــذون بإرادته، لابإرادتكم كل ما يريد.

إذا مـا تركنا عالـم الرواية، وربما غدا الآن أكثـر قدرة على رسم رؤى ومعالم الغد من الشعـر بحكم تطور الأسلـوب الروائي ومهارة الروائيين وقدرتهـم على التخزين، والاسترجـاع والعمـل بهـدوء وروية على المشروع الإبداعـي، على غير الشعر الذي تبدو اللهفة والحـرارة عنوانه الأول، إذا ما تركنـا الرواية إلى عالـم الشعر، فعند من يمكن أن نقف على الرؤى الاستشرافية، في القرن العشرين؟

هل هو تفاؤل ثوري؟

بداية، لابد من التفريق ولو نظرياً مابين الرؤيـا الاستشرافية، وبيـن مصطلح آخر تداخل وتواشـج مع الرؤيا، ألا وهو الالتزام الـذي صبغ الأدب الثوري أو الأدب الواقعي الجديـد، ولاسيما الأدب المقاوم لعقود من الزمـن، (الأدب الملتزم وهـو أدب عالمي) عمـل الكثيـرون علـى اغتيالـه من خلال الحديـث عن نظرية الأدب لـلأدب، والفن للفن وما في الجعبة من مصطلحات أخرى أدت إلـى خواء الأدب من مضمونه الفكري وبالتالـي صار مجرد رصـف كلمات وركام لامعنى له، وتحـت يافطات أخرى كثيرة تم التجريب على أساس التخريب، لا التحديث الذي يستمـد نسغه وروحه من الحياة، وكل أدب لا ينبـع من الحياة ويصب فيها سيكون أدبـا ميتاً، لا روح فيـه، ولهذا تحفر القبور له مجرد أن يصبـح حبراً على ورق، إذا لم يدخل معترك القلب ويصبح غذاء وروحاً.

هذا المسمـى (تفاؤلاً ثوريـاً) هو غير هـذه الرؤى التي نتحدث عنها، وإن كان من الصعوبـة بمكان أن نجـد اختلافاً واضحاً وصريحاً، فالتواشـج قائم، لا بل إنه أحياناً يصبح تماهياً، لكن الرؤيا تحمل في دلالتها مـا هو أبعد من طاقات قد تكون أقرب إلى البوح الروحي، ودفقة بأشكال وألوان متعددة لكنها تأتي رؤيوية تضج بالدلالات.

وعلى هذا الأساس يمكن الإشارة إلى أن جبران خليل جبران والكثير من أدباء المهجر قدمـوا في إبداعهم ملامـح رؤى حقيقية، فجبران الـذي هاله أمر الشـرق ولاسيما أبنـاء أمته ووطنـه، كان أول من استشرف ضياع الشرق الهائم بين التخلف والطوائف، ويتحكم به تجار الدين والدنيا، وغير جبران الكثير من الشعـراء، ولاسيما أولئك الذين كانت التجربـة الحياتية والاجتماعية المرة والقاسية والمعاشة في قاع الحياة والمجتمع كانت تصبغ ألوان إبداعهم.

السيـاب ومطر العـراق: ويبدو ما أشرنا إليه عند بدر شاكر السياب الشاعر العراقي وقصيدته أو لنقل ملحمته الشهيرة: أنشودة المطر، وما فيها من ثراء الدلالات والرؤى، العراق كل عام يمتلئ بالغيوم وتمطر ويعشب

ويورق القمـــح ولكن لاشيء إلا الغربان التي تأتي على الأخضر واليابس:

أتعلمين أيَّ حزنٍ يبعثُ المطر؟
وكيف تنشجُ المزاريبُ إذا انهمر؟
وكيف يشعرُ الوحيدُ فيه بالضياع؟
بلا انتهاء-كالدمِ المُراق، كالجياع كالحبّ
كالأطفالِ كالموتى-
هو المطر
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبرَ أمواجِ الخليجِ تمسحُ البروقُ سواحلَ
العراقِ
بالنجومِ والمحار،
كأنها تهمُّ بالشروق
فيسحبُ الليلُ عليها من دمٍ دثار أصيحُ
بالخيلج: «يا خليج
يا واهبَ اللؤلؤ والمحارِ والردى»
فيرجع الصدى كأنّهُ النشيج:
«يا خليج: يا واهب المحار والردى»
أكادُ أسمعُ العراقَ يذخرُ الرعود
ويخزنُ البروقَ في السهولِ والجبال
حتى إذا ما فضّ عنها ختمَها الرجال
لم تتركِ الرياحُ من ثمود
في الوادِ من أثر
أكادُ أسمعُ النخيلَ يشربُ المطر
وأسمعُ القرى تئنّ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيفِ وبالقلوع
عواصفَ الخليجِ والرعود، منشدين
مطر.. مطر.. مطر
وفي العراقِ جوعٌ
وينثرُ الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبعَ الغربانُ والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحىً تدورُ في الحقولِ... حولها بشر
مطر
مطر
مطر
وكم ذرفنا ليلةَ الرحيل من دموع
ثم اعتللنا -خوفَ أن نُلامَ- بالمطر
مطر
مطر
ومنذ أن كنّا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطلُ المطر
وكلّ عامٍ -حين يعشبُ الثرى- نجوع
ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليسَ فيه جوع
مطر
مطر
مطر

نعم يهطل المطر ويزرع العراقيون لكن زرعهـــم يذهب هباء منثـــورا، مطر السياب لاخيـــر فيه أبداً، لأنه لا يعني الحياة للزارع أبـــداً، إنما هـــو للغربان التي مـــلأت سماء العراق، ولكنه مؤمـــن أن الغد سيحول هذا المطر إلـــى نعمة، ولن يبقـــي حقولاً تزرع ليحصـــد الآخرون، أمـــا الخليج الذي ضج بالمـــال والثراء، فهو مجـــرد سراب ووهم،

لـم ولـن يصنع حيـاة حقيقية لأنـه رمال تذروها الرياح، والغد القادم كفيل بأن يعري صخـوره وشطآنه ليبدو على حقيقته، كيف لا، والشاعر مـات غريباً مريضـاً مقهوراً علـى شطآنه، وهو (الخليـج) يضج بالمال والثـروات، ولكن الشاعـر الخارج من أتون الفقر يبقـى على مهب أرصفـة الانتظار، فلاشيء يعيد صقل الروح وشفاءها.

لاتصالـحْ.. أمـل دنقـل زرقـاء القرن العشرين

وإذا ما تركنا خليـج السياب إلى شاعر آخـر، ربمـا هو الأكثـر قدرة فـي الشعر الحديث علـى تقديم الرؤيـا من خلال ما عاشه وعاناه، من واقع مؤلم ومرّ، مقض أنه الشاعـر أمل دنقل شاعر الألـم والمعاناة، والمأسـاة التـي تبـدو فـي كل خطوة من خطواته الحياتيـة والإبداعية، عاش غريباً بين قومـه كما عاش السيـاب، عاش عمق الحياة، عانى من ألم القاع الحياتي كما من قـاع الإنحدار السياسي الـذي وصلت إليه الأمة آنذاك وبدأت خطواته من حينها وها هي الآن تعيشه ليس كخطوات متسارعة، إنمـا كواقع ميؤوس منه تمـام، وأمل دنقل الشاعـر الأكثر قدرة على التعبير من خلال توظيف التراث وما حفل به من أحداث، أمل دنقل الجنوبـي الصاعد من أعماق الأرض هو الأقـدر على التقاط مالا يمكن التقاطه فهو الرائي الحقيقي، وهو الناصح الذي لم يؤخـذ برأيه أبداً، ولم يسمـع أحد ما قاله (لا تصالح) قصيدته النبـوءة والرؤيا، هي الأشهر في تاريـخ الشعر العربي، من حيث الرمـوز المتوثبة والطافحة بقـراءة شاعر امتلك حدس زرقـاء اليمامة، ولكن لا حياة لمن تنـادي، لا تصالح، سبيكـة من الرؤى التي تذهب بنا في عوالم الأعراب، ماضياً، وحاضـراً، مستقبـلاً، دلالات التوظيـف والثراء والقدرة على الاستشراف تدلل على أن الشاعر امتلك القدرة على أن يكون فعلاً الرائد الرائي الذي لا يكذب أهله:

لا تصالحْ!
ولو منحوك الذهب..
أترى حين أفقأ عينيك،
ثم أثبت جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هي أشياء لا تشترى..:
ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك،
حسُّكما -فجأةً- بالرجولة،
هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقُهُ،
الصمتُ -مبتسمين- لتأنيب.. أمكما..
وكأنكما
ما تزالان طفلين!
تلك الطمأنينة الأبدية بينكما:
(أنَّ سيفانِ سيفَكَ..
صوتانِ صوتَكَ) ❁

أنك إن متَّ:
للبيت ربٌّ
وللطفل أبْ
هل يصير دمي -بين عينيك- ماءً؟
أتنسى ردائي الملطَّخَ بالدماء..
تلبس -فوق دمائي- ثيابًا مطرَّزَةً بالقصب؟
..إنها الحربُ!
قد تثقل القلبَ
لكن خلفك عار العرب
..لا تصالحْ
ولا تتوخَّ الهرب!

نعم، إنه الصلح المر الذي حذرنا منه أمل دنقل، إنه الصلح الذل وأن تصالح من أهانك، ومن أذلك، ومن استباح دمك ونهب مقدراتك ومالك وكل شيء عندك، إنه العدو في الداخل والخارج، إنه إسرائيل العدو الواضح والصريح وهو العدو في الداخل الذي يأكل مالك وجهدك ويحولك إلى مجرد سلعة، لا تصالح مع العدو الآثم القابع في الرجعية العربية، التي تستبيح كل مقدراتك باسم الإخوة، وباسم الحياة المشتركة والحضارة، وما في قائمة الادعاءات.

أمل دنقل في قصيدته (لا تصالح) استطاع أن يتجاوز حدود الزمن المؤطر بسنة أو عقد أو قرون، إنها ملحمة الرؤيا التي تصلح لكل زمان ومكان، لأنها رؤيا الحياة، ورؤيا شاعر قابض على جمرها، لا تصالح أنشودة الأمس كما اليوم، كما الغد، كما ستبقى أيقونة تزداد نضارة، لأنها بالدم كتبت، ومن أجل الدم والحياة، كل حياة جاءت نصاً إنسانياً مترعاً بكل ما يجعلك تغرق في تفاصيل ورموز الجمال التي تشي أكثر مما تصرح، وتنبئ أكثر مما تقول، أمل دنقل الشاعر الرؤيوي الأكثر قدرة على توظيف اللحظة الحياتية، لاكلحظة عابرة إنما كلحظة إنسانية ليست ملكاً لأحد بمفرده، بعينه، إنما هي لحظة إنسانية، صالحة لكل زمان ومكان، من هنا سر خلودها، ونضارتها، ناهيك عن فنيتها العالية، فالشاعر لم ينشغل بالرؤيا على حساب الجمالية المطعمة بكل ما يجعل النص الشعري حديقة أزهار تزداد عطراً كلما قرأته، تجد نفسك أمام معان أخرى لم تكن تتوقعها.

نزار قباني وعود الثقاب

على الرغم من أن اللقب الأكثر التصاقاً بنزار قباني أنه شاعر المرأة، لكن الحقيقة أنه شاعر سياسي بامتياز، شاعر انقلابي على كل شيء، يؤمن بأن الهدم وسيلة للبناء، هدم الأسن والمهترئ، والعمل على بنى جديدة، نزار قباني الشاعر الذي اختلف النقاد في تصنيفه، هذا الشاعر الانقلابي يبدو مترعاً بالهم العربي سياسياً واجتماعياً

وتاريخياً كما لو أنه يحمل على كتفيه وكاهله آلام وآمال هذه الأمة.

في شعره السياسي يقرأ القادم كما لو أنه يتلو من كتاب، فمن يقف على عناوين مجموعته السياسية والتي تبدأ من المجلد الثالث سيقع على كل ما للشاعر من رؤى استشرافية، ممزوجة بالألم والغضب، محطمة كل الرموز والأصنام وحين تقرأ قصيدته: (مرسوم بإقالة خالد بن الوليد) ستجد الواقع المر أمامك، كل شيء صار حقيقة وواقعاً سواء بيننا (نحن العرب)، أو من خلال ما يقدم عليه المترفون العرب، وما أشار إليه ليس إلا رأس جبل الجليد الذي ظهر ويظهر:

سرقوا منا الزمان العربي
سرقوا فاطمة الزهراء من بيت النبي
يا صلاح الدين باعوا النسخة الأولى
من القرآن باعوا الحزن في عين علي
يا صلاح الدين باعوك وباعونا جميعاً في المزاد العلني.

وما أشبه ما يحدث اليوم بما قرأه في صفحات الغيب، في هذا الزمن الرديء ممنوع على العربي أن يشعر أنه حر، أنه صاحب أرض ووطن يقول نزار قباني:

سرقوا منا الطموح العربي
عزلوا خالد في أعقاب فتح الشام سموه سفيراً
في جنيف
يلبس القبعة السوداء يستمتع بالسيجار والكافيار
يرغي بالفرنسية يمشي بين شقراوات أوروبا
كديك ورقي
أتراهم دجنوا هذا الأمير القرشي
هكذا تخصى البطولات لدينا يا بني
سرقوا من طارق معطفه الأندلسي
سرقوا منه النياشين أقالوه من الجيش
أحالوه إلى محكمة الأمن أدانوه بجرم النصر
هل جاء زمان صار فيه النصر محظوراً علينا يابني
ثم هل جاء زمان يقف السيف به متهماً عند
أبواب القضاء العسكري
ثم هل جاء زمان فيه نستقبل إسرائيل بالورد
وآلاف الحمائم والنشيد الوطني
لم أعد أفهم شيئاً يا بني
لم أعد أفهم شيئاً يا بني لم أعد أفهم شيئاً
يا بني
رهنوا الشمس لدى كل المرابين وباعوا
بالملاليم القمر باعوا سيف عمر
شنقوا التاريخ من رجليه باعوا الخيل
والكوفية البيضاء
باعوا أنجم الليل وأوراق الشجر
سرقوا الكحل من العين وباعوا في عيون
البدويات الحور
أجهضونا قبل أن نحبل أعطونا حبوباً تمنع
التاريخ أن ينجب أولاداً
وأعطونا لقاحاً يمنع الشام أن تصبح بغدادا
وأعطونا حبوباً تمنع الجرح الفلسطيني أن
يصبح بستان نخيل
وماريغوانا لقتل الخيل أو قتل الصهيل

وسقونا من شراب يجعل الإنسان من غير مواقف

ثم أعطونا مفاتيح الولايات وسمونا ملوكاً للطوائف

وحين تتوغل في شعر نزار قباني فإنك لن تغادره أبدا إلا وأنت أمام سيناريو حقيقي لما يجري الآن على الساحة العربية، لقد تحولت العروبة إلى سُبَّةٍ ولعنة، إنها الموت الذي صار بيننا هوية، لقد أتعبته العروبة التي ادعاها الأعراب:

أنا يا صديقة متعب بعروبتي

فهل العروبة لعنة وعقاب؟

أمشي على ورق الخريطة خائفاً

..فعلى الخريطة كلنا أغراب ..

أتكلم الفصحى أمام عشيرتي

وأعيد.. لكن ما هناك جواب

لولا العباءات التي التفوا بها

..ما كنت أحسب أنهم أعراب

يتقاتلون على بقايا تمرة

فخناجر مرفوعة وحراب

قبلاتهم عربية.. مَن ذا رأى

فيما رأى قُبَلاً لها أنياب.

ولابد من الإشارة إلى أن عبد الحافظ بخيت توقف عند نبوءات نزار قباني ورؤاه ونشر إشارات هامة في موقع منابر ثقافية، وكانت السمفونية الخامسة محطة أساسية في هذه القراءة، وكان كاتب هذه السطور قد قدم محاضرة (في ثقافي أبي رمانة منذ سبعة أعوام حول نبوءات الشاعر نزار قباني) والسمفونية الخامسة أو سميتك الجنوب ملحمة الأمل والنصر، وكأنها كانت تبشر بنصر تموز يقول القباني:

سميتك الجنوب

يا لابساً عباءة الحسين

وشمس كربلاء

يا شجر الورد الذي يحترف الفداء

يا ثورة الأرض التقت بثورة السماء

يا جسداً يطلع من ترابه

قمح وأنبياء

اسمح لنا بأن نبوس السيف بين يديك

اسمح لنا

أن نعبد الله الذي يطل من عينيك

يا أيُّها المغسول في دمائه كالوردة الجورية

أنت الذي أعطيتنا شهادة الميلاد

ووردة الحرية

ألم يكن يرى نزار قباني بعين زرقاء اليمامة ألسنا الآن مذبوحين أمام العهر الصهيوني بعد أن أقالوا آخر البطولات كما أقالوا خالد بن الوليد؟

في الجعبة الكثير الكثير ويستحق شعراء الرؤيا دراسات موسعة يقوم بها باحثون مهتمون يتتبعون تطورها وأشكالها إلى أن نقف على تخوم أن الأدب ابن الحياة ورؤاها ومالم يكن كذلك فهو مجرد هراء.

الهوامش

❁ أمل دنقل، الأعمال الشعرية ص(٣٩٥)، دار العودة، بيروت، د.ت، د.ط.

ثقافة الصورة

أنور محمد ❁

ماذا يفعل المثقَّف وقد فلتت من يده الخيوط؟. فالصورة صارت تقوم بفعل تستطيح الوعي، خاصَّة إذا علمنا أنَّ الصورة هي أكثر المثيرات تأثيراً على نشاط المخ، وأنَّها -الصورة- صارت تشكِّل أو تسمِّم وعي أغلب سكَّان الأرض، لقدرتها على خلق عوالم السحر والخوارق سواءً استعانت بالعلم والمعرفة، أو بالشعوذة والخرافة. لأنَّها على الغالب تهدف إلى الإغراء والإغواء لترويج عملية البيع والاستهلاك، ومن ثمَّ التدجين- إيقاع المشاهد/الإنسان في المصيدة، أي ليصير عبداً للصورة وليس للثقافة التي من كلمة، كلمة تدعو إلى التأمل والتفكير والتسامي/ السموُّ. لننظر حولنا، فكثير من أولادنا يقلِّدون سلوك لاعبي الرياضة وأبطال السينما والمسلسلات والمغنين في حركاتهم ولباسهم. حتى إنَّ السياسيين جذبتهم الصورة، فصاروا يحسِّنون صورهم/ منظرهم، فتصنع لهم الميديا صوراً زائفة- صورة مثيرة للمشاهدين كي يتعاطفوا معهم، مايعني أنَّ الصورة صارت ضد الثقافة.

لماذا يقف المثقَّف مكتوف الأيدي أمام

❁ باحث وناقد مسرحي.

هذه الصـــورة التي تخرِّب، تشـوِّه، تكذِّب، تضلِّل؟ هل هنـــاك أحدٌ ما يمنعه ؟ أم لأنَّها صورة يجـــب أن تبقى خالية مـــن الثقافة، صـــورة مغشوشـــة مثل الحليـــب المغشوش والذهب المغشوش والدم المغشوش. فنحن لـــم نعد من أمَّـــة إقرأ، لقد صرنـــا من أمَّة شاهـــد الصـــورة التي تتولَّد منهـــا صورٌ لا حصر لها، صور تدمِّر قيم الثقافة التي من جمال وأخلاق. ماذا يفعل المثقف؟ جيوشٌ من المتثاقفين من موظفي الاستبداد ترمي وتبيـــد العقل الإنساني وهـــي ترسل له عبر شاشاتهـــا الوطنية والعالميـــة الصور التي تحاكي بعضها بعضـــاً، صوراً مليئة بالعنف والمخدرات والجنـــس، صوراً مليئة بالشبق الـــذي يثيـــر الغرائـــز، التي فـــي البرامج ونشرات الأخبـــار، والمسلسلات، والأفلام، ذلك في تفاعـــلٍ قصدي مستمـــر لتعطيل عمـــل العقل فـــلا يفكِّر تفكيـــراً نقدياً، ولا سيما أنَّ المثقَّـــف مفكِّر نقدي/ناقد. حتى الصحافـــة المقروءة طالتهـــا لعنة الصورة فلم تعد صحافة الرأي، بل صحافة الصورة التي تستفز وتثير المشاعر، صحافة التسلية والمعلومات الساذجة التي تكبِّل العقل بقيود العبودية للجهل.

في الماضي كانـــت هناك صورة شبيهة بهـــذه الصورة، وكان يصنعها الإمبراطور أو الملـــك حين يدعو الجماهير إلى احتفالات في الساحـــات والملاعب، فيلقي (بالعبيد) الذين غَنِمهم أو أسَرهم في حروبه للحيوانات المفترسة مثل الأسود والنمور، وتبدأ معركةٌ الخاسر فيهـــا الإنسان وليس الحيوان الذي يدعمه ويربيه السلطـــان، فتولد صورة من أبشع وأفظـــع الصور، وتهتـــاج الجماهير، تهيـــج غرائزها وهي تصفِّـــق وتهتف بحياة المليك، وكأنَّ الضحايا ليسوا بشراً من جنس هذه الجماهير. الصورة نفسها يُعاد إنتاجها وبثُّهـــا ولكن هذه المـــرَّة عبـــر التلفزيون، ولكن بعـــد أن تغيَّر الحيـــوان المفترس من نمرٍ أو أسدٍ وتحوَّل إلـــى إنسان، ولكن وقد استبدل الأنياب والأظافر بالبنادق والقنابل والصواريـــخ يرمـــي بهـــا أبنـــاء جنسه من الجماهير فـــي الساحات والشـــوارع. ماذا يفعـــل المثقَّف؟؟ ولماذا نحمِّلـــه المسؤولية وذنـــبَ جريمةٍ لم يرتكبهـــا وغير قادر على منعها-منع وقوعها؟.

إنَّ مـــن يقرأ كتـــاب «الأمير» لميكافيلي يرى كيـــف يطلب إلى أميـــره، أو إلى مولاه بأن يوظِّف الصورة-يوظِّف الإبداع، العروض المسرحيـــة والفنيـــة والأمسيـــات الأدبية، بل والرياضية من أجـــل ضبط حياة الناس السياسية والاجتماعية، وإلحاقهم بجنازيره، وعصيِّـــه. صورة تدجِّنُهم، تشـــكِّل ثقافتهم،

تشكِّل وعيهم الذي فيه كل الولاء للأمير أو المليك أو الرئيس، أو الزعيم الواحد الذي لا قائد مثله ولا بعده.

ماذا يفعل المثقَّف أمام آلية القتل بالصورة هذه التي يديرها موظفو الأمير وهي تصوغ أحلامهم وخيالاتهم وتوجِّه تفكيرهم وسلوكهم؟ ماذا يفعل أمام صورة تثير، تغوي، تقهر العقل، صورة تثير، تؤثِّر، تشكِّل وعياً جديداً، صورة تمغنط البصر، صورة تخدِّر حاسَّة الإبصار، وكأنَّ الصورة- أو هو الواقع، تفعل في الجماهير فعل الحشيش والأفيون، ويصير الطلب على هذه الصورة-الميديا، بل والمزيد منها عبر الشاشات التلفزيونية مُلِّحاً وضرورياً ولاحياة من دونها لهذه الجماهير التي صارت تُدمن عليها-على الصورة مثلما تُدمن أو يُدمن متعاطي المخدرات على الهيروويين أو المورفين. إنَّها الصورة/الأفيون الذي للاستهلاك، الذي يقتل كل خلايا الإبداع والتخييل الإنساني. ماذا يفعل المثقف؟.

أنا لا أريد أن نحمِّله ما لا طاقة له به، وكأنَّه المسؤول عن هذه الجرائم التي ترتكبها مافيات ومؤسَّسات رسمية وغير رسمية، من خلال الميديا التي لاتوفِّر صيد الجماهير- اصطيادها، فتحشر نفسها في الممثِّل، تنفث سُمومها عبر الممثِّل السينمائي والتلفزيوني، وعبر رجال السياسة والرياضة والمغنين والطبَّاخين وعارضي الأزياء والسحرة والمشعوذين، ما أثَّر على تنويم الجماهير. فصارت تسكن البيت ولا تخرج منه إلا لضرورة عمل-بل قضت على العلاقات الاجتماعية أو ما يُسمى بصلة الرحم، وصلة الصديق. فالجلوس أمام مصدر الصورة المعبود الجديد هو ما يشكِّل ثقافتها، فبإمكانك التنقل ما بين الصورة التي من تراجيديا إلى الصورة التي من كوميديا، إلى الصورة (الأكشن)، إلى صور الخيال العلمي، إلى الصورة التي من رومانسية، إلى الصورة التي من (بورنو) من دون أيِّ جهدٍ!.

ماذا يفعل المثقف العربي أمام صورة تفعل كلَّ هذا وهي تُستخدم في عملية تقييد قهري وإجباري لعقل الجماهير فتتحكَّم في حركاتهم-سلوكهم وانفعالاتهم. بل ماذا يفعل المثقَّف بصورة تعمل على تحميل العقل حمولات استهلاكية فوق طاقته، حمولات تريد سلبه، أسلبته، إخضاعه، استسلامه؟؟ بل ماذا يفعل إزاء رؤساء وحكَّام قمعيين يمارسون القتل بمنتهى القسوة وكأنَّ لا قلب لهم؟؟؟؟.

ملحق عن الصوت

إذا كنَّا نستطيع أن نأكل فهل نستطيع أن(نفكِّر). وإذا كنَّا نتكلَّم، نُصْدر(صوتاً) فهل الكلام له دلالات؟. وإذا كانَ وهو ما يكونَ فهل نستطيع أن نقيم علاقات اجتماعية تكفل لنا أن نفكِّر مثلما نعرف نأكل؟.

وإذا تكلَّمنا-وعَلا (صوتنا) فهل الصوت /الكلام يكشف عن طبيعة ونوع تفكيرنا، وهل هناك كلامٌ/ صوتٌ يصلح للتفكير فيه وآخر لايصلح-فاسد؛ مثلما هناك طعام يصلح للأكل وطعام لا يصلح؟. وكيف يخدِّر أو يحرِّض ويثير الكلام ويؤثِّر على انفعالاتنا وتفكيرنا؟.. وهل نعرف نُصغي؛ نسمع ما يحمله الكلام من إشارات: الكلام الذي من على خشبة المسرح، كلامُ المذياع، كلام الناس مع الناس أنفسهم-كلامُنا في مقابلاتنا وحواراتنا الثنائية، كلام الرئيس، كلام السينما، كلام التلفزيون، كلام المدرِّس. أصوات: الطيور، الرياح، المياه، الوحوش، الحيوانات عموماً، الآلات الموسيقية؟.

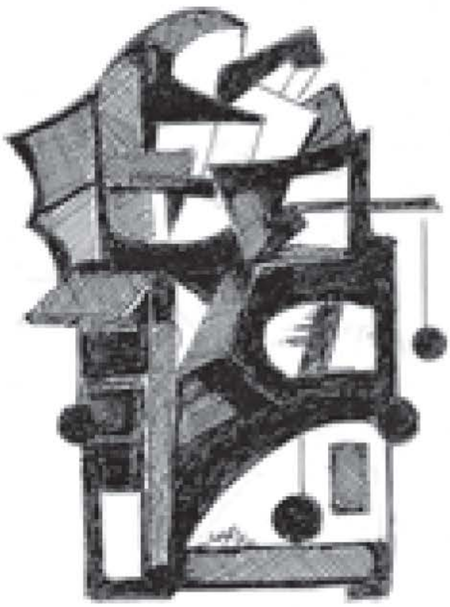
وإذا عرفنا الإشارات وحلَّلناها واستلمنا مضمونها فهل تزيد من وعينا؛ من تفكيرنا؟ أم نصاب بعُقد وعُقد، فنتشوَّش ونضطرب ونرتبك، وتصير هناك إشارات حلال وللحلال، وإشارات حرام وللحرام-وللتحريم، ويصير الصوت الذي من نغمات ونبرات أيَّاً كان مصدره يبعث على التفكير-يؤسِّس لبذرة فكرية تنمو وبعمليات عقلية رياضية لتصبح نصَّاً إبداعياً، شعراً كان أو رواية أو مسرحيةً أو لوحةً أو تمثالاً أو معزوفةً موسيقية؟ وكأنَّها ولدٌ/شاهدٌ (لغة) قد تكون مثيرة، شجية غنية بالخصوبة-مخصابة، أو قد تكون عقيمة غير قادرة على التكاثر، أو ثمارها تثير البؤس والكآبة والتشاؤم.

ثمَّ ماذا نفيد أو نستفيد من النص الإبداعي إذا كان خارقاً أم تافهاً-لاشكَّ هناك نصوص ولو سمَّيْناها إبداعاً إنَّما هي تافهة لإنشائيتها وسطحيتها وكونها تنتج عن ناس يأكلون ويقلِّدون ويهتفون يهتفون، وليس يفكِّرون وينقدون أصحاب عقلٍ جدلي فلا يغتال أحدٌ (ما) الصوتَ أصواتهم، لأنَّهم يعيشون لحظة الصمت التي ما قبل وبعد التفكير، فيميزون بين الرطب والجاف، الساخن والبارد، المقدَّس والمدنَّس، المرأة والرجل، الحرية والاستبداد، الجُبن والإقدام، الظلام والنور، الأحمر والأصفر؛ يميِّزون بين هذه التقابلات وما ترسل من ومضات/إشارات للعقل، يكرِّسون ويقضون

حياتهم من أجلها، من أجل(القيم) المعنوية التي تحملها، وقد تكلِّفهم-يدفعون ثمناً ليس أقل من الموت، ذلك لأنَّها قيم (جمالٌ)؛ الجمال الذي تكشفه حواسنا، جمال الحرية، جمال الشجاعة، جمال الخير، جمال الصوت/صوت الموسيقى التي هي جزءٌ من الثقافة وليست جزءاً من الطبيعة، موسيقا صوت/معرفة، موسيقا مليئة بالمعاني، معاني ودلالات لها علاقة مباشرة بالحقيقة فلا نسجن أُذننا/الأُذن؛ نسجن صوتنا في اللسان فلا نسمع، نصير طرشان مثلما نصير خرسان ولا نحس، ولا نشعر بفظاعة مشهد لأمَّة تفكِّر وتصنع نهضتها، فيما أمَّة لاتجيد إلاَّ أن تأكل وتأكل لتصنع تخلُّفها.

المكتبات العالمية
تحتضن بدائع المخطوطات العلمية النادرة

سماء محاسني ❀



التراث العلمي العربي من المخطوطات تراث عظيم على جانب كبير من الأهمية، ويتّسم بالأصالة والشمول.

ولقد كانت حركة ترجمة التراث القديم إلى اللغة العربية ونقله من اللغات الأجنبية حافزاً للتأليف والدراسة والبحث، ونتيجة لهذا فقد ازدهرت علوم عدّة كالطب والفلك والرياضيات والجغرافيا والفيزياء والكيمياء وغيرها، وقد عمد بعض العلماء والمفكرين العرب إلى وضع تعاريف للعلوم ومنهم: أبو حيان التوحيدي الذي ألّف

❀ كاتبة وباحثة.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

رسالة في العلوم، عرّف فيها مزاولي علوم الهندسة والنجوم والطب والحساب فيقول:

«أمَّا الناظر في الهندسة فإنه أيضاً إن سلك الصنائع بها فهو نظير حافر الأنهار ومجري الأودية وباني الحمّامات..».

وأمَّا الناظر في النجوم فينقسم نظره أيضاً إلى أحد غرضين: إمَّا إلى علم أحوال الكواكب في اختلاف مسيرها ووقوفها وطلوعها وغروبها واقترانها واختلافها..

وفي القسم الآخر يريد الناظر أن يقتبس الأحكام في الأمور المستقبلية، وهذا عزيز جدّاً، كتمازج صور الكواكب ودقة أفعال النجوم واختلاف أشكال الفلك.

والناظر في الطب غرضه حفظ الصحة إذا وجدها وطلبها إذا فقدها، وهو خادم للطبيعة بالعلم والعمل، علم يحيط بعين العلة وعمل يأتي على اجتلاب الصحة.

أمَّا الناظر في الحساب المفرد بالعدد فهو شريك صاحب النجوم، اللهم إلا أن يتفرد بالحساب في العمل فحينئذ لا يستحق شرف العلماء لأنه يكون في درجة الصنّاع، كالكاتب والماسح».

وكان من ضرورات التأليف العلمي أن تترافق النصوص المكتوبة بما يقتضيه الأمر من أشكال توضيحية من الرسوم الملونة وغير الملونة، والأشكال الهندسية، والجداول الموضحة والخرائط الجغرافية.

فكانت المخطوطات الطبية تزدان برسوم توضيحية وخاصةً تلك المتّصلة بطب العيون والجراحة، أمَّا المخطوطات الفلكية فقد زوّدت بالرسوم المختلفة التي توضّح الكواكب وأمورها، وامتلأت مخطوطات الرياضيات بالأشكال الهندسية المختلفة، كما كانت الخرائط الجغرافية ملازمة لنمط من المؤلفات الجغرافية عُرفت بكتب المسالك والممالك.

وكان الهدف من هذه الوسائل التوضيحية خدمة النص وشرحه، ولم يكن القصد من وجودها هو التزيين، فقد كان لها طابعها البسيط الخالي من التعقيد مما يؤكد أن الهدف منها هو الإسهام في توضيح المادة العلمية.

وتوجد نُسخ من هذه المخطوطات في المكتبات العالمية كمكتبة تشيستربيتي في إيرلندا والمكتبة البريطانية في لندن والمكتبة الأهلية في باريس، وقد حوت نسخاً أصلية وفريدة من بعض المخطوطات، كما يوجد في مكتباتنا العربية عددٌ من المخطوطات العلمية التي حظيت بالدراسة والتحقيق على أيدي نخبة من الباحثين في المخطوطات.

ومن المؤكد أن جانباً كبيراً من المخطوطات العلمية قد فُقِدَ أو هو بعيد عن متناول البحث والدراسة، وما زلنا في

أمس الحاجة إلى مزيد من الدراسات لهذه المخطوطات التي تشكّل جزءاً مهماً من التراث العلمي العربي.

مخطوطات الكوزموغرافيا (علم وصف الكون والفلك والكائنات) Cosmography:

المؤلف: ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م). جغرافي عربي أبرز مؤلفاته «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» إلا أنَّه ينبغي عدم الخلط بينه وبين عالم آخر اشتهر بالفقه والأدب والشعر ويُعرف أيضاً بابن الوردي وهو زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر أبي الفوارس محمد الوردي القرشي (١٢٩٠- ١٣٤٣هـ) وقد حدث هذا اللبس في بعض الفهارس الأجنبية للمخطوطات العربية مثل الفهرس الذي أعده «تورنبرغ» للمخطوطات العربية في جامعة أوبسالا فقد نُسبت مخطوطة «خريدة العجائب» الموجودة فيه إلى «ابن الوردي» الفقيه الشاعر، لكن معظم المصادر التي تبحث في تاريخ الجغرافيا وعلمها عند العرب تجمع على أن مؤلف هذا الكتاب هو سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، وربما كانت شهرة ابن الوردي الشاعر سبباً في نسبة الكتاب إليه، وهو اتجاه كان يميل إليه بعض النسّاخ للمخطوطات، ومهما يكن من أمر فإنَّ كتاب (خريدة العجائب) ينتمي إلى نمط المؤلفات العربية في الكوزموغرافيا (Cosmography)، فمحتويات الكتاب شبيهة بما لدى القزويني والدمشقي من محتويات وهما أيضاً من أشهر مؤلفي كتب العجائب والغرائب، وأهم ما يميز الكتاب وجود خارطة مستديرة للأرض مع وصف مفصل لها.

وكان ابن الوردي قد اطّلع على مصادر جغرافية سابقة منها يونانية كجغرافية بطليموس، ومؤلفات جغرافية لعلماء جغرافيا مسلمين كالبلخي، والمسعودي والمراكشي ونصير الدين الطوسي وغيرهم، ومعظم معلوماته تدور على مناطق مثل أفريقيا والشام وبلاد العرب، (كما كانت تقسم في ذلك الحين)، لكن معظم الباحثين أقروا بوجود معلومات قيمة في الكتاب ومنهم «ميشيل أماري» المهتم بتاريخ صقلية فقد ذكر أن ابن الوردي ينفرد بمعلومة لم يذكرها غيره من الجغرافيين وهي وجود جسر كبير طوله مئة وخمسون متراً يصل تراباني Trapani بأرض صقلية.

وقد ذكر «حاجي خليفة» خريطة ابن الوردي وكان «يوهانسن Johanssen» قد

نشرها لأول مرة في بداية القرن التاسع عشر معتمداً على مخطوطة باريس كذلك أعاد نشرها تورنبرغ، ثم قام موجيك Mzik بنشر صورة فوتوغرافية لها معتمداً على مخطوطة في مكتبة غوتا Gotha، ونشر ميللر بعد ذلك Konrad Miller (١٧) نموذجاً لهذه الخريطة في كتابه الضخم عن الخرائط الجغرافية العربية معتمداً على خرائط في نسخ مخطوطة عدّة، وربما كانت الاختلافات في الخريطة في هذه النسخ تعود إلى الناسخ لا إلى المؤلف نفسه.

أمّا بحوث كتاب ابن الوردي فقد قسّمها على (١٤) فصلاً، ويتحدث فيها عن البلدان والأقطار والبحار والخلجان والجزائر ويذكر (ما بها من العجائب للاعتبار)، ويذكر أيضاً عجائب العيون والآبار والجبال وما فيها من الآثار، ويخصص فصلاً للحديث عن المعادن والجواهر، وينتقل للحديث عن النباتات والفواكه وخواصهما (وعجائب صور أوراقها وأرايح أزهارها)، وفي الفصل الأخير يتحدث عن الحيوانات والطيور وخصائصهما.

ويبدو أن نسخاً مخطوطة كثيرة من هذا الكتاب تسربت إلى الغرب فاهتمّ به الأوروبيون من الباحثين كما أشرنا إلى هذا سابقاً، ومن المستشرقين في روسيا «كراتشكوفسكي» في مؤلفه الذي بحث فيه مطولاً تاريخ الجغرافيا العربية، فقد ذكر أن «حاجي خليفة» لم يعجبه هذا الكتاب في فهرسه «كشف الظنون» فهو يستخف بمادة الكتاب وبفنه التصويري، إلا أنه يعده نمطاً من أنماط الكوزموغرافيا.

وأعود إلى القول بأن المؤلفين العرب في مؤلفاتهم العلمية لم يسعوا إلى الفن التصويري كهدف، بل كان عاملاً مساعداً في توضيح مؤلفاتهم وبحوثهم العلمية المهمة التي وضعت أسساً للعلم الحديث، لكن الفن الإسلامي في المخطوطات فن متميز وله أساليبه التي تطورت عبر العصور.

ويوجد من كتاب «خريدة العجائب» نسخة خطيّة ضمن المخطوطات العربية في مجموعة «جاريت Garret» في مكتبة برنستون في الولايات المتحدة برقم (٧٧٠) تحوي صورة خريطة للعالم على هيئة دائرة.

ويوجد طبعات قديمة للكتاب في مصر في السنوات ١٣٠٢هـ -١٣٠٣هـ -١٣١٦هـ.

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر:

المؤلف: شمس الدين الدمشقي (توفي ٧٢٨هـ)

هو الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي، شيخ الربوة.

توفي عن ٧٣ سنة، ومن مؤلفاته «نخبة الدهر» ذكره كراتشكوفسكي في دراسته للمؤلفات العلمية العربية ذات الصلة بعلم الجغرافيا فقال: إنه كتاب ليست له قيمة علمية كبيرة، لكن المؤرخين ربما وجدوا فيه معلومات لا يجدونها في غيره من الكتب التي تناولت الموضوع نفسه، أي تلك الباحثة في الكوزموغرافيا.

ومن هنا فإن كتابه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» من الكتب المتميزة في علم الكوزموغرافيا Cosmography أو علم وصف الكون والفلك والكائنات.

وينتمي إلى هذه الفئة من المؤلفات العلمية كثير من المخطوطات العربية في التراث العربي ومنها: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وغير ذلك؛ ويمتاز هذا الكتاب بأنه حوى رسوماً عديدة، وهو كتاب غني بالمعلومات المتصلة بالتاريخ الطبيعي Natural History، ذكره «سارتون» في كتابه «تاريخ العلم» وقال إنه يستحق تحليله من قبل علماء المعادن والنبات والحيوان، كما أن به معلومات جغرافية وأخرى تتعلق بعلم البحار فهو يصف البلدان الساحلية الهندية بالمعبرين الصغير والكبير، ونقتبس العبارات التالية من كتابه في هذا الصدد وقد أوردها إبراهيم الخوري الباحث في علوم البحار عند العرب: «المعبر الصغير والمعبر الكبير هما ساحلان يُحمل إليهما البضائع من البلاد الغربية».

ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة نفيسة في المتحف الآسيوي في سانت بطرسبورغ وهي مؤرخة في ٧٩٥هـ، وقد اعتمد فيها المؤلف على كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وفي أولها العبارات التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا مجموع مشتمل على حكايات وعجائب البلدان وخواص الأحجار النفيسة وبعض شيء من الطب مأخوذ من عجائب المخلوقات للشيخ القزويني».

من أبوابه:

- في ذكر المباني العظيمة.
- في ذكر الأنهار والعيون.
- في ذكر المعادن والأحجار.
- في وصف الممالك المشرقية الكبار والأصقاع والكور التي ملكها المسلمون وجاسوا خلالها وذكر المشهور من أمصارها ووصف ما فيها.

ويرد في نهاية النسخة ما يلي:

«وكان الفراغ من هذا الكتاب في ليلة الإثنين تاسع عشر من شوال سنة ست عشرة وثمانمئة».

ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب من الكتب المتميزة في الكوزموغرافيا، وقد زوّد برسوم عدّة تمثّل الأسماك الغريبة وآلة استقطار العطريات وكروية الأرض وأقسامها، وغرائب الأبنية في الصين وطواحين الهواء في سجستان وغير ذلك.

ونجد رسماً فيما يلي يتعلق بصناعة التقطير للأزهار (انظر الصفحة التالية)، كما أن هذا الكتاب الفريد يتضمن معلومات حول هيئة الأرض وأقاليمها واختلاف القدماء في ذلك، وما فيها من البحار والجزائر والجبال والطرق والآثار والعمائر والعيون والآبار والحيوانات النادرة، وأنساب الأمم واختلاف طبائعهم وما إلى ذلك، ونجد رسوماً أخرى تالية.

نشر كتاب «نخبة الدهر» للمرة الأولى في سانت بطرسبرغ بتحقيق المستشرق الدنماركي أ.ف.ميرن A. F. Mehren، كما أن له ترجمة بالفرنسية في كوبنهاغن وتحوي خرائط ورسوماً مختلفة، طُبعت عام ١٨٧٤م، وتوجد هذه النسخة في المكتبة الملكية في ستراسبورغ في ألمانيا.

وطريقة ترتيب «الدمشقي» لمادة كتابه تشبه إلى حد بعيد الطريقة التي اتبعها القزويني في ترتيب كتابه «عجائب المخلوقات».

ويقول كراتشكوفسكي في كتابه عن الأدب الجغرافي العربي وحديثه عن كتب الكوزموغرافيا بصفة عامة، إن ما يزيد في قيمة كتاب «نخبة الدهر» للدمشقي وجود معلومات كثيرة قد نفتقدها لدى مؤلفين آخرين خاصة ما يتصل منها ببلده دمشق، فمن موضوعات الكتاب مثلاً كلام عن البحار أو عن بعض الآثار القديمة إضافة إلى وصف البلدان.

وقد اشتهر الكتاب في أوروبا منذ القرن الثامن عشر عندما نشر السويدي تورنبرغ Norberg مقتطفات منه.

ويتميز كغيره من كتب الكوزموغرافيا برسوم تخطيطية كان ميللر Miller قد شرح ثلاثة منها يبين أحدها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، ويوضح الآخر توزع الشعوب على الأرض بينما يمثّل الثالث رسماً للبحر المتوسط.

وهناك نسخة نفيسة من الكتاب في المكتبة البريطانية تتضمن رسوماً بألوان بديعة تمَّ نسخها عام ١١٣٠هـ.

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات:

المؤلف: عبد الله محمد بن محمد القزويني (زكريا بن محمود الكوفي القزويني) ٦٠٥-٦٨٢هـ:

هو رحالة من أصل عربي، ولد في إقليم قزوين في شمال فارس، وتجول في بلدان عربية كثيرة، وفي فارس التي عاش فيها مدة من الزمن.

سجل في رحلاته العديدة وجولاته كثيراً من مشاهداته، ويعد كتاب «عجائب المخلوقات» من الكتب العلمية النادرة المزودة بالرسوم والصور.

ومن مؤلفاته الأخرى «عجائب البلدان».

ويبحث كتاب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» في علم الحيوانات وأنواعها وغرائبها، ويوجد لدى السيدة زره هومان في مدينة برلين في ألمانيا وضمن مكتبتها الخاصة نسخة من مخطوطة هذا الكتاب تشمل رسوماً كثيرة للحيوانات والطيور، ومن الملاحظ أنها رسوم صورت بإتقان تام، وهي تنقل صورة واقعية، ويوجد من هذا الكتاب أيضاً نسخ أخرى مخطوطة في المكتبة العامة في ميونخ وفي مكتبة رضا رامبور، وفي مكتبة المتحف الآسيوي في باريس (نُسخت هذه الأخيرة عام ١١٤٦م).

ويوجد منه ثلاث نسخ كاملة في المتحف البريطاني وتُعد من أقدم النسخ الموجودة في العالم (٨٢٧هـ)، كما يوجد منه نسخة في مجموعة المخطوطات في الظاهرية والنسخة ذات الرقم OR.٨٧٤٤ في المكتبة البريطانية نسخة نفيسة جداً، فهي تحوي صوراً كثيرة ملونة تمثل الكواكب والحيوانات والنباتات مما ورد ذكره في الكتاب ويعود تاريخ نسخها إلى (١٧ ربيع الآخر عام ١١٧٥هـ).

وقد طبع «عجائب المخلوقات» مرات عدّة في البلاد العربية، ومنها طبعة في مصر على هامش كتاب «حياة الحيوان» للدميري وهي قديمة (١٣٠٥هـ).

ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب وضع مع كتب الجغرافيا العربية لما حواه من الحديث عن البحار والأنهار والكرة الأرضية وغير ذلك مما يدخل في نطاق الجغرافية الطبيعية، إضافة إلى احتوائه على موضوعات أخرى عن الحيوانات، وقد وصف المخطوط بالشكل التالي:

يحوي المخطوط أربع مقدمات ومقالين:

المقدمة الأولى في شرح العجيب – المقدمة الثانية في تقسيم المخلوقات – المقدمة الثالثة في معنى الغريب – المقدمة الرابعة في تقسيم الموجودات.

تساؤلات الهوية
جدلية الذات والآخر

❁
إسماعيل الملحم

ليس للإنسان من هوية نهائية، إنه كائن محكوم بعمليات النمو على مختلف صعد شخصيته (الجسمية والنفسية والمعرفية والاجتماعية). وحياة الإنسان وأفكاره عالم مفتوح على شتى الممكنات والاحتمالات والمفاجآت، وإن حريته ما هي غير تلك المساحة بينه وبين نفسه، فاللا متوقع يدعه دائم التساؤل والسؤال، لكن ما يجسر الفجوة بين المرء ونفسه هو الفكر ميزة الإنسان بالنسبة لسائر المخلوقات الحية الأخرى.

ينتج الفكر التنوع والتجدد والتفرد.[١] إذ إنه - الإنسان- ليس عنصراً أو فرداً في قطيع تحكمه القوانين البيولوجية والفيزيولوجية فحسب، أو إنه لا دخل لإرادته فيها أو في تجاوزها. فمسألة الهوية تطرح دائماً إشكالياتها كتأرجح بين قطب التفرد الفاصل وقطب وحدة شمولية لا تعير الاختلافات كبير أهمية[٢].

فمسألة الذات كانت ومازالت تتداولها المدارس الفلسفية جيلاً بعد جيل، فليست الحياة، حياة الإنسان، تلك التي تعرفها

❁ أديب وباحث.

البيولوجيا إلا بمقدار ما هي قلق الذات. فالحياة لن تكون مستدعاة إلا بمقدار ما تردّنا إلى الشعور بالذات، حيث يتجلى الشعور عند البشر بالرغبة وكل شعور لا يسعه أن يجد حقيقته إلا إذا حمل الآخر على الاعتراف به. والشعور الذي يملكه الإنسان بأنه إنسان، ليس من حيث هو كذلك، معرفة، ولكي يصبح حقيقة، ينبغي أن ينكشف، كواقع موضوعي، موجود لا لذاته فقط بل للآخرين أيضاً.[٣] فيكون شعور المرء بذاته ليس شعوراً مباشراً، إنما يتم بوسيط.

ذلك الطريق إلى الشعور بالذات وُجد حيث وُجد الإنسان ليعيش مع الجماعة، ففي الاجتماع البشري لا وجود للأنا إلا بوجود الآخر، الآخر موجود فينا حين نفكر أو نتأمل أو نجتمع، والآخرون -كما قال أحدهم- قابعون في داخلنا. ليس الفرد سوى حقل تجربة مكشوف على صُدف الوجود التي قد تسمح له باستطلاع الإنسان فيه كما يتصوره أو يتوق إليه، وكما هو كذلك فإنه يصير محط المعايير. المعنى الأضعف الذي يمكن إلحاقه بإفهام الهوية، وتعيين شيء يعني القدرة على أن نجعل أحدهم يستطيع أن يُعرف، ضمن مجموعة أشياء خاصة على طراز واحد، وهذا معنى ضعيف للأحوال المعينة للشخص، وتعيين الهوية في هذه المرحلة البدائية لا يعني تعيين الذات[٤]. إن الإنسان هو الاسم الكلي الذي لا يمكن الاتصال به إلا عن طريق مفرداته وكأنه -الإنسان بحسب هيراقليط- باحث عن ماهيته كإنسان لا كفرد فيما عناه: (إنني باحث عني أنا نفسي). عبّر اليونان عنه أنه اللوغوس عندما تلتقي عنده جميع الكليات أو تصدر منه[٥].

يعطي ما تقدم توضيحاً لمعرفة الذات عينها كآخر ولا يتعارض ذلك مع وصية سقراط الذي ظل يردد العبارة المكتوبة على معبد دلفي والتي أثارت انتباهه: «اعرف نفسك». وهذه العبارة تمثل الحكمة الأهم في تاريخ الفكر الإنساني، على الرغم من كل ما أحرزته البشرية من إنجازات معرفية خلال مراحل تقدمها. وهي، أي العبارة نفسها، عندما تصدر عن ذهن منفتح تحيل إلى مشروع تواضع الإنسان والاعتراف بأن المعرفة لا تنتهي عند حد من الحدود، وإن أراد سقراط أن يؤكد أن تلك العبارة هي ابتداء بقدر ما هي مفتاح للمعرفة، قال:

لا يمكن للنفس أن تحاور ذاتها إذا لم تعرف كيف تستقبل الآخر...في الوقت الذي تؤكد الذات ما للتواضع من دور هام في عقلنة السلوك وفي طلب الفهم في كل ما يرد إلى الذهن من معلومات تشكل

معياراً يتطلب البحث وعدم الركون ليقينيات تُوهِم الإنسان أنه قد بلغها. البديهي يتعلق باستحالـة فصل أي من صيغ المعرفة التي أملكهـا عن ذاتـي، وبالتالي عـن طبيعتي الحقيقية. ولكن، هل يستطيع الإنسان اليوم وفي أي آن القول إنه قد بلغ ما تتطلبه هذه العبـارة من فهم ووعي وبلـوغ تلك الدرجة العالية من درجات المعرفة؟

الآخر ليس هو بالفعل من أراه فحسب، بـل هو من يراني. لا يتعارض ما سبق مع القـول: علاقتي بالآخر تكـون على خلفية علاقاتي وعلاقاته بالآخرين. هذا الوعي - بحسب ميرلوبنتي - يستهدف أمراً خارجياً ولا يكـون مجـرد انطواء علـى ذاته، وهو يوضـح هذه الصورة بقـول يعرف به كيانه كفرد نتيجة التقاء العديد من العليات:

فأنا لست نتيجةَ أو نقطةَ التقاء العديد مـن العليات التي تحدد أو تحتم جسمي، أو نفسيتـي، أنا لا يمكن أن أتصور ذاتي كجزء من العالم وكمجرد موضوع لعلم النفس ولعلم الاجتمـاع والبيولوجيا ... لست كذلك كائناً أو حتـى إنساناً أو شعوراً. فمع كل الصفات التـي يعترف بهـا علم الحيـوان والتشريح الاجتماعي أو علم النفس الاستقرائي لهذه المنتجـات المنتسبـة للطبيعـة أو للتاريخ فأنـا المنبـع المطلق ووجـودي لا يصدر عـن مقدماتي وعـن محيطـي الفيزيائي والاجتماعي، بل يتجه نحوها ويدعمها [٦].

من هنا فالجملة التي أشار إليها سقراط لا توضح بقدر ما تثير من أسئلة الهوية.

(ما يعرفه الإنسان عن نفسه قد يستغرق حياته بطولها وعرضها وعمقها، وقد يخرج من حياته وهـو لا يجزم أنه عرف نفسه أو عرف سواه من أقـرب المقربين إليه). إنه اعتـراف أو قبول بنتيجـة وواقع يكرسهما مفكر قدير.

في خطاب سقـراط لسيبيادوس، يعود للقول إن معرفة المرء نفسه لا تكون إلا في نفس الغريب والعدو، يقول:

(إذا كان للنفـس أن تعرف ذاتها يجب أن تنظر فـي نفس الغريـب والعدو). لكن الحقيقة التي هي فـي النهاية ذلك الهدف مـن الحوار مع الآخر ليست بديهية مباشرة كما عناها الكوجيتـو الديكارتي: (أنا أفكر أنا موجود) انطلاقاً من كون الإنسان كائناً حـراً وواعياً، وهو سيـد نفسه الذي يسعى ليكون سيد الطبيعة ومالكها وبالتالي يكون وعيه بذاته حاضراً مباشرة أمام نفسه وعبر عمليـة استدلالية في ظاهرها، حدسية في عمقها. وليست حدسـاً عقلانياً كما عناها هوسـرل، ولا هـي رؤيا صوفيـة، كما أنها ليسـت ذاتاً فاعلـة مشرعة فـي المعرفة والعمـل معاً، كـون الإنسان سيـد معرفته وسلوكـه. جمع ريكور كل هـذا بإشارته أن

الحقيقة هي كل هذا، إنها جهد مستمر من ذاتي كشخص والإقامة عند الآخر كي أصحح رؤيتي لنفسي ومعرفتي لذاتي.

التمييز بين الفرد والذات والإنسان قد يتجاوز ذلك التحليل، فالفرد يكون موضوع تحليل تعطيه العلوم الكثيرة أما الإنسان فيتحدى الفكر بأسئلة لا تنتظر أجوبتها الحاسمة فهذه المفردات ليست مترادفات(٧).

فأين من هذا ما نشاهده كل يوم من عنتريات أبطال الفضائيات من محللين وأوصياء على الفكر والسياسة والتنبؤ بالمستقبل، وقد عقدوا العزم أن يستبيحوا المنطق والعقل ليدفعوا عن سلوك اختاروه كل نقد، حتى إنهم قد أضافوا أسماءهم إلى قوائم نجوم الغناء والدراما والرياضة، حتى صارت حلقات النقاش وبعض الزوايا الصحفية حكراً عليهم بعد أن خلعوا على أنفسهم أو خُلعت - بكسر اللام - عليهم ألقاب النجومية. يتنطع أحدهم من خلال منبر أتاح له حرية أن يقول، فيكون قوله اقترافاً لأخطاء قد لا تصدر إلا عن جهل يكاد أن يكون جهلاً مطبقاً في أساليب التوصيل. فيعدّ ما تفوه به حقيقة لا يطالها شك ولا ينقضها منطق.

الأنا بما هي ذات في علاقتها بالآخر، بما يمكن مقاربتها بالعنوان الذي اختاره بول ريكور في هذا الصدد لأحد مؤلفاته (الذات بعينها كآخر)، لقد وضع هذه العلاقة في حيز تلاقي مقاصد فلسفية رئيسية ثلاثة تحكمت في صياغة دراسته تلك هي:

١- التوسط التفكري: عنى بالتفكرية أمرين في الوقت نفسه (الانعكاس والتفكير بالترتيب). الفكر هنا، لا يعني التأمل وإنما الجهد المستمر الذي تقوم به الذات لفهم ذاتها عبر اكتشاف معنى تجربتها، دعوة الذات والأنا والكوجيتو بحسب ديكارت إلى المرور عبر توسط الغير من عالم الرموز والإشارات التي ترد من العلوم الأخرى، خاصة العلوم الإنسانية، على العكس مما كان يُظن على أن الأنا قادرة على تأسيس ذاتها بذاتها. وقف ريكور موقفاً وسطاً من ديكارت، الذات بحسبه لم تمت، ولكنها لم تعد كما كانت لأنها تطعمت بكل معطيات العلوم الحديثة. والتوسط التفكري بحسب مترجم الكتاب هو قبول الفلسفة للآخر وسماع كلمته(٨).

٢- الفصل بين دلالتين أساسيتين للفلسفة التطابقية: يعني ما سبق أن الهوية (ذاتها) لا تحوي أي تأكيد يخص نواة لاتتغير تحويها الشخصية. هنا تكون العينية - في الذات عينها كآخر - فالكلمة (عينها) الموضوعة بعد لفظة الذات تعني المتطابق

أو المشابه، هذا ما تعنيه العبارة التي تؤكد أن لا وجود لنواة لا تتغير[٩].

٣- يتضمـــن المقصـــد الثالث الحديث أن الهوية الذاتية تحرّك ديالكتيكي إضافي للذاتية والعينية. فغيرية الآخر المختلف عن الذات لا تمثل أي شيء أصيل، الآخر يصبح على لائحـــة الأضداد للكلمـــة (بعينها) إلى جانب كلمات النقيض والمتميز والمختلف والمتنـــوع، في حين أن الأمـــر يختلف عند الجمع بين الغيرية مـــع الذاتية، إن الغيرية آخريـــة يمكن أن تكون مكونة للذاتية نفسها (الـــذات عينها كآخر). ذاتيـــة الذات عينها تحتوي ضمنياً الغيريـــة، أي بحسب هيغل، الواحـــدة تدخل في الأخرى، الذات الفاعلة هي أنا الفاعلة.

ألا يحتـــاج الفكر العربـــي اليوم قبل كل شـــيء أن يراجع ما أنجز مـــن معارف وما أدار من حوارات ومـــا خاض من مناقشات أن يعود إلى حكمة ما كتب في معبد دلفي؟ فيحرر هذا الفكر نفسه كما يحرر المفكرون أنفسهم من تصنيم النظريات وعدم الركون للسكون والثبـــات. عانى الفكر العربي وهو يصـــارع انكساراته وخيباتـــه مَهَمَّات كبيرة للخروج مـــن متاريـــس النرجسيين ولوضع الحـــدود لأشخاصـــ غلبـــوا البهلوانات في تمحيص المعلومات والمعارف القارّة أو تلك التي تولى الاستسهـــال الإعلامي ترويجها.

التمترس عند رأي أو نظرية والإصرار على فرضـــ ذلك على الآخريـــن وتصنيفهم بين نصير أو معاد وتجاهل ما للاعتقاد بالكمال في شيء أو فكرة أو شخص من نتائج سلبية أهمهـــا الابتعاد عن خاصيـــة حركية الكون والأفكار تشكل ظاهـــرة عربية عندما يتهيأ (المتحاورون) لا لفهـــم ما يقوله الآخر، بل إلى تسفيهه.

فإذ يقطع الفكر نفسه عن الناس فيحشر نفسه داخـــل أسوار يعني أنـــه قد ركن إلى قدراته، وسيؤدي هـــذا الانقطاع به إلى أن يصبح أسير جهله الذي لم يدركه بسبب من عدم رجوعـــه باستمرار إلى العبارة الحكمة (اعرف نفسك).

يتعلق الأمر- بصـــورة ما - بالهوية وما قد يستبـــد بالذهن أنها ثابتـــة. يتعلق ذلك بضلالة الملامـــح في مرحلة عمرية أو في موقف من المواقف، كالاستسلام إلى نمط سلوكي مـــا، أكان حركيـــاً أم نفسياً، أم كان شكلاً مـــن استجابات أخذت شكل عادة من العادات. الهوية شئنا أم أبينا تشبثها بالثبات يعني خروجهـــا من زمنها، وهـــي إزاء هذا معرضة للتشويه والانكسار. الحاجة للبحث عـــن الذات تظـــل ملحـــة وضرورية بهدف معرفتها فـــي تغيراتها وتأثرها بالمتغيرات. والبحث هذا يحتاج التواصل غير المنقطع مع الآخر، الآخر الغائب والآخر المخاطب.

والحوار مع الغائب لا يعني غياباً متميزاً عن حضور المخاطب بل إن الحوار يحوله إلى مخاطب بحيث يصبح غيابه حضوراً يتأكد في الحاضر ويستمر إلى آتٍ لابد من حضوره ولو بعد حين.

يقول ريكور، وهو من الفلاسفة المعاصرين، إن المرور عند آخر كآخر مختلف عني يشكل الشرط الأول لتشكيل ذاتي نفسها. ومن جديد يكرر السؤال نفسه كيف للمرء أن يعرف نفسه وقد أضحى الإنسان أسير ضلالات كثيرة منها ما يتعلق بطرائق التفكير ومنها ما له علاقة بسلطات غريبة التكوين مجهولة السمات تتسلل إلى الذهن فتحرفه عن مساره الذي ينبغي ألا يتغير باتجاه أم المعارف (اعرف نفسك)؟

يسقط التفكير في امتحان قدرته على معرفة الذات أو الاستفادة من معرفة الآخر بفعل جلب أو ترويج العلب الثقافية الخالية من حرارة التجربة الحسية، كما عبر أحد الكتاب. وأقل ما يوصف به هكذا سلوك أنه مجلبة لتضليل ينتجه تضليل، فيكون الشخص ملزماً بقمع وعيه بالعديد من المشاعر والانفعالات بحسب التحليل النفسي. الانفتاح على الآخر هو طريق التواصل على الإنسان الذي يجمعهما وينتميان إليه معاً.

تتاح للنفس أن تفجر قدراتها المعرفية على الإبداع والنمو المتوازن، ونجاح التكيف مع الجديد من خلال التمكن بالتواصل مع الآخر باعتباره شريكاً معرفياً دون النظر في الأفكار المسبقة والعقائد المصنعة والمغلفة. فأبجدية النمو المعرفي تبدأ من إتقان التواصل إياه، مع اعتماد بديهية من بديهيات الحياة الإنسانية المتمثلة بفردانية الشخصية الإنسانية، أي بالإقلاع عن أساليب النمذجة، وهي أساليب بعيدة عن متطلبات الفهم كونها اختزالاً وتصنيفاً خارجياً، وعنواناً لكتاب لم يقرأه أحدٌ بعدُ، قد وضع على دفة الغلاف حتى قبل أن تُكتب وتسطع نصوصه وتُجلّدَ أوراقه كما يقول مطاع صفدي.

التواصل مع الآخر ضرورة لمعرفة النفس أو الذات بالحوار ترتقي وسائله وأدواته. في فكرة الذات يثار ما يتعلق بالفائض عن الجسد هذا الفائض الزائد هو الذي يجمع الجسد ككائن عضوي وكائن آخر غير عضوي غير متجسم، لكنه يجعلني أكون ما أنا عليه. أي إن ثمة وجوداً ما لهذا اللاموجود(١٠). فالكائن ليس بجسديته وبل بخصوصية كينونته أيضاً. فالذات بهذا المعنى هو ما لا أكونه أبداً فليس للذات مكان مقابل الجسد المالئ لحيزه في مختلف تقلبات أحوال النفس(١١).

بالتواصل وبالجهد المستمر من ذات المرء والإقامة عند الآخر يبدأ طريق رؤية الشخص لنفسه ومعرفته لذاته. ومن أولياته احترام الفكرة وعدم التسرع في نفيها واعتبار فهمها - كونها إنتاجاً إنسانياً - يطلق حالة من التعاون بعيداً عن العداء المسبق. لا يحمل الحوار اسمه إذا لم يكن هدفه فهم الآخر. وهذا الفهم لا يعني الاقتناع بما عنده، بل اكتشاف المختلف والمؤتلف بين طرفين مما يساعد على فتح أبواب مستغلقة للبحث واكتشاف وسائل لتوليد الأفكار تمهد الطريق لاستمطار الأفكار وصوغ الأسئلة. من بعض نتائج مثل هذا المسار أن يمد المؤتلف بعناصر القوة وتقريب الفجوات بين المختلف أو وضعه على مشرحة التفسير والتأويل على طريق فهم يكوّن مشروع معرفة في المستقبل. من الأهمية هنا، الإشارة أنه ما من مؤتلف نهائي ولا من مختلف أيضاً. تصبح الفكرة أو الموضوعة بالحوار أكثر وضوحاً وأبين دلالة فتكسب متانة تسمح لها الاندراج في المساكنة مع الهوية فلا يكون قبول الآخر نهائياً بما هو في زمن ما أو في مكان ما وإنما هو قبول يفسح في المجال للارتفاع في العلاقة إلى مستوى أخلاقي ينفتح فيه الأنا على الغير ويُدخله إلى منظومته المعرفية، بما هي صيرورة فكرية ينتفي فيها الثبات من حيث كونه سبباً إلى نفور بين هويتين أو سبباً إلى دمجهما. في كل من قوة الثبات في الحالين خروج من أفق المرصود والمتوقع وإيذان غير مرغوب للدخول في المقدس فيصبح الحوار مشروعاً للتفكير إذا لم يؤدِ إلى القبول أو الإذعان، أو في أن يهبط إلى مستوى التنابذ، وحصر العلاقة بالخلاف الممتنع عن الفهم الحامل لأي مشروع إنساني قابل للحركة لحمته وسداه المسار الذي لا ينحصر في اتجاه خطّي واحد، وإنما في اتجاهات متعددة.

لا مندوحة في التمييز بين المفاهيم من توضيح أن الذات نقطة ارتكاز الكائن في متاهات الآفاق وكل شيء آخر. والوجود مع الآخر يكون بالعالم فهو الإنسان الذي يكلِّم العالم ويتكلم عنه. يتلامح المعنى على نبرات الكلام، حين نكلّم العالم ليمكن تحقيق التواصل معه، وحين نتكلم عنه نَتَمعيَنُه. التواصل والتمعين يشكلان سيرورة اللغة وصيرورتها ويشكلان كلاماً موجوداً وحياة موجودة مع الآخر(١٢).

لم تكن اللغة في يوم من الأيام إلا ذلك الإبداع الذي ينفتح على الأصالة واجتراح الجديد والانطلاق خارج دائرة الروتين والمعتاد التواصل يتم لا بالألفاظ فحسب، بل وبين الصامتين أيضاً.

الانطلاق من فكرة الانفتاح على الآخر والقبول بالمختلف قفزة بالحوار إلى الاعتراف بالتعددية والتنوع، وعودة إلى منابع الفكرة ذاتها. وهذا يعني أن يقدم العون لنمو الفكرة بوساطة التخاطب الداخلي بين الذات والآخر، وتتشكل على فرضية ما لدى الآخر من أفكار وعادات ودوافع... وبدءاً من أهمية الحوار الهدف إلى الارتقاء بالسلوك الاجتماعي وتجاوز الانكماش لتنشيط التواصل والاتصال، تتجدد الفكرة بالحوار وتخرج من حالها الخام وما تتصوره الذات عن الآخر.. الآخر الذي هو - شئنا أم أبينا - صورة داخل ذواتنا، ولكنها لا تخلو مما قد يشوبها من أوهام وأفكار مسبقة وأحكام مرتجلة. فالحوار يمكن أن يصل الذات مباشرة بالآخر بلا واسطة.

نعود إلى عبارة اعرف نفسك:

لا يمكن للنفس أن تحاور ذاتها إذا لم تعرف كيف تستقبل الآخر. الوضوح في هذه العلاقة يبين أهمية الدور الذي تحققه الإرادة في تنشيط الحوار، كون الإنسان مكوناً من الذات والآخر كما هي الذات في أنها نتيجة حوار الأنا وتفاعلها بعيداً عن العناد والتشبث بثوابت يعتمده الأنا في هروبه من التفاعل وعدم قدرته على نقد نفسه بدافع الغرور.

الذات عينها كآخر في ارتقاء قدرتها على التفسير وطلبها للفهم تآزرها الإرادة في تنشيط الحوار فالإنسان من جديد مكون من الذات والآخر.

ليس ما يعوق الحوار في تجاوز المرء أناه كردود الأفعال المتسرعة والمتهورة والتمسك بالرأي واعتماد الأفكار المسبقة معياراً لا بديل له.

يفترض الحوار تعليق إصدار الأحكام بما يتيح الوقت للتفكير والمراجعة قبل الإقدام على الفعل لحصر كل وجوه الاختلاف بين أنماط الشخصيات المتفاعلة أمام ناظري الشخص وبين تلك التي تميز ثقافة الأم خارج كل تنميط أو تعميم[١٣].

تبقى جدلية الذات والآخر رهن مقاربة معرفة المرء لنفسه وهي أمر صعب ومعقد يحتاج إلى الكثير من إدراك المرء لمشاعره واستخدام هذه المشاعر بهدف تسهيل التفكير والتعليل والحفاظ على مسافة لا تسمح له بالمرور نحو الآخر وهو واقع تحت تأثير التحدي الذي يضعف كل حوار.

ختاماً: كان هم الفلسفة المتواصل منذ سقراط وربما قبله الدعوة إلى الحوار مع الآخر، وكان الدخول إلى فحص الذات طريقاً لفهم جوهر العلاقة بين المتحاورين. وكان شرط الحوار كما مارسه ودعا إليه سقراط أن يكون وسيلة للفهم والتخلص من

الأفكار العقيمة في المسار الذي أراده أن يفصل بين الحقيقي والزائف، بين الفضيلة والرذيلة، بين الخير والشر وهكذا، وهذا ما لايمكن بلوغه بلا الحوار.

والحوار بين الأطراف ذوي الدواعي المتناقضة يقوم على البرهان الذي يحمله الاستدلال كوسيلة للوصول إلى الحقائق أو مقاربتها، والحقيقة كما نظر لها أفلاطون مستقلة وأبدية ومطلقة وحب الحكمة دليلها.(١٤).

منذ البداية طرحت المناظرات التي أسس لها أفلاطون سؤال الفلسفة الأصيل الذي أقامه على مبدأ الاعتراف بالكثرة والاختلاف على قاعدة أن الاختلاف شرط كل معرفة ممكنة. ويماثل أفلاطون بين الغيرية والاختلاف، مشيراً إلى أن سؤال المحاور يبدأ لنفسه من يكون هو؟ ومن يكون الآخر الذي يجب أن يستوعبه قبل أن يعرفه؟(١٥).

الهوامش

١- علي حرب: عالم الفكر- ٣/٢٣ ص١٠.

٢ - جان - ماري بونوا: أوجه الهوية -تر: عبد السلام بن عبد العالي - ص٧٩- الفكر العربي المعاصر- العدد ٣٩.

٣- فرديناند ألكييه: معنى الفلسفة -ص١٤٦ - ترجمة: حافظ الجمالي - اتحاد الكتاب العرب -١٩٩٩م.

٤- بول ريكور: الذات عينها كآخر- ترجمة جورج زيناتي - ص١٠٩ -إصدار المنظمة العربية للترجمة - بيروت ٢٠٠٥م.

٥- مطاع صفدي: في الذات الحي بعد كل تفكيك - الفكر العربي المعاصر العدد ١٥٣/١٥٢.

٦- ميرولو بونتي: عن محمد سبيلا في (الذات المفلولة)- ص ٤٣- الفكر العربي المعاصر- العدد ٢٨/٢٧.

٧- بول ريكور: عين الذات كآخر -مقدمة المترجم جورج زيناتي - مجلة الفكر العربي المعاصر - ص ٢٢ العدد ١٣٥/١٣٤.

- وضعت المجلة عنوان كتاب ريكور كالآتي: الذات كآخر، بينما جاء العنوان على الكتاب الذي أصدرته المنظمة العربية للترجمة (الذات بعينها كآخر).

٨- بول ريكور: م س ذ: ص٦٨.

٩- المصدر السابق ص٧٢.

١٠- المصدر السابق ص٧٣.

١١- مطاع صفدي: العقلانية النقدية وإشكالية الذات - ص١٩ - الفكر العربي المعاصر العدد١٣٤/ ١٣٥.

١٢- المصدر السابق.

١٣- الثقافة العالمية - العدد ١٣٧ - ص٨.

١٤-زهير اليعكوبي: نحو ممارسة سياسية مضادة - الفكر العربي المعاصر - العدد ١٥٩/١٥٨ - ك١- ٢٠١٤م.

١٥-نزهة الحلواني: أفلاطون وفكر الاختلاف - الفكر العربي المعاصر -ع ١٥٩/١٥٨.

رحلات المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون إلى سورية..

بشار منافيخي ❁



ولـد لويس بـن فرنـاد ماسينيون عام ١٨٨٣م في ضاحية (نوجان) على نهر المارن وهي إحـدى ضواحي العاصمـة الفرنسية باريس، وبعد حصوله على الشهادة الثانوية عـام ١٩٠١م انتسب ماسينيون إلى الجامعة وحصل على درجة الليسانس في الأطروحة التـي قدّمها عـن تراث الجغرافـي (ليون الأفريقي).

ثم تابـع دراسته في جامعـة السوربون حتـى حصل منها علـى دبلـوم الدراسات العليـا ثم انتسب بعدها إلى معهد (الكوليج دي فرانس) وتلقى دراسته فيه عن الإسلام

❁ باحث من سورية.

وتاريخه، ثم درس العربية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية وحصل منها على دبلوم اللغة العربية الفصحى، وفي عام ١٩٠٦م عُيّن عضواً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، وفي عام ١٩٠٧م سافر ماسينيون إلى العراق في مهمة تنقيب أثرية، وفي عام ١٩٠٩م سافر إلى مصر وانتسب إلى جامعة الأزهر ولبس الزي الأزهري، وفي عام ١٩١٢م دُعي من قبل الجامعة المصرية للتدريس فيها وألقى محاضرات على طلاب الجامعة باللغة العربية حول تاريخ المذاهب والمصطلحات الفلسفية في الإسلام، وكان من أبرز طلابه في الجامعة الأديب الدكتور طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م)، وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م دُعي ماسينيون للخدمة العسكرية، وعاد بعد انتهاء الحرب إلى فرنسا وتابع دراسته العليا، فحصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٢٢م وكانت أطروحته بعنوان (آلام الحلاج شهيد التصوف في الإسلام)، ثم عُيّن أستاذاً في معهد (الكوليج دي فرانس) (١٩٢٤-١٩٥٤م) وأسس خلال عمله مجلة الدراسات الإسلامية، وبعد إحالته على التقاعد عام ١٩٥٤م ظل ماسينيون يتابع دراساته وأبحاثه بنشاط وحيوية حتى توفاه الله في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٦٢م.

- الرحلة الأولى:

هي رحلة علمية ذات طابع شخصي قام بها ماسينيون إلى دمشق عام ١٩٠٨م أثناء عودته من بعثة أثرية علمية قضاها في العراق كما ذكر الأستاذ علي بدر في كتابه (ماسينيون في بغداد) حيث استطاع اكتشاف قصر بني لخم المسمى (قصر الأخيضر) ثم اكتشافه لشخصية شهيد التصوف الحسين بن منصور الحلاج (٨٥٧-٩٢٢م) والتي أشغلته طوال حياته، وقد رافقه في سفره إلى دمشق العالم اللغوي الأب أنستاس الكرملي (١٨٦٦-١٩٤٧م) وهو في طريقه إلى روما، وبعد وصول ماسينيون إلى دمشق التقى بالشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢-١٩٢٠م) أحد رجالات الإصلاح في سورية والذي اشتهر منذ صغره باقتناء المخطوطات والكتب النفيسة، كما التقى بالشيخ جمال الدين القاسمي (١٨٦٦-١٩١٤م) في منزله وقد اطلع ماسينيون أثناء هذه الزيارة على مكتبة آل القاسمي وعلى مخطوطاتها وكتبها الثمينة، وكان أهم ما اطلع عليه هو مخطوطة كتاب (قاموس الصناعات الشامية) الذي وضع الجزء الأول منه الشيخ محمد سعيد القاسمي (١٨٤٣-١٩٠٠م) ثم أكمل الجزء الثاني نجله جمال الدين وصهره خليل العظم (١٨٧٠-١٩٢٦م)

وقد نسخ ماسينيون بخطه من القاموس الآنف الذكر صفحة تشرح معنى (الحلاج)، ثم التقى ماسينيون خلال هذه الرحلة الكاتب والصحفي محمد كرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣م) صاحب جريدة ومجلة (المقتبس)، ثم قام ماسينيون بجولة في مكتبات دمشق الخاصة والعامة وكان في طليعتها المكتبة الظاهرية.

- **الرحلة الثانية:**

وهي رحلة ذات طابع سياسي قام بها خلال عامي (١٩١٨-١٩١٩م) أثناء عمله مع المفوضية الفرنسية وقام أثناء هذه الرحلة بجولات مكوكية بين مدن (دمشق، حلب، بعلبك، بيروت) نفّذ خلالها العديد من المهمات السياسية التي كُلِّف بها بصفته نائباً ومساعداً للمفوض السامي الفرنسي جورج بيكو وقد عمل معه ماسينيون من آذار ١٩١٧م وحتى نيسان ١٩١٩م.

أما عن جولاته في مدينة حلب خلال عامي (١٩١٨-١٩١٩م) فقد ذكرها ماسينيون في الرسالتين اللتين بعثهما إلى الأب الكرملي.

أما جولاته في دمشق خلال تلك السنوات فكان يقوم بها أثناء عمله السياسي أو من خلال تنقلاته في المدن السورية واللبنانية.

- **الرحلة الثالثة:**

في الثاني من شهر تشرين الأول عام ١٩٢٠م عقد أعضاء المجمع العلمي في دمشق جلسة رأسها محمد كرد علي رئيس المجمع وانتخب أعضاء المجمع المستشرق لويس ماسينيون عضواً مراسلاً فيه، وفي أواخر تشرين الثاني من العام نفسه قام ماسينيون برحلة إلى دمشق ثم حمص، وكانت هذه الرحلة لغايات علمية وسياسية في آن واحد حيث كلفته الحكومة الفرنسية في باريس الاهتمام بدراسة الحضارات العربية في معاهدها في دمشق. وخلال وجوده في دمشق دعاه وزير المعارف في الحكومة السورية ورئيس المجمع العلمي محمد كرد علي إلى إلقاء محاضرة يوم ٢٩ تشرين الثاني في بهو بناء معهد الحقوق على ضفة بردى (وزارة السياحة حالياً)، وكانت بعنوان (ملتقى الأدبين) حضرها عدد كبير من الأدباء والعلماء وأساتذة وطلاب معهدي الحقوق والطب في دمشق، وقبل المحاضرة قام الأستاذ كرد علي بتقديم وتعريف الجمهور بالمحاضر.

- **الرحلة الرابعة:**

هي رحلة قام بها ماسينيون إلى دمشق وبيروت عام ١٩٢٧م وهدفها تنفيذ مهام سياسية وعلمية كلف بها من قبل الحكومة الفرنسية في باريس، ومن مهامه السياسية

هي إجراء مفاوضات مع عدد من الزعماء السياسيين الوطنيين في سورية ولبنان من أجل تسوية العلاقات الفرنسية-السورية، وقد جرت المفاوضات في منزل عبد الله اليافي (١٩٠١-١٩٨٦م) في بيروت وحضرها الزعيم إبراهيم هنانو (١٨٦٩-١٩٣٥م) قائد ثورة الشمال، والمحامي فوزي الغزي (١٨٩١-١٩٢٩م) الذي ساهم في وضع أول دستور سوري في البلاد، والزعيم الوطني اللبناني رياض الصلح (١٨٩٣-١٩٥١م) أحد المطالبين بالوحدة بين لبنان وسورية.

أما المهمة العلمية التي كلّف بها ماسينيون فهي تتعلق بإعادة تنظيم المعهد الفرنسي في دمشق الذي تأسس عام ١٩٢٢م وكان مقره في قصر أسعد باشا العظم في سوق البزورية في دمشق، وكان عمل المعهد مقتصراً في بادئ الأمر على التنقيب عن الآثار في الأراضي السورية، فنادى ماسينيون بضرورة تقدم الدراسات العليا وتطورها في المعهد من خلال طرح فكرة مشروع إحداث قسم للمستعربين الذين يعملون في المعهد بمعاونة أصدقائه العاملين في المعهد.

- **الرحلة الخامسة:**

في ربيع عام ١٩٢٨م وصل ماسينيون إلى دمشق قادماً من رحلة قام بها إلى مدينة إستانبول التركية وجاء إلى دمشق ليكمل مشاريعه ودراساته العلمية التي باشر بها عام ١٩٢٧م وكان من أهمها تنظيم المعهد الفرنسي في دمشق وتطويره من خلال إحداث قسم للمستعربين العاملين في الدراسات العربية في المعهد والذي اقترحه ماسينيون مع عدد من زملائه المستشرقين العاملين في المعهد مثل: جان سوفاجيه (١٩٠١-١٩٥٠م) الخبير بالآثار التاريخية السورية وهنري لاوست (١٩٠٥-١٩٨٣م) المهتم بفكر ابن تيمية، وجان غولميه المربي والباحث في الدراسات العربية.

ومن المهمات الأخرى التي تابعها ماسينيون في هذه الرحلة هي متابعة بحثه الاقتصادي والاجتماعي الهام والذي نوهنا به سابقاً وهو (تنظيم العمل والعمال في دمشق)، وتخللت هذه الرحلة أيضاً زيارة مكتبة آل القاسمي للمرة الثالثة من أجل الحصول على نسخة مخطوطة من كتاب (قاموس الصناعات الشامية) والذي اطلع عليه خلال رحلتي عام ١٩٠٨و١٩١٩م وقامت الأسرة القاسمية بتزويده بنسخة طبق الأصل عن الكتاب المذكور الذي يعتبر المرجع الرئيسي والهام في بحثه الآنف الذكر، وقد أشاد ماسينيون بأصالة وعراقة الحرف والصناعات الدمشقية في مقدمته التي تصدرت كتاب قاموس الصناعات

الشامية الذي طُبع في باريس عام ١٩٦٠م لأول مرة بجهوده وجهود صديقيه جاك بيرك (١٩١٠-١٩٩٥م) وظافر القاسمي، وقد جاء في المقدمة: «ولقد قمت بدراسة مقارنة للحواضر الإسلامية تتبعتها متنقلاً منذ أكثر من أربعين عاماً بين (فاس والقاهرة وبغداد وإستانبول وأصفهان ودلهي ودمشق)، وإذ بأصالة دمشق تثبت أمام عيني، ففي دمشق نما خيال الصناع المبدع أكثر ما يمكن النمو والتنوع وبأكثر ما يمكن من التلون والدقة».

- الرحلة السادسة:

بعد غياب دام ست سنوات قام المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون برحلة إلى سورية عام ١٩٣٤م زار خلالها العاصمة دمشق ومحافظة اللاذقية على الساحل السوري وكان هدفها إلقاء محاضرات والبحث والاستقصاء العلمي لبحوثه ودراساته، وبمناسبة مرور ماسينيون بالعاصمة دمشق أقامت له مجلة الثقافة التي كان يصدرها كوكبة من رجال العلم والفكر والأدب وهم: الشاعر خليل مردم بك (١٨٩٥-١٩٥٩م)، ود.كاظم الداغستاني (١٨٩٨-١٩٨٥م)، ود.جميل صليبا (١٩٠٢-١٩٧٦م)، ود.كامل عياد (١٩٠١-١٩٨٦م)، حفل تكريم في فندق قصر أمية (عمر الخيام حالياً) الذي يقع بالقرب من ساحة المرجة يوم ١٣ نيسان ١٩٣٤م، وقد حضر هذا الحفل رئيس وأساتذة الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) ومستشار معارف المفوضية الفرنسية العليا، ومستشار المعارف في الجمهورية السورية السيد (أ.كوله) ورؤساء المعاهد العلمية العليا، وأعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، والمستشرقون أعضاء المعهد الفرنسي في دمشق، وعدد من الكتاب والأدباء، وقد تكلم باسم مجلة الثقافة راعي الحفل د.كاظم الداغستاني الذي رحب بالمحتفى به د.ماسينيون، وذكر ما له من مكانة في أقطار المشرق العربي والعالم الإسلامي، وعلى الأخص عند تلامذته وأصدقائه السوريين في حبه واحترامه واعترافهم بجميله، وبعدها قام الأستاذ ماسينيون وأجاب شاكراً أصحاب مجلة الثقافة لحفاوتهم به، ثم بدأ بإلقاء محاضرته التي كانت تحت عنوان: (اللغة العربية والثقافة) ارتجلها باللغة العربية.

أما عن الجولة الثانية التي قام بها ماسينيون خلال هذه الرحلة فكانت إلى محافظة اللاذقية.

وزار خلالها الشيخ سليمان الأحمد (١٨٦٩-١٩٤٢م) في قريته في ريف اللاذقية والتي تدعى (السلاطة)، وما جرى أثناء هذه الزيارة يحدثنا عنه المرحوم الشيخ سليمان الأحمد في الرسالة التي كتبها لابنه علي المقيم في باريس عام ١٩٣٥م يقول فيها:

«زارنـا العلامـة المستشـرق (لويسـ ماسينيون) الأستاذ في كلية اللغات الشرقية في باريس والعضو الأكاديمي على مافهمنا، وقد سـرد لنا ترجمـة حياتـه وأنه قضى السنيـن الطـوال في خدمة اللغـة العربية والمذاهب الإسلاميـة وأن أعماله هذه في خدمة العلم والإنسانية مجردة عن السياسة إلـى غير ذلك مما لم نـر فائدة في سرده، وأهدانـا من تأليفه كتابـاً عنوانه «سليمان باك»يبحث فيه عن سلمان الفارسي ولو أنه في العربية لأبدينـا رأينا فيه وقد قلت له: إنكم (أي المستشرقون) تخدمون الإنسانية إذا أخلصتـم النيـة لأن فلسفـة الشـرق روحية بحتة وفلسفة الغرب مادية محضة، وكلتاهمـا فيها بعض النقصـ من الوجهة الاجتماعية».

- الرحلة السابعة:

وهي رحلة قام بها خلال سنوات الحرب العالميـة الثانيـة التي امتـدت قرابة ست سنـوات (١٩٣٩-١٩٤٥م) كما نوّه عنها بيير روكالف فـي كتابه (ماسينيـون والإسلام) والذي أشار فيه أن ماسينيون التقى في دمشق أثناء الحرب بعدد من الزعماء والسياسيين السورييـن وهـم هاشم الأتاسـي (١٨٨٥-١٩٦٠م)، وشكري القوتلي (١٨٩١-١٩٦٧م)، وسعـدالله الجابـري (١٨٩٢-١٩٤٧م)، وفخري البارودي (١٨٨٧-١٩٦٦م)، وأحمد الشراباتـي (١٩٠٩-١٩٧٥م)، ولم نعثر على أخبار هذه اللقاءات في الكتب التي تناولت تاريخ سورية في العصر الحديث.

- الرحلة الثامنة:

فـي آذار من عام ١٩٤٥م قام ماسينيون برحلة قصيـرة دامت أربعة أيام إلى سورية قادمـاً من بيروت وكان الهـدف منها إلقاء محاضرة في حلـب، وكان برفقته في هذه الرحلـة صديقه جان غولميـه وقد شملت جولاته مدن حلـب وحماة ودمشق ويحدثنا عن هـذه الرحلة جان غولميـه في الكلمة التـي كتبهـا عـام ١٩٩٢م بمناسبـة مرور ٣٠ عامـاً على رحيـل ماسينيون جاء فيها: «ذهبت برفقته في ٢١ آذار من عام ١٩٤٥م إلى بيـروت ثم حلب، عـن طريق اللاذقية وجسر الشغـور، ومن هذه الأخيرة صحبني إلـى قرية (اليعقوبية)، ولقد ألقى في حلب فـي الثاني والعشرين من آذار محاضرة عن (السهروردي) ثـم استقبلنا الدكتور إحسان الشريف محافظ حلب، في ذلك الحين في الثالث والعشرين من آذار، كنا وحيدين وهذا مـا سهّل علينا إجراء حـوار مثير ومخلص حـول جميـع الموضوعـات التـي تتصل بالعلاقات الفرنسية-العربية، ثم ذهبنا إلى دمشق مروراً بحمـاة حيث استقبلنا فخري الكيلاني (١٩١٢-١٩٨٢م) بلطف وكياسة لا ينسيان، وعدنا في الرابع والعشرين من آذار إلى بيروت».

ويذكر الأستاذ أحمد الفتيح في كتابه (تاريخ المجمع العلمي العربي) الذي صدر في دمشق عام ١٩٥٦م بأن ماسينيون ألقى محاضرة في بهو المجمع العلمي بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٤٥م، وكان عنوانها (وسائل اللغة العربية إلى غاياتها الثقافية).

- الرحلة التاسعة:

هي رحلة علمية قام بها ماسينيون في ربيع عام ١٩٤٧م قضاها في عاصمة بني أمية دمشق حيث ألقى فيها محاضرة ثم حضر حفلة تراثية تضمنت أغاني وموشحات، ويحدثنا أحد شهود العيان الذي حضر تلك المحاضرة والحفلة الموسيقية وهو المرحوم فريد جحا قائلاً: (وذهبنا بعد ذلك اليوم إلى المجمع العلمي الذي كان يتخذ من المدرسة العادلية مقراً له، فاستمعنا في قاعة محاضراته الشهيرة، إلى لويس ماسينيون يتحدث بعربية محببة عن (الفتوة عند العرب)... وعرَّفنا عن أجدادنا وتراثهم، مالم نكن نعرف من قبل.. وفي المساء حضرنا على مدرج الجامعة السورية حفلة أقامها (المعهد الموسيقي العربي) المحدث في تلك السنة بمساعي فخري البارودي، وكان نجم الحفلة الفنان الشيخ عمر البطش (١٨٨٥-١٩٥٠م) الذي قدّم مع طلابه من تلاميذ المعهد موشحات وأغاني دينية في التصوف والمدائح النبوية).

- رحلات ماسينيون الأخيرة:

خلال الأعوام (١٩٥٨-١٩٦٠م) قام ماسينيون بثلاث رحلات إلى سورية وخلالها زار دمشق ثلاث مرات كانت الأولى عام ١٩٥٨م كما ذكر بيير روكالف في كتابه الآنف الذكر ولكنه لم يتحدث عن الغرض من تلك الرحلة وأخبارها، وإنما ذكر فقط بأن ماسينيون وصل إلى دمشق قادماً من رحلات قام بها إلى مصر وبيروت والقدس والخليل مواصلاً بحوثه ومنشوراته ومحاضراته. أما عن الزيارة الثانية لدمشق فقد تحدث عنها الأستاذ ظافر القاسمي في مقدمته التي صدَّرها لكتاب قاموس الصناعات الشامية قائلاً: «خلال شهر شباط ١٩٥٩م قدم الأستاذ ماسينيون إلى دمشق وقد زرته قبيل سفره».

أما الرحلة الثالثة التي قام بها ماسينيون إلى دمشق فقد كانت في شباط ١٩٦٠م قادماً من القاهرة ويحدثنا عنها أيضاً الأستاذ ظافر القاسمي في مقالته التي نشرت في مجلة المجمع العلمي في دمشق عام ١٩٦٣م قائلاً: «مر ماسينيون بدمشق في شباط عام ١٩٦٠م وتفضل فزارني في بيتي زيارة استغرقت أربع ساعات كاملات».

- مراسلات ماسينيون وصداقاته مع العلماء السوريين:

كانت المراسلات التي جرت بين المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون مع عدد من أصدقائه العلماء والكتّاب السوريين الذين تعرّف عليهم خلال رحلاته العديدة إلى سورية وكان منهم الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، وكانت رسائلهما تتعلق بشؤون المخطوطات والتراث، أما مراسلات ماسينيون مع الشيخ جمال الدين القاسمي فكانت بينهما رسالة يتيمة أرسلها ماسينيون في ٨ آذار سنة ١٩١٢م تتضمن العديد من الأسئلة حول العالم الصوفي الحسين بن الحلاج، ويذكر الأستاذ ظافر القاسمي في كتابه (جمال الدين القاسمي) بأنه لم يجد بين رسائل والده القاسمي جواباً رد فيه على رسالة ماسينيون، وأيضاً كانت هناك رسائل متبادلة بين الأستاذ ظافر القاسمي والمستشرق ماسينيون تناولت العديد من القضايا. وكانت هناك أيضاً مراسلات بين ماسينيون وعدد من العلماء السوريين الذين لم يلتقِ بهم وإنما تعرف إليهم من خلال رسائلهم وكان منهم المرحوم الشيخ الحاج عبدالرحمن الخير (١٩٠٤-١٩٨٦م) الذي وجه لماسينيون رسالة من محافظة اللاذقية مؤرخة في ١ آب ١٩٥٤م، وقد زودني نجله الأستاذ الباحث هاني الخير بصورة منها مشكوراً، وقد تضمنت تلك الرسالة سؤالاً عن مناظرة كانت قد جرت بين حسين بن حمدان الخصيبي والحلاج وطلب الشيخ الخير من ماسينيون أن يُعلّمه عن الكتاب الذي وردت فيه تلك المناظرة، وبعد أسابيع وردت رسالة من ماسينيون إلى الشيخ الخير تضمنت الأجوبة حيث ذكر فيها ماسينيون بأن العلاقة بين الخصيبي والحلاج كانت في حالة خصام.

وكان لماسينيون فضل على مجموعة من الطلاب السوريين الذين تلقوا دراساتهم العليا في جامعات باريس وأشرف ماسينيون على أطروحاتهم وفتح لهم مكتبة منزله الخاصة أثناء دراستهم أمثال الدكتور عادل العوا (١٩٢١-٢٠٠٢م)، والدكتور جودت الركابي (١٩١٣-١٩٩٩م)، والدكتور عبدالكريم اليافي (١٩١٩-٢٠٠٨م) وغيرهم.

وأخيراً كانت آثار ماسينيون العلمية من كتب وبحوث ودراسات سخرها في تعريف الغرب والشرق بالتراث العربي والإسلامي طوال أكثر من نصف قرن جديرة بأن يكون ماسنيون كبير مستشرقي القرن العشرين.

المراجع

١- فريد حجا: تحية إلى ماسينيون بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاته، حلب، ١٩٩٢م.

٢- نجيب العقيقي: المستشرقون، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، طبعة خامسة، ٢٠٠٦م.

٣- عبد الرزاق الأصفر: ماسينيون ما له وما عليه، مجلة التراث العربي، دمشق، العددان ٨٣-٨٤، أيلول ٢٠٠١م.

٤- علي بدر: ماسينيون في بغداد، منشورات الجمل، ألمانيا ٢٠٠٥م.

٥- إسكندر الرياشي: رؤوساء لبنان كما عرفتهم، بيروت ١٩٦١م.

٦- د.حسني سبح: خواطر وسوانح وعبر في إيحاء ذكرى مستشرق، مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، مجلد ٥٩، الجزء الرابع، تشرين الأول ١٩٨٤م.

٧- ظافر القاسمي: لويس ماسينيون ذكريات وأقوال فيه، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، مجلد ٣٨، الجزء الأول، كانون الثاني ١٩٦٣م.

٨- محمد سعيد القاسمي وآخرون: قاموس الصناعات الشامية، الطبعة الثانية، دمشق، دار طلاس.

٩- محمد كرد علي: حياة مستشرق، مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، المجلد الأول، الجزء الأول، كانون الثاني ١٩٢١م.

١٠- عدنان درويش، ندوة الحركة العلمية في المعهد الفرنسي، تشرين الثاني ١٩٩٢م، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٩٥م.

١١- د.جميل صليبا: اللغة والثقافة، مجلة الثقافة دمشق، الجزء التاسع، ١٥ نيسان ١٩٣٤م.

١٢- د.علي الأحمد: الإمام الشيخ سليمان الأحمد، دار الفرقد للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق ٢٠١٠م.

ما لا نعرف عن عالم الآثار جورج سميث

عبد الله حجار ❁



(جورج سميث ١٨٤٠-١٨٧٦)

جورج سميث (١٨٤٠-١٨٧٦م) عالم آثار إنكليزي الجنسية اشتهر بقراءته لأول مرّة قصة الطوفان المذكورة في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش التي وجدت في مكتبة آشوربانيبا (٦٦٨-٦٣٨ ق.م.). وتعود هذه الملحمة في أصولها إلى بداية الكتابة لدى السومريين والألف الثالث قبل الميلاد وتعتبر أقدم ملحمة في العالم، وقد تناقلتها شعوب بلاد الرافدين بدءاً من الأكاديين والبابليين والآشوريين... عمل سميث في مواسم تنقيب عدة بين ١٨٧٣و١٨٧٦م في نينوى قرب الموصل وتوفي ودفن في

❁ آثاري ومهندس له مجموعة من الدراسات والمؤلفات التاريخية والأثرية.

حلب العام ١٨٧٦م فـــي المقبرة الإنكليزية القريبة من زقاق الصفيـــة آنئذٍ (مستشفى ألطونيان/مدرسة الحكمة التي هدمت)، ثم نقلت رفاته في ١٩٣٨/١٢/٦م إلى المقبرة الإنجيلية في الشيخ مقصود.

أدين بالمعلومات الخاصة التي سأذكرها عن هذا العالم الكبيـــر للسيدة شيلا إيفرز Sheila M Evers، وهي باحثة حضرت مع مجموعة سياحية إنكليزية إلى سورية العام ١٩٩٨م، وبناء علـــى طلبها قمنا بزيارة قبر جـــورج سميث في مقبرة الشيخ مقصود في حلب حيث وضعت وزوجها آلان سميث بعض الزهـــور على قبر جدّه العالم جورج سميث، وقـــرأا الكلمة الرائعة التـــي كتبها المتحف البريطاني على لوحين من الغرانيت الأحمر اللذين غطّيا القبر. وأرسلت لي لاحقاً رسالة بتاريخ ١٠/١٠/١٩٩٨م تشكرني فيها وهي تقول: «إنني أشعر مع العائلة بسرور بأنه ما زال لنا في حلب صديق يهتمّ بجورج سميث وما اكتشف».

جورج سميث وقصة الاكتشاف:

ولـــد في لندن في ٢٦ آذار ١٨٤٠م، أولع منذ صغره بالآثـــار ودراسة اللغات القديمة وكان يعمل في حفر القوالب الخاصة بطباعة الأوراق النقديـــة. وكان يتـــردّد دائمـــاً على المتحف البريطاني ويـــزور قاعاته ويتأمل معروضاتها المكتشفة والمرسلة من العراق ومصر وإيـــران وسواهـــا. أعجب محافظ قسم الآثار الشرقية بالزائر«المداوم» وسأله فيمـــا إذا كان يرغب في العمل كموظف في المتحف. رحّب سميـــث بالفكرة وبدأ عمله كمرمم للألواح الفخارية العام ١٨٦٣م، وانكبّ على قراءة الألواح التـــي كان يرسلها العالم الإنكليزي (لايـــارد) من شمال العراق حيث كان ينقب في نينـــوى ونمرود، وبدأت تصل إلى المتحف مع التماثيل الآشورية الضخمة وسواها بعد رحلة شاقة في نهر دجلة حتى البصـــرة ثم بالسفن حتى لنـــدن. وعلى أثر دراساته لخصائص الكتابة المسمارية أصبح سميث مساعداً لرئيس قسم الآثار الشرقية الذي كان بإدارة العالم الكبير السير هنري رولنســـون(١٨١٠-١٨٩٥م) الذي ساهم في نشـــر النصوص الفارسيـــة وفك رموز اللغة المسمارية لنصب الملـــك داريوس الشهير في صخرة «بهيستون» في إيران، ويعتبر «أبا الآشوريات» عند الإنكليز.

وقعت في يد جـــورج سميث كسيرة من لوح رقيم فخاري قـــرأ فيها جزءاً من قصة الطوفان الواردة في التوراة (العهد القديم).

عُقـد مؤتمر لاذاعة النبأ في ٣ كانون الأول ١٨٧٣م بيّن فيه سميث أمام جمعية الآثار التوراتية شدّة المطابقة بين النصّين الآشوري والتوراتي. وقدّمت جريدة الديلي تلغراف مكافأة قدرها ألف جنيه ليذهب إلى نينوى ويفتّش عن الجزء المفقود من لوحة الطوفان، على أن يوافي الجريدة بتقرير عن رحلته واكتشافاته.



(قصة الطوفان ملحمة جلجامش)

وهكذا غادر سميث لندن في ٢٣ كانون الثاني ١٨٧٤م ووصل إلى الموصل في ٢ آذار وبدأ الحفريات في ٧ أيار. ويقال إنه كان سعيد الحظ إذ وجد في اليوم الخامس كسيرة فخارية كتب عليها تتمة قصة الطوفان، وكانت اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش من مكتبة آشور بانيبال. لقد قام سميث بشراء العديد من التماثيل الرائعة مثل نصب الملك حدد نيراري والأسد الحجري من أبي حبّة وسواها.

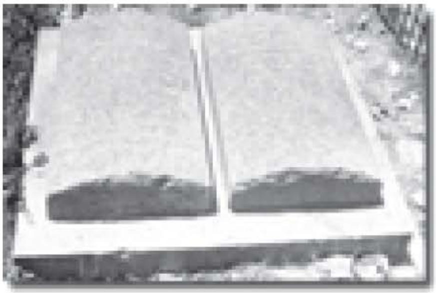
منع والي الموصل سميث من التنقيب وصدر السماح من استانبول بالتنقيب في آذار ١٨٧٦م ووصل إلى الموصل في الصيف فرفض العمال العمل في الطقس الحار، وبانتظار الطقس المناسب قام سميث بجولة في المنطقة على الرغم من التحذيرات من أشعة الشمس. وأجبر على التوقف مدة ٤ أيام في قرية «إيكيسجي» وهو في طريقه إلى حلب. أصيب بضربة شمس أفقدته الوعي ونقل إلى حلب في ١٦ آب بعد الاتصال بالقنصل الإنكليزي سكين، وعلى الرغم من العناية التي بُذلت له توفي في ١٩ آب ١٨٧٦م ودفن في المقبرة الإنكليزية في العزيزية. ويذكر اسمه بإجلال، على الرغم من أنه لم يتجاوز السادسة والثلاثين، مع أسماء الروّاد الأوائل مثل دي بوتا ولايارد اللذين ابتدأت بهما في منتصف القرن التاسع عشر مغامرة علم الآثار الحديث المسمى بعلم الآشوريات.

حياة جورج سميث الخاصة وعلاقته بحلب:

تزوج جورج سميث من ماري كليفتون ريتشاردسون وخلف سبعة أولاد، خمسة صبية وابنتين. وأحد أبنائه جورج هيربيت (ولد في ١٨٦٩/٦/٩م) خلف بدوره سبعة

أولاد كان منهم ليسلي برتان الذي تزوّج من إيرين وخلفا ألان زوج شيلا إيفرز كاتبة الرسالة والسائحة زائرة حلب. أي إنها زوجة حفيد جورج سميث الذي ترقد رفاته بسلام في الشيخ مقصود في حلب.

عند وفاة جورج سميث بعيداً عن بلاده طلبت زوجته ماري من مجلس الأمناء في المتحف البريطاني أن يوضع نصب مناسب على ضريحه. وقد أعدّ لوحان من الغرانيت الأحمر على شكل كتاب مفتوح مع كتابة مناسبة وبوزن محدّد وأرسلا العام ١٨٧٧م إلى الإسكندرونة ومنها نقلا على الجمال إلى حلب كي يوضعا على الضريح. وقد حفظ اللوحان في حديقة القنصلية البريطانية في حلب وسرقا وأعيدا مرتين، ووضعا أخيراً على الضريح بعد أن تمّ تأمين تصوينة للمقبرة بارتفاع ٤ م وكان ذلك العام ١٨٩٤م. وعندما منع الدفن في المقابر القديمة الكائنة قرب مقبرة العبّارة وخصّصت مقابر للمسيحيين في الشيخ مقصود تمّ نقل ضريح جورج سميث ورفاته ولوحيه مع ٤٧ ضريحاً لأجانب هامّين من قناصل وتجار وأشخاص من كبار الجاليات الأجنبية وكان ذلك في ١٩٣٨/١٢/٦م وكان عالم الآثار ماكس ملوان زوج الكاتبة أغاثا كريستي موجوداً في حلب وحضر احتفال إعادة الدفن.

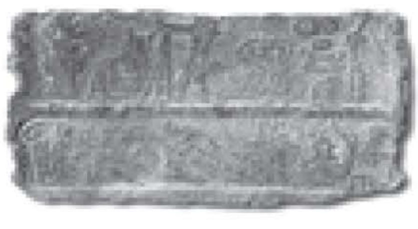


(لوحا ضريح جورج سميث في المقبرة الإنجيلية في حلب)

ويذكر عالم الآثار ماكس ملوان في مذكراته: «عندما استأجر داراً للعمل في حفريات نينوى (تل قوينجق) قرب الموصل كان مالك الدار رجلا مسنّاً تجاوز التسعين من العمر يدعى داؤود الساعاتي، وقد وصف لنا رجلاً قصيراً يلبس ثياباً سوداء أقام في خان «رسّام» في الموصل وكان يسير يومياً من الموصل إلى تل نينوى لينقب فيه مع ٨٠٠ عامل. وكان الرجل هو جورج سميث الذي كشف العام ١٨٧٣م لوح الطوفان الشهير.

وكم كان ممتعاً أن أتكلم مع شاهد عيان لجورج سميث». ويتابع ملوان: «لم يكن ذلك الاتصال الوحيد مع ذكرى سميث، حيث عندما كنتُ في حلب جاءني القنصل البريطاني ليذكر أن قبر جورج سميث الموجود في مقبرة سوف يهدم ويزال قبل ٣١ آذار ١٩٣٩م وسألني المساعدة في نقله. وهذا ما فعلته وأخذ ألفورد كارلتونAlford Carlton من البعثة الأميركية في حلب

على عاتقه مسؤولية نقل رفات سميث وتعهّد مجلس أمناء المتحف البريطاني بدفع مبلغ ١٠٠ جنيه، ووُضع الحجر التذكاري فوق القبر ثانية. بعد سنوات عدّة نلتُ مكافأتي عندما هتف لي رولان سميث، وكان أحد جيراننا في ديفونشاير Devonshire يسألني إذا كنتُ قد سمعتُ عن جدّه جورج سميث فأجبته بسرور: «لم أسمع عنه فقط بل حضرتُ إعادة دفنه». ويحوي السجل الذهبي لدار بوخه في خان النحاسين كتابة كلمة صغيرة مع توقيع للكاتبة الروائية أغاثا كريستي زوجة ماكس ملوان تذكر سهرتها في الدار: في ذكرى أمسية ساحرة بتاريخ ٢٨ أيار ١٩٣٧م. ومن الأمور غير المعروفة أن جورج سميث خلال مروره بحلب بتاريخ ٣١ آذار ١٨٧٦م قام بنسخ الكتابة الهيروغليفية الحثية الموجودة في جدار جامع القيقان في حي العقبة قرب باب أنطاكية وأدلى بدلوه في قراءتها. وكان هناك كتابة أخرى مماثلة قرب عتبة دار قريبة اختفى أثرها. كما كان سميث من أوائل الذين زاروا التل الأثري في كركميش.



(الكتابة على جدار جامع القيقان في العقبة القرن ١٤ ق.م.)

أمّا حول حياة جورج سميث العائلية فيكفي أن نعرف أنه خلال أربعة عشر عاماً من الزواج رزق بسبعة أولاد أكبرهم شارلي الذي وُلد العام ١٨٦٣م. وتُحدّثنا رسالة بعثها من الموصل بتاريخ ١٠أيار ١٨٧٤م عن مدى حبه لعائلته ويبدو أنه كان يتمتّع بروح النكتة إذ يقول:

«سأعود إلى الوطن لكن دون المرور في باريس، لذلك لن أتمكّن من جلب هدية من باريس لكنّ حضوري بأهميتي النبيلة وعظمتي هما أفضل هدية في العالم. شهرتي هي في عظمة شَعر لحيتي الكثيف وشاربي والذي يشبه مكنسة قاسية مع الشعر الذي ينمو عشوائياً. ويذكر أولاده السبعة ويأمل أن يكون ولده البكر شارلي وعمره ١١ سنة قد بدأ يستعمل الشوكة والسكّين في تناول طعامه وبدأ يميّز بين قطعة البطاطا والتفاحة. ويختم الرسالة بأن صاحبة النزل أرادت أن تقنعني بشراء بعض شغل الدنتيل لكِ لكنه هنا سيّئ الصنع، فأعلمتها أنّ لا مال لديّ، وأننا في إنكلترا نعطي السيدات ما يكفي قبل الزواج، ولسنا مغفّلين لإعطائهم هدايا بعد ذلك. ويوقّع زوجك جورج» Your Hubby George.

وفي الواقع عندما تقصد سورية مجموعة سياحية بريطانية الجنسية مهتمة بالآثار فإنّها تطلب غالباً زيارة ضريح العالم

جــورج سميث عند زيارتها حلب، كما يطلب البعض رؤية ضريح الأنسة دغبي المدفونة في المقبرة الإنجيلية في دمشق.

كان جورج سميث عالمــاً كبيراً أومض كالبــرق وانطفأ سريعاً ولم يتجاوز السادسة والثلاثين مــن العمر، وكان يُعِدُ بعطاء كبير لــو مدّ الله في عمره. ويبقى دوره بارزاً في بيان أنّ ما ذكر في التوراة مأخوذ مما سبق أن دوّن بتفصيل أكثــر دقّة من تقاليد بلاد الرافدين، وكانت قصة الطوفان وأوتانبشتم (نوح البابلي) معروفــة في تقاليد الشعوب قبــل أكثر مــن ألفي عام مــن تدوينها في التــوراة، بــل إنها كانت تــروى قبل اختراع الكتابة والتدوين.



مجموعة سياحية تزور ضريح جورج سميث في حلب

هانيبال، القائد الأسطوري

❁
إلياس عازر



هانيبال (هاني - بعل) أو حنبعل، القائد الفينيقي القرطاجي صاحب الألقاب الكثيرة كلقب القائد الأسطوري، ولقب كاسر هيبة روما. ذلك القائد العظيم الذي يعتبر من أهم القادة العسكريين في تاريخ البشرية. ذلك القائد الذي تناولته مئات بل آلاف الأبحاث التاريخية والدراسات الأكاديمية.

ذلك القائد المصنّف كأعظم واضع إستراتيجيات عسكرية وهو مثال وقدوة عند القادة العسكريين المعاصرين، حيث يرى نابليون في هانيبال أهم قائد إستراتيجي

❁ كاتب وباحث.

عالمي. أضف إلى ذلك، أن خططه العسكرية هي مثال حقيقي يُحتذى به والدليل على ذلك أنه بعد أكثر من ألفين ومئة عام على وفاة هانيبال عادت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية أيضاً إلى استخدام بعض الخطط الحربية التي سبق لهانيبال أن وضعها خلال معاركه المتعددة مع الرومان.

هانيبال وحلم الثأر من روما:

ولد هانيبال (ومعناه محبوب الإله أو خادم الإله، وهو اسم من الأسماء الكنعانية/الفينيقية)[1] في قرطاج الواقعة في تونس الحالية في العام ٢٤٧ قبل الميلاد. وقرطاج هي مستعمرة فينيقية بناها الفينيقيون حوالى العام ٨١٤ قبل الميلاد وسرعان ما تحولت إلى مركز ثقل وتواجد كبير للفينيقيين الذين انتقل القسم الأكبر منهم من مدنهم الأم في سواحل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ليستوطنوا في المستعمرة الفينيقية العظيمة.

والد هانيبال هو القائد هميلكار بركا وهو القائد العسكري الذي قاد جيوش قرطاجة في مواجهة الرومان خلال الحرب البونية الأولى[2]. وهانيبال هو الابن الأكبر لهميلكار، وهو الذي رأى بعينيه حين كان طفلاً سقوط جيوش والده وانكسار قرطاج أمام جيوش روما، فأقسم هذا أمام أبيه على الثأر وكسر هيبة الرومان وبث الرعب في نفوسهم.

في العام ٢٢١ ق.م اغتيل القائد صدر بعل العادل، وهو زوج شقيقة هانيبال وأحد أهم القادة العسكريين في القوات القرطاجية. أعلن الجنود القرطاجيون رغبتهم بأن يكون هانيبال هو المسؤول عنهم فانتخبوه قائداً لهم، الأمر الذي سرعان ما صادقت عليه قرطاجة بشكل رسمي.

وفعلاً تسلم هانيبال زمام قيادة الجيش القرطاجي وهو لايزال في منتصف العشرينيات من عمره. بادر هانيبال فوراً إلى بسط نفوذه على شبه الجزيرة الأيبيرية، وخلال سنتين فقط تمكن من إخضاع إسبانيا بشكل كامل، الأمر الذي رأته روما خرقاً كبيراً للمعاهدة التي سبق وأُبرمت بينها وبين قرطاجة على إثر خسارة تلك الأخيرة أمام روما في الحرب البونية/البونيقية الأولى. طالبت روما قرطاج تسليمها هانيبال (خارق المعاهدة)، إلا أن روما لم تحصل على مطلبها وبذلك كانت الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب البونية الثانية.

هانيبال ورحلة اجتياز جبال الألب:

كانت خطة هانيبال هذه المرة في الحرب مع روما تقوم على أساس نقل المعركة إلى أراضي العدو بدلاً من انتظار العدو الروماني حتى يأتي قرطاج أو أحد الأراضي التابعة للقرطاجيين. بمعنى آخر، اعتمدت خطة هانيبال على مبدأ مفاجأة العدو. وهنا انطلق هانيبال من إسبانيا على رأس جيش يضم خمسين ألف جندي من المشاة وحوالى تسعة آلاف من الفرسان وأربعين فيلاً حربياً[٣]. عبرت هذه الحملة من إسبانيا إلى فرنسا ومن ثم جبال الألب شديدة البرودة حتى وصلت إلى شمال إيطاليا.

ومن اللافت للنظر استطاعة هانيبال اجتياز هذه الجبال شديدة الوعورة والبرودة مع عشرات الآلاف من الجنود، حيث استطاع أحد القادة العسكريين المعاصرين[٤] المهتمين بدراسة القيادات العسكرية إحصاء ثلاثمئة وخمسين كتاباً تناولت كلها الحديث عن هانيبال وتفاصيل هذه الحملة العسكرية التاريخية.

استمرت عملية اجتياز جبال الألب ستة عشر يوماً عاش أفراد الحملة خلالها صعوبات لا توصف حيث هاجمتهم القبائل المتوحشة، وتاهوا في الطرق المجهولة، وتعرضوا للسقوط من أعالي السفوح الشديدة الانحدار، ناهيك عن حوادث انهيار الجبال الجليدية ووقوعها على الجنود وعشرات المخاطر الأخرى.

عبرت الحملة جبال الألب ووصلت إلى المكان المنشود في أحد السهول الإيطالية المجاورة لنهر البو القريب من مدينة تورين، ولكن بعد أن خسر هانيبال ما يقارب نصف أفرادها الذين قضوا حتفهم خلال هذه الحملة. ووصول هانيبال إلى الأراضي الإيطالية شكل شرارة الانطلاق لمجموعة من حركات التمرد ضد الحكم الروماني والتي لم تتردّد في التحالف مع هانيبال وضم قواتها إلى قواته لمحاربة روما وإسقاط حكمها. نذكر من أمثال هؤلاء الجماعات «الغاليين» (The Gauls) الذين أخضعتهم السلطة الرومانية بالإكراه فوجدوا في شخص هانيبال الحليف المناسب للتخلص من الهيمنة الرومانية.

هانيبال على مشارف روما:

استمر وجود هانيبال على رأس جيشه القرطاجي في إيطاليا خمس عشرة سنة حقق خلالها ثلاثة انتصارات غاية في الأهمية على الجيوش الرومانية. هذه الانتصارات هي معركة تريبيا، ومعركة بحيرة تراسمانيا، ومعركة كاناي المشهورة والتي تعتبر من أهم وأعظم المعارك التي خاضها هانيبال في حياته على

الإطلاق. في معركة كاناي (وأيضاً يقال لها Cannas وهو اسم مكان في إيطاليا قريب جداً من روما) طبق هانيبال خطة غاية في الخطورة وهي الخطة المعروفة بين الأوساط الشعبية باسم «فكي الكماشة». كان عدد جيش هانيبال حوالى الخمسين ألف مقاتل حينها، بينما بلغ تعداد الجيش الروماني تسعة وسبعين ألف مقاتل. وعلى الرغم من تفوق الرومان العددي على جيش هانيبال استطاع هذا الأخير هزيمتهم حيث جعل صفوف الجيش الروماني المتراصة تنحصر داخل شبه حلقة من جيشه الذي أطبق الخناق على الرومان وألحق بهم أكبر الهزائم التي عرفتها روما في تاريخها.

كانت معركة كاناي هي التجسيد الحقيقي لمدى الذكاء والدهاء اللذين يتمتع بهما هانيبال. وبعد خمس عشرة سنة من المعارك الشرسة والمستمرة مع روما، لم يتبقَ لهانيبال إلا ١٦٥ كيلومتراً كي يدخل روما، ولكن قطع الإمدادات عنه وعدم دعمه من قبل مجلس الشيوخ في قرطاجة إضافة إلى الخطة الإستراتيجية التي اتبعها الرومان في نقل المعركة إلى الأراضي القرطاجية، كل هذه الظروف مجتمعةً أجبرت هانيبال أن يعود إلى شمال أفريقيا وحالت دون تمكنه من دخول روما وإسقاط حكمها.

الذي حصل باختصار أن الرومان اتبعوا الإستراتيجية نفسها التي كان قد اتبعها هانيبال خلال بداية حربه على روما. فكما نقل هانيبال الحرب إلى الأراضي الرومانية، لم يجد هؤلاء من وسيلة لهزيمة هانيبال إلا بنقل الحرب أيضاً إلى أراضي أعدائهم القرطاجيين. الأمر الذي أجبر هانيبال أن ينسحب من مواقعه المتقدمة المشرفة على روما ليصد هجمات الرومان على أراضي قرطاج. ولكن للأسف الشديد انكسر القائد الأسطوري هانيبال في معركة زاما (Zama) أمام القائد الروماني العظيم «سكيبيو أفريكانوس» الملقب «بالأفريقي» والذي يمثل هو الآخر قمة الدهاء العسكري لدى روما. وبتلك الهزيمة كانت قد شارفت الحرب البونية الثانية على النهاية والتي كان النصر فيها لصالح الرومان بعد انتصارهم في الحرب البونية الأولى أيضاً.

نهاية القائد الأسطوري:

أمَّا هانيبال فقد تمّ نفيه وعاد إلى أراضي أجداده الفينيقيين وعمل لصالح السلوقيين (وهم امتداد للوجود اليوناني في الأراضي الفينيقية وأساس الإمبراطورية البيزنطية) كمستشار عسكري. وقد كان هانيبال من أول من استخدم تكتيكاً عسكرياً جديداً في الحروب البحرية البيزنطية ضد القوارب

العسكرية البحرية الرومانية حيث كان يضع الأفاعـي والحيات والعقـارب الصحراوية في جرار ويرمي بها إلى القوارب الرومانية فتقوم هـذه الزواحف بلدغ الجنود الرومان وتصنـع حالة مـن الذعر بيـن صفوفهم. وبدورها عملـت الإمبراطوريـة الرومانية جاهدةً للقبض على هانيبال وذلك من أجل استـرداد حقها ورد اعتبارهـا بعد أن كسر ذلك القائد هيبة روما التي لا تقهر.

أما هانيبال ففضل الانتحار على أن يقع أسيراً بين أيـدي الرومان الذين لن يوفروا الفرصـة لإذلاله وإهانته قبـل أن يعدموه. فتجرع هانيبـال السم (الذي يقال بأنه كان يحتفظ به في خاتمه بعد أن مزجه بالنبيذ) ومات القائد الأسطـوري منتحراً، ولاتزال حتى الآن مسألة تحديد المكان الدقيق الذي مات فيه هانيبال أمراً غير قطعي، أهو في سوريـة؟ أم في لبنان؟ أم فـي تركيا؟ ولكن يجمع الكثير من العلماء والمؤرخين على أنه فـي تركيا الحالية في قريـة اسمها ليبيسا (Libyssa/Gebze) وهي على مقربة من استانبول، ذلك أن بعض المصادر تؤكد بأن هانيبال كان قد انتقل في أواخر أيام حياته إلى شمال الأناضول.

مهمـا كان ذلك المـكان الذي مات فيه هانيبال، لا بد لنا أن نذكر أنه وعلى الرغم مـن الحقـد الشديد الـذي كنـه الرومان لهانيبـال إلا أنهـم احترمـوا فيـه ذكاءه ومهاراتـه العسكرية العظيمة. وقد جاء في بعض كتابات المؤرخين الرومان أنفسهم أن هانيبال كان قائـداً شجاعاً لم يكن ليطلب مـن أحد جنـوده أو مساعديه أمـراً ما لم يكـن ليقم هو نفسه به. وكل من درس حياة هانيبال وحربه الطويلة على الرومان يصل بشـكل بديهـي إلى الاعتراف بـأن سقوط روما على يد هانيبال كان وشيكاً ولكن قطع الإمدادات عنه وعدم دعمه من قبل مجلس الشيوخ في قرطاج هما الأمران الأساسيان اللذان كسرا ظهر جيشـ هانيبال وأجبراه على التراجع.

الخاتمـة: إمـا أن نجـد الطريـق أو أننا سنصنعه:

للقائـد هانيبال مقولة مؤثرة جداً قالها حين تعرض لإحدى العقبات الصعبة خلال عبوره جبـال الألب. يقول هانيبال: «إمَّا أن نجد الطريق أو أننـا سنصنعه»، بمعنى إما أننا سنجد حلاً أ وأننا سنصنع الحل بأنفسنا. هـذه المقولة تجسد الإرادة الحديدية التي امتلكهـا هذا القائد الفينيقـي القرطاجي الفائـق الوصف. تلـك الإرادة التي صنعت من هانيبال «القائد الأسطوري» الذي ملأت كتـب الفنـون العسكرية روايـات بطولاته وشروحات تكتيكاته وخططه الإستراتيجية، كما وخلد التاريخ اسمه كأعظم نابغة حربي على وجه الأرض.

الهوامش

١- لاحـظ بـأن اسم هانيبال هو بالأصل اسم مركب (حنه بعل) وحنه: أي حنان أو نعمة وأيضاً عبد أو خادم. أمّا بعل فهو عند الكنعانيين اسم لأحد كبار الآلهة. وبالتالي يكون معنى الاسم خادم الإله أو محبوب الإله. أما اسم هانيبال فهو اللفظ المعاصر «لحنه بعل» وهو الاسم المستخدم بين أوساط المؤرخين وعلماء التاريخ الأوروبيين.

٢- الحـروب البونية/البونيقيـة (Punics) وهـي عبارة عن ثـلاث حروب جرت على فتـرات متقطعة بين الإمبراطوريـة الرومانية الغربية (روما) وقرطـاج (الفينيقية). كان النصر حليف الرومان في هذه الحروب الثلاثـة، الأمـر الذي زاد من أهمية الإمبراطورية الرومانية عالمياً وجعلهـا تبسط سيطرتها بوضوح كقوى كبـرى على غربي البحر المتوسط.أما القائد هانيبال فهو من قاد جيوش قرطاج في الحرب البونية الثانية التي امتدت أحداثها من ٢١٨ إلى ٢٠١ قبل الميلاد. والجدير بالذكر أن هناك بعض المؤرخين الذين يسمون هذه الحروب بين القرطاجيين والرومان بالحروب الفينيقية.ومايلي هو تواريخ الحروب البونية الثلاث:

- الحرب البونية الأولى: ٢٦٤ - ٢٤١ قبل الميلاد.
- الحرب البونية الثانية: ٢١٨ - ٢٠١ قبل الميلاد.
- الحرب البونية الثالثة: ١٤٩ - ١٤٦ قبل الميلاد.

٣- هنـاك خلاف بسيط بين مختلف المصادر والمراجع التي تناولـت الحديث عن حملة هانيبال واجتيازه جبـال الألب. ويتمحـور هذا الخلاف حول العدد الدقيق لجيش هانيبـال. إلا أن الرقم الذي قدمناه في هـذا البحث هو الأكثر دقة ومنطقية لعدد الجنود والخيالـة القرطاجيين. أمّا الفيلة الحربية فهي الأداة التي استخدمها هانيبال من أجل حمل المؤن ونقلها خلال هذه الرحلة الطويلة، إضافة إلى كونها الوسيلة التي استخدمها هانيبال أيضاً أثناء المعارك والتي كانت أشبه بمدرعات عسكرية تبعث بضخامتها ووزنها الكبير الرعب في نفوس الأعداء.

٤- وهـو الكولونيل دودج المهتم بالدراسة عـن القيادات العسكرية قديمها وحديثها وتحليلها من وجهة نظر عسكرية موضوعية.راجع موقعwww. defese-arab. com.

المراجع

الكتب والموسوعات:

- تاريخ هانيبال (القائد الفينيقي الذي أرعب روما)، جاكوب أبوت، دار بيبيلون، جبيل/لبنان، ٢٠٠٦م.
- موجز تاريخ الحضارة (الجزء الأول)، تأليف مجموعة من الدكاترة من أعضاء قسم التاريخ في كلية الآداب- جامعة دمشق، الطبعة الأولى، مطبعة العروبة، ١٩٦٤م.
- تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، الدكتور سيد أحمد علي الناصري، طبعة ثانية ١٩٩١م.
- سقوط الإمبراطورية الرومانية، إدوار جيبون، ترجمة أحمد نجيب هاشم.
- المحاضرات العشر، أنطون سعادة، دار فكر للأبحاث والنشر، لبنان، ٢٠١٠م.

المواقع الإلكترونية:

www. defense-arab. com. (هنيبعل واجتياز جبال الألب)
www. history-world. org (Punics Wars).

دور العقل في الشفاء خلال العصور القديمة

(فكِّر في الخير وسوف يحدث لك. فكِّر في الشر وسوف ينال منك. أنت حصاد ما تفكر فيه طوال اليوم)

هبة الله الغلاييني ❀

منذ فجر التاريخ وعلى مرّ كل العصور، اعتمد الناس في كل الأمم وبشكل غريزي أن في مكان ما هناك تقبع قوة شفاء تعيد وظائف الجسم إلى طبيعتها. وهم يعتقدون أن هذه القوة الغريبة يمكن استدعاؤها تحت ظروف معينة، وإذا تم استدعاؤها بالشكل الصحيح، فإنها سوف تمحي آلام الإنسان. وتاريخ كل الأمم يقدم شهادته التي تساند هذا الاعتقاد.

في العصور الأولى من تاريخ البشرية قيل إن رجال الدين في كل الأمم كانوا هم المسيطرون في الخفاء على القوة المؤثرة على الناس سواء من جانب الخير أو الشر وتلك القوة تشتمل على الشفاء من المرض. وكان هناك افتراض أن الشفاء من المرض مستمد من الله عن طريقهم، وأن الإجراءات وعمليات الشفاء تختلف من مكان لآخر في العالم وأنها أخذت شكل التوسل والتضرع إلى الله من خلال الاحتفالات الدينية المختلفة الأشكال.

على سبيل المثال، في الأديان التي كانت سائدة في العصور القديمة كان المريض يتناول عقاقير ويخضع لإيحاءات التنويم المغناطيسي قبيل النوم ويخبره رجال الدين

❀ مترجمة وباحثة.

أن الشفاء سيتحقق خلال نومه، وكان يتحقق الشفاء بالفعل.

وكان الكهنة في العصور القديمة ينصحون الناس بمزج السحالي مع نبات المر والراتينج والبخور وسحقهم جميعاً معاً تحت ضوء القمر وهو في شكل هلال، وبعد ممارسة تلك الطقوس الغريبة والغامضة كانوا يقومون بالتضرع للآلهة ثم يشربون هذا الخليط الذي قاموا بمزجه ثم يذهبون للنوم، وإذا كان إيمانهم قوياً بما يكفي، فإنهم يحققون الشفاء لأنهم آمنوا بأنهم سيحصلون عليه.

وقد اكتشف القدماء طرقاً عدّة لاستخدام قوة العقل الباطن في العلاج، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعلمون أن هذه الطرق فعالة، إلا أنهم كانوا يستخدمون الإيحاءات القوية للتأثير على العقل الباطن. وقد كانت الأحجبة والمشروبات العلاجية والطقوس المختلفة تلاقي قبول الناس في هذا الوقت وتؤثر على عقولهم الباطنة من خلال الإيحاءات القوية التي يمليها عليهم المعالجون. ولكن الشفاء كان يتم من خلال العقل الباطن للمريض نفسه.

وفي كل العصور حقق المعالجون الذين يستخدمون هذه الطرق نتائج ملحوظة في حالات فشلت فيها المهارة الطبية المرخص بها، وهذا يدفعك إلى التفكير والتساؤل: كيف يؤثر هؤلاء المعالجون الذين ينتشرون في جميع أنحاء العالم في علاجاتهم؟ والتفسير لهذا الشفاء يكمن في الاعتقاد الأعمى للشخص المريض وهذا الاعتقاد يطلق قوة الشفاء الساكنة في العقل الباطن، وكلما زادت غرابة العلاجات التي يستخدمها هؤلاء المعالجون زادت قوتها وأثرها على المرضى حيث إنهم سيعتقدون أن أي شيء بمثل هذه الغرابة من المؤكد أن ينطوي على قوة هائلة مما يضعهم في حالة انفعالية تجعلهم أكثر قابلية للتأثر بالإيحاء بأنهم يتمتعون بالصحة، وقبول هذا الإيحاء من قبل العقل الواعي والعقل الباطن على حد سواء.

بعض الحكم عن قوة العقل الباطن:

أيما كانت الأشياء التي ترغب بها، ضع في اعتقادك وإيمانك عندما تصلي أنك ستحصل عليها، وسوف تحصل عليها.

يخبرنا كاتب الكلمات السابقة شيئاً غاية في الأهمية، وهو أننا إذا آمنا وقبلنا حقيقة كوننا قد حصلنا بالفعل على كل رغباتنا، وأنها قد تتحقق بالفعل فإن إدراكها سيتم بالتأكيد في المستقبل. إن نجاح هذه الوسيلة يعتمد على الإيمان الراسخ والواثق بأن الخواطر والأفكار هي حقيقة فعلية في العقل. ولكي يكون لأي شيء وجود جوهري

في مملكة العقل يتعين الاعتقاد بوجود هذا الشيء فعلياً.

وقد احتوت الكلمات الرمزية السابقة على توجيه محدد ومختصر في مسألة استغلال القوى المبدعة للفكر من خلال ترك انطباع أو أثر على العقل الباطن لشيء معين ترغب فيه أو تتمنى تحقيقه.

إن فكرتك أو خطتك أو هدفك هي شيء واقعي ومحسوس في مكانه (العقل) مثل يدك أو قلبك. وباتباعك لذلك المنهج فأنت تستبعد من عقلك كل الظروف أو الأحوال أو العوائق التي قد تؤدي إلى نتائج سلبية، أي إنك تزرع مفهوماً في عقلك، فإذا أبعدت عنه كل المؤثرات السلبية سوف يجد طريقه إلى عالم الواقع ويصبح حقيقة.

إنَّ الإيمان بالشيء هو الركيزة الأساسية لتحقيقه، فإنك إذا زرعت أنواعاً معينة من البذور في الأرض، فإنها سوف تطرح النوع نفسه. هذه هي طريقة نمو البذور، وبثقتك بقوانين النمو والزراعة، أنت تعرف أن البذور ستنمو وفقاً لنوعها.

فالإيمان بحدوث الشيء يعد طريقة للتفكير وتوجهاً للعقل وثقة في أن الفكرة التي تقبلها كلياً بعقلك الواعي سوف تتجسد في عقلك الباطن وتصبح حقيقة. ونستطيع أن نقول إن الإيمان إلى حد ما، هو التسليم بصحة ما ترفضه حواسك وينكره تفكيرك، وهو ما يقف بمعزل عن عقلك الواعي التحليلي المنطقي، ويعتنق توجهاً يعتمد كلياً على القوة الداخلية لعقلك الباطن.

وأبلغ مثال على قدرة الإيمان المطلق على الشفاء هي معجزة سيدنا عيسى (عليه السلام) في شفاء الأعمى بإذن الله، فقد كان الشفاء يتحقق بفضل إيمان الأعمى وثقته المطلقة في قدرة الله على شفائه من خلال الدعاء والتضرع والإيمان التام باستجابة هذا الدعاء.

فعندما كان يذهب المرضى إلى سيدنا عيسى (عليه السلام) للشفاء، كان يتحقق هذا الشفاء بإذن الله على يده نتيجة لإيمان المرضى بقدرة الله تعالى على الشفاء والاقتناع التام بهذه الحقيقة وثباتها في عقولهم الباطنة.

معجزات في أماكن مختلفة من العالم:

في كل قارة كما في كل بلد هناك الكثير من المناطق والمزارات التي يقصدها الناس للاستشفاء، بعضها مشهور على مستوى العالم والبعض الآخر يعرفه السكان المحليون فقط، وسواء أكان المكان مشهوراً أو مغموراً، فإن عمليات الشفاء التي تتم فيه تحدث بإذن الله وبفضل الاقتناع التام لعقل المريض الباطن بالشفاء.

وقد رأيت في الكثير من مناطق الاستشفاء في العالم نماذج غريبة

لمعتقدات أغرب يؤمن بها الناس ويعتقدون فيهـا كوسائل للشفاء. ففـي اليابان يعتقد الناس أنهم إذا قاموا بطقوس معينة وقدموا القرابين في إحدى دور العبادة فإن الشفاء سيتم، ولكن هذا بالطبع ليس له علاقة وإنما العقل الباطن والإيمان الداخلي بالشفاء مع قدرة الله تعالـى أولاً وأخيراً هي الأسباب الحقيقة التي تؤدي للشفاء.

ولكي أوضح أكثـر قوة الخيال والإيمان الأعمـى، سأروي قصة أحـد أقاربي الذي يعيش في مدينـة «بيرث» في أستراليا وقد أصيـب بمرض السل. فقـد تمكن المرض تماماً مـن رئتيه وقرر ابن هـذا الرجل أن يعالجـه، وحضر هذا الابـن إلى والده في المنطقـة التي يعيشـ فيها فـي أستراليا وأحضر له قـلادة وأخبره أن يرتديها لأنها تحتوي على خواص شفائية سوف تعالجه من المرض الذي يعانيه، وبالفعل ارتدى الرجل القلادة وهـو مؤمن تماماً بأنه سوف يشفى وذهب إلى فراشه وهو يرتديها وأخذ يصلي في صمت حتى غالبـه النعاس، وفي اليوم التالي استيقظ الرجل وقد اختفى المرض من رئتيه وأثبتـت كل التحاليل خلو جسمه من المرض. وقد ظل هذا الرجل على قيد الحياة حتى بلغ ٨٩ عاماً من عمره.

إنَّ الأمـر الجديـر بالذكر هنـا هو أن هناك العديد من الحـالات المرضية التي تشفى بهـذه الطريقـة، والمذهل في هذه القصة هو أن ما قاله الابن لوالده كان قصة اختلقها. وأن القـلادة التي أعطاها لوالده ما هي إلا قطعة من الخشب أخذها لصائغ حلي وضع حولها إطاراً من الذهب. وبالطبع كان سبـب شفاء الرجل هو قدرة الله تعالى مع إيمـان الرجل وتوقعـه لتحقيق الشفاء وكل هـذا انطبع في عقله الباطن مما جعل الشفـاء حقيقة. ولم يعلم الأب بحقيقة أمر هـذه القلادة والقصة المختلفة فلو كان قد علم كان من الممكـن أن يصاب بانتكاسة. ولم يعاوده السل مرة أخرى وعاش حتى سن التاسعة والثمانين وتوفي إثر أسباب مرضية أخرى.

اعلم أن الإيمان أشبه ببذرة غرست في الأرض؛ وهي ستنمـو حسب نوعها. اغرس الفكرة (البذرة) داخل عقلك. واروها وغذها بالأمـل. وسوف تنمو وتزدهر لا محالة. كن مهندساً عقلياً واستخـدم الطرق المجربة فـي بناء حياة أعظم وأفضل. تعلم أن تدعو لأحبائـك المرضى. أسكـت عقلك وسوف تحسن أفكارك خاصـة فيما يتعلق بالشفاء والرخـاء والمثاليـة وستبثهـا داخل عقل أحبائك من خلال العقل الكوني الذاتي.

قاعدة واحدة عامة للشفاء:

هناك حقيقة معروفة جيداً. وهي أن كل المدارس العلاجية توصلـت إلى علاجات موثقة لأمراض كان الأمل في شفائها ضئيلاً.

والنتيجة الواضحة التي يتوصل إليها عقلك هي وجود قاعدة واضحة مشتركة بين هذه المدارس. وهناك قاعدة بالفعل، وهي قوة العقل الباطن والإيمان المطلق بالشفاء.

فكر بعمق في الحقائق الأساسية التالية:

• إنك تمتلك وظائف عقلية والتي يتم تمييزها وتحديدها من خلال مهمتي العقل الواعي والعقل الباطن.

• إنَّ عقلك الباطن يخضع باستمرار لقوة الإيحاء.

• لعقلك الباطن سيطرة كاملة على وظائف وأحاسيس وأحوال جسدك.

إنني أجازف بالاعتقاد أن جميع قراء هذا المقال يعلمون حقيقة أن أعراض أي مرض يمكن أن تظهر على أي شخص في حالة تنويم مغناطيسي بوساطة الإيحاء. فمثلاً قد يتعرض شخص في حالة تنويم مغناطيسي إلى الارتفاع في درجة حرارة جسده أو قد تصيبه قشعريرة برد شديد وذلك وفقاً لطبيعة الإيحاء الموجه إليه من الشخص الذي يمارس عملية التنويم. ويمكنك أن توحي للشخص الخاضع للتنويم أنه مصاب بالشلل ولا يمكنه الحركة وسيحدث هذا فعلاً. ويمكنك أن تضع كوباً من الماء البارد تحت أنف الشخص الخاضع للتنويم وتخبره أن هذا الكوب يحتوي على الفلفل الأسود وتجعله يستنشقه، وسيبدأ في العطس بشدة، فما السبب الذي جعله يعطس في اعتقادك، هل هو الماء أم الإيحاء؟

إذا كان هناك شخص مصاب بحساسية من أنواع معينة من العطور. وبإمكانك أن تضع زجاجة فارغة أمام أنفه وهو في حالة تنويم مغناطيسي وتخبره بأن بها هذا العطر ففي هذه الحالة سوف تظهر عليه الأعراض المعتادة للحساسية، وهذا يشير إلى أن سبب المرض يكمن في العقل الباطن. وفيه أيضاً يكمن الشفاء. إن المدارس الطبية المختلفة، كالعلاج بتقويم العظام والمعالجة اليدوية والـ «تشي كونج» والإبر الصينية والعلاج بالطبيعة كلها تؤدي إلى نتائج مذهلة في عملية الشفاء. هذا إضافة إلى العلاج الروحاني الذي تتم ممارسته في جميع أنحاء العالم. ومن الواضح أن الشفاء في هذه الحالات يتم عبر قوة الإيحاء التي يتم توجيهها إلى العقل الباطن. لاحظ كيف أن العقل الباطن يشفي جرحاً في وجهك حدث خلال حلاقة ذقنك، إنه يعرف جيداً كيف يفعل ذلك، فالطبيب يضمد الجرح وهو يقول: «الطبيعة ستشفيه!» وكلمة الطبيعة تشير إلى قانون الطبيعة. قانون العقل الباطن أو حفظ الذات والتي هي وظيفة العقل الباطن. إن غريزة حفظ الذات هي القانون الأول للطبيعة وأقوى غرائزك وأكثرها فاعلية هو الإيحاء الذاتي.

نظريات مختلفة إلى حد بعيد:

قد يكون من غير المفيد مناقشة مدى تقديم النظريات العديدة من خلال الطوائف الدينية المختلفة وجماعات العلاج بوساطة التضرع والصلاة. وهناك عدد كبير ممن يدعون أن نظرياتهم هي الصحيحة لأنها هي التي تحقق النتائج المطلوبة، وهذا غير صحيح. إنك على علم بأن هناك أنواعاً متعددة من وسائل العلاج. اكتشف طبيب نمساوي يدعى «فرانو أنتون ميسمر» (١٧٣٤-١٨١٥م) كان يعمل في باريس، أنه من خلال وضع المغناطيس على جسد المريض فإنه يشفي من المرض بشكل يصل إلى حد الإعجاز. وقام الطبيب نفسه بممارسة العلاج باستخدام قطع من الزجاج والمعادن المختلفة. ولم يستمر هذا الطبيب في استخدام هذا الشكل من العلاج، حيث انتقل إلى وسيلة أخرى يقوم فيها باستخدام يديه فقط من خلال تمريرها على جسد المريض. وقد ادعى أن السبب الحقيقي وراء فعالية هذه العلاجات هو ما يطلق عليه اسم«المغناطيسية الحيوانية». فقد ادعى أن هناك مادة مغناطيسية غامضة تنتقل من يد المعالج إلى جسد المريض. وطريقة هذا الطبيب في علاج الأمراض منذ ذلك الحين هي استخدام التنويم المغناطيسي والتي سميت في عصره بـ«الميسمرية». وقال أطباء آخرون بدافع الغيرة إن علاجاته تعتمد على الإيحاء ولا شيء آخر وعندما تم الضغط على هؤلاء الأطباء المشككين اعترفوا بأنهم لم يعلموا كيف توجد تلك القوة الهائلة للإيحاء هذه النتائج المذهلة.

كل هذه المجموعات مثل أطباء النفس وعلماء النفس والأطباء البشريين والمعالجين بالطرق الأخرى يستخدمون القوة الشاملة الكامنة في العقل الباطن. وكل مجموعة تزعم أن الشفاء يرجع إلى نظريتها الخاصة. ولكن الحقيقة أمر مختلف تماماً. إن عملية الشفاء التام محددة وإيجابية ولها توجه عقلي وتوجه داخلي أو طريقة تفكير تسمى الإيمان. إن الشفاء يرجع إلى التوقع الواثق الذي يقوم بدور الإيحاء القوي للعقل الباطن لإطلاق قوة الشفاء الكامنة داخله.

إنَّ طريقة شخص ما في العلاج قد تختلف عن أي شخص آخر، وقد يكون لكل شخص نظرياته وأساليبه الخاصة، ولكن هناك عملية واحدة فقط للشفاء وأعني بها الإيمان. هناك قوة واحدة للشفاء اسمها عقلك الباطن، اختر النظرية والطريقة التي تفضلها. وثق أنك سوف تحصل على النتائج التي ترجوها إذا تحليت بالثقة والإيمان.

نظريات وآراء «باراسيلسوس»:

كان «فيليبوس بارا سيلسوس» طبيباً سويسرياً مشهوراً وكان يعمل في الكيمياء السحرية القديمة. عاش من ١٤٩٣م إلى ١٥٤١م. وكان من أعظم المعالجين في

عصره. وهو الذي أعلن ما يقال عنه الآن حقيقة علمية عندما قال الكلمات التالية: «سواء أكان الباعث والدافع لإيمانك حقيقياً أو مزيفاً. فإنك على الرغم من ذلك سوف تحصل على النتائج نفسها. فالإيمان يحقق المعجزات وسواء أكان هذا الإيمان صادقاً أو مزيفاً، فإنه دائماً يحدث المعجزات نفسها».

إنَّ أفكار «باراسيلسوس» ظهرت في القرن السادس عشر على يد «بيترو بومبنازي» وهو فيلسوف إيطالي وهو الذي قال:

«يمكن لنا أن نتخيل ونفهم بسهولة الآثار والنتائج العجيبة التي تحدثها الثقة والتخيل. خاصة عندما تكون كلتا الصفتين متبادلة بين الشخص الخاضع للتأثير والشخص الذي يتسبب في إحداثها. إنَّ الوسائل الغريبة التي يدعي بعض المعالجين أنها سبب الشفاء مثل زيارة أحد القبور ما هي إلا أكاذيب لا يتم من خلالها الشفاء. وإنما يتم الشفاء من خلال الإيمان والثقة المطلقة في تحقيق الشفاء».

إنك إذا اعتقدت بقوة الشفاء الكامنة في نوع معين من العلاجات غير التقليدية، فإنك تحصل على النتائج بسبب قوة الافتراض والإيحاء اللذين دخلا عقلك الباطن. فإنه هو الذي ينفذ عملية الشفاء.

تجارب «بيرنهايم»:

كان «هيبوليت بيرنهايم» أستاذاً في الطب بجامعة «نانسي» في فرنسا في أوائل القرن العشرين، وهو أول من شرح كيف يؤثر إيحاء الطبيب على المريض من خلال قوة العقل الباطن.

وفي أحد كتبه حكى «بيرنهايم» قصة رجل كان مصاباً بشلل في اللسان ولم ينفع معه أي شكل من أشكال العلاج، وقد أعلن طبيبه في أحد الأيام أنه اكتشف يمكن من خلالها شفاؤه من المرض، ووضع الطبيب ترمومتراً طبياً صغيراً في فم المريض، وتخيل المريض أن هذا الترمومتر هو الآلة التي ستنقذه وخلال لحظات انطلقت صرخة فرح بعدما تحرك لسانه مرة أخرى.

ويحكي «بيرنهايم» القصة التالية:

«حضرت إلي فتاة صغيرة وهي تعاني من فقد تام للقدرة على الكلام لمدة أربعة أسابيع تقريباً. وبعد التأكد من التشخيص أخبرتها أن حالة فقدان القدرة على الكلام تحدث أحياناً ويمكن علاجها بالكهرباء. ثم أرسلت في طلب المحث الكهربائي (وهو جهاز يحدث تأثيراً كهربائياً على الأجسام) ومررت بيدي فوق الحنجرة وحركتها قليلاً وقلت: «الآن تستطيعين التحدث بصوت عال، وفي لحظة جعلتها تنطق حرف «أ» ثم حرف «ب» ثم اسم «ماريا» واستمرت في التحدث بوضوح وقد استعادت قدرتها على الكلام».

هنا يظهر «بيرنهايم» قوة الإيمان والتوقع لدى المريضة والتي عملت كإيحاء قوة للعقل الباطن.

استئصال قرحة بوساطة الإيحاء:

يقول الطبيب «بيرنهايم» إنه تمكن من استئصال قرحة من خلف عنق مريض بوضع طابع بريدي عليها وتوجيه إيحاء إلى المريض بأن الطابع هو لزقة طبية. وقد أثبتت ذلك التجارب التي قام بها العديد من الأطباء في مناطق عدَّة من العالم والتي لم تترك مجالاً للشك في أن التغييرات التركيبية هي نتيجة ممكنة للإيحاء الشفوي الموجه إلى المريض.

سبب الندبة الدموية:

يمكن أن يتم إحداث نزيف أو ندبات دموية في جسد أي شخص بوساطة قوة الإيحاء. ولكي يتم إثبات تلك الحقيقة، وضع دكتور «إم بورو» شخصاً تحت التنويم المغناطيسي ووجه إليه الإيحاء التالي:

«الساعة الرابعة بعد الظهر سوف تحضر إلى غرفة مكتبي وتجلس على الكرسي وتعقد ذراعيك فوق صدرك وسيبدأ أنفك في النزيف».

وفي الوقت المحدد، فعل هذا الشخص ما تم الإيحاء به. فعندما عقد ذراعيه فوق صدره نزلت نقاط الدم من فتحة أنفه اليسرى. وفي حالة أخرى قام الباحث نفسه بكتابة اسم المريض على ساعديه بآلة غير حادة عندما كان المريض في حالة التنويم المغناطيسي، قال له«بورو»: «في الساعة الرابعة بعد الظهر، ستذهب كي تنام، وسوف تنزف ذراعاك على طول خطوط اسمك التي رسمتها. وعندئذ سيظهر اسمك مكتوباً على ذراعيك بحروف من دم».

ثم وضع المريض تحت الملاحظة وبالفعل ذهب إلى الفراش في الساعة الرابعة، وعلى ذراعه اليسرى برزت الحروف بشكل واضح وفي أماكن عدَّة كانت هناك قطرات دم. وبعد ثلاثة شهور بهت لون الحروف ولكنها ظلت مرئية. وتبين هذه الحقائق صحة الافتراضين الأساسيين اللذين تم إقرارهما مسبقاً وهما: انقيادية العقل الباطن بشكل ثابت لقوة الإيحاء والسيطرة الكاملة التي يمارسها العقل الباطن على الوظائف والأحاسيس وأحوال الجسد. إن كل الظواهر السابقة تعبر بصورة حية عن أحوال غير طبيعية أحدثها الإيحاء وهي دليل حاسم على أن ما يصل من تفكير واعتقاد إلى عقل الإنسان الباطن هو ما يظهر في سلوكه وتصرفاته.

مراجعة عامة لنقاط الشفاء:

١- ذكر نفسك دائماً أن قوة الشفاء تكمن في عقلك الباطن.

٢- اعلم أن الإيمان يشبه البذرة المزروعة في الأرض، فإنها تنمو وفقاً لنوعها. عليك أن تزرع الفكرة (البذرة) في

عقلك، وتسقيهـا وتخصبها بالتوقع وسوف تظهر وتخرج إلى حيز الوجود.

٣- إنَّ الفكـرة التـي تمتلكهـا من أجل تأليـف كتـاب أو اختراع جديـد هي شيء واقعي في عقلك، وهذا ما يدعوك أن تعتقد أنك تمتلكهـا الآن. فعليك أن تؤمن بواقعية وحقيقة فكرتـك أو خطتـك أو اختراعك ونتيجة لذلـك سوف تصبح هـذه الأشياء شيئاً ملموساً في عالم الواقع.

٤- فـي دعائك وتضرعك وصلاتك من أجل الآخرين، اعلم أن ضميرك الذي يعرف الجمال والكمـال يستطيع أن يغير الأنماط السلبية فـي العقل الباطن لـدى الآخرين ويحقق في ذلك نتائج باهرة.

٥- إنَّ عمليـات الشفـاء التـي تتم في مناطق مختلفـة من العالـم بأساليب غير تقليدية ترجع إلـى الإيمان الصادق والثقة العميـاء اللذين يعملان فـي عقلك الباطن ويطلقان العنان لقوة الشفاء.

٦- إنَّ كل الأمراض تنشـأ فـي العقل ولايظهر شـيء على الجسـم إذا لم يوجد نمط أو شكل عقلي يتوافق معها.

٧- إنَّ أعراض أي مرض تقريبـاً يمكن إحداثه فيك بوساطـة إيحاء التنويم المغناطيسـي. وهذا يبيـن لك قوة وهيمنة تفكيرك.

٨- هناك عملية واحدة يتم من خلالها الشفاء ألا وهي الإيمان. وهناك قوة واحدة للشفاء. وأعني بها عقلك الباطن.

٩- سـواء أكان الشـيء الـذي تؤمن به حقيقياً أو غير ذلـك، فإنك ستحصل على النتائج. فإن عقلك الباطن يستجيب للفكرة التي في عقلك الواعي. ضع الإيمان والثقة كفكرة في عقلك وسيفي ذلك بالغرض.

إنَّ الشعـور بالصحـة يخلـق الصحـة؛ والشعور بالثراء يخلق الثراء كيف تشعر الآن.

ملخص للعوامل المساعدة على الصحة:

١- لاكتشاف الشيء الذي يشفيك عليك أن تـدرك أن الإشارات الصحيحة الموجهة إلى عقلـك الباطن سـوف تشفي جسدك وعقلك.

٢- فكر في خطة محددة لنقل رغباتك وطلباتك إلى عقلك الباطن.

٣- تخيـل أقصى رغبة لديـك واشعر بأنها تحققـت، وتتبعها وسوف تحصل على نتائج أكيدة.

٤- حـدد معنـى الإيمـان أو الاعتقاد، واعلم أنه فكرة في عقلك الواعي وما تفكر فيه سيبرز للوجود.

٥- مـن الحمق أن تفكر فـي مرض أو شـيء يضرك. فكـر في الصحـة الكاملة والرفاهية والسكينة والثروة.

٦- إنَّ الأفـكار النبيلـة والعظيمة التي تعتاد التفكير فيها تصبح أفعالاً عظيمة.

٧- طبق قوة العلاج بالصلاة في حياتك. اختر خطة معينـة أو فكرة أو صورة ذهنية

وارتبط بهـا عاطفياً وذهنياً، وطالما ظللت ثابتـاً في توجهك العقلـي. سوف يستجاب لصلاتك.

٨- تذكـر دائماً،إذا كنت تريد قوة الشفاء بحق. فإنك تستطيع أن تحصل عليها من خلال الإيمـان. وهذا يعني أن تـدرك عمل عقلك الواعي والباطن، فالإيمان يأتي بالفهم.

٩- الإيمـان المطلـق هـو أن يحصل الشخصـ على الشفـاء دون فهـم القوى العلمية المتضمنة في ذلك.

١٠- تعلم أن تصلي من أجل من تحبهم عندما يمرضون. اجعل ذهنك صافياً واملأه بأفكار الصحة والنشاط والكمال وكن مؤمناً بتحقيـق الشفاء وسـوف يتجسد ذلك في جسد من تحب.

إنك تتحاشـى النزاع بين عقلك الواعي وعقلك الباطن في حالة النوم. تخيل إشباع رغباتك مرة بعد مرة قبل النوم نم في أمان واستيقظ في بهجة.

المراجع:

- العقـل الباطن: قوة خارقة كامنة في أعماقك: كيف تجعل عقلك الباطن يعمل المعجزات بتوجهيك، أحمد توفيق حجازي، عمان، دار كنوز المعرفة، ٢٠٠٧م.
- العقل بين التاريخ والوحي، محمد المزوغي، كولونيا، منشورات الحمل، ٢٠٠٧م.
- عقـل جديد لعالم جديد: كيف نغير طريقـة تفكيرنا لنحمي مستقبلنا، رويـرت أورنشتاين، ترجمة أحمد مستجير، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٤م.
- العقل البشري: تأليف جون فايفر، ترجمة م. عيسى، القاهرة (مصر)، مكتبة النهضة المصرية.
- العقل الباطن: يستطيع كل شيء، جون كيهو، ترجمة عمار المير أحمد، دمشق، سورية، دار علاء الدين.
- العقل الباطن أو مكنونات النفس: يبحث في النفس البشرية، سلامة موسى، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٨م.
- العقـل الباطـن: نبع الطاقة التـي لا حدود لها، إرهـادن. فريتاج، مقدمة بقلم جوزيـف ميرفي، الرياض (السعودية)، مكتبة جرير.

الطب الشرعي والكشف عن الجرائم

ترجمة: محمد الدنيا ❁

تعيين هوية الضحية وتحديد أسباب وظروف وساعة وفاتها هو مهمة الطب الشرعي. وليتمكن من ذلك، لديه أدوات كثيرة، من التصوير الطبي حتى... الذباب.

الجثة غنية بالمعطيات: وضعية الجسم، والجروح، وتحليلات الأحشاء، والأسنان، وأية علامة مميزة أخرى... وانطلاقاً من مثل هذه العناصر يتوصل الطبيب الشرعي إلى استنتاج هوية الضحية، ووقت وفاتها، وظروف الموت



(برنار مارك يحضر جثة في حجرة الموتى بمركز مارن -لا- فاليه الاستشفائي)

❁ كاتب ومترجم.

واحتمالاً سلاح الجريمة، شرط أن يكون منهجياً. «تجري المرحلة الأولى من العمل ثنائياً مع تقنيٍّ من الشرطة العلمية.

ودورنا بعد وصولنا إلى ساحة الجريمة هو القيام بفحص أولي، وجيز أحياناً، بل أيضاً فهم ظروف الوفاة وتوجيه البحث عن أدلة. وإذا ما وجدت كميات كبيرة من الأدوية في ساحة الجريمة، يوجه الطبيب الشرعي الفحوص السمومية بهذا الاتجاه. أما إذا كان الأمر يتعلق بحادث سير، فإن تحليله للمكان يتيح له تقديم معلومات أولية حول مسارات المركبات الضالعة»، يوضح «برنار مارك» Bernard Marc رئيس قسم الإسعافات الطبية – القضائية في مركز «مارن – لا – فاليه» الاستشفائي في فرنسا.

في بعض الظروف، يمكن للطبيب الشرعي أيضاً أن يحدد ما إذا كانت الجثة قد نقلت من مكانها وذلك من خلال علامات ركود الدوران hypostases (أو الزُّرقة الجثية). في الواقع، بعد توقف القلب، يتوقف الدم عن الدوران. ويتراكم بنتيجة الجاذبية ويركد في الأقسام الخفيضة، مضفياً عليها لوناً مائلاً إلى الحمرة. ذلك باستثناء المناطق المضغوطة التي تبقى بيضاء. وإذا ما ظهرت علامات أو أشكال أخرى، فذاك يعني أن الجثة قد نقلت من مكانها. تظهر هذه العلامات بعد ست ساعات من الوفاة وتصبح ثابتة بين أربع وعشرين وثمان وأربعين ساعة.

إعادة تكوين بثلاثة أبعاد

بعد هذه المرحلة الأولى، المسماة «سحب معلومات الجثة»، يجري فحص أكمل من خلال أحد التطورات التقانية الأهم في الطب الشرعي في القرن العشرين: التصوير التالي للوفاة أو تشريح الجثة الافتراضي virtopsie. تتيح هذه التقانة استنشاء جثة الضحية بثلاثة أبعاد بوساطة التصوير الطبي، أي مِفراس في معظم الأحيان. ويرى «برنار مارك» أن هذه التقانة أحدثت في الطب الشرعي ثورة لا تقل أهمية عن اختبارات الـ «دنا» لثمانينيات القرن الماضي: «تتيح أولاً الحصول على صورة دقيقة جدّاً للجثة قبل أن تخضع لعملية فتح الجثة. بذلك يمكننا الحفاظ على الأدلة».

يمكن أن يكشف التشريح الافتراضي أيضاً عن أذيات قد لا تلاحظ بعملية فتح الجثة. «منها مثلاً، استدارات العمود الفقري الرقبية في حالة الخنق، أو الانصمامات الغازيّة: هذه الجيوب الهوائية التي تتشكل في الأوعية (خلال

حوادث تخفيف الضغط لدى الغطاسين أو الحوادث الجراحية) والتي تزول حالما تفتح الجثة»، يوضح «برنار مارك». في التصوير الطبي، يمكن أن تتوضح مواضع قِطع المقذوفات الصغيرة جداً بشكل دقيق للغاية، مما يسهل استخراجها خلال فتح الجثة. والميزة الثمينة الأخرى هي أن «الصور ممكنة القراءة والرؤية حتى بالنسبة لغير الاحترافيين كمحققي الملف القضائيين»، يضيف الطبيب الشرعي.

تأتي أخيراً مرحلة فتح الجثة. بعد فحص دقيق للأذيات الخارجية المحتملة ومناطق التناسل وجوارها (للكشف عن اعتداء جنسي محتمل)، تنتقل الجثة إلى المشرط الدقيق. يحدث الطبيب الشرعي شقاً طويلاً وعميقاً من الذقن حتى العانة ثم تقطيعات للجوانب ليتمكن من الوصول إلى مختلف أعضاء القفص الصدري وتجويف البطن. تستخرج هذه الأعضاء من الجثة عندئذ وتوزن وتشرح للكشف عن إمكان وجود مرض ما. يخضع الدماغ هو أيضاً لفحص الطبيب الشرعي الذي يستأصله من الجمجمة بمنشار دوار. تؤخذ أيضاً عينات أخرى: بقايا مقذوفات محتملة في حالة الجروح الناجمة عن أسلحة نارية طبعاً، وعينات دم ونطاف في حالة الاغتصاب أو أيضاً محتويات من الجهاز الهضمي لتحديد طبيعة (إن لم نقل وقت) آخر وجبة أو تناولٍ محتمل لكحول أو أدوية. وحالما تكشف أسرارُها، تعاد الأعضاء إلى أماكنها الأصلية وتخاط أماكن البضع.

هذا بالنسبة للإجراءات.

ولكن ما هي المعلومات التي تتيح هذه المراحل الحصول عليها؟ كيف تساعد الشرطة القضائية في تحديد سيناريو حادث قتل وإلقاء القبض على المشتبه فيه احتمالاً؟ يتيح عمل الطبيب الشرعي الحصول على ثلاثة أنواع من المعلومات: تعيين هوية الضحية، وأسباب وظروف موتها، وساعة وفاتها. ثلاثة معلّمات متباينة الأهمية وفقاً للحالات. «حين تتحطم طائرة مثلاً، يكون سبب الوفاة لا لبس فيه، لكن وجود جثث عدة، في حالة سيئة جداً غالباً، يصبح تعيين الهوية عنصراً أساسياً»، يجيب «برنار مارك».

وشوم وندبات فعالة

فيما يتعلق بتعيين هوية الضحية، إذا كانت الجثة في حالة جيدة، أو بعبارة أخرى إذا لم تكن محروقة وكانت الوفاة حديثة،

فإن وزنها وطولها ولـون شعرها ونمطها العرقـي أو أيضاً وجود وشوم عليها يمكن أن تقارن بمواصفـات أشخاص مفقودين حديثـاً. «يتيـح التصويـر الطبـي أيضاً الكشـف عن ندبات العمليـات الجراحية وندبـات العظـام المكسـورة والملتئمة وبـدلات الورك والناظمـات والعديد من الأشياء الأخرى التي يمكن مقارنتها بحالة ما قبل تاريخ وفاة الشخص المفقود، بما في ذلك الجثث التي تعرضت لتلف كبير»، يوضح الطبيب الشرعي.

إلا أنَّ طـب الأسنـان الشرعي، الذي يعتمد على مجموع أسنان الضحية، وكذلك تحليل الـ «دنا»، الذي يفيد في تعيين هوية الضحايا والمشتبـه فيهم على حد سواء، يبقيـان التقنيتين الأبـرز لتعيين الهوية. وهنـاك شيء مهم جداً: أيـاً كانت الأدلة المستخدمة، فإنَّه يجب أن تتوافر عناصر للمقارنة، وإلا بقي الـ«دنا» صامتاً.

في حالات أخرى، تكون هوية الضحية معروفـة، غير أن ما يبحـث عنه الطبيب الشرعي هنـا هو سبب الوفـاة. يفحص من أجل ذلـك جروح الضحيـة، ويجري تحليلات سمومية لمعرفـة إن كان يوجد تسمم، أو انتحـار، أو حادث سير بنتيجة تعاطي كحول أو مخدر. يسعى إلى معرفة إن كان الموت طبيعياً أم لا، مقتفياً مثلاً أثر علامات مرضية. «يمكن أن يتمخض موت «طبيعي» بنتيجة نـزف معدي عن مشهد وفاة عنيف بوجـود كثير من الدماء حول الضحية مما يثير الاعتقاد بوجود جريمة قتل. وعلى العكس، يمكن أن يتخفى القتل في مظاهر انتحار أو موت فجائي، يشرح «برنار مارك»».

يبقى تحديد ساعة الوفاة. وتلك معلومة حاسمة بالنسبة للمحققيـن، لكنها شاقة التقدير جداً بالنسبـة للطبيب الشرعي. «حرارة الجثة هـي المعلومة الأفضل في هـذا الميدان، ولكن بمـا أن الجثة تفقد درجة واحدة من الحـرارة كل ساعة فإنه لا يمكـن الحصول علـى توقيت دقيق إلا عند وصولها إلـى درجة حرارة المحيط، أي خلال اثنتي عشـرة إلى أربع وعشرين سـاعـة بعـد الوفاة. مع ذلـك، تبقى هذه الدقة نسبية جداً إذ يمكن أن تبترد الجثة بهذه السرعة أو تلك وفقاً للرطوبة، ووجود أو عدم وجـود حرارة في الجوار، وحسب الثياب التي ترتديها الضحية أيضاً، يقول «برنار مارك»».

تصلب الجثة دليـل آخر، إذ إنه يظهر بعد الوفاة بست ساعات تقريباً ويزول بعد يوميـن. وبعد ثمان وأربعيـن ساعة، تبدأ عمليـات التفسخ بالظهـور، وتتوافق هذه الحالة وتلـف الأنسجة بفعـل الأنزيمات

والبكتيريا التي تفحص وتقارَن بالوصوف التي وضعها الطبيب الشرعي، بالنسبة لكل نوع مناخي أقاليمي. إن التحولات الجثية التالية للموت في المناخ المعتدل مختلفة في الواقع عن تلك الملاحظة في المناطق الحارة والرطبة. أخيراً، للحصول على تفاصيل أوسع، يستعين الأطباء الشرعيون بحشرات وقراديات رِمِّية التغذي!

حشرات رِمّية التغذّي

رِمِّيات التغذي هذه هي في الواقع كائنات حية أو عضيات صغيرة تجتذبها رائحة الجثة وتستوطن فيها شيئاً فشيئاً، منها نوع آكل للجلد dermeste تجتذبه الدهون الزنخة. ومن هنا يكون مجيئها إلى الجثة خلال الأسابيع الأولى من الوفاة. منها أيضاً الحفّار tyroglyphe وهو من القراديات التي يصل طولها إلى 1ملم، ويظهر في وقت لاحق بعد أن تجف الجثة. لكن أفضل دليل للشرطة العلمية هنا هو الذباب. ففي الدقائق التالية للموت، يكون الذباب الأزرق Calliphora والذباب الأخضر Lucilia هناك في المكان. لماذا؟ كي تضع بيضها، حيث تتغذى اليرقات على الجثة حال تفقيسها، ويشكل وجودها المبكر كثيراً أو قليلاً دليلاً ثميناً بالنسبة لتقدير فترة ما بعد الوفاة. «يعاين الطبيب الشرعي هذه السرقات. ويثبت نصفها في الكحول للحفاظ على أثرٍ مما وجد على الجثة لحظة اكتشافها ويُبقي على النصف الآخر حياً لتربيته. تتيح هذه التربية تحديد نوع الذباب والوقت الذي انقضى منذ وضع البيض – مع أخذ الحرارة الخارجية التي سبقت اكتشاف الجثة بعين الاعتبار –، ويستحيل قياس هاتين المعلمتين عندما تكون الحشرات بعد في طور السرفة»، وفقاً لعبارة «داميان شارابيدز Damien Charabidze»، مدير مختبر علم الحشرات القانوني في المعهد الطبي – الشرعي في مدينة «ليل» الفرنسية.

إلا أن علم الحشرات القانوني يمكنه وحسب أن يعطي معلومة تاريخ وضع البيض بدقة تقارب 24 ساعة تزيد أو تنقص. ويعني ذلك، على الأكثر، أن الشخص كان ميتاً في هذا التاريخ. ينبغي بعد ذلك تحديد ما هو الوقت الذي استغرقه الذباب حتى وصل. وهنا تزداد الأمور تعقيداً. «الحالة الأبسط هي تلك التي تكتشف فيها الجثة في الخارج، صيفاً. هنا، يصل الذباب فوراً. ولكن إذا كان هناك مطر وقت الوفاة، وكان الطقس بارداً، ليلاً مع وجود رياح، تغدو الأمور أقل

بساطة...»، يوضح «داميان شارابيدز». في الطب الشرعي، يتعلق كل شيء بالتفاصيل دائماً.

دراسة الأسنان

تتعرض الجثة بنتيجة حريق أو تحطم طائرة، أو ببساطة حين اكتشافها بشكل متأخر، لتلف أو تشوه كبير أو ربما تكون قد أصبحت مجرد هيكل عظمي، لكن ذلك لا يعني أن الطبيب الشرعي يكون قد فقد كل الأدلة والمعلمات المتعلقة بالضحية. يمكنه في مثل هذه الأحوال أن يستعين بزملائه علماء البشريات أو علماء الأسنان. الأولون اختصاصيون في دراسة العظام، ويمكنهم من خلال الهيكل العظمي وحده أن يحددوا جنسها، ونمطها الأثني وعمرها وطولها، أو ما إذا كانت كاملة على الأقل. عندما لا يكون الحال كذلك، تتعقد الأمور. أمَّا تحديد الجنس، فإنَّ شكل الحوض، المختلف لدى الرجل عنه لدى المرأة، هو الذي يعطي المعلومة الأفضل. وبخصوص طول قامة الضحية، لا يستطيع عالم البشريات أن يحددها بدقة إلا إذا حصل على عظم طويل، كعظم الفخذ.

بالمقابل، النمط الأثني سهل التعيين، حين وجود جمجمة. وهكذا، غالباً ما تنطوي الجماجم أفريقية الأصل على فتحة أنفية أوسع بينما الآسيوية أخفض وشكلها أكثر تسطحاً. وبفضل البرمجيات وإعادة تكوين الوجوه، يستطيع علماء البشريات أن يرسموا صوراً روبوتية للضحية. ومقارنتها بذلك مع وجوه المفقودين. ولكن تبقى الأسنان هي الأكثر إعطاء للمعلومات حول الضحية. لا تستطيع النار ولا الزمن إفناءها، وبفضلها عملياً يتم تحديد قسم كبير من حالات تعيين الهوية القانوني. وقد شهدت هذه التقنية تطوراً كبيراً في الآونة الأخيرة بنتيجة استخدام التصوير الطبي ثلاثي الأبعاد.

دراسة انحلال الجثث

«في نهاية الأسبوع الأول تمددت الجثة، بينما استهلكت البكتيريا المعدة والأمعاء، وانتفخ البطن كالبالون بنتيجة الغازات المتولدة عن الكائنات الميكروبية. في الوقت نفسه، تحولت البشرة إلى اللون الكستنائي الغامق. وذابت النسج الشحمية تحت الجلد مضفية على الجثة بريقاً لامعاً»، هكذا وصف عالم البشريات والطبيب الشرعي الأميركي «وليام باس»

William Bass سيـــرورة انحـــلال جثة متروكة في الهواء الطلق.

كان وصفه ثمرة ملاحظات أنجزها في مركز أبحاثه المسمى Anthropological Research Facility على جثث مرتدية وعارية، تحت الشمس وفي الظل، في الماء وعلى البر، في الصيف وفي الشتاء، داخل أكياس أو في عربات وأحياناً مقطعة أو متفحمة، بهدف مساعدة الشرطة في تحديد ساعة الوفاة بدقة عبر تزويدهم بمعطيات ملموسة خصوصاً حول الفترة التالية للموت عند عثورها على جثة متعفنة في مكان ما.

❁ ❁ ❁

المصدر:

Science & Vie, no 263, juin 2013.

(عدد فصلي خاص حول الجرائم)

الإشعاع الكوني الخلفي

❀
م.فايز فوق العادة

يتصور العلماء المعاصرون أن الكون بدأ بانفجار أولي كبير، وأنه كان أكثر حرارة وكثافة فيما مضى. هل خلص العلماء إلى دليل رصدي لهذه الحالة الفيزيائية المفترضة الموغلة في القدم؟

قام العالم بيبلز في العام ١٩٦٤م، انطلاقاً من فرضية الانفجار الأولي الكبير، بحساب درجة حرارة الإشعاع المتخلف عن الانفجار، وخلص إلى نتيجة مفادها أن درجة الحرارة تلك كانت بحدود مئتين وستين درجة تحت الصفر المئوي. كان العالمان آرنو بنزايس وروبرت ويلسون يجربان في العام ١٩٦٥م هوائياً خاصاً للاتصال مع التابع الفضائي تلستار.

لم يستطع العالمان على الرغم مما بذلاه من جهود، التخلص من ضجيج راديوي خافت كان الهوائي يتلقاه بشكل مستمر ومن كل الاتجاهات في القبة السماوية. لم يجد العالمان تفسيراً للظاهرة إلاّ حين علما بإنجاز العالم بيبلز. لقد اكتشف العالمان الإشعاع الكوني الخلفي الذي دُعي فيما بعد الخلفية الكونية الميكروية ذلك أن ذروة

❀ رئيس الجمعية الكونية السورية.

الأطوال الموجية للإشعاع تقع في القطاع الميكروي من الطيف الكهرمغنطيسي. قام التابع الصنعي COBE عام ١٩٩١م بقياس درجة حرارة تلك الخلفية وتبين أنها بحدود ٢٧٠ درجة تحت الصفر المئوي. لا ينطلق الإشعاع الكوني الخلفي من أي جسم، فقد نشأ بالأصل إثر الانفجار الكوني الكبير عندما كان الكون متموضعاً عند حدث متفرد من المتصل المكاني الزماني. لاشك أن ما يلاحظه الراصدون الأرضيون بشأن الإشعاع الكوني الخلفي، يستشعره أي راصد مهما كان مكانه وزمانه.

هل يعني ذلك أن الإشعاع الكوني الخلفي يشكل مرجعاً رصدياً مطلقاً عبر الكون بما يخالف نظرية النسبية التي تضع عند كل حدث كوني مرجعاً رصدياً مستقلاً قائماً بذاته؟ الإجابة بالنفي. فعلى الرغم من إمكانية تعريف مرجع رصدي ساكن بالنسبة للإشعاع الكوني الخلفي، يمكن بالمثل تعريف مرجع رصدي ساكن بالنسبة للنجوم القريبة إذ يرتكز هذا المرجع على الحركات المتوسطة للنجوم في جوار الشمس.

عندما يرصد الفلكيون الإشعاع الكوني الخلفي، فإنهم يقعون على الدفق الغزير من الالكترونات في المحيط الحار للكون إبان طفولته الأولى والتي تعيقها فوتونات الإشعاع المذكور مما يؤدي إلى انتثار الفوتونات وحصول حالة من التوازن الحراري للإلكترونات والفوتونات وإبقائها بالتالي عند درجة الحرارة نفسها. مع استمرار تمدد الكون وانخفاض كثافة الإلكترونات الحرة، اقترب متوسط الفترات الزمنية الفاصلة بين الانتشارات المتتالية للفوتونات بالإلكترونات من المعدل الزمني لتمدد الكون. هكذا أخذت الفوتونات بالتحرر من قبضة الإلكترونات.

لو بقيت الإلكترونات حرة، لبدأ انفصال الفوتونات عنها عندما كان عمر الكون حوالي عشرين مليون سنة، لكن بعد أن مضى على بداية الكون مليون سنة، غيَّر حدث عام عتامة الكون وجعله كوناً شفافاً. لقد بدأ التطور المستقل لكلٍ من المادة والإشعاع عندما انخفضت درجات الحرارة إلى الحد الذي سمح للإلكترونات الحرة بالاتحاد بنوى الهيدروجين والهليوم الوليدة مكونة ذرات متعادلة كهربائياً. أدى انخفاض كثافة الإلكترونات الحرة وما نجم عنه من زيادة في شفافية الكون وانفصال المادة والإشعاع عن بعضهما إلى انتشار واسع للفوتونات عبر الكون الجديد الشفاف. إن ما يرصده الفلكيون من فوتونات للإشعاع الكوني الخلفي هي الفوتونات الأخيرة

التي انتشرت إبان اتحاد الإلكترونات بنوى الهيدروجين والهليوم.

يعرف العلماء سطح الانتشار الأخير باعتباره السطح الكروي الذي تقع الأرض في مركزه وكانت الفوتونات الأخيرة التي انتشرت قد فعلت ذلك عند كل نقطة من نقاطه وانطلقت في كل الأرجاء الكونية بالغة كوكب الأرض. يُمكن أن يُعرف سطح انتثار أخير مماثل عند كل موضع كوني آخر. وفق هذا التعريف، يُنظر إلى سطح الانتثار الأخير باعتباره ستارة تخفي وراءها الأحداث الكونية التي سبقت اتحاد الإلكترونات الحرة بنوى الهيدروجين والهليوم الوليدة. لذا لجأ العلماء إلى أساليب غير مباشرة لسبر الأحداث الكونية الأسبق.

يؤكد العلماء أن الإشعاع الكوني الخلفي يتوزع بشكل متجانس في كل أرجاء الكون. يُعتبر ذلك بمثابة دليل قوي على الحالة الفيزيائية الاستثنائية التي سادت الكون إبان ولادته. أدى اكتشاف الإشعاع الكوني الخلفي إلى تغيير جذري في وجهات النظر التي كانت سائدة حول ولادة الكون، فعوضاً عن انفجار مادي هائل يحدث عبر فضاء محدد، ينفجر الفضاء الحاوي على مادة بالغة الانضغاط جاراً تلك المادة إلى مدى أوسع موزعاً بقاياها بشكل منتظم. إن التمدد الراهن للكون هو في حقيقته تمدد للفضاء يسحب معه المادة مما يؤدي إلى تباعد أجزائها عن بعضها. عندما انفصل الإشعاع عن المادة، وفق ما قدمناه، انطلقت الفوتونات حرة في كل أصقاع الكون حاملة معها كل المعلومات الخاصة ببنية الكون لحظة حدوث الانفصال. إن الناظر المتحرك مع الجسيمات الكونية يرى الإشعاع الأسود لهذه الفوتونات مكافئاً لدرجة حرارة تتجاوز عدة آلاف من الدرجات المئوية.

يعرّف الإشعاع الأسود بكونه المقدرة التي تكاد تبلغ حد الكمال لجسم معين في مجال امتصاص وإصدار الطاقة. إنه يعيد إصدار الطاقة التي سبق وامتصها. وعلى الرغم من أن إشعاع الجسيمات المذكورة يقع في قطاع الموجات المرئية، فإن السرعة الكبيرة لابتعاد الجسيمات عن الأرض تؤدي إلى انزياح نحو الأحمر من مرتبة ألف بالنسبة للطيف المرئي. يرى الراصد نبضات الموجات الصادرة عن جسم مبتعد وقد انزاحت نحو أطوال موجية أكبر فيما يعرف بالانزياح نحو الأحمر. هكذا ترتاح الأذن من الصفير المزعج لسيارة الإسعاف عند ابتعادها. تبعاً لما تقدم، تبدو الفوتونات موضوع البحث بدرجة حرارة تبلغ حوالى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر. سبق

أن ذكرنا أن محاولة قياس الإشعاع الكوني الخلفي تضع العلماء وجهاً لوجه أمام آخر رقاقة مادية نثرت ذلك الإشعاع وأن الإشعاع كان قد صدر عن أبعد نقطة تم رصدها وأنه سبق زمنياً في انطلاقه أية إشارة كونية أخرى.

من الطريف أن نذكر أن مكتشفي هذا الإشعاع دعياه بالإشعاع الكوني الخلفي لأنهما رأيا فيه مصدراً خلفياً للضجيج والتشويش على الاتصالات بالتوابع الصنعية. باتت هذه التسمية الآن تحمل معنى مختلفاً فهي الرقاقة المادية المشعة التي تقع خلف كل الأجسام الكونية ممكنة الاكتشاف. إنها أشبه بالحاجز الذي سيبقى العلماء عاجزين عن رؤية ما يقع خلفه إلى حين اختراع تقنيات أخرى لرصد الموجات الثقالية وموجات جسيمات النيوترينو التي انطلقت في وقت أبكر من تاريخ الكون.

لقد سعى العلماء إلى معرفة شدة الإشعاع الكوني الخلفي عند الأطوال الموجية المختلفة. كان الغلاف الجوي للأرض عقبة على الدوام في هذا السياق. أخيراً تم التأكد في أواخر السبعينيات من القرن الماضي باستخدام منطاد حلق إلى ارتفاعات عالية من أن الشدة القصوى لهذا الإشعاع تطابق التنبؤات النظرية المشتقة من نموذج الانفجار الكبير. أشارت بعض الأرصاد التالية إلى أن توزع هذا الإشعاع لا يبدو متجانساً تماماً مما يعني أن شذوذات كثيرة كانت قد طرأت، إذ إن هذا الإشعاع لا يبدو متجانساً تماماً مما يعني أن شذوذات كثيرة كانت قد طرأت إبان طفولة الكون. يسعى العلماء إلى إلقاء المزيد من الأضواء على هذه الشذوذات مستعينين بالتوابع الصنعية. واقع الأمر، إن دراسات كثيرة جرت لتفسير أسباب عدم التجانس وانبثقت فرضيات مغايرة فيما يتعلق بفيزيائية الإشعاع الكوني الخلفي. إما أن تكون الموجات الثقالية الطويلة هي المسؤولة وإما أن المادة في هيئتها الكتلوية قد خرقت حالة التجانس المطلق بينما كان الكون جنيناً.

تنتشر الموجات الثقالية عبر المتصل المكاني الزماني كما تنتشر الموجات على سطح الماء وتنجم الموجات الثقالية عن أحداث كونية بالغة الشدة كاصطدام الثقوب السوداء وتفجُّر النجوم هائلة الكتل.

ما أدرانا، فقد تكون حركة الأرض، أو ربما حركة الشمس حول مركز المجرة هي المسؤولة عن عدم الانتظام وفقدان التجانس. كيف يُمكن أن نفسر عدم التجانس على أساس الحركة المذكورة يا تُرى؟ وفق

مبدأ حركي بسيط، لاشك أننا نرى الإشعاع أكثر شدة في الجهة التي تتحرك الأرض نحوها وأضعف في الجهة الأخرى. الأمر هنا أشبه بسيارة تتحرك في طقس مطير. إن كمية أكبر من الهطل تصيب النافذة الأمامية مقارنة بالنافذة الخلفية. قاس العلماء سرعة الأرض بالنسبة لهذا الإشعاع معتمدين الشذوذات في توزيعه المتجانس المفترض فوجدوا أنها تساوي تقريباً ثلاثمئة كيلومتر في الثانية. خلص العلماء من ذلك إلى استنتاج مفاده أن كتلة كونية كبيرة تضم عدداً كبيراً من المجرات تنجز حركة تفاضلية بالنسبة للإشعاع الكوني الخلفي بسرعة تُقدر بحوالى خمسمئة كيلومتر في الثانية. لا يعني ذلك عدم وجود تفسيرات أخرى منها مثلاً أن الكون يدور حول نفسه بسرعة ضئيلة جداً.

إذا كان الكون يدور فعلاً فبالنسبة لأي مرجع تُنجز حركته الدورانية يا تُرى؟ تعود بنا هذه الأفكار والتأملات إلى مراجع نيوتن المطلقة. وفق نيوتن، الزمان والمكان مطلقان، فالزمان يجري من ذاته وبذاته، والمكان وعاء غير محدود ينطوي على كل الأحداث والأجسام.

ماذا لو كان الإشعاع الكوني الخلفي نجوماً هائلة البعد بالغة الكثافة تراها أجهزة الرصد كمتصل من الإشعاع. إن كان هذا التصور صحيحاً، يسهل إذ ذاك تفسير الشذوذات في الإشعاع الكوني الخلفي. هنا لابد من إعادة النظر بكل شيء، بما في ذلك نموذج الانفجار الكبير الذي قد يُستبدل بنموذج آخر الكون وفقه قد وجد على الدوام، أما تمدد الكون وما يترتب عليه من ازدياد الفراغات والفجوات في الكون، فيجري التعويض بتخلق القسيمات المادية من العدم، وهو أمر بات مقبولاً في الفيزياء الكوانتية.

نذكر في سياق بحثنا أن كميات هائلة من الطاقة تنبعث من نوى المجرات ناجمة عن أحداث تفوق الخيال حتى في إمكانية نمذجتها، كما تندفع من تلك النوى دفقات من الإلكترونات والجسيمات الأخرى. يتم رصد كل ذلك على خلفية الإشعاع الكوني الخلفي. لا تبدو هذه الأحداث في إيقاع ثابت بل هي تخبو أحياناً لتعود بأعنف مما كانت. لاحظ الفلكيون لدى محاولتهم تصنيف نوى المجرات أن تلك النوى تختلف من مجرة لأخرى ففي بعضها يفوق الإصدار الراديوي كل إطلاق آخر، بينما يهيمن اللمعان الضوئي في بعضها الآخر فتبدو كنقاط شديدة الإضاءة في الصور التي تلتقطها المراصد الكبيرة. يُشبّه العلماء نوى

المجرات بالمعجـلات الجسيمية الممتدة على الأرض مع فارق المقياس بالطبع. في كلا الحالتين هناك مجال مغنطيسي مركزي تطوف بـه الإلكترونات بسرعات تقرب من سرعة الضوء مصدرة طاقة عالية للغاية.

تختلف مناحي دفقات الإلكترونات التي ذكرناهـا عبر الفضاء، ففـي بعضها تصل سحابة الالكترونات في ابتعادها عن المجرة حتى سنة ضوئية واحـدة. السنة الضوئية، كمـا هو معلـوم، وحدة لقياس المسافات الكونية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في سنـة زمنية كاملـة مرتحـلاً بسرعته المعهودة (ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية) وتكافئ السنة الضوئية حوالى عشرة مليون مليـون كيلومتر. عندما نذكر مثلاً أن مجرة المـرأة المسلسلـة تبعد عـن مجرة درب التبانـة حوالـى مليونين ومئتـي ألف سنة ضوئية فيعني ذلـك أن الضوء يستغرق في رحلته من مجرة المرأة المسلسلة إلى الأرض التي تقع فـي مجـرة درب التبانة مليونين ومئتـي ألف سنة زمنية. بالتالي فإن الصور التي نحصل عليها لمجرة المرأة المسلسلة تمثلها كمـا كان وضعها قبل مليونين ومئتي ألـف سنة زمنية، فكلما أوغلت أرصادنا في الكون، عدنا بالزمن إلـى الوراء. نعود إلى دفقات الالكترونات من المجرات، في بعض المجرات، تبتعـد دفقات الإلكترونات حتى مئات الملايين من السنوات الضوئية.

حـار العلماء لمـدة طويلة بشـأن هذه السحـب المنطلقة من المجرات، إذ ظهرت وكأنها تندفع بسرعات أكبر من سرعة الضوء مما يخالف الموضوعة الأساسية في نظرية النسبيـة التي تعتبـر أن سرعة الضوء هي بمثابة حـد أعلى لكل السرعات في الكون. تبين بعد ذلك أن دفق الجسيمات المنطلقة من مركز المجرة باتجاه الراصد على الأرض تظهر وكأنها تسايـر الطاقة المنبعثة منها. يترتـب على ذلك وهم بصري يوحي وكأنما الدفقـة الجسيميـة تتحـرك بسرعة أكبر مـن سرعة الضوء. يلتقـط الغبار المحيط بالمجرة الطاقة العالية الصادرة عن المركز ويعيد إطلاقها في قطاع الموجات الحرارية بشـكل رئيسي ويسمح بذلـك بالكشف عن بنيـة الغلالة الرقيقة من الغبار التي تحيط بالمجـرة ومركزهـا. لا تصنف مجرة درب التبانة التي تنتمي إليها الشمس بكونها من المجـرات ذوات النوى النشيطـة، ذلك أن مركز مجرة درب التبانـة متوسط النشاط ويقبع فيه مصـدر راديوي هائل يمتد على رقعة تكافئ حوالـى ١٥٠٠ مليون كيلومتر، كما يحتل المركز ثقب أسود كبير.

المراجع

1- Silk, Joseph, The Big Bang, Third Edition, W.H.Freeman and company, New York, 2001.

2- Seife, Charles, Alpha & Omega, The Search for The Beginning and End of The Universe, Viking. New York, 2003.

3- Riordan; Michael, and Schramm, David N., The Shadows of Creation, W.H.Freeman and company, New York,1991.

4- Lemonick, Michael D., Before The Big Bang, Discover, February, 2004.

مع:
الأديب مالك صقور

إعداد: محمد خالد الخضر ❀



الأديب مالك صقور .. كتب القصة الواقعية بأسلوب إبداعي مزج فيه الأصالة والمعاصرة إضافة إلى ما استخدمه من رموز ودلالات أعطت لقصته شكلاً حديثاً هاماً كما أنه كتب عدداً من الدراسات في الأدب المقارن وكان أوَّل من أظهر أثر القرآن في أدب بوشكين.

- من خلال إدارتك لمجلة (الموقف الأدبي).. هل ترى الأدب بأنواعه مازال محافظا على حضوره على الرغم مما يدور؟

❀ أديب وصحفي سوري.

• سأبدأ بما ختمت به سؤالك: (على الرغم مما يدور)!

وأنت تقصد طبعاً الحرب على سورية والأحداث الدامية الموجعة التي دخلت سنتها الخامسة ومعك الحق، في القول: على الرغم مما ما يدور.

أفهم من سؤالك أنه على الرغم من هذه الحرب وما سببته من فجائع لا نهاية لها ومن شروخ نفسية، ما زلنا صامدين. وصمودنا جزء من صمود الشعب العربي السوري الذي يعض على الجراح .. يصمد .. يصبر .. يقاوم ..

أمَّا فيما يخص مجلة (الموقف الأدبي) فقد دخلت سنتها الرابعة والأربعين وقبل الحرب وفي أثناء هذه الحرب وعلى الرغم من كل الظروف الصعبة، والصعبة جداً. مازالت مستمرة بالصدور دورياً كل شهر وحاولنا على الرغم من انقطاع التيار الكهربائي وارتفاع سعر الورق وصعوبة التنقل إلى المطبعة وظروف الكتّاب الذين اعتادوا أن يرسلوا موادهم إلكترونياً، المحافظة على إصدار المجلة في موعدها.

أما عن الأدب وأنواعه فلا شك أن أغلبية الكتاب، لا بل جميعهم تأثروا بالحرب ومنهم من يقول لي شخصياً، لا أستطيع أن أكتب حرفاً، لكن الأكثرية تكتب. وفي رأيي، ازداد عدد الكتّاب، وازدادت الكتابات في جميع الأجناس الأدبية.

ولما كان (للموقف الأدبي) خصوصية منذ نشأتها حتى اليوم. فقط حافظنا على الأبواب الثابتة، وتم فتح أبواب أخرى، مما يؤكد أن الأجناس الأدبية، التي ننشرها في المجلة موجودة سواء في مجال البحث والدراسات أو في مجال الإبداع: شعر، وقصة، ومقالة، وقراءة نقدية.

أمَّا عن سوية هذه المواد المنشورة فهذا يتطلب رأي القراء، والنقاد. وأنا أقول دائما: ثمة طموح وواقع.

والمجلة تتجدد دائماً كما الأشجار بالتقليم والتجريب والتسميد ورفدها بمياه جديدة.

ولهذا نقرأ على صفحات (الموقف الأدبي) الأنواع الأدبية كافة ومن كل الأعمار.

- أي الأجناس الأدبية تراه أكثر حضوراً وما السبب برأيك؟

• لا أستطيع أن أجيب بدقة، عن هذا السؤال. فأنا من خلال قراءتي لمواد المجلة .أولاً، وقراءتي المتنوعة الأخرى ثانياً لا أرى جنساً يتفوق على جنس آخر. بمعنى، يزيد أو يزداد عدد كتاب القصة، عن الشعراء، والباحثين. ففي اتحاد الكتاب العرب توجد الجمعيات التالية: جمعية الشعر، وجمعية القصة والرواية، وجمعية البحوث والدراسات، وجمعية النقد الأدبي،

وجمعيــة أدب الأطفــال، وجمعية المسرح، وجمعيــة الترجمة .. ولــكل جمعية كتّابها. وهؤلاء جميعــاً يساهمون في الكتابة، سواء فــي النشر في مجلاتنا: الفكــر السياسي، التراث العربــي، الآداب العالمية، الأسبوع الأدبي، الأدب الغربي، أو في بقية المجلات مثــل المعرفة مثلاً. إضافة إلى الإصدارات التــي تصدرهــا وزارة الثقافــة، واتحــاد الكتّــاب. فالأجناس الأدبيــة موجودة كلها على صعيــد الدراسات والبحوث أو الكتابة في السياسة، أو في مجال الإبداع: كالشعر، والقصة، والرواية. وهذا يعني أن كل الأجناس حاضرة ســواء في الدوريات السورية بشكل عام أو في (الموقف الأدبي) خاصة. أحياناً يزيد عــدد القصائد، وأحيانــاً يزيد عدد القصص، لكن الحضور الأهم في رأيي هو للإبداع ونوعــه، وموضوعه، وقيمته الفنية، النوعية، وليست الكمية.

- لقــد تزايــدت كتابات الشعر، وبدأت تأخــذ أماكن مختلفة، مــا رأيك بهذا علماً أن هــذا الشعر لا يرقــى إلــى المستوى المطلوب؟

• في هذه العجالة، لا يمكنني أن أجيب هل هذا (الكم) مــن الشعر الذي ينشر وما هو مستــواه لأن ذلك يتطلب الوقت الكافي لقــراءة مجمــل هــذه الأعمــال المتزايدة ولكن مــا أستطيع قولــه الآن وبسرعة، إن بعض الشباب يتسرعــون بالنشر. لأسباب معروفة، منها: سهولة النشر وحب الشهرة، وإثبات الذات. ولكن الحكم على هذا الشعر يتطلــب الدراســة النقديــة، الموضوعية، التأني، والنقــد الجاد. لكن فــي رأيي، أن بعضهــم استسهل ما أطلــق عليه (قصيدة النثر) وهذا هو سبب سؤالك على ما أعتقد والإجابة عن هذا، تتطلب وقتاً طويلاً، لكن يمكننــي القول الآن: إن قصيــدة النثر، ما زالت تثير تساؤلات وهــذا المصطلح بحد ذاته إشكالــي. فبعضهم يطلق عليه (الشعر المنثور) وبعضهم يفضل (الشعر الحر).

وفي رأيي: إنَّ الشعر شعر، وإنَّ النثر نثر. منذ مدة نشرنا هدية مجلة الموقف (الأدبي كتاب) (الغربال) لميخائيل نعيمة. وأذكر أن ميخائيــل نعيمة قال في هــذا السياق: «إنَّ جهلنــا معنى الشعر الحقيقــي ومنزلته في عالم الأدب قــد أوصلنا إلــى ما نحن فيه الآن، من وفرة (النظّاميــن) وقلة الشعراء. وغنانا بالقصائد وفقرنا بالشعر».

تصور أن ميخائيــل نعيمة قد قال هذا الكلام قبل أكثر مــن تسعين عاما. أعتقد، أنَّ الزمن هو الكفيل بالغربلة. وليس بوسعي الآن أن أعطي حكماً جازماً، أو حكم قيمة.

- أنــت تكتــب القصــة .. هــل أثــرت الحداثة على القصــة .. وبرأيك ألا يوجد شكل ثابت لهذا الجنس الأدبي؟

• نعم أنا أكتب القصة. ولكن أنا مقل، على الرغم من أن لدي (الكثير) من القصص غير المنشورة، فأنا، قد بدأت أكتب وأنشر، ولن أتسرع بالنشر.

أما هل أثرت الحداثة في القصة؟

أقول: نعم، ونظرة عجلى لتطور الأجناس الأدبية. منذ الملحمة، فالرواية، فالقصة، يجد الباحث والقارئ أن تطوراً كبيراً قد أثر في أسلوب القص. هناك سمة العصر ومشكلات العصر، والمثاقفة، والترجمة، كل ذلك أثر في صقل ذوق القاص، وأسلوبه. فلا يمكن كتابة القصة، مثلاً كما كانت تكتب قبل مئة عام، ولا حتى، قبل خمسين عاماً. ولكن يجب القول: إن ثمة قصصاً قديمة عالمية، وعربية وسورية. أفضل، مما يكتب الآن. ليس بسبب القدم والمعاصرة، أو الحداثة. وإنما يعود ذلك، في رأيي إلى تناول القاص موضوعه. فالموضوع يختار شكله. ولا أعتقد، أن كاتبا ما، يجلس ليكتب قصته ويقول: إني أنوي أن أكتب قصة طويلة أو قصيرة، أو أني أنوي أن أكتب قصة حديثة أو معاصرة أو وسريالية، أو رمزية. مثلاً، عندي، يجب أن يكون في مضمون القصة(قصة)، وبعدها نقرأ القصة، لنعرف ماهيتها، هدفها، غايتها، موضوعها، وهناك عرف وتقليد، ولا أقول قانوناً أو قاعدةً لكتابة القصة، ولو كان ذلك، لكان في وسع الجميع، أو القانون، أن يكتبوا القصة.

في رأيي لا يوجد شكل ثابت للقصة. بل توجد معايير، ومعايير غير ثابتة لكتابة القصة. والأمثلة كثيرة.

- أنت كتبت دراسات وبحوثاً .. هل تراجع البحث الأدبي في رأيك؟

• نعم. كتبت دراسات وبحوثاً، ومقالات وزوايا صحفية أيضاً وما زلت .. وأنا من خلال متابعتي لجمعية الدراسات والبحوث في اتحاد الكتاب، وكذلك جمعية النقد أيضا، وما يصلني إلى المجلة من بحوث ودراسات وقراءات نقدية أرى أن البحوث والدراسات تطورت وثمة دراسات هامة وبحوث جادة في شتى المجالات. إن كان في مجال التراث العربي، أو في الرواية العربية، أو السورية، أو في نقد الشعر قديمه وحديثه، هذا إضافة إلى بحوث الأكاديميين في جامعات القطر الذين يغنون الحركة الأدبية. تكفي نظرة سريعة إلى مجلة الجامعة، لتعرف أن البحوث والدراسات بخير، وفي رأيي، أن الاجتهاد والجد والبحث في موضوعات جديدة هاجس الباحثين، والدارسين، والأكاديميين، ويجب الإضاءة عليهم والتوقف عند أعمالهم،

وإنصافهم. كما لا يجب أن نبخسهم حقوقهم وجدهم، وتعبهم.

- أنت على اطلاع بالأدب الروسي هل تأثر أحدهم بالأدب العربي بشكل لافت وهل تأثر الأدب العربي بالأدب الروسي؟

• نعم. أنا درست الأدب الروسي، درسته في جامعة موسكو الحكومية. بين عامي ١٩٧٠م و١٩٧٤م.

والأدب الروسي من أغنى آداب العالم. وهذا معروف للجميع. نعم لقد تأثر كبار الكتاب الروس بالأدب العربي، والثقافة العربية الإسلامية. وعلى رأس هؤلاء – شاعر روسيا الأعظم – بوشكين. الذي تأثر تأثراً عميقاً بالثقافة العربية – الإسلامية. وأعجب بشخصية الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم). وتقمص شخصية النبي.

ومن فرط إعجابه بآيات القرآن الكريم، كتب قصيدة طويلة من تسعة مقاطع بعنوان: (محاكاة القرآن). وهذا كان موضوع أطروحتي للماجستير في الأدب المقارن – لقد تأثر أيضاً بوشكين بحكايات ألف ليلة وليلة، وكتب ملحمته (روسلان ولودميلا) من وحي هذه الحكايات. كما كتب قصائد أخرى، مثل(ليلى ونافورة الدموع) كما تأثر الشاعر(ليرمونتوف) بالثقافة العربية والإسلامية وكتب قصيدة بعنوان: (غصن فلسطين) وتأثر شعراء آخرون بالوقوف على الأطلال وذكرى الحبيبة والحنين إلى أماكن في الجزيرة العربية كما تأثر تولستوي بأعمال كثيرة وقد نشرنا في كتاب الجيب الصادر مع مجلة (الموقف الأدبي) كتاب تولستوي: (حكم النبي محمد). يبين تولستوي في هذا الكتاب إعجابه بشخصية النبي والإسلام أيضاً. وهناك آخرون كثر.

وليس بوسعي أن أسمي كاتباً عربياً بمفرده تأثر بالأدب الروسي ولكن بوسعي أن أقول إن الترجمات الأخيرة للأدب الروسي منذ أربعينيات القرن الماضي وحتى الآن كان لها التأثير الكبير والواسع على الكتّاب العرب عموماً، فروايات دوستويفسكي: الأبله، والجريمة والعقاب، والمساكين، وغيرها كانت المنهل الثر لعدد كبير من الروائيين كذلك روايات تولستوي الحرب والسلم، والبعث وغيرها إضافة إلى روايات مكسيم غوركي خاصة، الأم. ولا يمكن أن ننسى أثر أنطون تشيخوف في مجالات القصة القصيرة. وكل من يقول لك إنه لايتأثر ولم يتأثر بما سبقه. سيكون كلامه غير دقيق .

لمحة عن الأديب مالك صقور

- ماجستير في الأدب المقارن.
- عضو اتحاد الكتّاب العرب.
- عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتّاب العرب.
- رئيس تحرير مجلة الموقف الأدبي.
- له العديد من المجموعات القصصية منها:

١- الجقل.

٢- حبة شجاعة.

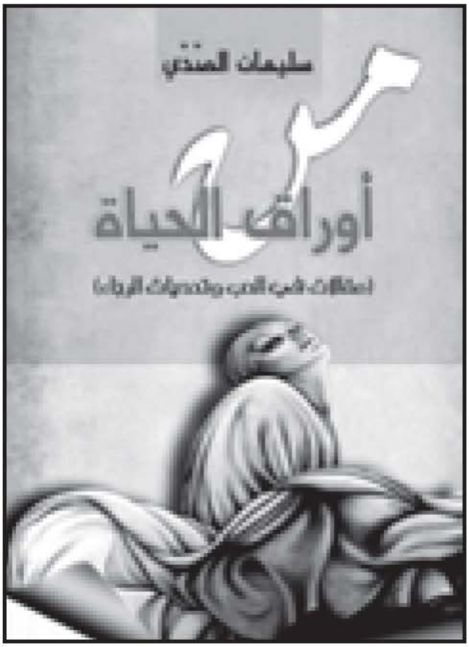
٣ - السماء ليست عالية.

٤ - درة.

- ومن الدراسات والنقد الأدبي:
- بوشكين والقرآن.
- كيف تعلمت الكتابة.

من أوراق الحياة

عرض وتقديم: د.غسان غنيم ❁



«إن أكبر بلد في العالم هو الشام، ورُبّ قائل: إنك لا تعرف شيئاً في الجغرافيا، وسأجيبه عفواً يا سيّدي، بل إنك أنت من لايعرف شيئاً عن التاريخ» (ص ١٧٣).

أحببتُ أن أبدأ تعريفي بهذا الكتاب وبصاحبه من هذه الكلمات التي تلقي ضوءاً على هذا الأثر وعلى من ألّفه ليكون سِفراً في الحب... الذي يبدأ بالوطن ويتسع ليشمل كل شيء في الكون والوجود... ليغدو حبّاً صوفياً يرى الله في كل شيء، ويعرف أن أسمى تجلياته تكمن في الحب والمحبة...

❁ مدير التأليف في الهيئة العامة السورية للكتاب، وأستاذ الأدب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق.

هي عصارة قلب أولاً وعصارة فكر... عانى وجرّب وخَبِرَ الألم والغربة والحب والفراق، واعتصر الألم وجدانه ووجوده على نكسات الوطن والأمة، وهي سجلّ دوّن أحلام بعيد عن حضن وطن رأى فيه الجنة، على الرغم من كل مافيه، هو الجنة بفقره؛ وخصبه؛ وحنانه؛ وقسوته؛ وربيعه وخريفه... وألمه وفرحه، بانكساره وانتصاراته.. إنه الجنة وانتهى...

تنقسم هذه الأوراق إلى أربعة فصول، وضعها المؤلف بين دفتي كتاب يحمل قصة حياة مليئة بالوجدان... والكفاح والحب والتشرد والغربة ولهذا كانت الأوراق أوراق الحياة، فهي ليست كتاباً في موضوع محدد وليست بحثاً في جزئية معينة، وليست قصة ومذكرات... بل هي أوراق الحياة المتناثرة التي تجمعها حياة مليئة، بكل ما تفيض به الحياة، وما تمنحه وتأخذه وتجود به أو تبخل...

والأوراق في الكتاب هي:

١ـ أوراق السياسة.

٢ـ الأوراق الوجدانية.

٣ـ الأوراق الفكرية.

٤- الأوراق الخاصة، وقد سمّاها الغزلية.

وقد احتلت أوراق السياسة المساحة الأكبر، حتى وصلتّ إلى أكثر من النصف بل ما ينوف.. عليه.. عالج من خلال هذه الأوراق عدداً كبيراً من الموضوعات الراهنة، ومن القضايا التي تمرّ بها المنطقة والوطن.

وكانت معالجات يغلب عليها الوجدان والحب لأرض الوطن، مع تحليل للأحداث التي تمرّ بها هذه الأرض من قلب محب ابتعد عن أرض الحدث ولكنه ظل متعلقاً بها.. غادرها ولم تغادره.

وربما كان الذي يرى الحدث من مكان مفارق له.. أكثر قدرة على قراءته قراءة دقيقة فيها الكثير من الحيدة والصحة.. يقول: «انتقلتُ في بلاد كثيرة وسكنتُ بلداناً كثيرة، لكن بلداً واحداً في الكون سكنني... إنه الشام عشقي الأزلي الذي لم يفتأ حبُّه ينمو في داخلي إلى أن تحوّل إلى غابة من المشاعر إنها الأم المزنرة بالياسمين» (ص٥ ـ ٦).

يتناول الكتاب عبر مقالات متفرّقة عدداً كبيراً من القضايا المطروحة أو مما طُرح.. كقضية الحوار التي رأى فيها أداة حقيقية للمعرفة من خلال مقالة عَنْوَنَها «سياسة الذئب والحمل» بمناسبة زيارة البابا إلى أرض فلسطين المحتلة «البابا بنديكتو السادس عشر» ليعلن موقفاً من الكيان الإسرائيلي وممارساته الإرهابية يقول: أردتُ أن أقول

له: إنَّ إسرائيل دولــة ذات مشروع توسعي، ليســت حملاً وسْط ذئاب كمــا تدّعي، هي لاتحب السلام، ولاتبحث عنه، إنها جيش له دولة، لا دولة لها جيش، لا تحاور بل تناور.. متمردة على قرارات الأمم المتحدة بحماية مــن رعاياهــا، أردتُ أن أذكّــرك يا قداسة البابــا أنه لا يوجد بيــتٌ فلسطيني إلا فيه شهيد، أو أسير، أو معوق.(ص١٠-١١)

ومما يثبــت تضمــخ الأوراق السياسية بالوجــدان وبالرؤية الرومانتية في عمومها تلــك المقالة التي عنونهــا «نيسان السلام والآلام» التي يتحدث فيهــا عما أثاره فيلم سينمائي عُرض فــي الجمعة الحزينة «هي الجمعــة التــي تسبــق عيد الفصــح لدى المسيحييــن» يجسّد آلام السيــد المسيح ومعاناته من أجــل البشرية.. ولكن المؤلف يتجاوز أحزانــه وآلامه ليتذكــر آلام شعبه العربــي، وآلام الإنسان أينمــا كان ورأى أن هــذه الأمة سوف تنبعث كمــا انبعث السيد المسيح من الجدث علــى الرغم من الآلام والأحــزان والمعاناة.. يقــول: «آلام السيد تذكّرني بعــذاب أبناء أمتي العربية... بآلام أخي الإنســان في العالــم.. الإنسان الذي يعاني الظلم والتشرّد، لأنه يقول الحق.. أو لأنه يدافع عن أرضه وشرفه» (ص ٢٣).

ممــا يلفت أن المؤلف قد خصص لعيد «الفصح» القيامة ولميــلاد السيد المسيح ثــلاث مقــالات متتالية كلهــا تتحدث عن المقاومــة والصمــود، وعــن معانــاة غزة وبيروت والعراق والشام وهي «نيسان السلام والآلام» «ولفصــح وطنــي وآلام المقاومة» و«كي لاتذهب دماؤهم هدراً..».

يقول: «..روحي فــداؤك يا شام.. ثبتٌ على الشجاعة والصمود رفعتِ الأستار عن المتخاذلين، دعوت إلــى فصح المقاومة.. نتعــزّى بالقيامة نحن أبناء القيامة.. تسير القدس في أوردتنا نحلم بالزمن الأخضر... من يسمو إليك يا وطني، يا غزّة ويا بيروت.. والعــراق والشام.. يا نــور الفصح من قلب المقاومة..» (ص ٢٦).

يتعطر الكتــاب والمؤلف كلاهما بحب الشام، وفي الأوراق السياسية تطغى رائحة الشام أرضها وشعبها.. وياسمينها، وسهولها وجبالها طغيانــاً واضحاً حتــى لتكاد تشمّ رائحة الياسمين وعطر سهول حوران وأنت تقرأ تلــك الأوراق، وترى عشقاً لا يضارعه عشق..

فثمة مجموعة مــن المقالات السياسية التــي تتضمخ بعطر حب الشام، وفيها مثلاً مقالــة يستعرض فيها المؤلــف بعضاً من وقائــع زيارة السيد الرئيس بشار الأسد إلى

فنزويلا ويذكّر بمقولته هناك: «إنَّ لإسرائيل مرادفـاً واحداً، هو الإرهــاب..» ثم ينطلق المؤلف إلــى التغني بالوطن «سورية» ويعتز أنه ينتمي إلى بلد الصمود والحق والمقاومة والشرف...

ويردف هــذه المقالة بأُخــرى يستذكر فيهــا انتصارات حرب تشريــن التحريرية؛ ويخرج إلى مقولــة «إذا كان شهر حزيران؛ شهــر النكسة؛ فــإنّ شهور السنــة كلّها هي شهور النصر والفرح والتفاؤل» (ص ٤٢).

ويــرى«أن لــدى الشعب إيمانــاً راسخاً بالانتصــار والابتعــاد عن ثقافــة الهزيمة والانكسار».

عرّج المؤلف نحــو فكرة الحوار فرأى أن الحــوار لابــد مــن أن يحتــرم التعدد والاختــلاف، وإلا فإنه حــوار أعرج ولكن الحوار عملية مفيدة جداً لأنها تتيح مجالاً للتواصــل، ولمعرفــة الآخــر والاعتراف بــه ورأى أن الحوار غيــر المفاوضة، لأن الأخيــرة تعنــي المساومة للوصــول إلى اتفاق.. يقول: «لابد من الحوار الذي يحترم التعــدد والاختلاف وقد لا تكــون نتيجة الحــوار تفاهماً تاماً حول قضايا خلافية، لكنها تفتح سبيــلاً للتواصل والتعرف إلى الآخر المختلف، والأهــم الاعتراف بهذا الآخر المختلف الذي قد يكون مكملاً لي، فالإنسان بطبيعتــه غيرُ كامل.. ولعل من أهمّ قواعد ثقافة الحوار، الاعترافَ بالآخر على أنه شريك له ما لي من الحقوق وعليه ما عليّ من واجبات» (ص ٥٠).

وما دام المؤلف مرتبطــاً بقضايا أمته وواقعها الراهــن، كان لابد له من الالتفات إلى ما سمي بثورات الربيع العربي، فيتحدث عن الثورة التونسيــة، ويسمي هذه الثورة بـ «ثورة الورد» ويتحدث عنها بإيجابية واضحة ويرى فيها ثورة الخبز والكرامة، وليس ثورة الخبز وحده.

أما الثورة المصرية، فقد سمّاها «عرس التحرير» نسبة إلــى ميدان التحرير البقعة التي تمــت فيها معظم وقائع هــذه الثورة، وقد طرحت هذه الثورة عدداً من الشعارات منها؛ الخبز والعمل والحرية، والديمقراطية ومحاربــة الفســاد، ومحاربــة التدخلات الغربية..

وقــد كان متفائلاً بثورة مصر؛ ورأى في مصر بعــد الثورة قوّة مؤثــرة في محيطها الإقليمــي قــادرة علــى إحــداث تغييرات حقيقية، يقول: «إننا على ثقة أن مصر بعد هذه الثورة ستكتسي حلة جديدة، وستستعيد قوتهــا وكرامتها ودورها في الوطن العربي، وستحــوّل موازين القــوى السياسية لصالح

حـــركات التحرر العربيـــة، إذا أيقن أبناؤها أنهم رسلُ النهضة». (ص ٥٩).

ولا ينسى ليبيـا؛ ورأى أن التبديل الذي يحقــق مطالــب الثائرين لا يأتـــي إلا عبر رؤية واضحـــة وإستراتيجية واضحة، ونظام اقتصـــادي اجتماعي سياســـي متكامل، ولا يكون ذلك من خـــلال الاستبدال بأشخاص أشخاصـــاً آخرين «فالديمقراطية السياسية وحدها لا تعنـــي كل شيء، ما لم تترافق مع ديمقراطيـــة تقوم على العدالة الاجتماعية، واستقلال القرار الوطني» (ص٦٣).

مثل هذا الـــكلام يؤشر إلى عمق الفكر الـــذي يتمتع بـــه المؤلف فـــي نظراته إلى الثـــورات التي سُميّـــتْ «ديمقراطية» وعلى الرغم من أهميـــة الديمقراطية السياسية، إلا أن ثمـــة أشيـــاءً أخـــرى لابـــد أن ترافق هـــذه الديمقراطيـــة؛ فـــلا ديمقراطية من دون استقـــلال القـــرار الوطنـــي؛ ومحاولة تحقيق العدالة بين الناس ورأى أن الحرية؛ لاتعني بحال من الأحوال الفوضى؛ بل تعني المسؤوليـــة، وتقبُّل حرية الآخريـــن أيضاً، وتعني الفكر الواعـــي والمسؤول والمستنير بالمعرفة.

وفي ظـــل الأزمة التـــي تعيشها سورية، وتعمـــل تركيـــا علـــى استرجـــاع دورهـــا العثماني..

وبسبب التدخلات الغربية في ما يحصل فـــي سورية، تحوّل الربيـــع إلى خريف ولم يعدْ ربيعاً تؤسس عليه الشعوب مصائرها، وتحـــدد مساراتهـــا وترســـم خطواتها على دروب التقـــدم والديمقراطيـــة والازدهار، بل صـــارت الشعوب أو جـــزءٌ منها، مجرّد أدوات لتنفيذ ما يخطط، ويُسعى لتحقيقه، ولهذا يخاطب أبنـــاء سورية بعضهم بقوله؛ في مقالة «نداء إلـــى أخي السوري» فليكن العقل رائدنا جميعاً؛ فخراب سورية، خراب للمنطقة كلهـــا، أناشدكم أيهـــا السياسيون في بلادي أن تعيدوا لنا الشام التي نحبّها، الشـــام التي تعرّشـــ في قلوبنـــا ... يا شام أفئدتنـــا تخفق شوقاً إليـــك، وعيوننا تدمع حزنـــاً عليك، ولا نجد طريقة لالتئام الروح والجســـد على ترابك الطاهر إلا بالحوار.. (ص ٨٦ - ٨٧ - ٨٨).

إنَّ الأزمـــة التي تعيشهـــا سورية، ليست محلية أو إقليمية، بل عالمية وهذا ما يؤكده في مقـــالات عدّة تتناول هـــذه الأزمة منها مقالة بعنوان: «هـــل الأزمة السورية محلية أو عالمية»؟!

فالجـــزء الأهم من هذه الأزمة يعود إلى تضارب المصالـــح الدولية في المنطقة ثم ينقل مقولة كوفي عنان:

«الأزمة السورية لا تخص سورية وحدَها بل المنطقة.. وحتى العالم..» (ص ٩٤).

ومقولة لافروف: «إن ما يحصل في سورية هو الذي سيقرر منظومة العالم الجديد» (ص ١٠٥).

فما يحصل في سورية ليس مجرد شأن داخلي، وليست مجرد قضية حريات، بل هي قضية نظام عالمي جديد بعد ما تراجع النفوذ العسكري الأميركي نوعاً ما.. عن أفغانستان، والعراق، وبروز الصين لتكون إحدى القوى الاقتصادية الكبرى في العالم، فبسبب هذه الأزمة سوف تظهر تحالفات جديدة على المستويين؛ الإقليمي والدولي.

وهنا لابد من الوقوف عند أردوغان وحزبه وموقفه من سورية ويستشهد المؤلف بقول أردوغان: «يسألوننا عن سبب انشغالنا بسورية، الجواب بسيط للغاية..لأننا بلد تأسس على أسس الدولة العليّة العثمانية، نحن أحفاد السلاجقة.. نحن أحفاد العثمانيين..» (ص ١١١).

رأى المؤلف أن الإرهاب مرتبط بعضُه ببعض.. من مالي إلى ليبيا ونيجيريا.. وتونس.. ومصر..والعراق.. وسورية.

وأن العالم يتعامل بازدواجية حين يحاربه في مالي ونيجيريا ويؤيده في سورية، وأن ما يقوم به هؤلاء ليس بسبب دوافع سياسية أو أخلاقية أو دينية، بل لأهداف فردية أنانية خدعتهم بها مؤسسات وهيئات وبلدان ودفعتهم للقيام بما قاموا ويقومون به وقد عرض لذلك في مقالة سماها: «إنهم يريدون حورية».

ولا ينسى دور الإعلام والحرب الإعلامية الظالمة على سورية.. والحديث عن دور المبعوث الأممي، ومبعوث الجامعة العربية الذي يسميه الأخطر الإبراهيمي «بعد تصريحات غير موضوعية، صدرتْ عنه تتعلق باستبعاد السيد الرئيس عن المرحلة الانتقالية التي وردت في اتفاقات جنيف»...

تقوم تقنيته في كتابة الأوراق السياسية على البدء بمقدمة تطول أو تقصر، قد تتوسل حادثة تاريخية أو بيتاً شعرياً قيل بمناسبة معينة وكل ذلك يكون على ارتباط بفكرة المقالة، ثم الدخول إلى فكرة المقالة ومعالجتها كما يلحظ ارتفاع حالة الوجدان في معالجة أوراقه السياسية، وهذا ما جعل هذه المقالات تحمل قيمة أدبية، إضافة إلى قيمتها السياسية، وربما يكون هذا هو السرّ في استمرار الاهتمام بها، فالمقالات الصحفية، وخاصة السياسية منها ترتبط بما هو آني، ويومي، وعابر، وذلك لتسارع الأحداث وانتقالها وعدم جمودها وتتابعها، ولكنّ هذه المقالات تحمل قيمة أدبية

واضحة، بما تضمنته من جوانب وجدانية واضحة، جذبتها نحو الأدب وأنقذتها من الآنية والعبور.

ثانياً - الأوراق الوجدانية: وهي أوراق تفيض رقة وحساسية، وهي حديث قلب يتفجع في غربته حنيناً وأنيناً على الوطن، بل على كل شيء حميم، حديث يرى الوطن بعين مهاجر، فلا يرى فيه إلا الفرح.. فيحزن لبعده عن الفرح. وتشتعل الذكريات فينثني على كبدٍ من خَشيةِ أن تصدّعا ..، ولا يجد تعليلاً عن الفقد سوى أن يقول: ربما خلف السطور؛ صحيح أنني ابتعدت عن جنتي، وطني، سوريتي الحبيبة، ولكن الوطن يعيش فيّ أنقله في خافقي، ملء صدري وأنفاسي.

من قال إن الوطن بعيد ؟!

إنه فيّ ينبض حيث القلب بل ربما هو القلب ذاته.

الأوراق الوجدانية لدى المؤلف، مجموعة أوراق، تحكي حكاية مغترب جاب الأرض، وترك قلبه معلقاً ببضعة أحجار تزنّر بيت العائلة في حوران، في جنّتٍ علا باب المضافة، وبقنطرةٍ حجرية كانت شاهدة على كل شيء ألِقٍ وحنونٍ وبريء، ومملوءٍ بالغبطة والفرح، في رائحة القهوة المرّة العابقة برائحة الهال.

إنه حديث الذكريات والحنين، فكلما طال زمن الابتعاد عن الوطن، صار الوطن أصفى وأنقى وأعذب.

وصار جذوة تشتعل في القلب، تؤججها كل نأمة تخطر في الذاكرة.. ويستعذب المرء مقولة «سقى الله» وإن كانت الأيام التي يُحِنُّ إليها ليستْ خلْواً من المرارة بألوان طعومها.

«منذ ثلاثين عاماً بدأتْ غربتي، كان جرحي لا يزال طفلاً، وحزني لا يزال وليداً.... وكنتِ لي.. يا شآمي شمع نذوراتي.. ومقام روحي... أستمدّ وجودي من وجودك وأتخلّدُ باسمكِ.

أبصرت فيك وجه أمّي وفي عبق الياسمين دلّتْ عليكِ صلاتي».(ص ٢٠٥).

«حزني يا شام أكبرُ من أيامي... في عينيك بَسَمَ ربّي،... فمن مكان غربتي أردّدُ وأفتخر.. أنا عربي شآميٌّ ولقبي زيّنَ التاريخ». (ص ٢٠٦).

تعرضُ الأوراق الوجدانية قلباً فطرته الغربة والبعد ففَاضَ أسى وانفطرتْ حبات دمائه لؤلؤاً لسبحة حزن وتوق ليجد أن أجمل ما في الوجود هو الإيمان والحب والسلام.. بعد سندبادية ملأته بالتجربة ليعود كما عاد جلجامش من رحلته مؤمناً أن

عيني أطفاله تهبه الإيمان.. وضحكة زوجه تهبه الحب، وجدران بيته تهبُه السّلام.

وإذا حضر حبٌّ الوطن، لابدّ أن يحضرَ كلُّ حبّ..

فأفردَ في هذه الأوراق مساحة عريضة للحب، يقرؤه ويفلسفُه، يحاول تعريفه فيجده «مفتاحَ أسرار الوجود، به نحيا ومن دونه لا معنى لوجودنا فحين ندركُ الحبَّ الحقيقي، نعرف الله» (ص ٢١٧).

إنه الحبّ، فثمة شيءٌ واحد ووحيد يعطي الإنسان إنسانيته.. هو الحب، فكل ما في الطبيعة قائمٌ على قانون الألفة والحب فلا قوة أعظم من قوة الحبّ في الكون.

ثم يصرّح بعد صولات وجولات بأن الحب لا يُعرّف، ولا يعرف إلا بالمعاناة، وهي مقولة ابن حزم الأندلسي.

ولكن «الصدّي» يرى أن كل دروب الحب تقوده إلى الشام الوطن فسرعان ما يرجع في مقالة «وقال الحب» إلى حبّ الشام «أحبُّكِ يا شام، وكم أتمنى لو زرعوني زيتونة في أرضكِ، وعلّقوني قنديلاً على بابك...» (ص ٢٢٥).

وفي «حزن عصفور مهاجر» يفيض الحب فيصرخ: «شآمي.. أنتِ وحدك عمري وروحي.. وروحُ شعري.. إنكِ أنت.. بَدءُ جروحي، ولهيب احتراق إلى عمق روحي..» (ص ٢٣٧).

تختلف التقنية الكتابية في هذه الأوراق الوجدانية.. حيث يختصر المقدمات، بل يتجاوزها - غالباً - ويهرب منها، ويباشر موضوعَهُ دفعةً واحدة، فعندما يفيض الوجدان، تضيق مساحة التفكير والتخطيط ويلح الموضوع بحضوره العاطفي، فيسرع إلى سكبه من دون مقدمات أو تخطيط، لأنه يريد أن يتخلّص من الشحنة الوجدانية.

ثالثاً - في أوراق الحياة الفكرية: يعالج مجموعة من الموضوعات التي تلامس الفلسفة، ولا تدخل إلى سراديبها المعقدة، بل يعالجها بنفس الأديب الحساس، وبعقلية التجربة المختزنة، ليخرج بتجربة تمتع، وتفيد ولا تؤرق وتتعب، ففكرة الزمن التي أتعبت عقول الفلاسفة والمفكرين، يعيد طرحها في مقالة «الإنسان والزمن» ويستعرض ما قاله الشعراء وبعض المغنّين الغربيين «شارل أزنافور» يتناول بعدها فكرة عزوف العظماء عن الزواج، أو تعثّرهم فيه وعدم نجاحهم.. وفاته أن المبدعين، طينةٌ أخرى، تبدو المرأة ملهمتهم وربما واحدة من أسرار إبداعهم وإبداعاتهم، شريطة أن تبقى بعيدة، وفكرة ما إن نقترب حتّى تحترقَ الصورةُ البهية وتتكسر صورة

المثال، وتحضر الأنثى التي تفرق في الجزئيات بينما يهيم المبدعون بكل ما هو كلّي وشامل..

ولعلّ من بين أهم الأوراق الفكرية، مقالة «الفكر التربيعي والفكر التدويري» التي يجدُ فيها أن «أهمّ ما يجب علينا فعلهُ، الانفتاحَ الواعي على الآخر، لأخذ ما يفيدنا منه، وأسوأ ما يمكن أن نفعله أن ننغلق على أنفسنا، ونظنّ أننا محور الكون، وأنّ كلّ ما عدانا خارج الحياة والتاريخ» (ص ٢٨٩).

رابعاً - أما الأوراق الغزلية: ولا أدري لماذا فصلها عن الأوراق الوجدانية، فيعود إلى الحب الأزلي كما يسميه، حبِّه للوطن ولأرض الشام ولقريته «إزرع» الخير أم البساتين كما يسمّيها أيضاً.

يحلم بالعودة إلى حضنيهما عبر حنين مضمّخ بالحزن، يفيض ليجعل من الوطن جنة مبرّأة من كل عيب أو نقص.

«وطني أرض نقية طهور، لا تغربُ فيها الشمس، ولا يهرم فيها رجل أو تشيب امرأة، لا يأكل فيها ذئبٌ حَمَلاً، وطني لا ينعق فيه غراب، لا يفترس فيه ذئبٌ أحداً، وطني أرض نقية طهور..» (ص ٢٩٥).

إنه الجنة، هو مثالٌ، قد يفوق الجنة الموعودة، وحضوره أصدق من حضورها في وجدان المؤلف، إنه أوّل الحبِّ وآخره..

«يبدأ الوطن حيث يبدأ الحب، وينتهي حيث ينتهي» (ص ٣٣٢).

وفي أوراق الغزل يحضر الوطن مع الحبيبة «أريد العودة إلى الوطن، أريد العودة إلى حبيبتي السورية..» (ص ٢٩٤).

أتذكر أقحوان بلادي وحبيبتي التي تركتُها وديعة في حضن الشام(ص ٢٩٧).

و«حبيبتي الشآمية...تسبح في أوردتي وتشرع سفينتها في شراييني..» (ص ٣٠١).

فالحب معجون بطين الوطن وشذاه وعطره وحضور المرأة.. في هذه الأوراق يكاد لا ينفصل عن الوطن، حتى في الحلم تحضر تلك السمراء الشآمية، الدمشقية، ويؤكد أنها شآمية لأن الصفة في هذا المقام، اسم للوطن «لي في الشآم حبيبة.. تسكن مع الشام في قلبي.. لها من جبل قاسيون شموخه.. ومن سهل حوران نقاؤه.. تَزيَن خصرها بياسمين الشام وتلوّن شفتيها بورده الجوري» (ص ٣٣٥).

إنها أوراق تتفجّر بالوجدان، لتغزو الوجدان، لغتها ليست لغة الصحافة بل لغة الأدب، وهذا ما يهبها خصوصيتها، فيميزها من المقالة الصحفية «حبيبتي الشآمية تعيش معي، تسبح في أوردتي وتشرّع سفينتها في شراييني..» (ص ٣٠١).

«لو قُدّر لذلك القلب الذي فاض بالحبّ المقدّس أن يُجــرح لشَهِدَ العالمُ كلُّه كيف يسيــل دمي ودمك علــى طاولة الجراحة» (ص ٣٠٧).

هــي أوراق تضمّنت الوطــن والحنين، والحــب والألم، والحزن والفــرح.. لتضمّ حياةً تشردت في غربة دامت حوالى نصف قــرن، وتضمخت بكل ماهــو حميم وأليف، عابق بالحب والمحبة.

أوراق لا تغلــق لأن صاحبهــا يجــد في فعل الكتابــة حياة، حقيقيــة ولذلك يختم كتابــه «حتى لا أنتهــي.. سأكتب مجدداً» (ص ٣٣٧).

هــذا هو سليمــان الصــدّي، فتى غادر الوطن، ولــم يغادره الوطــن.. هجره ولكنه ظل عالقاً في داخله، ليخوض غمرات حياة مفعمة بألــوان التجربة فينهكه حبُّ الوطن، فيرجعُ ليلثم ترابه، ويشمّ عبق ياسمينه ويراه أمه... ووجهها الذي حمله تميمة عبر أصقاع الدنيا.. وطنــاً آل على نفسه ألا يستبدل به أوطاناً وجناناً... إنها حياة وليست أوراقاً.

نافــذة على

إصــدارات جــديدة

إعداد: حسني هلال ❀

قبل الغروب



يأتــي الشاعر محمد حديفــي إلى ساحات القصيــدة ساحباً تلال خــذلان وأسى، علقت بعباءة روحه، فألــف مرّها، مترنماً بأناشيدها، مما لوّن مجموعته الشعرية هذه بأصوات رنين خاص..

يكتــب محمد حديفي فيكشــف باب القول على فضاء تجرّ فيه عربات الكلام صناديقها، هاتفة بأنَّاتها بين تلالها وأوديتها..

هــذه المجموعــة الشعريــة، غــير مكتوبة للعتاب، أو الشكوى، أو النحيب، أو أي باب من هذه الأبواب المتفق على آلامها. إنها أنّة شاعر قبل الغروب بدمعتين..

❀ أديب وصحفي سوري.

الأسطـــر أعلاه هي للدكتور راتب سُكَّر، وقد نقلناهـــا من على غلاف مجموعة الشاعر محمـــد حديفي، الصادرة حديثـــاً عن اتحاد الكتَّاب العرب في دمشـــق، بعدد صفحات يبلغ /١٢٥/ صفحة من القطع الوسط:

- **قبل الغروب بدمعتين**
- **شعر محمد حديفي**
- **إخراج وفاء الساطي**
- **تصميم وسام المصفي**

من أشعار المجموعة:

حينما يصبح سقف المجد
أعلى
من فراشات القصيدة
ويحار الشعر في أي حقولٍ
يتجوّلْ
قف قليلاً..

❁ ❁ ❁

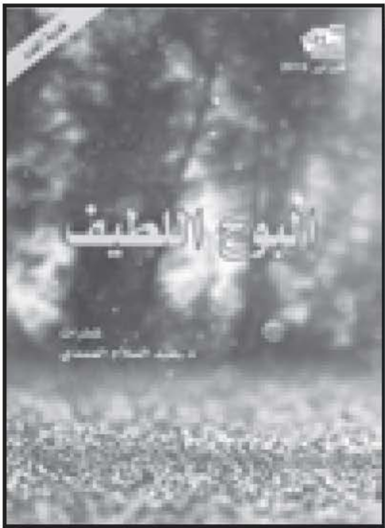
البوح اللطيف

الكاتب: عبد السلام المسدي
الكتاب: البوح اللطيف
النوع: شذرات
الدار: الصدى/ دبي

يقع الكتاب في قرابـــة مئتي صفحة من القطع الوسط، ضمّنه المؤلف الدكتور عبد السلام المسدي طاقة غنية جميلة وعطرة من شذرات إبداعه في الشعر والقصّ والنثر والنقد.

يقول «المسدي» في استهلال كتابه:

ليس هذا بشعر الشعراء
ولا بنثر الناثرين
إنه من المضنون به على غير أهله
يدركه الحسّ ولا تأتيه الصفة.



من عنونات الكتاب الداخلية:

مواقــف، الجنــون، لوحة، المشهــد، يوسف، الحائــرة، المرايــا، مَنْ أنــا، ألم الهجــران، رحلة الكشف، وأوتار الجوى.

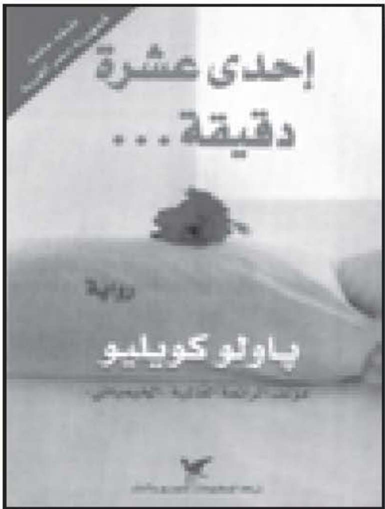
مما جـاء على لسان «المسدي» في أحد النصوص:

ربمــا كان من حق هــذه الصفحات ألّا تكتب إلّا بعــد أمد، بعد عقد أو بعــد عقدين، ولكنني أخطها الآن وأحَلّي أحرفها بمداد وردي، فكل ما فيها كان يمكن أن ينتظر إلاّ أمراً واحداً، هو هذا الامتزاج الذي أعيشه في أعماق النفس، فلا أحد يضمن بقاءه على ماهو عليه.

❁ ❁ ❁

١١دقيقة..

صـدرت حديثاً عـن شركة المطبوعـات للتوزيع والنشر في بـيروت، رواية جديدة لـ (باولو كويلو) بعنوان «إحدى عشرة دقيقـة».. وهـي طبعـة خاصـة بجمهوريـة مصر العربيـة. ترجمـت الروايـة التـي تعـدّ صفحاتها /٢٧١/ صفحة من القطع الوسط، ماري طوق.



يعالج صاحــب «الخيميائــي» في روايته الراهنــة موضوعــاً حيويــاً هامــاً وجريئاً، مثلمــا عوّد قُــرّاءه في معظــم أعماله، وهو ما اصطلح على تسميته: أقدم مهنة في تاريخ

الإنسان. ونظراً إلى الحساسية الخاصة التي يتمتع بها موضوع الرواية في غير قليل من المجتمعـات، ومنها مجتمعنا العربي، فقد حرص المؤلـف على شدّ اهتمام القارئ على اختلاف مشاربه ومذاهبـه، بأسلوبه الممتع الشفاف والراقي، ومن غير ألفاظ خادشة.

يقول باولو كويلو في غلاف الراوية:

– حتى أكتب عن الجنس كان عليّ أن أفهم لماذا دنِّس إلى هذا الحدّ.

– بعضـ الكتب تدفعنا إلى الحلم، وبعضها الآخر يعيدنا إلى الواقع. ولكن لا مجال للتهرب مما هو الأهم بالنسبة للكاتب: الأمانَة فيما يكتبه.

❁ ❁ ❁

قصص عصام حسن

– **عصام حسن**

– **الحرب ومربى الفريز والربّ**

– **أرواد للطباعة والنشر**



عـبر كتابه الجديـد الصادر مؤخـراً عن دار أرواد في طرطوسـ، يقـدّم الأديب «عصام حسن» لقرّائه /٢٣/ قصـة، موزعة على /١٧٢/ صفحة متوسطة القطع.

من عناوين القصص:

سيرة مجتـزأة من سيرة أشمل وأعـمّ.. إهداء من محمود درويش.. حزام الأمان المزهّر.. حمودة الصغير.. عكـرة بكرة.. رشيـد الكاين.. قصص نعمة.. وأم عاطف..

بأسلوبـه الشعبـي الفصيح، وعباراته الذكيـة، ينتقل عصام حسن مـع ضيوفه القرّاء، في حدائـق الحياة، من شجرة إلى شجرة ومن زهرة إلى زهرة، فيها من الألوان مختلفها ومن الثمار أنواعها.

ومن أجواء قصصه، المقطع التالي، من قصة «إخراج قيد لصديقي الذي مات»:

نتالي، ذات الجنسية الأميركية، من أب سوري وأم بريطانية، عاشت طفولتها ومراهقتها في الولايات المتحدة، وعادت منذ فترة إلى مسقط رأس والدها «دمشق» لتتعرف إلى هذا الشرق العجيب. كانت تجيد اللغة العربية بشكل لا بأس به، بفعل إصرار والدها ورغبته في إبقاء تلك الجذوة من الأمل، متمنياً أن تعيدها يوماً إلى الجذور، حيث قبور الأجداد.

❁ ❁ ❁

قربان الحب

الكتاب: قربان الحب

الكاتب: تاج مصطفى عبيدو

مازن هنيدي شقير

الغلاف: كنان رشيد

اللوحة: عصام الشاطر

الدار: ليندا للطباعة والنشر والتوزيع



عن «دار ليندا» في السويداء صدر هذا العام ٢٠١٥م كتاب تحت اسم «قربان الحب»، وهو كما ظهر على غلافه الأول، رواية. وقد جاء على الغلاف الثاني للكتاب، الكلمات التالية:

اعتلى المنصّة بخطى ثابتة
وفي كل خطوة
كانت تردد جبال الأرض صداها
كأنها تصرخ!
بريء.. بريء..
وسط سكون الألسن

وشرود العيون، وحدها القلوب

كانت تعزف، لحن الوداع الأخير.

حلق عالياً يا طائر الفينيق

وادخل قلوب الناس

كلّهم يعرفون الحب

يتألـف الكتـاب من مئة صفحة مـن القطع الوسط، تتوزع علـى تسعة فصول: لحظات هاربة، موت وولادة، أبو هاني وعائلته، العودة إلى القرية، الصيف الجديد، الجريمة، القرار، الخطة، الحقيقة.

❀ ❀ ❀